ذاكرة الشعوب ٢

كين كيسي

طيران فوق عش الوقواق



ترجمة
صبحي حديدي

كين كيسي

طيران فوق عش الوقواق

One Flew Over The Cuckoo's Nest

رواية

نقلها الى العربية
صبحي حديدي

المحرر: الياس خوري



مؤسسة الأبحاث العربية ش.م.م.

* كين كيسي: طيران فوق عش الوقواق.
* الطبعة العربية الأولى، ١٩٨١

* الناشر: مؤسسة الابحاث العربية، ش.م.م.
ص.ب ٥٠٥٧ـ١٣ (شوران) بيروت ـ لبنان.
هاتف ٨٠٤٢٥٧ـ٨١٠٠٥٥. تلكس ٦٣٩ـ٢ دِلتا.
* التنفيذ الفني: «دار المثلث» ش.م.م. بيروت ـ لبنان
* يضم هذا الكتاب الترجمة الكاملة لرواية:
Ken Kesey: One Flew Over The Cuckkoo's Nest

مقـدمـة

أمام رواية كين كيسي «طيران فوق عش الوقواق»، يشعر القارىء بالحيرة والخوف الحيرة أمام هذا التوازي المدهش بين مستشفى الأمراض العقلية والمجتمع، والخوف من هذا الخيالي الذي هو أكثر واقعية من الواقعي وبين الحيرة والخوف، يسرد الزعيم برومدن، بلغته الشيزوفرينية التي يلفها ضباب الرؤية الممزقة، مأساة ماكمورفي والآخرين، مأساة المجتمع الأميركي، من خلال عينة صغيرة، تجتمع في مستشفى الأمراض العقلية، ويقدم لوحة متكاملة عن مأساة الانسان المعاصر داخل كابوس القيم الرأسمالية

رواية كيسي، هي جزء من صيحة الستينات، تلك الصيحة التي ارتفعت مع الاحتمالات الكبرى، التي فجرها سلاح النقد في وجه السلاح المرفوع في فيتنام وهي بهذا المعنى تقدم شهادة عن الأدب الذي يرى ويشهد

نحن، مع أبطال ـ ضحايا الرواية، في المستشفى، والجنون هو مجرد كناية عن الواقع الاجتماعي جنون حقيقي وكناية عن مجتمع الاصحاء الذين يعيشون الشروط نفسها كأن الرواية تريد أن تقول الواقع الاجتماعي، من خلال قراءته في هامشه في مستشفيات الأمراض العقلية أو في السجون أو في حياة المهمشين، هناك تنكشف العلاقات المعقدة التي تحدد أواليات السلطة والسيطرة في المجتمعات الحديثة كأن الرواية، هي بشكل ما، تطبيق ملموس للافتراضات التي بلورها ميشال فوكو، في بحثه عن فهم المجتمع الحديث غير أن كيسي يقع منذ البداية في اشكالية افتراض التوازي، وهذا، ربما، هو الذي يجعل من البعد المتعدد في روايته، ينحني لمصلحة الرؤية الواحدة، التي تقوم بتوظيف جميع العناصر التفصيلية في سبيل تأكيد فرضياتها لذلك، فاننا لا نعثر على ابعاد مختلفة للشخصية الواحدة، وسوف يبرز هذا بشكل خاص في شخصية الآنسة راتشدت

المرضة التي تمثل السلطة فإنها تستحيل إلى سلطة محضة ، ويستحيل الآخرون إلى ضحايا محضة هذا الاستقطاب الذي يتمثل في شخصية برومدن وراتشدت ، يدفع بالرواية الى اختزال أبعادها الملحمية ، لتصبح شهادة على الزمن ، وليس بحثاً فيه عن الأواليات المعقدة للزمن الاجتماعي

كيسي يبحث ، ومن الواضح ، أنه في حشده هذه الكمية من الشخصيات المختلفة ، وفي محاولته البحث داخل ذاكرة برومدن ، يحاول أن يقدم بحثاً تاريخياً عن هذا المجتمع الأميركي ، الذي يستحيل مع الكولونيل ماتيرسون ، إلى ما يشبه الهذيان الفاضح ، أو مع بيللي بيبيت الى شعور بالعجز والدونية الدائمين

هل يريد كيسي ، من مجتمعه الصغير هذا ، أن يكون صورة مصغرة عن المجتمع الأميركي الكبير ، أم أنه يبحث في المصير الانساني ، ويكتشف مع ماكمورفي وبرومدن عبث المجتمع الحديث ، وضرورة الهرب منه ؟ أم انها رواية عن الجنون المعاصر وعن علاقة هذا الجنون بالمجتمع ؟

الرواية لا تجيب على هذه الاسئلة ، بل تتركها معلقة في فضاء البحث ، وتترك الشخصيات في معاناتها الدموية ، تواجه آلة القمع ، ولا تستطيع منها خروجاً لهذا تنفتح رواية كيسي على أكثر من احتمال وأكثر من امكانية تأويل ، فهي ، حين تراعي الدقة الكلينيكية في وضعية المرضى ، حيث أقام كيسي فترة في مستشفى للأمراض العقلية قبل أن يكتب روايته ، فانها تقدم صورة واقعية عن نزلاء هذه المستشفيات ، لا يتم إختراقها إلا من ثلاث زوايا عبر برومدن ابن الزعيم الهندي الأحمر ، وماكمورفي الصحيح العقل والهارب من الأشغال الشاقة إلى المستشفى وبالآنسةراتشديت، المرضة ـ السلطة ـ القمع هذه الزوايا الثلاث هي التي تقوم بفتح هذا العالم الحقيقي إلى الحقيقة الأكبر الى المجتمع وهنا تدخل الرواية في صراع وتوتر داخلي ، وتقوم تداعيات برومدن المدهشة بانقاذها من المباشرة ، ووضعها في سياق حلمي ـ واقعي

□ □

التوازي في الرواية بين المجتمعين الصغير والكبير يبدو مدهشاً في مطابقته

السلطة المباشرة عبر الممرضة والسلطة الغامضة عبر الضباب   الهندي الأحمر الذي يفقد النطق والسمع ويصبح مكنسة ، السود الثلاثة الذين يشكلون اداة السلطة ، الكولونيل المتقاعد والفنّيين والبحّار وماكمورفي   ماكمورفي هو الأميركي الأبيض العادي ، المواطن العادي الذي يكتشف في لحظة مفاجئة أنه يتحول إلى رمز والرمز يصارع ضد نفسه وضد السلطة في آن   انه الأميركي ، الصاخب ، المقامر ، الذي يسعى إلى الربح المادي السريع والراحة   لكنه يكتشف البديهي ، فجأة   البديهي الذي ينكشف من خلال سلطة الممرضة القمعية وتزييفها الدائم للديمقراطية ، البديهي ، من خلال اكتشافه أن الهندي الأحمر يستطيع أن يسمع ويتكلم وأنه ليس مجرد مكنسة ، لكنهم سرقوا الكلام منه   البديهي ، من خلال محاولته اعادة الثقة الى الهندي الأحمر بجسده ، فهذا العملاق كان يشعر ، نتيجة احتكاكه بالأبيض ، أنه صار يصغر ويصغر ، وانه فقد ، بالتالي ، قوته الجسدية البديهي ، من خلال اكتشافه أن هذه الممرضة ـ السلطة ، تسعى إلى اخصاء الجميع

كأن عالم التوازي الذي تقيمه الرواية بين المستشفى والمجتمع ، هو البديهي الذي ضاع في تعقّد أواليات القمع في المجتمع الحديث   القمع هنا مكشوف ، انه الصدمة الكهربائية والاذلال والاخضاع اليومي   القمع هو تحويل المريض إلى حالة مزمنة من فقدان الثقة بالنفس   انه بمعنى ما الغاء الفرد   فالديمقراطية القائمة أساساً على الفرد واحترام حريته وعقله ، تتحول هنا إلى اداة لالغاء الفرد وسحق وعيه وتدمير روحه   هكذا تتحول المستشفى الى عقاب ، والسلطة إلى عقاب على خطيئة لم ترتكب أصلاً   وداخل عالم العقاب هذا ، تستقيم العلاقات وتجري كأن القمع هو اللعنة التي تلاحق الانسان   ويصل العقاب الى ذروته مع النهاية المأساوية التي ينتهي اليها ماكمورفي ، يتحول من شاهد إلى ضحية ، ومن رمز للمقاومة الى رمز للموت ، لذلك يأتي فعل برومدن الأخير وكأنه محاولة لانقاذ الرمز ، طالما لم يعد من الممكن انقاذ الشخص ، فيقتل رمز الموت من اجل أن يبقى للمقاومة رمزها

بين الآنسةراتشدت وماكمورفي تقوم علاقة بالغة التعقيد ، القمع المزدوج راتشد تحاول أن تفضح القمع الجزئي الذي يمارسه ماكمورفي على نزلاء المستشفى

عبر أخذه لأموالهم ، وماكمورفي ، يحاول أن يفضح القمع العام الشامل الذي تمارسه الممرضة والاثنان ينجحان بمعنى ما ، نجاح الممرضة يدفع ماكمورفي إلى الصراع المكشوف الذي يقوده إلى نهايته ، ونجاح ماكمورفي يقود إلى فضح القمع الشامل ، عبر تصرفات الممرضة الهستيرية ، التي تقود إلى التساؤل عن معنى العصاب اذا لم تكن هي مصابة به ؟

هذا الفضح المتبادل لا يذهب إلى نهايته ، يتوقف أمام سيطرة هاجس التوازي ، فاذا بالآلة القمعية لا تقدم نفسها الا بوصفها كذلك ، ولا نستشف آثارها على ذاتها ، أي على السلطة الصغيرة في المستشفى ، الا من خلال الدكتور سبايفي ، الذي يبدو وكأنه ضحية جديدة ، وضعت بطريق الصدفة في مكان آخر

هل هذا هو توحش الرأسمالية ، الذي انتج مع بدايات تأسيس النظام الرأسمالي الاضرابات البرية ، واذا به ينتج اليوم ، هذا القمع الجنوني الذي يكشف لا عقلانيته أمام عقلانية المجانين ؟

□ □

غير أن الرواية لا تكتفي بتقديم هذا الجانب ، الذي راعى فيه المؤلف بدقة وضعية مستشفيات الأمراض العقلية ، ولم يقدم مجرد اسقاطات على الواقع ، بل هي تتقدم أكثر لتقدم مشكلة التاريخ الأميركي الحديث ، أنه الهندي الأحمر الزعيم برومدن هو الذاكرة الضائعة « فشجرة الصنوبر الاكثر شموخاً على الجبل » ، وهو اسم والده ، الزعيم الذي انتهى إلى السكر ، وصار صغيراً أمام زوجته البيضاء وأمام مجتمع الغزاة ، هذه الشجرة تقطع من جذورها ، وتصادر ذاكرتها وربما كان الانجاز الأكبر ، لهذه الرواية ، هي أنها تكتب على لسان أحد أبطالها ، الهندي الأحمر هو الذي يرى ويراقب ، هو الذي يكتب فيأتي السياق الروائي بأسره مترجرجاً ، كما هو العالم في عيني هذه الذاكرة الضائعة برومدن هو أميركا الحقيقية التي ضاعت ، بالمعنيين العميقين انه الشعب الأميركي الأصلي الذي أبيد ، وهو الديمقراطية الكاذبة التي سمحت لنفسها بأن تبيد ملايين الهنود الحمر وتنهب أرضهم باسم التقدم وهذا هو التقدم ؟ برومدن يشهد على

التقدم ، ويكشف جنونه يجلس صامتاً ، يسمع كل شيء ولا يتكلم ، لأنه يعرف بأنهم لن يسمعوا كلامه يجلس أمام مكنسته ويشعر بأن جسده يتضاءل ويصغر الى ما لا نهاية وتأتي ذاكرته بطيئة ، تتسلل عبر غابة القمع ، ويرى ، البيض وهم يأخذون الأرض والماء والأسماك ، يرى الأجداد وهم يندثرون ، يرى هذا الآخر الذي لا يقبل أي شكل من اشكال الحوار ، ولا يجد أمامه من وسيلة للمقاومة سوى في هذا الصمت المنزوي ولعل ، كيسي ، أراد ، من تحويل برومدن من مجرد بطل رئيسي في روايته الى بطل وراوٍ ، أن يقول أن هذا الهامشي الضعيف والمرفوض هو وحده من يستطيع أن يكشف زيف هذا المجتمع ، وهو وحده من يستطيع أن يعطي ، عبر ذاكرته الضائعة ، التاريخ الحقيقي لأميركا

هنا تبرز أهمية العلاقة بين برومدن وماكمورفي فماكمورفي ، المواطن الأميركي المشاغب ، يفاجأ بالذي يراه برومدن من خلال ضباب عينين ، يفاجأ فيقاوم لكن مقاومته تتخذ أبسط الأساليب ، يقاوم في اطار الشرعية ، وعندما يجد أن مقاومته وتراجعه لا يجديان نفعاً يندفع إلى ما يشبه الجنون ، أو إلى ما يشبه الثورة ، فينظم الحفلة النهائية في المستشفى ، ويضع بذلك حداً فاصلاً بين مرحلتين ، المقاومة من داخل النظام والمقاومة خارجه

برومدن يعيد اكتشاف وعيه وذاكرته من خلال العلاقة مع ماكمورفي ، يستعيد قدرته على النطق ويتدرب عليها ، ويستعيد جسده يستعيد تلك المقدرة الهائلة التي كبلها القمع لذلك ربما ، تصبح النهاية المفجعة للرواية هي النهاية المنطقية الوحيدة ماكمورفي عائداً من الجراحة التي جرت في جمجمته وافقدته قدراته جميعاً ، والهندي الأحمر يخنقه حتى لا يترك الرمز يموت ، ثم يفرّ عائداً إلى أرض اجداده والى الينابيع هل في هذه النهاية المأساوية يقع الرمز الأكبر في الرواية ؟ هل هذا يعني استحالة الحوار واستحالة تغيير الواقع إلا عبر قتله والتخلص منه بشكل نهائي ؟ أم أنه دلالة على الفرق بين قتلين قتل ، يسحق ، وقتل ، يحيي ؟ أم أنه الشكل الوحيد ، على مستوى السياق ، الذي يستطيع أن يقدم نهاية لهذه الدائرة المأساوية التي تعصف بأبطال الرواية

ماكمورفي هو الذي يقود برومدن الى اكتشاف حريته الممكنة ، وبرومدن هو

الذي ينقذ ماكمورفي ، ولو عبر قتله ، من أن يتحول إلى لا شيء في هذا الجدل المدهش بين هاتين الشخصيتين ، ينكشف الجدل الوحيد الحقيقي ، جدل التاريخ مع الواقع المعاش وفي النهاية يخرج الهندي الأحمر ليبدأ بحثه عن حريته ، ويموت الأميركي ثمناً لهذه الحرية كأن كيسي ، ينقل نبض الستينات الأميركية ، أي نبض تأثير ثورات العالم الثالث على الوعي الأميركي ، فيعيد انتاجه من داخل معطيات اميركية ، ويقدم لنا ، لوحة فنية على شكل رواية يمتزج فيها التداعي بالسرد

□ □

غير أن التركيز على بعد الاخصاء الذي يتعرض له المرضى ، وعلى دور الآنسةراتشدت في العملية هذه ، يفتح الرواية على احتمالات أخرى

هل نحن أمام اكتشاف لاواليات القمع الذي يترسخ في اللاوعي ؟ وهل علاقة بيللي بيبيت بأمه وبالآنسة راتشدت ، تكشف لنا هذا البعد ؟

الواقع ، أن الرواية تحاول أن تقدم شخصية الممرضة ـ السلطة ، بأكبر قدر ممكن من الحيادية والحيادية تأتي من الوصف الدقيق والخارجي الذي يقدمه برومدن لهذه المرأة ، مروراً بنظرة بقية المرضى اليها ، وانتهاء بالصورة المجردة التي تعلق في أذهان القراء انها السلطة وهي ترى من الخارج ، كسلطة وعندما يحاول ماكمورفي أن يكشف عن جانب المرأة التي فيها ، فانه لا يفلح بأكثر من تحويل كشوفه إلى نكات ، أي إلى مزيد من تجريد الشخصية من صفاتها الانسانية كأنها المحرّم (inceste) ، أو كأنها تنغرس في اللاوعي وتقوم بتحطيم قدرة الآخرين على الفعل

الآنسةراتشدت، تجسّد السلطةفي وجهها السلطوي ، أي دون أية انحناءات أو تناقضات ، قد نجدها في رجال السلطة انفسهم وهي بذلك ، أكثر شخصيات الرواية تجريداً انها وظيفة وليست شخصية لذلك فهي تتجسد في وعي برومدن باعتبارها تسيطر على الغموض الذي يلِفّ الاشياء ، وهي مع بيللي بيبيت التأكيد الدائم على عجزه الجنسي وعجزه عن النطق ، وهي مع الطبيب ، القوة التي لا تقهر ، وهي أخيراً استمالة ماكمورفي

انها بمعنى ما النقطة التي يتشظى عندها الضوء ويتكسر الى ما لا نهاية   وهي عندما تنتصر ، لا تنتصر الا بقوة استمرار المستشفى كمستشفى ، أما الذين مارست عليهم سلطتها طويلاً ، فانهم يختفون واحداً إثر الآخر ، حتى قدرتها على تجسيد انتصارها في جسد ماكمورفي الحي ـ الميت ، تنتهي مع الفعل الذي يستعيده الهندي الأحمر ، فبرومدن لا يقتل ماكمورفي ، انه يقتل صورة راتشدت التي تتجسد في عيني صديقه اللذين غادرتهما الحياة

□ □

« طيران فوق عش الوقواق » ، قد تكون احدى أكثر الروايات قدرة على التعبير في زمنها   انها رؤية فريدة ومدهشة لعالم يسيطر عليه القمع ، ولاجساد تقاوم وتتشبث بما بقي لها من الحياة

ولأن كيسي ، اراد من روايته ولها أن تعبر ، فقد قام بعملية ضغط لزمنها في المكان ، لذلك لم يسمح الا لشخصيتي برومدن وماكمورفي بالتحرك الفعلي خارج المكان ـ المستشفى   ولأننا في المكان ، فنحن أمام احد انعكاسات تطور وسائل التعبير ، والسينما بخاصة ، على الرواية   حيث تتوالى الرواية وكأنها مجموعة من المشاهد ـ اللقطات   ويرتطم التداعي بالأشياء ، وينضبط المبنى الروائي بالحدث المحدد وبالحبكة التي تتنامى ، وتقوم بتوظيف جميع العناصر لخدمتها   لذلك تبدو بعض الشخصيات وكأنها وضعت لتشكل خلفية بعض المشاهد فقط ، ولذلك أيضاً ، لا نستطيع الاقتراب من عوالم الممرضين والخدم ومن عالم السلطة المتمثلة بالآنسة راتشدت

هذا الضغط في الشكل ، يقود إلى التوكيد على الرسالة التي في الرواية ، ولا يسمح للعناصر المختلفة بالنمو كما تشاء ، فنحن أمام حديقة مدهشة ولكننا لسنا أمام غابة   وفي هذه الحديقة حشد كيسي السخرية والمرارة والحوارات الطويلة التي تجعل البناء الروائي يقترب من الانضباط المسرحي ، وقدم احدى أكثر اللوحات صدقاً عن واقع المجتمع الأميركي

□ □

نقرأ « طيران فوق عش الوقواق » ، فنتعرف الى الآخر ، ونرى في تناقضاته

مرآة محتملة لكن ، ربما قد لا يكون السجن أو مستشفى المجانين هو الذي يكشف الحقيقي المختبيء في مجتمعاتنا فالحقيقي ينكشف ، بعد أن تم تحويل الساحات الى سجون والمدن إلى مستشفيات فكأن العالم الثالث هو الصورة الحقيقية التي تكشف زيف وتوحش القمع الذي يمارس في المجتمعات المتقدمة ، وكأن صورة هذه الرأسمالية المشوهة ، تكشف التشوه الحقيقي الذي تطبعه الرأسمالية على وجوه الانسان

الياس خوري

بيروت ، تموز (يوليو) ١٩٨١

الى فيك لوفيل

الذي أخبرني أن التنانين لا وجود لها ،
ثم قادني إلى عرائنها

طيران إلى الشرق ، طيران إلى الغرب
طيران فوق عش الوقواق

أغنية أطفال شعبية

الجـــزء الأول

ها هم هناك في الخارج

فتيان سود ببزّات بيضاء يقفون في الأعلى أمامي ليمارسوا ألاعيب جنسية في القاعة ثم يلفلفون الأمر قبل أن أداهمهم

كانوا ينظفون حين خرجت من المهجع ، الثلاثة العابسون الذين يكرهون كل شيء ذلك الوقت من النهار ، المكان الذي يحتويهم ، الناس الذين يجب دفعهم للعمل هنا وهناك وحين يكونون في هذه الحالة من الكراهية فالأفضل ألا يروني أزحف على طول الجدار هادئاً كالغبار العالق بحذائي القماشي ، لكنهم يمتلكون جهازاً حساساً خاصاً يكشف فزعي ، يجعلهم ينظرون معاً ، الثلاثة معاً في وقت واحد ، العيون تأتلق خارج الوجوه السوداء كالتألق الحاد لمفاتيح الراديو في ظهر جهاز قديم

« ها هو الزعيم الزعيم الأعظم ، الرهيب الزعيم العجوزبرومدن. ها أنت هنا أيها الزعيم **المكنسة** »

ويغرزون مكنسة في يدي ويتحركون الى البقعة التي يريدونني أن أنظفها اليوم ، وأذهب يربّت أحدهم على رجلي من الخلف بعصا مكنسة ليستحثني على الذهاب

« هل ترون كيف يعقصها ؟ انه ضخم لدرجة تجعله يأكل تفاحة من فوق رأسي وهو يظنني طفلاً »

ويضحكون ، ثم أسمعهم يدمدمون ورائي وقد تلاصقت رؤوسهم ، يعلو طنين الآلة السوداء ، تضخّ الكراهية والموت وغيرهما من أسرار المستشفيات وهم

لا يتورعون عن التحدث بصوت عال في أسرار كراهيتهم حين أكون قريباً منهم ، فهم يظنونني أصمّاً أبكماً ، الجميع يظنون ذلك   أنا منطوٍ على نفسي بما يكفي لخداعهم حتى ذلك الحد . واذا كان محتدي كنصف هندي قد ساعدني بطريقة ما في هذه الحياة القذرة ، فهو ساعدني أيضاً في أن أصبح منغلقاً على نفسي ، ساعدني طوال هذه السنوات

أكنس قرب باب الجناح حين يطرقه مفتاح من الطرف الآخر وأعلم أنها « الممرضة الكبيرة » من طريقة اختراق المفتاح للقفل ، لقد كانت رقيقة ورشيقة ومتآلفة مع الأقفال لزمن طويل   تنزلق عبر الباب وعصفة برد تقتفي أثرها ، ثم تغلق الباب وراءها وأشاهد أصابعها تنسحب على المفروشات اللامعة ـ أنامل أصابعها مطلية باللون ذاته الذي يغطي شفتيها   برتقالي فاقع   كأنامل حديد اللحام   اللون شديد الحرارة أو شديد البرودة ، ولو أنها لامستك لما استطعت التمييز

انها تحمل حقيبتها المنسوجة المجدولة كتلك التي تبيعها قبيلة امبوكوا على الطرقات العامة الساخنة في شهر آب ، حقيبة يد لها شكل صندوق العدّة ذات مقبض من القنب   لقد حملتها طوال السنوات التي أقمت فيها هنا   إنها مصنوعة من نسيج رخو واستطيع رؤ ية ما بداخلها   ليس بها عُلَب تجميل أو أحمر شفاه أو مواد نسائية ، انها تثقل تلك الحقيبة بآلاف الأصناف التي تبغي استخدامها في واجباتها اليومية ـ دواليب وتروس ، مسننات مصقولة حتى التألق ، حبوب دقيقة تلمع كالبورسلين ، إبر ، كلاّبات ، عدّة ساعاتي ، لفائف من أسلاك النحاس

ترشقني بايماءة وهي تمرّ بي   أدع المكنسة تدفعني الى الجدار وابتسم محاولاً خداع جهازها قدر ما أستطيع بأن لا أتيح لها رؤ ية عينيّ ـ هم لا يستطيعون استنتاج الكثير حين تبقي عينيك مغمضتين

في ظلامي ، أسمع نعليها المطاطيين يقرعان الأرض   المادة المحتشدة في حقيبتها المجدولة تتلاطم بارتجاج مشيتها وهي تمرّ اليّ في القاعة   تسير بصلابة واذ افتح عينيّ تكون قد عبرت القاعة وعلى وشك الانحراف نحو زجاج مركز الممرضات حيث ستقضي سحابة النهار جالسة في مقعدها تتطلع من النافذة وتدوّن الملاحظات

عما يجري أمامها في الغرفة النهارية خلال الساعات الثمانية وتسبغ الفكرة على وجهها سروراً وسلاماً

ثم يقع نظرها على أولئك الفتيان السود ، انهم لا يزالون معاً هناك ، يدمدم واحدهم للآخر. لم يسمعوها وهي تدخل الجناح. يشمّون انها تحدّق بهم الآن ، ولكن فات الأوان كان عليهم أن يدركوا أن من الأفضل لهم ألا يتجمعوا ويدمدموا معاً حين تكون مناوبة في الجناح تتفرق رؤ وسهم وتضطرب تمضي صوبهم بحذر وتتقدم الى حيث وقعوا في الفخ محتشدين في نهاية الممرّ تعلم ما كانوا يقولونه ، وأستطيع أن أرى مدى ضيقها وغضبها انها ستمزق الأوغاد السود إرباً إرباً فهي غاضبة جداً ، وها هي تنتفخ وتنتفخ حتى يكاد ظهرها يخرق الرداء الأبيض ، وتمتدّ يدها وتتطاول حتى تبلغ مدى يجعلها تلفهم ثلاثتهم خمس أو ست مرات تتلفت حولها برأسها المروحي الضخم ما من أحد يرى المشهد سوى الزعيم برومدن ذي المحتد نصف الهندي الذي يختبىء خلف ممسحة ولا يستطيع طلب الاستغاثة وهكذا تمضي اليهم وابتسامتها المصبوغة تتراقص ـ تمتد إلى تكشيرة مفتوحة ، وتنتفخ أكثر فأكثر ، كبيرة كالجرّار ، كبيرة لدرجة أستطيع فيها أن أشمّ الآلات داخلها كما تشم المحرك الذي يجرّ حملاً كبيراً أكتم انفاسي وألبث في مكاني يا إلهي لن يفلتوا هذه المرة هذه المرة تركوا الكُره يعلو الى ارتفاع شاهق وتزداد أثقاله ، وسيمزقون بعضهم البعض قبل أن يعوا ما يفعلونه !

لكنها حالما تبدأ في عقف ذراعيها المتطاولين حول الفتيان السود ويجثم هؤلاء تحت قدميها بعصيّ مكانسهم ، يبدأ المرضى في الخروج من المهاجع ليتبيّنوا سبب الضجّة ويتعينّ عليها أن تغيّر رأيها وتعود قبل مداهمتها متلبسة بهيئتها الحقيقية الخفيّة ! وحين يسلط المرضى أعينهم إلى حيث يستطيعون رؤ ية أسباب اللغط ، لا تقع أعينهم سوى على رأس الممرضة ، مبتسماً وهادئاً وبارداً كعادته ، يخبر الصبيان السود أن من الأفضل لهم ألا يتجمهروا ويثرثروا حين يكون الوقت صباح الاثنين وأمامهم الكثير مما يجب عمله في اليوم الأول من الأسبوع .

« أقصد صباح الاثنين كما تعرفون أيها الفتيان »

« نعم يا آنسة راتشدت »

« ولدينا عدد وفير من المواعيد هذا الصباح ، ووقوفكم هنا مجتمعين لتبادل

الاحاديث قد لا يكون مشجعاً تماماً »

« نعم يا آنسة راتشدت »

تتوقف لتومىء إلى بعض المرضى الذين تحلقوا وجالوا بعيونهم المحمّرة والمنتفخة من أثر النوم تومىء مرة لكل واحد ايماءة دقيقة ، اوتوماتيكية وجهها ناعم ، دقيق ، حاد التقاطيع ، مثل دمية أطفال باهظة الثمن ، بشرتها كمرمر بلون اللحم ، مزيج من البياض والكريم والعيون الزرقاء الطفلة ، أنف صغير ، خياشيم صغيرة قرنفلية ، كل شيء فيها منسجم مع غيره ما عدا لون شفتيها وأظافرها وحجم صدرها لقد وقع خطأ ما في الصنع ، فلولا وضع الثديين الكبيرين الانثويين على هذا الجسد لكانت عملاً تاماً ، ولك أن ترى كم تحسّ بالمرارة بسببهما

لا يزال الرجال واقفين ينتظرون ما سيحلّ بالفتيان السود على يديها ، ولذا فهي تتذكر رؤيتي وتقول « طالما أن اليوم هو الاثنين أيها الفتيان ، لم لا نبدأ الاسبوع بداية حسنة فنحلق للسيد برومدن اليائس ، ونرى ان كان باستطاعتنا تفادي بعض الـ ـ آه ـ لنقل الازعاج الذي يسببه عادة ، ألا ترون ذلك ؟ »

وقبل أن يتمكن أحدهم من الالتفات للبحث عني أغرق في حجرة المماسح أوصد الباب خلفي وأحبس أنفاسي ، وقت ما قبل الافطار هو أسوأ الأوقات للحلاقة واذ تثقل معدتك بشيء ما فأنت أقوى وأكثر يقظة ، ولن يتمكن الأوغاد العاملون في خدمة «الائتلاف» من دسّ آلاتهم بدلاً عن آلة الحلاقة الكهربائية أما أن تحلق قبل الافطار كما تريدني هي أن أفعل في بعض الصباحات ـ في السادسة والنصف صباحاً وفي غرفة ذات جدران بيضاء وأحواض بيضاء وأنابيب ضوء طويلة معلقة بالسقف لتضمن انعدام الظلال ، والوجوه المحاصرة تحيط بك من كل الجهات وتصرخ وراءك في المرايا ـ عندها أي فرصة ستجدها ضد تلك الآلات

اختبيء في حجرة المماسح وأصغي ، قلبي يضرب في الظلام وأحاول الابتعاد عن الفزع ، أحاول صرف أفكاري الى مكان آخر ، أحاول تذكّر أشياء تتصل بالقرية ونهر كولومبيا الكبير ، كأنْ أفكر في المرّة التي كنت فيها مع بابا نصطاد الطيور في دغل من أشجار الأرز قرب دالاس ولكن كما في كل مرة أحاول فيها تركيز أفكاري على الماضي والاختباء داخله ، يتسلّل الفزع الماثل على مقربة مني إلى الذاكرة ، أستطيع الاحساس بذلك الفتى الاسود الضئيل يعبر القاعة ، يتشمّم

فزعي   يفتح خياشيمه كالمداخن السوداء ، رأسه ذو الحجم الكبير يتذبذب هنا وهناك وهو يستنشق الرائحة ، يمتص الفزع من كل جوانب الجناح   ها هو يشمّني الآن ، وأكاد أسمعه يشخر   لا يعلم أين أختبيء لكنه يشمّ ويتصيّد في الارجاء أحاول البقاء جامداً

(يطلب مني بابا أن أظل جامداً ، يخبرني أن الكلب يشم طائراً في مكان ما قريب   استعرنا كلب صيد من رجل في دالاس   يقول بابا أن كل كلاب القرية ليست من أعراق جيدة ، فهي تأكل السمك وليست حسنة التهجين   هذا الكلب يختلف ! لا أقول شيئاً ، لكني أرى الطير الآن بين أغصان شجرة الأرز وقد اكتسى بجزّة من الريش الرمادي   ويلهث الكلب دائراً حول الشجرة ، فالرائحة قريبة منه   يظل الطائر في مأمن من الأذى طالما حافظ على جمود حركته   إنه يصمد فترة طويلة ، لكن الكلب يواصل الشمشمة والدوران أعلى وأقرب   ثم يخرج الطائر عن سكونه ، يبسط أجنحته ويندفع خارج شجرة الأرز ليلتقي بطلقة من بندقية بابا)

الفتى الأسود الضئيل وواحد آخر أكبر منه يضبطاني قبل أن أكمل عشر خطوات خارج حجرة المماسح ، ويجراني الى غرفة الحلاقة   لا أقاوم أو أثير ضجة   كلما صرخت ازدادت قسوة الأمر عليك   أمسك عن الصراخ   أتحمل حتى يبلغوا صدغي   لست واثقاً ما اذا كانت الآلة للحلاقة أم هي واحدة من تلك الآلات البديلة حتى تبلغ صدغي ؛ وعندها لا أستطيع احتمال المزيد   يخرج الأمر عن ارادتي حين يبلغ صدغي   انها الأزرار   زرّ مضغوط يصرخ « غارة جوية ، غارة جوية »   يصيبني صوته بدوار كثيف لا يصيبني به أي صوت آخر ، الجميع يصرخون في وجهي وأيديهم على آذانهم وراء جدار زجاجي ، الوجوه تعمل وتتكلم في حلقات دون أن تصدر الأفواه أي صوت   يطغى صوتي على كل الأصوات   ها هم يشغلّون آلة الضباب ثانية ، وها هي الآن تثلج فوق كل اجزاء جسمي برداً وبياضاً شبيهاً بقشدة الحليب ، شديد الكثافة الى حد انني استطيع الاختباء فيه لولا أنهم يوثقونني بشدة   لا أستطيع أن أرى على مبعدة ستة إنشات أمامي خلال الضباب والشيء الوحيد الذي استطيع سماعه غير العويل الصادر عني هو نعيق « الممرضة الكبيرة » وسيطرتها على الجناح ، تسحق المرضى بحقيبتها المجدولة وهي تشق طريقها   أسمعها تقترب ، لكني لا أتمكن من كتم صراخي   أصرخ حتى

تصل   يحتجزوني لتصبّ هي حقيبتها المجدولة بكل ما فيها في فمي وتدفعها إلى الداخل بمقبض الممسحة

(كلب صيد أزرق ينبح في الضباب، راكضاً بهلع وضياع لأنه لم يعد يبصر. لا توجد آثار أقدام على الأرض سوى تلك التي يخلفها ، وهو يتشمم في كل الاتجاهات بأنفه البارد المطاطي الأحمر فلا يلتقط رائحة ما سوى رائحة فزعه والفزع الذي يشتعل في داخله كالبخار)

سوف تحرقني بالطريقة ذاتها ، حين أسرد أخيراً كل هذه الأشياء ، عن المستشفى ، عنها هي وعن الرجال ، وما كمورفي   لقد ظللت صامتاً زمناً طويلاً ، إلا أن ما في داخلي يهدر كمياه السيل وستظنون أن الرجل الذي يروي كل هذه الأشياء لا بد انه يهذي ويجدّف ، يا إلهي ، تظنون أن الأمر أشدّ فظاعة من أن يحدث فعلاً ؛ انه أرهب من أن يكون الحقيقة ! ولكن اسمحوا لي ، لا يزال شاقاً عليَّ أن افكر فيه بذهن صافٍ   لكنه الحقيقة حتى لو لم يحدث

حين ينقشع الضباب وأتمكن من الرؤ ية ، أجد نفسي في الغرفة النهارية.

لم يأخذوني الى «دكان الصدمة» هذه المرة. أذكر أنهم أخرجوني من غرفة الحلاقة وحبسوني في «العزل». لا أذكر ان كنت تناولت طعام الإفطار أم لا   الأرجح أنني لم أفعل. أستطيع استرجاع بعض الصباحات حين أكون محبوساً في «العزل» ويحضر لي الفتيان السود أطباقاً من كل الأصناف ـ تكون لي في الأصل لكنهم يأكلونها بدلاً عني ـ يتناول الثلاثة إفطارهم وأنا مستلق هناك على تلك الحشيّة الكريهة الرائحة ، أرقبهم يحشون البيض بالخبز المحمّص   أستطيع شمّ الدهن وسماعهم وهم يمضغون الخبز   في صباحات أخرى يحضرون لي عصيدة باردة ويجبرونني على أكلها حتى لو خلت من الملح

أظن أنني لا أتذكر هذا الصباح   لقد أتخموني بما يكفي من تلك الأشياء التي يسمونها حبوباً ولذا لن أعرف شيئاً حتى أسمع باب الجناح وهو يفتح   وحين يفتح باب الجناح لا بد أن تكون الساعة قد قاربت الثامنة ، وتكون قد مرّت ساعة ونصف على وجودي في برد غرفة « العزل » ويكون الفنيون عندها قد وصلوا وركبوا أي شيء تأمرهم به الممرضة دون أن تكون لدي أدنى فكرة عنه

أسمع ضجة عند باب الجناح ، في نهاية القاعة على مرمى بصري   باب الجناح ذاك يفتح في الثامنة ويفتح ويغلق ألف مرة في اليوم ، كاششاش ، كليك
كل صباح نجلس صفوفاً في كل جانب من الغرفة النهارية ، نخلط أحجيات الصور المقصوصة بعد الإفطار ، نصغي الى مفتاح يضرب القفل ، وننتظر رؤية القادم ، لا نفعل شيئاً غير ذلك   يكون القادم بعض الأحيان مقيماً جديداً يراقب ما نحن عليه «قبل العلاج» أو « ق   ع   » كما يسمونه   بعض الأحيان تأتي زوجة لزيارة زوجها وقد ألصقت كيس نقودها بمعدتها   بعض الأحيان يفد حشد من معلمات المدارس الابتدائية يقود رحلتهم رجل العلاقات العامة الأبله الذي يصفق بيديه دائماً ويعرب عن سروره   الفائق بأن تلك المستشفيات العقلية قد استأصلت كل أشكال القسوة العتيقة الطراز   « أي جو مبهج ، ألا توافقونني ؟ » ويستحث المعلمات اللواتي تجمعنّ على بعضهن لضمان سلامتهن ، يصفق بيديه « آو ، حين أفكر بالأيام ، السالفة ، في الطعام السيء ، في القذارة ؛ نعم « الوحشية ، آه ، أدرك سيداتي أننا قد تقدمنا كثيراً في حملتنا »

كل من يدلف من الباب مخيب للآمال عادة ، لكن فرصة مغايرة تتوفر دائماً ، وحين يخترق المفتاح القفل ترتفع كل الرؤوس وكأن أسلاكاً من فوقها ترفعها

هذا الصباح ضجّت الأقفال بصرير غريب ، ليس بالباب زائر اعتيادي وينادي رجل من الحرس بحيرة ونفاذ صبر « نزيل جديد، تعالوا للتوقيع على استلامه » ويمضي الفتيان السود   نزيل جديد   توقف الجميع عن لعب الورق واستداروا نحو باب الغرفة النهارية   في معظم الأيام أكون منهمكاً في تكنيس الجناح وأشاهد من يوقعون له ، ولكنه في هذا الصباح ، كما شرحت لكم ، أثقلتني الممرضة الكبيرة بآلاف الأوزان ولا أستطيع الحراك عن الكرسي   في معظم الأيام أكون أول من يرى النزيل الجديد ، أراقب زحفه الى الباب وانزلاقه على طول الجدار ووقوفه

فزعاً حتى يجيء الفتيان السود ليوقعوا له ويأخذونه الى الحمام ، وهناك يعرّونه ويدعونه مرتجفاً أمام الباب المفتوح ليمضوا مكشّرين عن ابتساماتهم بحثاً عن الغازلين في كل القاعات يخاطبون الممرضة « نحتاج لذلك الغازلين من اجل ميزان الحرارة » تتطلع فيهم الواحد تلو الآخر وتردد « أنا واثقة من ذلك » ، ثم تسلمهم مرطباناً يحتوي على سعة غالون على الأقل ، « ولكن أحذركم أيها التفيان من التجمع هناك » ثم أرى اثنين منهم ، أو ثلاثتهم ربما ، في غرفة الحمّام تلك مع النزيل الجديد ، يغمسون ميزان الحرارة في الشحم حتى يكتسي بما يوازي حجم اصبعك ، ويدندنون « هذا حق يا أماه ، هذا حق يا أماه » ، ثم يغلقون الباب ويفتحون كافة الأدواش حتى لا يعود بمقدورك سماع شيء عدا الهسيس الاثيم للماء وهو يسقط على الأرضية أكون في الخارج معظم الأيام ، وأرى الأمور كما تحدث

عليّ هذا الصباح ان أجلس في الكرسي وأصغي لهم وهم يحضرونه ولا أزال ، رغم أني لا أراه ، أعرف أنه نزيل غير عادي لا أسمعه ينزلق فزعاً على طول الجدار ، وحين يخبرونه عن الحمّام لا يذعن بموافقة صغيرة متهالكة ، بل يرد عليهم بصوت وقح صاخب أنه قد نُظِّف مرات عديدة لعينة ، أشكركم

« لقد حمّموني هذا الصباح في دار المحكمة والليلة الماضية في السجن وأقسم انهم كانوا سيغسلون أذنيّ خلال نقلي في التاكسي لو وجدوا ما يعينهم على ذلك هيه يا فتيان ، يبدو وكأنهم في كل مرة يشحنونني فيها إلى مكان ما يتعينّ علي أن أتعرّض للكشط قبل ذلك وبعده وخلال العملية لقد اعتدت على الأمر ، حتى صار صوت الماء يدفعني لجمع أشيائي وابتعد عني بميزان الحرارة ذاك يا سام ، وأعطني دقيقة لاتفحص منزلي الجديد ، لم أنزل في « مؤسسة نفسية » من قبل »

ويتبادل المرضى النظرات بوجوههم الحائرة ، ثم يعودن إلى الباب حيث لا يزال صوته يعلو من خلاله انه يتحدث بصوت أعلى مما يحتاج اليه حين يكون الفتيان السود قريبين منه يبدو وكأنه يتحدث من الأعلى الى الاسفل ، وكأنه على ارتفاع خمسين ياردة من أولئك الذين يهتف بهم في الأسفل على الأرض يلوح ضخماً أسمعه يعبر القاعة يلوح ضخماً في طريقة مشيه ، لا شك في أنه لا يسير منزلقاً ؛ هناك حديد مثبت في عقبي قدميه اللتين يقرع بهما الأرض كحوافر الخيل يظهر

في الباب ويتوقف ويعلّق ابهاميه في جيوبه ، حذاؤه الطويل متباعد ، ويقف هناك والرجال يتطلعون اليه

«صباح الخير أيها الزملاء»

هناك وطواط هولويين من الورق معلّق بسلك فوق رأسه يمدّ يده اليه وينقره بإصبعه ليأخذ في الدوران

«يوم عظيم جميل لهذه المناسبة»

يتحدث كما اعتاد بابا أن يفعل ، بصوت مرتفع راعد ، لكنه لا يشبه بابا ، كان بابا هندياً كولومبياً ممتلىء القامة ـ كان زعيماً ، صلباً ولامعاً كالطلقة النارية هذا الرجل أحمر الشعر له شاربان طويلان حمراوان وكتلة من التجاعيد تحت قبعته ، بحاجة منذ زمن طويل إلى قصّ ، وهو عريض كما كان بابا طويلاً ـ عريض من أسفل الحنك والكتفين والصدر ، أسنان شيطانية بيضاء وهو صلب بطريقة تختلف عن صلابة بابا ، كما يكون لاعب البيسبول صلباً تحت الجلد البالي هناك درزة تنحدر من أنفه الى احدى وجنتيه حيث لكمه أحدهم في مشاجرة ما ، ولا تزال القطب موجودة في الدرزة يقف هناك منتظراً ، وحين لا ينبري أحد لمبادرته بكلمة ما ينخرط في الضحك لا يستطيع أحد تفسير ضحكته ، ولا يوجد شيء مضحك يدعوه لذلك لكن طريقته في الضحك تختلف عن طريقة رجل العلاقات العامة ، انها حرّة وصاخبة وتخرج من فمه العريض المبتسم لتنتشر في حلقات أوسع وأوسع حتى تتلاطم مع الجدران في كل أرجاء الجناح ليس كما يضحك ذلك البدين من العلاقات العامة ضحكته تبدو حقيقية وأدرك فجأة انها الضحكة الأولى التي أسمعها منذ سنوات

يقف ناظراً صوبنا ، يهز حذاءه الطويل ، يضحك ويضحك يعقد أصابعه فوق معدته دون اخراج ابهاميه من جيوبه وأرى كم تبدو يده كبيرة ومتغضنة الجميع في الجناح المرضى والمشرفون والكل قد عقدت الدهشة ألسنتهم منه ومن ضحكاته ما من حركة لإيقافه ما من حركة لقول أي شيء يضحك حتى يكتفي خلال وقت ما ، ثم يخطو داخل الغرفة النهارية حتى حين يكون ممتنعاً عن الضحك تبدو ضحكته محلّقة من حوله ، كما يتحلّق الصوت حول جرس كان لتوه

يقرع بشدة ، الصوت في عينيه ، في طريقة ابتسامه واختياله ، في الطريقة التي يتكلم بها

« اسمي ماكمورفي أيها الزملاء ، ر ب ماكمورفي ؛ وأنا معتوه مقامر » ، يغمز بعينه ويغني مقطعاً من أغنية « وكلما التقيت بشدّة الورق أضع نقودي فوقها » ويضحك ثانية

يخطو الى واحدة من طاولات اللعب ، يلمس أوراق«المبرّحين»بإصبع سميك ثقيل ، وينظر شزراً إلى اليد ويهز رأسه

« نعم سيدي ، هذا ما جئت لتأسيسه ، لأجلب لكم يا معشر الطيور البهجة والتسلية حول طاولة القمار لم يعد في مزرعة عمل ميندلتون من يجعل أيامي أكثر متعة ، ولذا تقدمت بطلب نقل كما ترون احتجت إلى دم جديد هوووه ، انظروا إلى الطريقة التي يمسك بها ذلك الطائر أوراقه ، أنت تكشفها للجميع ، لكامل المجموعة ، يا رجل ! سأزينكم أيها الصغار كالحمل الصغير »

يجمع شيزويك ورقه يمدّ أحمر الشعر يده إلى شيزويك ليصافحه

«مرحباً أيها الزميل ، ما الذي تلعبه ؟ بينيكيل ؟ يا يسوع ! لا غرابة اذن في أنك غير حريص على كشف يدك ألا تملكون شدّة ورق مستوية هنا ؟ حسناً ، لنقل أننا نبدأ من هنا ، لقد أحضرت معي شدّتي الخاصة ، انها في الحقيبة ، وبها أشياء أخرى غير صور اللعب المعتادة ستتفحص الصور هه ؟ كل صورة مختلفة عن الأخرى ، اثنان وخمسون وضعاً »

تجحظ عينا شيزويك على الفور ، وما يراه على ذلك الورق لا يخفف عنه

« تمهّل الآن ، لا تلطخها ، لدينا الكثير من الوقت ، الكثير من الألعاب تنتظرنا احب استعمال شدّتي هنا لأن اللاعبين الآخرين يحتاجون الى اسبوع على الأقل ليتمكنوا من رؤ ية مجموعة الورق بأكملها »

كان يرتدي قميصاً وسروالاً قصيراً من تلك التي توزع في مزارع العمل ، لفحتهما الشمس حتى أصبحا بلون الحليب الممزوج بالماء وجهه وعنقه وذراعاه بلون الجلد المدبوغ لطول عمله في الحقول يعتمر قبعة سوداء لسائق دراجة مبتدىء تضم شعره وسترة من الجلد فوق ذراع واحدة ، ويلبس حذائين طويليين رماديين ،

مغبّرين وثقيلين بما يكفي لركل رجل وشطره شطرين   يخطو مبتعداً عن شيزويك ويرفع قبعته ويمضي مثيراً عاصفة من الغبار من فخذيه   يحاصره أحد الفتيان السود بميزان الحرارة لكنه أسرع منهم بكثير ، فيندس بين « المبرّحين » ويبدأ في التجوال مصافحاً الأيدي قبل أن يطاله الفتى الاسود   طريقة كلامه ، غمزته ، حديثه الصاخب ، اختياله ، ذكرني ذلك كله ببائع جوال في سيارة أو دلال في مزاد قديم - أو أحد سكان الخيام الذين تراهم في المسارح الجوالة أمام راياته المرفرفة ، يقف هناك في قميص مخطط وأزرار صفراء يجذب الرؤوس من نشارة الخشب كالمغنطيس

« الذي حدث ، كما ترون ، انني تورطت في شجار أو شجارين في مزرعة العمل ، وهي الحقيقة الخالصة ، ورأت المحكمة أنني مختّل عقلياً   هل تظنون أنني سأجادل المحكمة ؟ بضعف ! تستطيعون أن تراهنوا بدولاركم أنني لم أفعل - لو قيّض لها أن تخرجني من حقول البازلاء تلك سأكون أي شيء يشتهيه قلبهم الصغير ، مختل العقل أو كلباً مجنوناً أو ذئباً   ويقولون لي الآن ان المختل عقلياً هو الذي يفرط في الشجار والمضاجعة   لكنهم ليسوا على صواب تماماً ، هل تظنون ؟ أقصد ، من سمع منكم برجل يتوانى أو يحتار كثيراً ازاء المضاجعة ؟ مرحباً   أيها الزملاء ، ماذا يدعونكم ؟ اسمي ماكمورفي وسأراهنكم بدولارين هنا والآن انكم لا تستطيعون اخباري كم نقطة في يد البينيكيل التي تحملونها ، لا تتطلعوا ! دولارين ، ما قولكم ؟ لعنة الله يا سام ! ألا تستطيع الانتظار نصف دقيقة لتنخسني بميزانك اللعين ؟ »

يقف الرجل الجديد متطلعاً لبرهة ، ليلمّ بتكوين الغرفة النهارية

في جانب من جوانب الغرفة يتجمع المرضى الشباب ، الذين أطلق عليهم اسم «المبرّحين» لأن الأطباء لا يزالون يعتبرونهم مرضى لدرجة تسوّغ ابقاءهم ، يمارسون

مصارعة الأيدي وألعاب الورق حيث تضاف وتطرح وتجمع أوراق عديدة وتظل الورقة المطلوبة كما هي. يحاول بيللي بيبيت لفّ سيجارة متقنة، ومارتيني يتجول هنا وهناك مكتشفاً الأشياء تحت الطاولات والكراسي يتحرك «المبّرحون» كثيراً وتبادلون

اخبار، النكات، يخفون ضحكاتهم بين قبضاتهم (فلا أحد يجرؤ على إفلات ضحكته، وإلا لحضر المشرفون بأكملهم وأحضروا دفاترالملاحظات والعديد من الاسئلة)، ويكتبون الرسائل بأقلام رصاص مقروضة، صفراء ومتآكلة

ويتجسّس أحدهم على الآخر يحدث أحياناً أن يذكر أحدهم شيئاً عن نفسه لا يريد له أن ينتشر، ويتثاءب احد جلسائه وينهض ليتجه نحو سجل الجناح الكبير قرب مركز الممرضات ويكتب المعلومات التي سمعها - انها ذات فائدة علاجية للجناح بأكمله، هكذا تصف الممرضة الكبيرة المعلومات المسجلة في السجل، لكني أعرف انها تنتظر فقط الحصول على دليل كاف لاعادة ترتيب امريء ما في «المبنى الرئيسي» المشيّد لتذليل المصاعب في المقام الأول وينال من كتب المعلومات في السجل نجمة باسمه على الملف ويتاح له الاستيقاظ متأخراً في اليوم التالي

وعلى مبعدة من «المبرّحين» تقبع حثالة نتاج «الائتلاف» وهم «المزمنون». وهؤلاء ليسوا في المستشفى للشفاء، بل لإبعادهم عن التسكع في الطرقات وإلحاق الأذى بسمعة النتاج ويسلّم المشرفون جميعاً بصواب حجز «لمزمنين» ينقسم «المزمنون» الى «المشاة» من امثالي، الذين لا زال بوسعهم التجوال على أقدامهم اذا تلقوا غذاءً منتظماً، و«المشاة بدواليب» ثم «البلداء» و«المزمنون»، أو جميعنا، ليسوا سوى آلات تعاني في داخلها من خلل عصيٍّ على الإصلاح، خلل موروث، خلل نال سنوات عديدة من رجل تعامل مع الأشياء الصلبة فقط وحين عثرت المستشفى عليه كان ينزف الصدأ سيولاً وافرة

لكن بعض «المزمنين» بيننا تعرضوا لخطأ أو خطأين ارتكبه المشرفون قبل سنوات، بعضنا ممن جاء «مبرّحاً» ثم تغيّر إيلليس «مزمن» جاء إلى الجناح «مبرّحاً» ثم تلوّث أيما تلوث حين أثقلوا عليه في غرفة تدمير الدماغ القذرة التي يدعوها الفتيان السود «دكان الصدمة» هو الآن مسمّر إلى الجدار بالحالة ذاتها التي وضعوه عليها للمرة الأخيرة حين رفعوه عن المنضدة، بالهيئة ذاتها، الذراعان مرفوعان، الراحتان مغلقتان - الرعب ذاته ماثل على وجهه ويظل مسّمراً هكذا

على الجدار كنصب تذكاري محنّط ينزعون عنه المسامير عندما يحين موعد الأكل أو موعد نقله إلى السرير أو حين يريدون زحزحته لأتمكن من مسح القذارة التي خلّفها في مكان وقوفه ، في المكان العتيق الذي وقف فيه زمناً طويلاً تآكلت الأرضية في بقعة ما بفعل البول الذي يسيل تحته حتى ينحدر إلى الجناح السفلي ويسبب لهم كل أنواع الصداع حين يأزف موعد التفتيش الدوري

ركلي «مزمن» آخر جاء منذ بضع سنوات « مبرّحاً » ، لكنهم أثقلوا عليه بطريقة أخرى ارتكبوا خطأً في واحدة من تجهيزاتهم الرأسية كان حاد المزاج يصخب في أرجاء المكان ، يركل الفتيان السود يعضّ الممرضات المتدربات من أقدامهن ، ولذا أخذوه لتهدئته مدّدوه على الطاولة وكانت آخر لحظة شوهد فيها حين أغلقوا الباب عليه ؛ غمز قبل أن يوصد الباب ، وهتف بالفتيان السود وهم يتراجعون عنه « ستدفعون ثمن ذلك ، يا أولاد القطران الملعونين »

بعد اسبوعين أعادوه الى الجناح أصلع تتوسط جبهته كدمة زهرية وبقعة وتعلو عينيه هالتان صغيرتان بحجم الزرّ تستطيعون من عينيه أن تتبيّنوا كيف أحرقوه هناك عيناه ذابلتان ورماديتان وغائرتان إلى الداخل كصماميّن كهربائيين محترقين وها هو الآن لا يفعل شيئاً طوال النهار سوى حمل صورة فوتوغرافية قديمة وتقريبها من وجهه المحترق ، يقلّبها مطولاً بين أصابعه الباردة حتى تآكلتا واكتست بلون عينيه الرماديتين يقلبها على الوجهين ، اذ لم تعد تستطيع معرفة ما كانت عليه

أما المشرفون فهم يعتبرون ركلي احدى حالات فشلهم ، لكني لا أدري ان كان سيخرج أحسن حالاً لو كان الجهاز بحالة ممتازة التجهيزات التي يعتمدونها هذه الأيام ناجحة عموماً لقد اكتسب الفنيون المزيد من الخبرة والمهارة لم تعد الأزرار تترك هالات على الجبهة ، وانعدم البتر نهائياً ، استقرت كلها في محجر العين ، يرسل احد الرجال احياناً إلى الجهاز ، يغادر الجناح جامحاً ومنتفخ الأوداج يجدّف على الجناح بأكمله ، ثم يعود بعد أسابيع قليلة بعينين سوداوين ـ زرقاوين كأنه اشترك في مباراة ملاكمة ، يصبح الأطوع والألطف والأرقى سلوكاً بين جميع من رأيتهم في حياتك وقد يسمح له بزيارة بيته مرة أو مرتين في الشهر ، قبعة مرخاة على وجه امرىء يسير في نومه ويتحرك في ربوع حلم بسيط سعيد يسمّونه حالة ناجحة ، لكني أقول أنه انسان آلي آخر يوضع في خدمة « الائتلاف » ، وكان الأفضل لو ظل

مثالاً على فشلهم ، يهذي مثل ركلي ويتلّمس صورته لا يفعل شيئاً عدا ذلك ويستفزه الصبي الأسود القزم بين الحين والآخر حين يدنو منه ويسأله « قل لي يا ركلي ، ماذا تتصور ان زوجتك تفعله هذا المساء في المدينة ؟ » ويشرئب عنق ركلي تهمس الذاكرة في مكان ما من الآلة المتلاطمة يكتسي وجهه باللون الأحمر وتقفز أوردته حتى آخر مدى لها ينتفخ ليتمكن من نفث صوت أشبه بالصفير عبر حنجرته تعصر الفقاعات زاوية فمه ، يجهد في تحريك فكّه لقول شيء ما وحين يبلغ أخيراً مرحلة تمكنه من نطق كلمات قلائل تسمع ضجيجاً خافتاً مختنقاً يقشعّر له بدنك ـ « ضا ا ا ا ا ا جع الزوجة ! ضا ا ا ا ا اجع الزوجة ! » ويهمد على الأرض بتأثير ما بذله من جهد

إيللِيس وركلي هما أصغر المزمنين الكولونيل ماتيرسون هو الأكبر ، جندي عجوز متقاعد خدم في سلاح الفرسان خلال الحرب العالمية الأولى ، اعتاد رفع تنورة الممرضة المارّة بعكازه ، أو إلقاء درس عن حقبة تاريخية ما من نصّ وهمي يعتقد أنه مدّون على يده اليسرى لكل من يود الاصغاء انه الأكبر سناً في الجناح لكنه ليس الأقدم ـ لقد أحضرته زوجته قبل سنوات معدودات حين وصلت الى نقطة تعجز عندها عن رعايته

أنا الأقدم وجوداً في الجناح ، منذ الحرب العالمية الثانية حضرت قبل الجميع ، قبل أي من المرضى الآخرين المرضة الكبيرة وحدها كانت قبلي

وجرت العادة أن لا يختلط « المزمنون » و « المبرّحون » معاً يقبع كل منهم في زاوية من الغرفة النهارية كما يريد الفتيان السود ويدّعي الفتيان السود انها الطريقة الأكثر انتظاماً وليعلم الجميع انها الطريقة التي يحبّذون ابقاءها يحركوننا بعد الإفطار وينظرون الى احتشادنا ثم يومئون « هذا سليم أيها السادة ، انها الطريقة المطلوبة حافظوا عليها الآن »

وهم في الحقيقة ليسوا بحاجة لقول أي شيء ، « المزمنون » ، ما عداي ، لا يتحركون كثيراً ، و « المبرّحون » يقولون انهم لا يفضّلون مغادرة زاويتهم ، ويتعللون مثلاً بأن زاوية « المزمنين » تفوح منها رائحة تشبه رائحة الحفاضات القذرة لكني أعرف أن الرائحة القذرة ليست هي التي تبعدهم عن زاوية « المزمنين » بقدر كراهيتهم لأن يتذكروا أن هذا بالضبط ما يمكن أن يحدث لهم يوماً ما وتدرك الممرضة الكبيرة هذا

الخوف وتعرف كيفية استخدامه ؛ وتلمّح الي « مبَرح » ما ، كلما تجهم ، ان عليكم أيها الفتيان أن تظلوا فتياناً طيّبين وتتعاونوا مع سياسة الادارة التي صممت لعلاجكم ، وإلا انتهيتم الى ذلك الجانب

وجميع من في الجناح فخور بطريقة تعاون المرضى لدينا لوحة نحاسية صغيرة مثبتة على قطعة من الخشب كتب عليها « تهانينا بمواصلة الحياة بعدد من المستخدمين يقلّ عن أي جناح آخر في المستشفى » انها جائزة التعاون انها معلقة على الجدار فوق السجل ، في المربع الفاصل بين « المزمنين » و « المبرّحين »

هذا النزيل الجديد الأحمر الشعر ، ماكمورفي ، يعرف تماماً انه ليس « مزمناً » بعد أن يمضي دقيقة في تفحص الغرفة النهارية يرى أن مكانه في زاوية « المبرّحين » فيمضي اليها مكشّراً عن ابتسامته ومصافحاً أيدي من يمرّ بهم كافة ألاحظ للوهلة الأولى انه يكدِّر الجميع ، بمزاحه ونكاته والطريقة الوقحة التي يخاطب بها ذلك الصبي الأسود الذي ما زال يلاحقه بميزان الحرارة ، خصوصاً تلك الضحكة العريضة الواسعة ترتج الساعة الشمسية في حجرة لوحة التحكم تحت وطأة ضحكته الرنانة حين يضحك يتطلع «المبرّحون» ببرم ووجوم ، كما يتطلع الصبيان في غرفة الدراسة الى صبي مشاغب يثير الكثير من الضجيج عند خروج المعلمة ويخشون أن تعود وتقرر ابقاءهم في الغرفة انهم يرتعدون ويتململون كالساعة الشمسية المعلقة في حجرة لوحة التحكم ؛ وأرى أن ماكمورفي يلاحظ تكديره لهم ، لكنه لا يدع لذلك أن يوقفه عند حد

« اللعنة ، أية وجوه كالحة لا يبدو لي أيها الفتيان انكم مجانين الى هذا الحد » يحاول تهدئة خواطرهم كما ترى دلّالاً يروي النكات لتهدئة الزحام قبل المباشرة في المزايدة « من منكم يدعي أنه الأكثر جنوناً ؟ من هو **المعتوه الأكبر** ؟ من يدير العاب الورق هذه ؟ انه يومي الأول وأريد حقاً الخروج بانطباع حسن عن الرجل المطلوب لو أثبت لي أنه الرجل المطلوب من هو كبير **الحمقى** هنا ؟ »

يخاطب بيللي بيبيت مباشرة ينحني ويحدق طويلاً في بيللي حتى يشعر الأخير انه مضطر للتأتأة بأنه ليس كب ـ كبـ كبير الحمقى بعد ، رغم انه يأتي في المرتبة الثانية من العتـ العتـــ العته

يغرز ماكمورفي يداً ضخمة في مواجهة بيللي ، ولا يملك بيللي سوى أن

يصافحها   يقول لبيللي « حسناً يا زميل ، أنا سعيد حقاً بأنك الثاني في الحمـ الحمـ   الحماقة   ولكن طالما انني أفكر في احتلال هذا المنصب شخصياً ، أغلقه وأخزنه وأضعه في برميل ، فالأفضل لي أن أتحدث الى الرجل الأول »   يتطلع من حوله إلى حيث توقف «المبرّحون» عن لعب الورق ، يغطي يده بالأخرى ، يشدّ مفاصله كافة أمام المنظر ، « أتصور يا زميل كما ترى أنني سأكون سيد القمار في هذا الجناح ، ألعب بطريقة ماكرة   خير لكم لذلك أن ترشدوني الى قائدكم وسنسوي أمر من يكون بيننا الزعيم هنا »

ليس بينهم من هو واثق فيما اذا كان هذا الرجل ذو الندبة والصدر الأشبه بالبرميل والتكشيرة ممثل أم مجنون بما يكفي ليتحدث هكذا   لعله جماع الاثنين لكنهم شعروا باندفاعة قوية تجعلهم يجارونه   يراقبونه وهو يرخي تلك اليد الحمراء الضخمة على ذراع بيللي النحيلة ، منتظراً ما سيقوله بيللي   ويرى بيللي كيف أن عليه خرق الصمت ، فيتلفت من حوله ثم ينتقي أحد لاعبي البينيكيل ويقول « هاردنغ ، أظن أنك جد   جد   جدير بذلك   أنت رئـ   رئـ   رئيس مجلس المر   المر   المرضى   هذا الرجـ   الرجـ   الرجل يريد التحدث اليك »

ويكشر المبرحون الآن ، لقد بارحهم الامتعاض وابتهجوا لأن شيئاً خارج المألوف يجري أمامهم   ويسخرون جميعاً من هاردنغ ويسألونه ان كان حقاً كبير الحمقى   ويضع هاردنغ أوراقه على الطاولة

هاردنغ رجل عصبي نحيل له وجه يجعلك تتخيل انك رأيته في السينما ، وجه من الوسامة بحيث يصعب أن يكون صاحبه رجلاً عادياً يسير في الشارع ، له كتفان عريضان نحيلان يطويهما باتجاه صدره حين يحاول الاختفاء داخل نفسه   له يدان طويلتان جداً وشديدتا البياض وانيقتان ، كأنهما نحتتا من الصابون ، تنبسطان أحياناً وتتمددان أمامه وتظلان حرتين كطائرين أبيضين حتى يلاحظهما فيحصرهما بين ركبتيه   يزعجه أن له هاتان اليدان الانيقتان

انه رئيس « مجلس المرضى » استناداً إلى كتاب يشير إلى أنه تخرج من الكلية والكتاب معلق فوق سريره إلى جوار صورة لامرأة ترتدي ثياب الاستحمام يخال اليك أيضاً انك رأيتها في السينما ـ لها ثديان كبيران تمسك الطرف العلوي لثوب

الاستحمام بأصابعها لكي ترفعهما ، وتنظر جانبياً إلى آلة التصوير يمكنك رؤ ية هاردنغ جالساً على منشفة وراءها ، يلوح عليه الهزال بثوب استحمامه ، وكأنه ينتظر رجلاً ضخماً يهيل عليه الرمال ويتباهى هاردنغ لزواجه من امرأة كهذه ، ويقول انها أكثر النساء شبقاً في العالم ولا يكاد يشبعها في معظم الليالي

وحين يختاره بيللي يتكيء هاردنغ على كرسيه ويتصنع نظرة رزينة ، يخاطب السقف دون التفات إلى بيللي أو ماكمورفي « هل أخذ هذا السيد موعداً يا سيد بيبيت ؟ » «هل لديك موعد يا سيد ماكـ ماكـ ماكمورفي ؟ السيد هاردنغ رجل أعمال مشغول ولا يراه أحد دون مو مو موعد »

« هذا الرجل المشغول السيد هاردنغ ، هل هو كبير **الحمقى** ؟ »

ينظر إلى بيللي بعين واحدة ، ويوميء بيللي برأسه إلى الأعلى والأسفل بسرعة ، ويدغدغ بيللي كل هذا الاهتمام المنصب عليه

« أخبر كبير **الحمقى** هاردنغ هذا أن ر ب ماكمورفي ينتظر مقابلته وان هذه المستشفى ليست كبيرة لتتسع لكلينا أنا معتاد على أن أكون المعلّم لقد كنت كبير الجزارين في عمليات الاحتيال التي تجري في الغرب الشمالي ـ وكبير المقامرين من كوريا حتى هنا ، حتى انني كنت كبير المعشّبين في مزرعة البازلاء في بيندلتون وأتصور أنني لو اضطررت لأن أصبح أحمقاً فأنا مضطر الآن لأن أكون أحمقاً بارزاً مسيطراً أخبر هذا الـ « هاردنغ » ان عليه مواجهتي كرجل لرجل والا فهو تافه رعديد والأفضل له مغادرة البلدة عند المغيب . »

ويزداد اتكاء هاردنغ ، يعلق ابهامه في طية سترته

« بيللي ، أخبر هذا الشاب الثائر ماكمورفي أنني سأقابله في القاعة الرئيسية بعد الظهر مباشرة وسنسوي هذه القضية مرة والى الأبد ، فأنا أكاد ، انفجر غيظاً »

ويحاول هاردنغ أن يتشدق بكلامه كما يفعل ماكمورفي ؛ ويبدو مضحكاً بصوته المرتفع اللاهث « يمكنك أن تحذِّره أيضاً ، لكي أكون عادلاً ، انني كنت كبير الحمقى هنا منذ أكثر من سنتين ، وأنا أشدّ جنوناً من أي مخلوق على الأرض» ، « سيد بيبيت ! اخبر السيد ماكمورفي انني من الجنون بحيث انتخبت أيزنهاور مرتين »

« وأخبر السيد هاردنغ فوراً » يضع يديه على الطاولة وينحني، صوته يصبح خافتاً « انني من الجنون بحيث أنوي انتخاب أيزنهاور مرة أخرى في تشرين الثاني القادم »

« أرفع قبعتي » يقول هاردنغ ، يحني رأسه ويصافح ماكمورفي ، لا أشك في أن ماكمورفي قد فاز ، لكني لا أدري كيف

ينصرف كلّ «المبرّحين» عمّا كانوا يفعلونه ويقتربون لرؤ ية أي طراز جديد هو هذا الشخص لم يحل في الجناح من هو على شاكلته أبداً ويسألونه من أين هو وما عمله بطريقة لم أرهم يفعلونها من قبل ويقول انه رجل عصامي يقول انه كان متسكعاً عربيداً مشاكساً قبل أن يلتقطه الجيش ويعلمه ما هو نزوعه الطبيعي بالضبط ، تماماً كما علموا الاحتيال للبعض والتسويف للبعض الآخر ، يقول انهم علموه لعب القمار ومنذ ذلك الحين استقر رأيه فثابر على المقامرة في كل المستويات يلعب البوكر ويقيم وحيداً ويعيش كما يشاء وحيث يشاء لو ان الناس تركوه وشأنه كما يقول ، « لكنكم تعرفون كيف يضطهد المجتمع الرجل العصامي المثابر منذ أن عثرت على ضالتي قضيت وقتاً في سجون مدن صغيرة عديدة يستحق تسجيله في دليل يقولون انني مشاكس اعتيادي احب مشاجرة البعض يا للبراز ! لم يكترثوا كثيراً حين كنت متشرداً أبكماً ينخرط في عراك إثر عراك ، إذ ان هذا يغتفر ويقولون عني أنني دولاب يكدح بنشاط لكنه ينفث البخار أما اذا اصبحت مقامراً وعرفوا انك ترتاد غرفة خلفية لتلعب بين الحين والآخر ، فما عليك سوى أن تبصق من حولك حتى يطبقون عليك باعتبارك مجرماً ملعوناً هوووه ، كانت الميزانية تختل كلما انتزعوني من اللعب ليحتجزوني فترة من الزمن »

يهز رأسه وينفخ خديه

« لكن هذا الوضع دام حقبة من الزمن فهمت بعدها حقائق الأمور وأقول الحق ، ذلك الاعتداء بالضرب في بيندلتون كان أول أنشوطة تدوم ما يقارب العام ولهذا تعرضت للكمة قاضية . كنت متوقفاً عن التدريب وكان ذلك الشاب قادراً على النهوض عن الأرض والاسراع الى الشرطة قبل أن اغادر البلدة رجل خشن للغاية »

يضحك ثانية ويهز ذراعيه مشاركاً في مصارعة الأذرع كلما اقترب منه ذلك الصبي الأسود حاملاً ميزان الحرارة ، حتى قابل الجميع في زاوية « المبرّحين » وحين فرغ من مصافحة آخر «مبرّح» اتجه مباشرة صوب المزمنين كأن لا اختلاف بيننا ولا تستطيع الجزم ان كان ودياً حقاً أم لديه دافع المقامر الذي يحاول التعّرف على الرجال حتى لو كان بعضهم يجهلون اسماءهم

ها هو هناك يشدّ يد ايلليس عن الجدار ويصافحها كسياسي يعتزم أمراً ما ويعتبر صوت ايلليس مفيداً كغيره ويخاطب ايلليس بصوت وقور « أيها الزميل ، اسمي ر ب ماكمورفي ولا أحب أن أرى رجلاً يملأ ثيابه يتخبط في بوله الخاص لماذا لا تجفف نفسك ؟»

وينحني إيلييس بنظره الى البركة التي تغوص فيها قدماه ، ويقول بدهشة « حقاً ، اشكرك » ثم ينتقل بضع خطوات نحو المرحاض قبل أن تجرّ المسامير يديه إلى حيث كانتا على الجدار

وينحدر ماكمورفي باتجاه خط « المزمنين » ، يتصافح مع الكولونيل مايترسون ومع ركلي وبيت العجوز يصافح أيدي « **المشاة بدواليب** » و « **المشاة** » و « **البلداء** » ، يصافح الأيدي التي عليه أن يلتقطها من الأحضان كما تلتقط الطيور الميتة الطيور الميكانيكية ، أعاجيب العظام المتناهية في الصغر والاسلاك التي تحركت ثم سقطت يصافح كل من يمرّ بهم ما عدا جورج الضخم المهووس بالماء ، الذي يكشر ويبتعد باستحياء عن اليد الملوثة ، فيكتفي ماكمورفي بتحيته ويخاطب يده اليمنى وهو يبتعد عنه قائلاً « أيتها اليد ، كيف تفسّرين أن ذلك الصاحب العجوز عرف كل ما ارتكبته من شرور وآثام ؟ »

لا يدرك أحد ما يريد التوصل اليه ، أو سبب اثارته لكل هذا اللغط بلقاء الجميع ، لكن الأمر أفضل من لصق الصور المقصوصة يتابع مردّداً انه شيء ضروري ان يتعرف على جوانب المكان ويقابل الرجال الذين سيتعامل معهم ، وهو جزء من عمل المقامر ولكن عليه أن يعرف انه لن يتعامل الا مع عضوية حية تبلغ الثمانين من العمر لم تعد تتضمن لعب الورق بل وضعه في الفم ومضغه هنيهة من الزمن غير أنه يبدو مستمتعاً بما يفعل ، انه ذلك النوع الذي ينتزع ضحكته من الناس

أنا الأخير لا أزال مكوماً على الكرسي في الزاوية يتوقف ماكمورفي حين يصل إليَّ ويعلّق ابهاميه في جيوبه ثم يستند الى الخف ويضحك ، كأنه يرى فيّ أمراً مضحكاً لا يراه في الآخرين فزعت بغتة حين مرّ ببالي أن ضحكه يعود ربما إلى احساسه أن طريقة جلوسي هناك وقد ارتفعت هناك وقد ارتفعت ركبتاي والتفّ ذراعاي حولهما محدقاً أمامي بصورة مستقيمة وكأني لا أستطيع سماع شيء ، ان ذلك كله مجرد تمثيل

« هوررووي ، انظروا ما لدينا هنا »

أتذكّر هذا الجزء بوضوح كامل أتذكّر الطريقة التي أغلق بها عيناً واحدة وأعاد رأسه الى الخلف ونظر إلى تلك الندبة بلون النبيذ على أنفه ضاحكاً مني فكرت للوهلة الأولى انه يضحك من وضعي الهزلي : وجه هندي وشعر هندي أحمر لزج على شخص مثلي لكني أتذكر الآن انه كان يضحك لأنه لم يخدع لحظة واحدة بتمثيلي دور الأصم الأبكم ولا يغير في الأمر كم كان التمثيل متقناً وخادعاً اقترب مني وهو يضحك ثم غمز بعينه ليخبرني انه يعرف

« ما هي قصتك أيها الزعيم الكبير ؟ تبدو كالرئيس الجالس في اعتصام » جال ببصره على « المبرّحين » ليرى ان كانوا سيضحكون من نكتته ، وحين تبسموا قليلاً استدار نحوي وغمز ثانية « ما اسمك أيها الزعيم ؟ »

نادى بيللي بيبيت من آخر القاعة « اسـ اسـ اسمه برومدن الزعيم برومدن الجميع ينادونه الزعيم مكـ مكـ مكنسة لأن المساعدين يجبرونه على التكنيس معـ معـ معظم الوقت لا شيء غير ذ ذ ذلك يفعله كما أظن انه أصم » ويضع بيللي ذقنه بين يديه ويتنهد « لو كنت أصـ أصماً لقتلت نفسي »

ويواصل ماكمورفي تفحصه لي « انه آخذ في النمو سيكون ذو حجم هائل ، أليس كذلك ؟ أتساءل كم يبلغ طوله ؟ »

« أظن أن أحدهم قا قا قاس طوله فبلغ ستة أقدام وسبعة انشات ، ورغم انه مارد فهو يخاف من ظلـ ظلـ ظلّه ، مجرد هندي أصم ها ها هائل »

« حين رأيته جالساً هنا ظننت انه يشبه الهندي لكن برومدن ليس اسماً هندياً من أي قبيلة هو؟ »

قال بيللي « لا أعرف كان هنا حين وصـ وصـ وصلت »

قال هاردنغ « لدي معلومات من الطبيب انه نصف هندي فقط ، هندي كولومبي كما اعتقد انها قبيلة كولومبية مندثرة تدعى غورغ قال الطبيب ان والده كان زعيم القبيلة ، ومن هنا أخذ صاحبنا لقب الزعيم أما بالنسبة للجزء الثاني من الاسم ، أي برومدن ـ فأخشى أن معرفتي بأنساب الهنود لا تبلغ ذلك »

أدنى ماكمورفي رأسه من رأسي حيث نظرت اليه « هل هذا صحيح ؟ أنت أصم يا زعيم ؟ » مطّ ماكمورفي شفتيه ثم حدّق في وجهي طويلاً استقام إلى الوراء ومدّ يده إليّ

« حسناً ، بحق الجحيم ، يستطيع مصافحتي أليس كذلك ؟ أصمّاً كان أم لا بحق الله يا زعيم ، قد تكون خنجراً ، ولكن عليك ان تصافحني والا اعتبرتها اهانة وليست فكرة حسنة ان تهين «كبير حمقى المستشفى»

وحين قال تلك العبارة حدج هاردنغ وبيللي بنظرة ذات معنى ، لكنه ترك يده أمامي ، ضخمة تطبق العشاء

وأتذكر بوضوح تام كيف بدت تلك اليد الفحم تحت أظافره حيث عمل يوماً في كراج ، هلب بحري موشوم أعلى رسغه ، ضمادة قذرة في منتصف رسغه منسلخة من طرفها ، باقي الرسغ كان مغطى بالندوب والجروح القديمة والحديثة وأتذكر أن راحة اليد كانت ناعمة وصلبة كالعظم من أثر رفع مقابض الفؤوس والمعاول وليست كتلك التي تظنها تتعامل بورق اللعب كانت راحة يده مقشورة وأماكن القشر متشققة مليئة بالقذارة ، خارطة لطريق رحلاته في طول الغرب وعرضه راحة اليد تلك أصدرت صريراً ثقيلاً في يدي أتذكر أن الاصابع كانت سميكة وقوية وهي تضم أصابعي ، وبدأ احساس غريب يسري في يدي ويصعد الى العصا التي أدعوها ذراعي ، كأنه كان ينقل دمه اليها أخذت تضج بالدم والقوة انتفخت وأصبحت كبيرة مثل يده ، وأتذكر

« أيها السيد ماكمورفي ! »

انها الممرضة الكبيرة

« أيها السيد ماكمورفي ، هل لك أن تأتي الى هنا من فضلك ! »

انها الممرضة الكبيرة. ذهب الفتى الاسود ذي الميزان وأحضرها تقف هناك وهي تقرع الميزان بساعة يدها عيناها تتزان وهي تحاول التمعن في هذا الرجل الجديد شفتاها تأخذان شكل المثلث ، كشفتي الدمية المستعدة لعضّة زائفة

« أخبرني المساعد وليم أيها السيد ماكمورفي ، انك كنت صعباً بعض الشيء في تنفيذ حمام القبول هل هذا صحيح ؟ أرجو أن تفهم ، أنا أقدر الطريقة التي باردت بها لتطويع نفسك مع المرضى الآخرين في الجناح ، ولكن كل شيء في وقته حسن يا سيد ماكمورفي أنا آسفة لمقاطعة لقائك بالسيد برومدن ، ولكنك تفهم ، الجميع يجب أن يتقيدوا بالتعليمات »

يعيد رأسه الى الوراء ويغمز ملمحاً أنها لا تخدعه أكثر مما فعلت أنا ، وأنه سيواجهها يتطلع اليها بعين واحدة برهة ويقول

« تعرفين يا سيدتي ، تعرفين ، هذه هي بالضبط القواعد التي يحدثني بها البعض دائماً »

يبتسم يتبادلان الابتسام ويزن أحدهما الآخر

« في اللحظة ذاتها التي يشعرون فيها انني سأفعل العكس تماماً »
ثم يطلق يدي

في المركز الزجاجي **فتحت الممرضة الكبيرة** طرداً مرسلاً من عنوان خارجي وهي تلقم الآن الإبر تحت الجلدية بالسائل العشبي الحليبي الذي وصل في ذلك الطرد معبّأ بالقوارير احدى الممرضات النحيلات ، وهي فتاة ذات عين كثيرة التلّفت تظل تنظر وراء كتفيها بقلق بينما تواصل الأخرى عملها العادي ، تأخذ الصينية المليئة بالإبر دون أن تلمسها

« ما رأيك ، يا آنسة راتشدت ، بهذا المريض الجديد ؟ أقصد القول انه حسن المظهر وودي وغير ذلك ، لكنه في رأيي المتواضع يحاول السيطرة »

تختبر «**الممرضة الكبيرة**». احدى الإبر بأناملها. تغرس الإبرة في القارورة ذات الغطاء المطاطي وترفع المكبس « أخشى أن هذا بالضبط ما يخطط له المريض الجديد السيطرة انه ما يمكن تسميته بالمناور البارع يا آنسة فلين ، رجل يستخدم أي شخص وأي شيء لبلوغ مآربه »

« ولكنه ، آه ، أعني في مصح عقلي ؟ ما تكون مآربه ؟ »

« العديد من كل الأشياء » انها هادئة ، مبتسمة ، منهمكة في تعبئة الإبر

« حياة سهلة مريحة مثلاً ، الاحساس بالسلطة والاحترام ، ربما ، الكسب المالي ، ربما كل هذه الأشياء في بعض الأحيان تتلخص مآرب المناور البارع بكل بساطة في أن يقوّض الجناح بهدف التقويض فقط يضم مجتمعنا مثل هؤلاء الناس انه يستطيع التأثير على المرضى الآخرين وافسادهم إلى درجة تحتاج إلى أشهر لاعادة الأمور إلى نصابها الصحيح ثانية وبالفلسفة المتسامحة السائدة حالياً في المستشفيات العقلية يسهل على هؤلاء تنفيذ مآربهم منذ بضع سنوات كان الأمر مختلفاً تماماً

أذكر منذ سنوات انه كان عندنا في الجناح رجل يدعى السيد تيبر كان مناور الجناح الذي لا يكلّ لفترة من الزمن » تتوقف عن عملها ، الإبرة ملأى حتى

منتصفها كصولجان صغير أمام وجهها تغيب عيناها بعيداً ، وتبهجها الذكرى وتقول

« السيد تيبر ! »

تقول الممرضة الأخرى « ولكن يا يسوع ، أي شيء على الأرض يجعل المرء راغباً في شيء مثل إفساد الجناح يا آنسة راتشدت؟ اي دافع محتمل ؟ » تقاطع الممرضة النحيلة بإغماد الإبرة في غطاء القارورة المطاطي ، تملؤها وتهزها ، ثم تلقيها في الصينية . راقبت يدها تمتد إلى ابرة أخرى فارغة ، تنفض الإبرة ، تسحبها ، ترميها

« يبدو انك يا آنسة فلين تنسين أن هذه مؤسسة مجانين »

«الممرضة الكبيرة» ترفض ان يصرفها أي شيء عن الدوران كآلة محكمة دقيقة ، ناعمة وأي شيء ناشز أو خارج عن النظام يدفعها الى عقدة صغيرة بيضاء من الغضب المختلط بابتسامة صارمة . تتجول ، وابتسامة الدمية تتراقص بين ذقنها وأنفها ، ويشع من عينيها ذلك الأزيز الهادىء ، لكنها في أعماقها متوترة وفولاذية . أعرف ، استطيع الاحساس بها ولا يهدأ لها بال حتى يجري الاعتناء بالفوضى ـ ما تسميه « **الانضباط بالمحيط** »

وجناح « **الداخل** » واقع تحت سيطرتها تماماً ومنضبط كلياً بالمحيط مشكلتها أنها لا تستطيع المكوث في الجناح طوال الوقت عليها أن تقضي بعض الوقت في « **الخارج** » ، ولذا فهي تعمل وعينها على ضبط « **الخارج** » أيضاً وعملها مع من يماثلها في ما أسميه « **الائتلاف** » ، منظمة ضخمة تستهدف ضبط « **الخارج** » بقدر ما يمتثل لها « **الداخل** » ، جعلها محاربة محنكة حقيقية في سبيل ضبط الأشياء ، وقد كانت في المقر القديم هي « **الممرضة الكبيرة** » ، أيضاً حين جئت من « **الخارج** » منذ عهد قديم ، ويعلم الله منذ متى وهي تكرس نفسها للضبط والانتظام

ولقد راقبتها وهي تكتسب المزيد فالمزيد من المهارة عبر مرور السنين شحذتها الممارسة ورسخت عزيمتها حتى أصبحت الآن تدير سلطة واثقة تمتد إلى كل الاتجاهات في أسلاك أشبه بشعر الرأس ، دقيقة جداً لا تراها عين سواي ، أراها تجلس في حمأة الاسلاك تلك كإنسان آلي يقظ ، تدير شبكتها بمهارة الحشرة الآلية ،

تعرف في كل ثانية أي اتجاه يأخذه أي سلك والتيار الذي ينبغي شحنه به للحصول على ما تريد من نتائج   كنت أعمل مساعداً كهربائياً في معسكر التدريب قبل ان ينقلني الجيش إلى المانيا ، كما درست القليل من الكهرباء خلال السنة التي قضيتها في الكلية ، الأمر الذي جعلني أتعلم طريقة التلاعب بهذه الأشياء

وما تحلم به في مركز تلك الاسلاك هو عالم من الكفاءة المنتظمة والدقة اشبه بساعة الجيب ذات الظهر الزجاجي ، مكان لا يخرق فيه الجدول الزمني وكل المرضى الذين ليسوا رهن « الخارج » ينضوون طائعين تحت عمودها ، « مزمنين » يسيرون على دواليب ، وتتدلى من سراويلهم أنابيب القنطرات المتجهة الى اسفل لتصب في بالوعة الأرض   وسنة بعد سنة استكملت جهازها الاداري النموذجي   الاطباء من كل الأعمار والانماط يجيئون ليمثلوا أمامها ، يحمل كل منهم أفكاره الخاصة عن الطريقة المثلى لادارة الجناح. بعضهم يتصلب خلف آرائه ، فتحدجه الممرضة بنظرة من عينيها الجليديتين الجافتين يوماً بعد يوم حتى يتراجع ويهرع مرتجفاً بصورة غير طبيعية إلى قسم الموظفين ويهتف مذعوراً «أقول انني لا أفهم ما أصابني ، منذ أن بدأت العمل مع الممرضة في ذلك الجناح ، وأنا أحس النشادر يسري في عروقي ارتعش طوال الوقت ، ويرفض أطفالي الجلوس في حجري ، ترفض زوجتي أن تشاطرني الفراش   أصرّ على نقلي ، الى القسم العصبي ، جناح المدمنين ، التشخيص الجراحي ، **لا يهمني !!** »

وتلتزم بذلك طوال سنوات   يبقى الطبيب ثلاثة أسابيع ، ثلاثة شهور   ثم تستقر على رجل صغير ذي جبهة عريضة ضخمة ووجنتين عريضتين متهدلتين ، تعلو عينيه الضبابيتين هالات منتفخة ضيقة كأنه كان يضع نظارتين صغيرتين للغاية ، وضعهما لفترة طويلة خفضتا منتصف وجهه ، ينوسان على أرنبة أنفه الارجواني وينزلقان على جانب أو آخر فيرفع وجهه حين يتحدث لتثبيت نظارتيه   هذا هو طبيبها

فتيانها السود النهاريون الثلاثة اختارتهم بعد أكثر من سنة من اختبار ورفض الآلاف   كانوا يفدون اليها في صفوف سوداء طويلة من السحن المتجهمة ضخمة الأنوف ، يكرهونها ويكرهون بياضها الطباشيري ، الاشبه بلون الدمية من النظرة الأولى التي يلقونها عليها   وتمتدحهم وتمتدح كراهيتهم خلال شهر أو نحوه ، ثم

تصرفهم لأنهم لا يكرهون بما يكفي وحين تستقر أخيراً على الثلاثة المطلوبين ، تحصل على الواحد منهم كل بضع سنوات لتنسجه في خطتها وشبكتها ـ فهي واثقة نهائياً انهم يكرهون إلى حد يجعلهم أكفاء

الأول حصلت عليه بعد خمس سنوات من قدومي الى الجناح، قزم عصبي مفتول العضلات بلون الأسفلت البارد اغتصبت أمه في جورجيا بينما كان والده مقيداً إلى المدفأة الحديدية الساخنة والدم ينزف من حذائه كان الصبي في الخامسة من عمره حين أخذ يراقب المشهد من مخبئه ويتلصص من شقوق الباب توقف نموّه بعدها لم يزد إنشاً واحداً تمتدّ رموشه المرتخية الدقيقة من جفنيه كوطواط يتدلى نحو أرنبة أنفه رموش كالجلد الرمادي الرفيع ، يرفعهما قليلاً كلما دخل رجل أبيض إلى الجناح ، يتلصص من خلالهما ويرمق الرجل بنظرات متفحصة ثم يومىء برأسه مرة واحدة وكأنه يقول آه نعم ، متأكداً من أمرٍ كان واثقاً منه من قبل أراد أن يحمل جعبة ملأى بطلقات الصيد حين باشر عمله للمرة الأولى ، وأن يربّي المرضى ، لكنها أخبرته أنهم أقلعوا عن ذلك ، جعلته يترك حيويته للبيت وعلمته تقنيتها هي ، علمته ألا يظهر حقده وأن يكون هادئاً وينتظر ، ينتظر الفرصة السانحة ، القليل من التباطؤ ثم يفتل الحبل ويواصل الضغط الثابت ، دائماً هكذا تتوصل إلى تربيتهم ، هكذا علمته

الاثنان الآخران جاءا بعد سنتين ، يفصل بينهما شهر واحد ، يشبهان بعضهما كأنما صنعت قالباً من الأول لتصب فيه الثاني طويلان وحادان ناتئا العظام ولا تفارق وجهيهما الملامح ذاتها ، كرأس السهم الصوّاني تتلاقى أعينهما ولو لامست شعرهما لقشرا الجلد عن يديك

كلهم سود كجهاز الهاتف ولقد تعلمت هي من ذلك الصف الأسود الطويل الذي سبقهم انهم كلما ازدادوا سواداً كلما نذروا أنفسهم مع الزمن للتنظيف والكشط وحفظ النظام في الجناح مثلاً ، الزي الرسمي لهؤلاء الفتيان الثلاثة ناصع دائماً كالثلج أبيض وبارد وقاسٍ كزيّها

يرتدي الثلاثة سراويل منشّاة بيضاء كالثلج وقمصان بيضاء لها أبزيمات معدنية في احدى جوانبها وأحذية بيضاء لامعة ومصقولة كالجليد ، وللأحذية نعال مطاطية حمراء صامتة كالفأر حين يذرعون القاعة جيئة وذهاباً لا يصدرون أي صوت حين

يتحركون يتجسدون في كل جزء من الجناح كلما حاول مريض أن يختلي بنفسه أو يهمس بسرّ ما لشخص آخر لا يكون المريض وحيداً مع نفسه في زاوية ما حتى ينبعث الصرير على حين غرة وتهب على خده لفحة من الصقيع ، واذ يلتفت باحثاً عن مصدر ذلك يفاجأ بسحنة حجرية باردة تجوس فوقه على الجدار يرى الوجه الأسود فقط لا شيء الجدران بيضاء كالثياب البيضاء ، لامعة براقة كباب الثلاجة ، الأيدي السوداء والوجه الأسود طافية فوقها كالشبح.

سنوات من التدريب ، يتّسق الفتيان الثلاثة أوثق فأوثق مع طباع « **المرضة الكبيرة** » ويصبحـون واحـداً تلو الآخر قادرين على فصل الاسلاك المباشرة والعمل على الأعمدة انها لا تصدر الأوامر بصوت عال أو تترك معلومات مكتوبة يمكن أن تعثر عليها زوجة زائرة أو معلمة مدرسة انها لم تعد في حاجة للأوامر انها متصلّة بموجة عالية التردد طولها الكراهية ، والفتيان السود هنا ينفذون رغباتها حتى قبل أن تفكر بها

وهكذا بعد أن تستكمل المرضة جهازها الاداري تقوم الكفاءة بإغلاق باب الجناح لتكون القفل الحارس كل ما يفكر به الرجال أو يقولونه أو يفعلونه مخطط له مسبقاً وقبل شهور ، يرتكز إلى الملاحظات الصغيرة التي تدونها المرضة خلال النهار هذه الملاحظات يجري تصنيفها وتلقيمها للآلة التي أسمع طنينها خلف الباب الفولاذي في مركز الممرضات يعاد عدد من « **بطاقات الأوامر اليومية** » وقد طفح بنوع من الثقوب الصغيرة المربعة وفي بداية كل يوم تحشر البطاقات المؤرخة في ثقب الجدار الفولاذي وتطن الجدران

الأضواء تسطع في المهجع الساعة السادسة والنصف ينهض « **المبرّحون** » من أسرَّتهم بسرعة وقبل أن يتمكن الفتيان السود من نخسهم ودفعهم إلى العمل في مسح الأرضية وإفراغ صحون السجائر ، تلميع آثار الخدوش عن الجدار حيث لخّص أحدهم يومه السابق ثم تهالك على الأرض وسط دائرة من الدخان والمطاط المحروق ويقذف « **مشاة الدواليب** » بأرجلهم اليابسة الميتة على الأرض وينتظرون كالتماثيل الجامدة أن يأتي من يدفع كراسيهم « **البلداء** » الذين تبولوا على الاسرَّة وتسببوا لأنفسهم بصدمة كهربائية يلفون الملاءات على الأرضية لكي يجمعها الفتيان السود ويستبدلونها بأغطية نظيفة

الدقيقة الخامسة والسبعون بعد السادسة تئز آلات الحلاقة ويصطف « **المبرّحون** » حسب الترتيب الأبجدي أمام المرايا ، أ ، ب ، ت ، ث ويدخل « **المزمنون المشاة** » من أمثالي حين ينتهي « المبرحون » ثم يدفع « **مشاة الدواليب** » الى الداخل أما الثلاثة الباقون ، الذين تجمّع تحت ذقونهم مستحلب أصفر ، فتجري حلاقتهم وهم جلوس في أرائكهم داخل الغرفة النهارية ، بعد تطويق جباههم بحزام جلدي يمنعهم من التذبذب يميناً ويساراً تحت آلة الحلاقة

في بعض الصباحات ، صباحات الاثنين خصوصاً ، اختبيء وأحاول مغافلة التوقيتات في صباحات أخرى أجد صعوبة في حشر نفسي في المكان بين أ و ت حسب الابجدية وأتحرك في الصف كالآخرين دون رفع قدمي ـ هناك قوى مغناطيسية في الأرض تشد الأشخاص في الجناح وتحركهم كما تحرك دمى مسرح العرائس

في السابعة تفتح قاعة الطعام وتنعكس الآية في ترتيب الصف « **مشاة الدواليب** » أولاً ، ثم « **المشاة** » ثم يلتقط « **المبّرحون** » الصواني ، رقائق الذرة ، البيض ولحم الخنزير المقدد ، الخبز المحمص ، وهذا الصباح خوخ معلب على قطعة من ورق الخس الأخضر بعض « **المبرّحين** » يحضرون الصواني لمشاة الدواليب معظم هؤلاء « **مزمنون** » يعانون مصاعب في أقدامهم ولذا فهم يطعمون أنفسهم بأنفسهم ، ولكن هناك ثلاثة من بينهم بلا حراك من العنق وحتى الأسفل ـ وليس من العنق فما فوق ـ هؤلاء يسمّون « **البلداء** » يدفعهم الفتيان السود بعد أن يجلس الجميع ، يسندون كراسيهم إلى جدار ، يحضرون لهم صوان مماثلة تحتوي على طعام أشبه بالوحل ومناديل ورقية بيضاء ملصقة على الصواني ، مكتوب على تلك الأوراق « **طعام ميكانيكي هش** » وهي مخصصة لهؤلاء الثلاثة الذين تساقطت أسنانهم البيض ، فخذ الخنزير ، الخبز المحمص ، الخنزير المقدد ، كله جرى مضغه في المطبخ ٣٢ مرة بآلات لا تصدأ وأراها تضم شفاهاً قاطعة ، أشبه بخراطيم التنظيف الفارغة ، وتقذف كتلة من لحم الخنزير الممضوغ في طبق ، مصدرة صوتاً كصوت الدرّاسة

يحشو الفتيان السود أفواه «**البلداء**»القرنفليةالماصةبايقاع سريع لا يكادون يجارونه في الابتلاع ، وينعصر الطعام الميانيكي الهش داخل أوداج ذقونهم الصغيرة

ليندفع إلى الداخل ويشتم الفتيان ، السود « **البلداء** » ويزيدون في ضخامة اللقم بينما تستمر الملعقة في حركتها الراقصة وتبدو الأفواه كتفاحة غضة مهروسة

« هذا الفم اللعين يكاد يتمزق أمام عيني لم أعد أدري ان كنت أطعمه لحم الخنزير أم أنه يلوك لسانه العاهر »

الدقيقة الثلاثون بعد السابعة تحين العودة إلى الغرفة النهارية تنظر « **الممرضة الكبيرة** » من خلال غرفتها الزجاجية الخاصة ، الزجاج لامع على الدوام حتى تصعب عليك رؤ يته ، وتهز رأسها أمام ما تراه ، تنهض لتمزق ورقة من التقويم فتصبح يوماً آخر على مقربة من الهدف تضغط زرّاً ما لتبدأ الأشياء ، أسمع أزيز لوح من الصفيح يهتز في مكان ما يسمع الجميع الأمر « **المبرحون** » اجلسوا في زوايتكم من الغرفة النهارية وانتظروا ورق اللعب ولعبة المونوبولي « **المزمنون** » اجلسوا في زاويتكم من الغرفة النهارية وانتظروا الاحاجي من صندوق الصليب الأحمر إيلليس اذهب إلى مكانك عند الجدار ، ارفع يديك لتتلقى المسامير وتتخبط قدماك في البول بيت حرك رأسك كدمية العرائس سكاتلون ضع قدميك على الطاولة أمامك واصنع بهما شكل قنبلة حقيقية تنفجر في عالم حقيقي هاردنغ ابدأ الثرثرة ملوّحاً بيديك الناعمتين في الفضاء ، ثم احبسهما تحت إبطيك لأن الرجال العقلاء لا يفترض بهم أن يحركوا أيديهم الجميلة بهذه الطريقة سيفليت ابدأ الشكوى من ألم أسنانك وتساقط شعرك الجميع اشهقوا ازفروا بنظام تام ؛ لتنبض القلوب جميعها حسب الأوامر التي تحملها بطاقة الأمر اليومي اعملوا كالاسطوانات المعدنية المعشقة

مثل عالم كرتوني ، حيث الشخوص مسطحة ومخططة بالأسود ، تتراقص في قصة هزلية كان يمكن لها أن تكون مضحكة حقاً لولا أن شخوصها ليسوا من الكرتون بل هم بشر حقيقيون

الدقيقة الخامسة والأربعون بعد السابعة يتجه الفتيان السود نحو « **المزمنين** » ليعلّقوا القنطرات لمن لا يستطيع التبول والقنطرات أغلفة كوندوم مستعملة مغلقة في نهايتها ومربوطة بوصلة مطاطية إلى الأنابيب المتدلية من السراويل الداخلية إلى كيس بلاستيكي ممهور بعبارة « مستهلك لا يجب استعماله ثانية » ، ومهمتي أن أغسله في نهاية كل يوم ويعلّق الفتيان السود الكوندوم بربطه بشعر الرأس ، ولهذا

يكون « مزمنو » الكوندوم العريقون لا شعر لهم كالوليد من كثرة تبديل أشرطة التعليق

في الثامنة تئز الجدران وتطن في موجة تامة ، يزعق المكبر في السقف « **العلاج !** » مستخدماً صوت الممرضة وتنظر في صندوق الزجاج حيث تجلس هي لكنها ليست قرب المكيروفون ، الحق أنها على مبعدة عشرة أقدام من الميكروفون ، تعلم احدى الممرضات الصغيرات كيفية تحضير صينية علاج جميلة رتبت فيها الحبوب على اختلاف انواعها ويصطف « **المبرحون** » عند الباب الزجاجي ، أ ، ب ، ت ، ث ، ثم « **المزمنون** » ثم « **المشاة بدواليب** » ، (اما « **البلداء** » فيتلقون علاجهم فيما بعد ، ممزوجاً بملعقة من عصير التفاح) ويتعاقب الرجال لتناول كبسولة يضعونها في كأس ورقية ثم يلقونها في حلوقهم ، يملأون الكأس بالماء القريب من الممرضة الصغيرة ويزدردون الكبسولة في مناسبات نادرة ربما بادر مجنون فاستفسر عن ماهية ما يتوجب عليه ابتلاعه

« انتظري لحظة يا حبيبتي ؛ ما هي الكبسولة الحمـراء الموضـوعة مـع منشطاتي ؟ »

أعرفه انه « مبرح » ضخم لجوج ، عرف عنه اثارته لكثير من المتاعب

« انها مجرد علاج يا سيد تيبر ، مفيدة لك ابتلعها الآن »

« لكني أعني أي نوع من العلاج بحق المسيح . استطيع أن أرى انها حبوب ـ » .

« ابتلعها فقط ، من اجلي يا سيد تيبر ، هيا » تختلس نظرة عجلى الى الممرضة لترى مدى استحسانها لتقنية المداعبة التي تستخدمها ، ثم تلتفت ثانية إلى « المبّرح » انه لا يزال غير مستعد لابتلاع شيء لا يعرفه ، حتى من اجلها

« يا آنسة ، لا أحب خلق المتاعب لكني لا أحب ابتلاع شيء دون معرفته كيف أعرف أن هذه ليست واحدة من تلك الحبوب المضحكة التي تجعلني في حالة لست عليها ؟ »

« لا تقلق يا سيد تيبر »

« أقلق ؟ كل ما أريد **معرفته** بحق المسيح هو ـ »

لكن الممرضة وصلت الآن ، أطبقت يدها على ذراعه لتشلّه حتى الكتف « لا بأس يا آنسة فلين » وتقول « لو اختار السيد تيبر أن يتصرف كالطفل فيجب معاملته على هذا الاساس حاولنا أن نظهر له اللطف والتفهم الواضح أن هذا لا يفيد العداء ، العداء ، .هذا هو الشيء الذي نقابل به تستطيع الذهاب يا سيد تيبر اذا كنت لا تريد تناول علاجك عن طريق الفم »

« كل ما أريد معرفته ، بحق ـ »

« تستطيع الذهاب »

يذهب متذمراً حين تطلق ذراعه ويقضي الصباح وهو يمسح قرب المرحاض مفكراً بتلك الكبسولات في احدى المرات وضعت احدى هذه الكبسولات الحمراء تحت لساني متظاهراً انني قد ابتلعتها ، ثم سحقتها في صندوق المكنسة قبل أن تتحول إلى مسحوق أبيض رأيت انها عنصر اليكتروني دقيق من تلك التي كنت أساعد فريق الرادار في صنعها للجيش ، أسلاك ميكروسكوبية وصفائح مولدات ومحولات كهربائية من النوع المعدّ للانحلال عند اتصاله بالهواء

الدقيقة العشرون بعد الثامنة يظهر ورق اللعب وتظهر الأحاجي

الدقيقة الخامسة والعشرون بعد الثامنة يذكر أحد « المبرحين » انه اعتاد مراقبة شقيقته وهي تستحم ، ويتدافع الثلاثة الجالسون معه الى السجل اليومي ليروا من يسجل المعلومات أولاً

الدقيقة الثلاثون بعد الثامنة يفتح باب الجناح ويدلف فنّيان ، تفوح منهما رائحة نبيذ العنب الفنيون يتحركون دائماً بسرعة أو يخبون لأنهم يكثرون من الانحناء وعليهم التحرك بسرعة لابقاء أجسامهم مستقيمة ، ينحنون إلى الامام دائماً وتفوح منهم رائحة النبيذ وكأنهم عقموا أدواتهم بالنبيذ يسحب الفنيّان باب المختبر وراءهما ، وأكنس قريباً منهما فأتمكن من سماع أصواتهما عبر دوي الززززززت ـ زززززت ـ زززززت الصادر عن الفولاذ وحجر الشحذ

« ما الذي لدينا في هذه الساعة اللعينة من الصباح »

« علينا أن نركب فاصل تنصّت داخلي في احدى الأجهزة ، تريدنا أن نسرع في العمل ولست واثقاً إن كانت اللوازم متوفرة في المخزن »

« تستطيع طلبها من الورشة ، سأفتش في قسم الامداد »

« هيه ، أحضر معك زجاجة من ألياف اللصق حين تعود   لا أستطيع تركيب أي شيء واحتاج الى مثبت   يا للجحيم ، ان العمل في المرآب أفضل »

أصواتهم سريعة ، مكتوفة ، لا تتردد كالكلام الحقيقي بل هي أشبه بحوار أفلام الكرتون   اكنس بعيداً قبل أن يداهموني متلبساً بالإصغاء اليهم

يمسك اثنان من السود تيبر بالقرب من المرحاض ، ويسحبانه الى غرفة الحشايا   يصيب أحدهم بركلة في ساقه   يصرخ ويهدد بالويل والثبور   أدهش حين أرى كم يبدو عاجزاً حين اقتادانه ، كأنه ملفوف بعصابات من الحديد الأسود

يدفعانه على وجهه فوق الفراش   يجلس أحدهم فوق رأسه ويمزق الآخر قميصه من الخلف فينكشف ظهره الأصفر الفاقع وأطراف ثيابه الداخلية   يمطرهما بلعناته التي تختنق فوق الفراش والصبي الجالس فوق رأسه يردد: «حسناً يا سيد تيبر ، حسناً » ، تعبر الممرضة القاعة وقد دهنت إبرة طويلة بالفازلين ، تحكم اغلاق الباب لكي يختفي الجميع عن الانظار لثانية واحدة ، ثم تخرج مباشرة ، تمسح الإبرة بقطعة من قميص تيبر   تركت قارورة الفازلين في الغرفة ، وقبل أن يسارع الأسود إلى اقفال الباب وراءها ألمح الآخر الذي لا يزال جالساً فوق تيبر وهو يمسحه بمنديل ورقي   يمكثان هناك طويلاً قبل أن يفتح الباب ثانية ويخرجان ، حاملين تيبر عبر القاعة الى المغاسل   ثيابه الداخلية الممزقة مكشوفة وقد لفّاه في قماش رطب

في التاسعة يتحدث المقيمون الشباب الذين يرتدون أكماماً جلدية الى « المبرّحين » لمدة خمسين دقيقة عما كانوا يفعلونه وقت الصبا   والممرضة الكبيرة شديدة التشكك بالنظرات المضطربة لهؤلاء المقيمين ، والدقائق الخمسون التي يمكثونها في الجناح فترة صعبة بالنسبة اليها   وبينما هم في الداخل تدور الآلة وتعكف الممرضة على تسجيل الملاحظات وفحص أضابير هؤلاء الفتيان بحثاً عن خرق ما لقواعد السير أو شيء شبيه بذلك

الدقيقة الخمسون بعد التاسعة يغادر المقيمون ليعلو طنين الآلة الناعم ثانية تراقب الممرضة الغرفة النهارية من مكتبها الزجاجي ، المشهد أمامها يكتسي بوضوح الفولاذ الأزرق ثانية ، بالحركة الرشيقة الموزونة لمهزلة كرتونية

يُجرّ تيبر من المغاسل إلى سرير ذي دواليب

« علينا أن نعطيه حقنة جديدة حين يعاود الزعيق خلال العلاج » يقول الفتى الأسود ثم يردف « ما رأيك في أن نأخذه مباشرة إلى المبنى الأول وندوخه بالصدمة الكهربائية بينما الفرصة سانحة ، فنوفر بذلك تخديراً اضافياً »

« أظن أنه اقتراح ممتاز قد نأخذه بعد ذلك إلى الأشعة الكهربائية الرأسية ونفحص رأسه لعلنا نعثر على دليل يوجب جراحة دماغه » ويدفعانه على الدواليب

يخبّ الفنيّان خارجين كالرسوم المتحركة ، كالدمى ، الدمى الميكانيكية في أحد فصول « بنش » و « جودي » حين يفترض أنه من المضحك رؤ ية الدمى تتعرض لضرب الشيطان أو حين يبتلعها التمساح مبتدئاً برأسها

في العاشرة يصل البريد تستلم أحياناً مظروفاً ممزقاً

في العاشرة والنصف يصل رجل العلاقات العامة تتبعه السيدات عضوات النادي يطبق يده على باب الغرفة النهارية

« مرحباً يا شباب ، صمتاً ، صمتاً تطلعن من حولكن أيتها الفتيات أليس المكان نظيفاً جداً ، لامعاً جداً ؟ انها الآنسة راتشدت اخترت هذا الجنا لأنه جناحها انها يا فتيات كالأم تماماً لا أقصد العمر ، بل تفهمن ما أعني »

قبة قميص العلاقات العامة مشدودة إلى حد انها تعصر وجهه حين يضحك ، وهو يضحك معظم الوقت دون أن أعرف مرة واحدة سبب ضحكه ، يضحك بصخب وسرعة كأنه يتمنى لو أمسك ، لكنه لا يستطيع ويُعتصر وجهه فيحمّر ويستدير كالبالون الموشوم بوجه بشري نبت الشعر على وجهه دون رأسه ، يبدو وكأنه قد ألصق بعض الشعيرات على رأسه لكنها تساقطت تدريجياً في جيوب قميصه وداخل قبّته وأكمامه ربما كان هذا هو السبب في شدّه للقبّة الى هذا الحد ، ربما لمنع تسلل الشعيرات الصغيرة عبرها ولعله السبب في ضحكه المفرط ، لعله غير قادر على طرد الشعيرات المتساقطة

وهو الذي يقود الرحلات نسوة رزينات يومئن اليه حين يشرح كم تحسنت

الأمور في الجناح يشير إلى جهاز التلفزيون ، إلى الكراسي الجلدية الضخمة ، نافورات مياه الشرب ثم يمضي معهن إلى مركز الممرضات لاحتساء القهوة أحياناً يكون لوحده فيقف في منتصف الغرفة النهارية ويصفق بيديه (يمكنك سماع رطوبتها) ، يصفق بهما مرتين أو ثلاثة حتى تلتصقان ، ثم يضمهما تحت ذقنه كما في الصلاة ، ويبدأ في الدوران ، يدور في منتصف القاعة تلوح عليه النشوة والهوس بجهاز التلفزيون ، بالصور الجديدة على الجدار ، بنوافير الشرب ويضحك

ما يراه مثيراً للضحك لا يطلعنا عليه ، والشيء الوحيد الذي أجده مضحكاً هو دورانه هنا وهناك كالدمية المطاطية ، ولو دفعته فسيميل إلى الأمام ونحو الأسفل ثم يهتز إلى الوراء مستقيماً مرة ثانية ، يواصل الدوران لا ينظر أبداً ، أبداً إلى وجوه الرجال

الدقيقة الأربعون ، الخامسة والاربعون ، الخمسون بعد العاشرة يتوزع المرضى حسب مواعيدهم في غرف العلاج ، أو في غرف غامضة في مكان ما حيث الجدران ليست بالحجم المألوف والأرض ليست مستوية والآلة تصدر شارة تفيد بلوغك سرعة طواف ثابتة

يطن الجناح كما سمعت يوماً طنين محلجة القطن حين لعب فريق الثانوية لكرة القدم مباراة في كاليفورنيا بعد موسم طيب قرر الممولون في المدينة تغطية نفقات سفرنا إلى كاليفورنيا للعب في نهائي بطولة المدارس وكان علينا زيارة بعض الصناعات المحلية فور وصولنا الى المدينة ، وكان مشرفنا يبغي بذلك إقناع الناس بأن الرياضة عملية تربوية بسبب ما تعلّمه هذه الرحلات كان يتجول بنا في كل رحلة نقوم بها ويأخذنا لزيارة مصانع المعلبات والالبان قبل المباراة في كاليفورنيا زرنا محلجة القطن ، في داخل المحلجة ألقى معظم أفراد الفريق نظرة عجلى ثم غادروها للجلوس في الباص وممارسة الشطرنج على حقائب السفر ، لكني بقيت في الداخل أتفحص من زاويتي الزنجيات وهن يدرن بين الآلات وضعتني المحلجة في ما يشبه الحلم ، طنين وصرير وقعقعة البشر والآلات ، حركة في نظام واحد لهذا بقيت انا في حين غادر الآخرون ، ولأن المحلجة أيضاً ذكرتني بطريقة ما برجال القبيلة الذين غادروا القرية في الأعوام الأخيرة للعمل في كسّارات السد ، النظام

الجامد ، الوجوه التي حنّطها الروتين   أردت الخروج مع الفريق لكني لم استطع

كان الوقت صباحاً من يوم شتاء مبكر وكنت لا أزال أرتدي السترة التي نلناها حين فزنا بالبطولة ، سترة خضراء وحمراء ذات أكمام جلدية وأبزيمات لها شكل كرة القدم مخاطة على الظهر تفيد بما ربحناه ، وقد أثارت فضول نفر من الزنجيات خلعتها لكنهن واصلن النظر   كنت أضخم قليلاً تلك الأيام

احدى الفتيات تركت آلتها ، تطلعت يمنة ويسرة لترى ان كان المراقب موجوداً ، ثم هرعت إلى حيث كنت أقف   سألت إن كنت ستلعب المباراة النهائية تلك الليلة واخبرتني ان لها شقيقاً يلعب في الفريق الآخر   تحدثنا قليلاً عن كرة القدم وغيرها ، ثم لاحظت كيف يبدو وجهها زائغاً كأنما الضباب قائم بيننا   كانت تلك ندف القطن تطوف في الهواء

حدثتها عن ندف القطن   رمشت بعينها وكتمت ضحكتها بأصابعها حين أخبرتها كيف يمكن أن يبدو وجهها في صباح ضبابي من صباحات صيد البط ، وقالت « بحق الآله لماذا تريد الانفراد بوجهي في زحام من البط ؟ »   وقلت انها قد تعني ببندقيتي وكتمت الفتيات ضحكاتهن بأيديهن   ضحكت أنا نفسي حين لاحظت كم كنت ذكياً   كنا لا نزال نتحدث ونضحك حين أمسكت بيدي الاثنتين ، برزت ملامح وجهها وانجلت في بؤرة لامعة ؛ رأيت انها فزعة من شيء ما « إفعل ! » قالت هامسة « خذني ايها الفتى الضخم خارج هذه المحلجة ، خارج هذه البلدة ، خارج هذه الحياة   خذني إلى مستنقع بط في أي مكان ، إلى أي مكان آخر   هيه ، أيها الفتى الضخم هه ؟ »

تألق وجهها الأسود الجميل في مواجهتي ، فغرت فمي دهشة ، حاولت التفكير في طريقة ما للرد عليها   كنا أسيرين هكذا لثانيتين من الزمن ، ثم زعق صوت الآلة فجأة ، وبدأ شيء ما يسحبها بعيداً عني ، سلك مثبت في مكان ما معلق بتلك التنورة الحمراء كان يجرها إلى الخلف   تشبثت أظافرها بيدي ، وحالما فقدت الاتصال بي لمع وجهها ثانية ، أصبح ناعماً وسلساً كالشوكولا الذائبة وراء الضباب العابق من القطن   ضحكت واستدارت لتمنحني لفتة من ساقها الصفراء حين هفهفت تنورتها   غمزتني من وراء كتفها وهي   تجري إلى آلتها حيث كانت كومة

من الألياف تتجمع فوق الطاولة وتنحدر الى الأرض قبضت عليها وخفت إلى الممر الواصل بين الآلات لتعيد ربط الألياف في الخطاف ، ثم اختفت عن الأنظار قرب الزاوية

كل هذه المغازل الدائرة والضاجة والمكوكات المتقافزة والوشائح التي تقرع الهواء بالأسلاك ، الجدران الناصعة البياض والآلات ، الفولاذية الرمادية ، الفتيات بتنانيرهن المزهرة يرحن ويجئن ، الكل ملتحم بالخيوط البيضاء الطافية التي تشد المصنع بعضه الى بعض ، كل ذلك انطبع في ذهني ، وبين الحين والآخر يبدو إليّ هذا الشيء أو ذاك في الجناح

نعم ، هذا ما أعرفه الجناح مصنع تابع لـ « **الائتلاف** » مهمته أن يصحح الأخطاء المرتكبة في المحيط ، في المدرسة ، في الكنائس ، وفي المستشفى وحين يخرج نتاج كامل الى المجتمع ، حسن الترتيب من كل جانب وكأنه جديد ، **أفضل** من الجديد أحياناً ، فهو يجلب الغبطة الى قلب « **الممرضة الكبيرة** » الذي جاء والفوضى تعشّش في جنباته أصبح الآن عنصراً معدّلاً ممتثلاً فعالاً ، رصيداً يضاف إلى الحاجة وأعجوبة للناظر انظر اليه يزرع الأرض بابتسامة مصطنعة ، يتلاءم مع محيط، صغير جميل حيث بدأوا لتوهم في حفر الخنادق على طول الشارع لتمديد أنابيب الشرب للمدينة انه سعيد بذلك ، لقد جرت ملاءمته مع المحيط أخيراً

« تباً ! لم أر أي تغيير واضح يطرأ على ماكسويل تيبر منذ أن غادر تلك المستشفى هالات صغيرة سوداء وزرقاء حول عينيه ، نقص القليل من وزنه ، و ألا تعلم ؟ انه **رجل جديد** يا الله ، العلم الأمريكي الحديث »

ويشع الضوء من نافذة غرفته في القبو بعد منتصف كل ليلة حيث أن « **عناصر التفاعل المطوّل** » التي ركّبها الفنيون تفعل فعلها في مهارة أصابعه حين ينحني على صورة زوجته الباهتة وابنتيه اللتين في الرابعة والسادسة من عمرهما والجار الذي يتشاجر معه أيام الاثنين انه يلائمهم كما جرت ملاءمته هكذا ينشرون خطتهم

وحين يقضي أخيراً عدداً من السنوات مخططاً له مسبقاً تتدلّه المدينة في حبه وتنشر الصحف صورته وهو يساعد الكشافة في يوم النظافة العامة ، وتتلقى زوجته رسالة من مدير الثانوية يخبرها فيها كيف أن ماكسويل ويلسون تيبر شخصية ملهمة لشباب مجتمعنا الرائع

حتى تجار التحف القديمة ، وهم عادة شريكان يبخلان في صرف قرش واحد ، يتأثران ، « نعم ، انظر اليه هناك   ماكس تيبر العجوز   كان رجلاً من معدن جيد   ما قولك لو قدمنا تلك التحفة الثقيلة دون أجر اضافي لزوجته   كلا بحق الشيطان لنضعها أمام المنزل »

تخريج ناجح من هذا النوع يجلب البهجة إلى قلب الممرضة ويحيط مهنتها وعموم صناعتها بسمعة طيبة   الكل سعيد بالتخريج

لكن النزيل الجديد قصة مختلفة   حتى النزيل الدمث يحتاج الى بعض الجهد عند إدخاله في الروتين و ، أيضاً ، لا تستطيع القول متى يجيء ذلك النزيل حراً بشكل يجعله يخادع ويراوغ يميناً ويساراً ويخلق جحيماً من الفوضى ويشكل تهديداً لسلاسة التركيبة بأكملها   والممرضة ، كما أوضحت ، ترفض أن يصرفها أي شيء عن الدوران كآلة ناعمة

قبل الظهر يديرون آلة الضباب من جديد لكنهم لا يشغلونها بأقصى طاقتها ؛ ليست الرؤ ية عسيرة تماماً ، لكني لا أتمكن من الرؤ ية الا بصعوبة حقيقية   يوماً ما سأتوقف عن إجهاد نفسي وأرخي لها العنان تماماً ، أرخي أرخي نفسي في الضباب كما يفعل بعض « المزمنين » الآخرين   أنا مهتم الآن بهذا الرجل الجديد وأريد أن أرى ما سيفعل في « اجتماع المجموعة » القادم

في الدقيقة العاشرة قبل الواحدة ينقشع الضباب تماماً ويطلب الفتيان السود من « المبرّحين » أن ينظفوا الأرض ، استعداداً للاجتماع   تنقل كل المناضد خارج الغرفة النهارية الى غرفة الحوض عبر القاعة   يقول ماكمورفي وهو يغادر القاعة كأنهم يعدوننا لحفلة رقص صغيرة

الممرضة الكبيرة تراقب كل ذلك من خلال نافذتها   لم تتحرك من بقعتها أمام تلك النافذة   منذ ثلاث ساعات ثقيلة ، حتى للغداء   يتم إخلاء أرضية الغرفة النهارية من المناضد ، وفي الواحدة يخرج الطبيب من مكتبه متجهاً نحو القاعة ، يوميء للممرضة حين يحاذي نافذتها التي تراقب منها ويجلس في كرسيه على يسار الباب   يجلس المرضى حين يجلس هو ، ثم تخف الممرضات الصغيرات والمقيمون الشباب ،وحين يكتمل الجميع تنهض الممرضة الكبيرة من وراء نافذتها ثم تمضي الى سياج مركز الممرضات فاللوحة الفولاذية ذات الأزرار والأقراص المدرّجة ، تضع ما

يشبه المرشد الأوتوماتيكي الذي يتولى ادارة الأمور بينما تكون منشغلة ، ثم تدلف إلى الغرفة النهارية حاملة السجل اليومي وسلّة من الملاحظات رداؤ ها ، على الرغم من بقائها هنا طوال منتصف النهار ، لا يزال مشدوداً ناتئاً ومكوياً من كل أطرافه ؛ يصدر قرقعة حادة عند نقاط اتصاله ببعضه وصوتاً أشبه بالقماش المقسّى حين يطوى

تجلس على يمين الباب مباشرة

وحالما تأخذ مكانها يقفز بيت بانشيني العجوز على قدميه ويبدأ في هزّ رأسه والصراخ « أنا متعب أوف يا رب أنا متعب حتى الموت » وهو ما يفعله عادة كلما حلّ رجل جديد في الجناح يمكن أن يصغي اليه

الممرضة الكبيرة لا تلتفت إلى بيت تنظرفي الأوراق المتراكمة في السلة تقول « ليلجس أحدكم قرب السيد بانشيني ، هدّئوه لنتمكن من بدء الاجتماع »

يذهب بيللي ببيبت استدار بيت ليواجه ماكمورفي ويحرك وجهه من جهة لأخرى كضوء الاشارة في تقاطع سكة حديدية لقد عمل في السكك ثلاثين سنة ، يرتدي الآن ثاياً نظيفة لكنه لا يزال يعمل في الذاكرة

« أنا تعباا ا ا ا ن » يقول وهو يهز رأسه صوب ماكمورفي

« هوّن عليك يا بيت » يقول بيللي ويلقي يده المرتعشة على ركبة بيت

« متعب حتى الموت »

«أعرف يا بيت » يربت على الركبة الهزيلة ، ويتراجع بيت بوجهه ، يدرك أنه لن يرأف أحد بشكواه هذا اليوم

تنزع الممرضة ساعة يدها وتنظر إلى ساعة الجناح الجدارية وتضبط ساعتها وتضعها في مواجهتها داخل السلة تتناول ملفاً من السلة

« والآن هل نبدأ الاجتماع ؟ »

تتلفت من حولها لترى ان كان أحد سيقاطعها ثانية ، مبتسمة بهدوء ، رأسها يدور في رقبتها يتحاشى الرجال نظرتها ، جميعهم شاخصون في أظافر أصابعهم باستثناء ماكمورفي اختار لنفسه أريكة في الزاوية ، يجلس فيها وكأنه ينظر الى

الأمور بحسن نيّة ، يراقب حركاتها وسكناتها ، لا تزال قبعته على رأسه ، مضغوطة بشدة على رأسه الأحمر كأنه متسابق دراجات نارية   شدّة ورق في حجره ويده حافلة بأوراق منشورة ، يشدّها مصدراً صوتاً ثابتاً يخرق الصمت   المرضة تدحجه بنظراتها لبعض الوقت   راقبته في الصباح وهو يلعب البوكر ورغم أنها لم تلمح نقوداً على طاولة اللعب فهي ترتاب في أن يكون من النوع الذي يقبل بقانون الجناح ويسعد باللعب لمجرد التسلية   تصدر الشدّة صوتاً جديداً وهي تنفتح وتنغلق ثانية ثم تختفي في واحدة من الراحتين الضخمتين   تنظر الممرضة الى ساعتها ثانية ثم تسحب قصاصة ورق من الملف الذي بين يديها ، تنظر اليها ثم تعيدها الى الملف   تضع الملف وتأخذ السجل   يسعل إيلليس من مكانه على الجدار ؛ تنتظر حتى يتوقف

« والآن   في نهاية اجتماع الجمعة   كنا نناقش مشكلة السيد هاردنغ فيما يخصّ زوجته الفتية   ذكر ان زوجته تمتلك ثديين ضخمين مثيرين يضايقانه لأنهما يلفتان أنظار الرجال في الشارع »   تبدأ في فتح بعض صحائف السجل الذي تبرز منه قصاصات الأوراق الصغيرة التي تؤشر بعض الصفحات   « طبقاً للملاحظات التي سجلها مرضى مختلفون في السجل ، ذكر على لسان السيد هاردنغ انها « لعنها الله تعطي الأنذال سبباً للحملقة » كما سمع أيضاً وهو يقول أنه قد **يعطيها** سبباً للبحث عن رعاية جنسية اضافية   سمع وهو يقول « زوجتي الجاهلة العزيزة ، الحلوة الحمقاء تظن أن أي كلمة أو لمحة لا تفوح منها الوحشية والجلافة هي دلالة على التخنث والوهن »

تواصل قراءة السجل بصمت لبرهة ، ثم تغلقه

« ذكر أيضاً أن صدر زوجته العامر يجعله في بعض الأحيان يشعر بالنقص وهكذا   هل في نية أحدكم أن يلمس هذا الموضوع أكثر من ذلك ؟ »

يغلق هاردنغ عينيه ولا ينبس أحد ببنت شفة   يلتفت ماكمورفي الى الرجال الآخرين منتظراً أن يجيب أحدهم الممرضة ، ثم يرفع يده مبرزاً اصبعه كأطفال المدارس داخل غرفة الصف   تشير الممرضة اليه

« السيد ، آه   ماكمورفي ؟ »

« يلمس ماذا ؟ »

« ماذا ؟ يلمس ـ »

« سألت كما اعتقد هل في نية أحدكم أن يلمس ـ »

« يلمسِ الموضوع يا سيد ماكمري ، موضوع مشكلة السيد هاردنغ مع زوجته »

« آه ظننتك تقصدين لمسها ، لمس شيء آخر »

« كيف ظننت »

لكنها تتوقف كادت أن ترتبك قليلاً بعض « المبرحين » اخفوا ابتساماتهم يتمطى ماكمورفي ، يتثاءب ثم يغمز لهاردنغ تضع الممرضة السجل في السلة بهدوئها المعتاد ثم تأخذ سجلاً آخراً ، تفتحه وتباشر القراءة

« ماكمري ، راندل باتريك حكمت عليه الدولة بالعمل في مزرعة سجن بيندلتون الاصلاحي أرسل للتشخيص وامكانية العلاج في الخامسة والثلاثين من العمر لم يسبق له الزواج حاز على صليب الخدمة في كوريا لقيادته محاولة هروب ناجحة من معسكر اعتقال شيوعي طرد وتشهير بعد ذلك لقلة الانضباط تلاه تاريخ من حوادث الشجار والعراك في الشوارع وسلسلة من التوقيفات بسبب السكر والاعتداء والاكراه وإقلاق الراحة ، المقامرة المتكررة ، واعتقال واحد ـ اغتصاب »

« اغتصاب ! » يعلو صوت الطبيب

« بالرضى ، مع فتاة في ـ »

« هووه لم استطع تدبّر ذلك » يقول ماكمورفي مخاطباً الطبيب « لم تشهد الفتاة »

« مع طفلة في الخامسة عشرة »

« قالت انها في السابعة عشرة يا حكيم ، كانت مشحونة بالرغبة »

« أثبت فحص الطبيب الشرعي حدوث الايلاج ، الايلاج المتكرر ـ كما يذكر السجل »

« مشحونة بالرغبة حتى الجنون لقد اضطررت الى إخاطة منافذ سروالي »

« رفضت الطفلة الإقرار رغم نتائج فحص الطبيب ، وبدا ان هناك تخويفاً وتهديداً   غادر المتهم البلدة بعد فترة قصيرة من المحاكمة »

« هووه يا شباب ، كان عليّ أن أرحل   يا حكيم ، دعني أخبرك - »

ينحني إلى الأمام وكوعه على ركبته ، هامساً للطبيب البعيد عنه

« كادت تلك اللعوب الصغيرة أن تحرقني حتى تبلغ سن السادسة عشرة الشرعي   وصلت إلى النقطة التي تستطيع فيها هزيمتي وإلقائي على الأرض »

تغلق الممرضة الملف وتمرره عبر الباب إلى الطبيب «نزيلنا الجديد يا دكتور سبايفي »   كأنها تطوي رجلاً داخل تلك الورقة الصفراء وتمرّره للاطلاع عليه « رأيت أن أطلعك على ملفه في وقت لاحق من هذا اليوم ، ولأنه يلح على ابراز نفسه في اجتماع المجموعة ، فلنا أن نعالج موضوعه الآن »

يتناول الطبيب نظارتيه من جيب معطفه ساحباً السلك ، يركبهما على أنفه أمام عينيه ، يميلان قليلاً إلى اليمين وهو يتفحص الملف ، لكنه يحني رأسه الى اليسار فيعيد تسوية وضعهما   يبتسم قليلاً وهو يتفحص الملف ، كأنما دغدغته طريقة هذا الرجل الجديد الوقحة في التحدث قبلنا جميعاً   لنه ، كحالنا جميعاً ، حريص على كبح جماح نفسه وعدم الضحك   يغلق الطبيب الملف حين يبلغ نهايته ، ويعيد نظارتيه الى جيبه   ينظر إلى حيث لا يزال ماكمورفي مستنداً ينظر إليه عبر القاعة

« يبدو يا سيد ماكموري ، انه ليست لديك حالة نفسية أخرى ! »

« **ماكمورفي** يا حكيم   »

« آه ، ولكني اعتقدت ، الممرضة كانت تقول - »

يفتح الملف ثانية ، يتناول النظارتين ، يتفحص الملف دقيقة أخرى قبل أن يغلقه ، يعيد نظارتيه إلى جيبه «نعم ماكمورفي ، هذا صحيح   أرجو معذرتك »

« لا بأس يا حكيم   انها السيدة هناك التي بدأت الأمر ، ارتكبت الخطأ أعرف أن البعض يعتاد على ارتكاب الخطأ   كان لدي عم يدعى هالاهان ، مضى يوماً مع امرأة كانت تواصل الادعاء بأنها لا تتذكر اسمه الصحيح فتناديه هوليفان لتثيره   واصلت ذلك شهراً كاملاً قبل أن يوقفها   وأوقفها كما يجب أيضاً   »

ويسأل الطبيب « أوه ، كيف أوقفها ؟ »

يضحك ماكمورفي ويحك انفه بابهامه « آه ، الآن لا أستطيع اخبارك . انني أحفظ طريقة العم هالاهان كسر دفين لكي استخدمها كما ترى عند حاجتي اليها يوماً »

يوجه الكلام للمرضة مباشرة « والآن ، عم كنت تستفسر في سجلي يا حكيم ؟ »

« نعم كنت أتساءل ان كانت لديك حالة نفسية سابقة أي تحليل ، أي زمن أمضيته في مؤسسات أخرى ؟ »

« حسناً ، في سجون الولاية وزنازين المقاطعة ـ »

« مؤسسات **عقلية** »

« آه ، كلا إذا كنت تقصد تلك هذه رحلتي الأولى لكني **مجنون** يا حكيم ، اقسم اني مجنون حسناً ، اسمع ـ دعني اريك هنا ، أظن ان الطبيب الآخر في المزرعة ـ »

ينهض ، يدس شدّة الورق في جيب سترته ، ويعبر الغرفة لينحني على كتف الطبيب ويضع ابهامه على الملف الذي في حجره « أظن أنه كتب شيئاً على ظهر هذه الورقة أو تلك »

« نعم ، لقد فاتني ذلك ، لحظة واحدة » يتناول الطبيب نظارتيه ويضعهما لينظر حيث يشير ماكمورفي

« هنا بالضبط يا حكيم المرضة أغفلت هذا الجزء وهي **توجز** سجلي انه يقول السيد ماكمورفي أظهر نوبات **متكررة** أريد فقط أن أضمن فهمي بصورة حسنة ـ « نوبات **متكررة** من الهيجان الذي يوحي باحتمال تشخيص الاختلال العقلي » وأخبرني أن الاختلال العقلي يعني أنني أعارك وأضاجع ـ عذراً سيداتي ـ يعني أنني كما قال **مفرط** في علاقاتي الجنسية هل هذا صحيح حقاً يا حكيم ؟ »

يطرح السؤال ومسحة اهتمام وقلق التلميذ الصغير على وجهه العريض الخشن فلا يملك الطبيب إلا احناء رأسه لاخفاء ابتسامة أخرى صغيرة في ياقته ، وتسقط

نظارتاه عن أنفه الى جيبه مباشرة « المبرحون » جميعهم يبتسمون ، حتى بعض « المزمنين »

« أقصد ذلك الإفراط يا حكيم ، هل أزعجك يوماً ما ؟ »

يمسح الطبيب عينيه « كلا يا سيد ماكمورفي أقرّ بأنه لم يفعل أنا مهتم مع ذلك بأن طبيب المزرعة أضاف هذه الملاحظة لا يجب استبعاد حقيقة أن هذا الرجل قد يتظاهر بالاختلال العقلي للفرار من مشاق مزرعة العمل »

ينظر الى ماكمورفي « فما رأيك في ذلك يا سيد ماكمورفي ؟ »

« أيها الطبيب » يقف بقامته الفارعة ، يعقد جبينه ويرفع ذراعيه ، واضحاً وشريفاً أمام العالم المترامي ـ « هل أبدو كرجل سليم العقل ؟ »

يبذل الطبيب جهده ليتفادى الضحك ثانية ولا يستطيع الاجابة ينحرف ماكمورفي بعيداً عن الطبيب ويسأل السؤال نفسه للمرضة الكبيرة ـ « هل أبدو ؟ » ، وبدلاً من إجابته تقف وتأخذ الملف من الطبيب وتعيده إلى السلة تحت ساعتها ، تعود الى الجلوس

« لعلك أيها الطبيب تنصح السيد ماكمري حول اللياقة المعتمدة في اجتماعات المجموعة هذه »

يقول ماكمورفي « يا سيدتي ، هل أخبرتك بحكاية عمي هالاهان والمرأة التي اعتادت تشويه اسمه ؟ »

تنظر اليه طويلاً دون أن تبتسم عندها القدرة على تحويل ابتسامتها إلى أي تعبير تريد استخدامه مع شخص ما ، لكن نظراتها تبدو غير مختلفة ، مجرد تعبير ميكانيكي محسوب يخدم أغراضها تقول أخيراً « أرجو معذرتك ماك ـ مورفي » ، تلتفت إلى الطبيب « والآن أيها الطبيب ، لعلك تشرح ـ »

يطوي الطبيب يديه ويستند إلى الخلف ، « نعم ، أظن أن ما ينبغي عليّ فعله الآن هو شرح **النظرية** الكاملة لجماعتنا العلاجية بينما نحن بصدد الأمر ، رغم أنني عادة أفضل تأجيل الشرح نعم ، فكرة طيبة يا آنسة راتشدت ، فكرة رائعة »

« النظرية أيضاً بلا شك أيها الطبيب ، ولكن ما يجول ببالي هي تلك القاعدة التي تفرض على المرضى البقاء في أماكنهم خلال مجرى الاجتماع »

« نعم ، بالطبع ، ثم اشرح النظرية يا سيد ماكمورفي ، من أول الأشياء المطلوبة أن يظل المرضى جالسين في مقاعدهم خلال مجرى الاجتماع انها الطريقة الوحيدة كما ترى لحفظ النظام »

« بالتأكيد أيها الطبيب ، لقد نهضت لأريك ذلك الشيء في سجلي »

يذهب الى كرسيه ، يتمطى ويتثاءب يجلس يتحرك قليلاً ككلب ينوي الاستراحة ، وحين يشعر بالارتياح يشخص ببصره الى الطبيب منتظراً

« أما بالنسبة للنظرية » يأخذ الطبيب نفساً عميقاً ، سعيداً

« ضا ا ا ا ا ا الزوجة. . » يقول ركلي. يخفي ماكورفي فمه بظاهر يده ويخاطب ركلي عبر القاعة يهمس مبحوح « زوجة من ؟ » ويقفز رأس مارتيني وتجحظ عيناه ، تتسعان ، ويقول « أيوه ، زوجة من ؟ آه ، هي ؟ نعم أراها ، أيوه »

« أدفع الكثير لاحصل على عيني ذلك الرجل » ويقصد ماكمورفي عينيّ مارتيني ، ثم لا يقول شيئاً آخر طوال الاجتماع يكتفي بالجلوس والمراقبة ولا يفوته شيء مما يجري أو يقال يتحدث الطبيب عن نظريته حتى تقرر الممرضة انه استغرق وقتاً يجعلها تطلب منه الاختصار لنتمكن من الانتقال الى هاردنغ ، الذي يدور الحديث عنه بقية الاجتماع

يمدّ ماكمورفي جسمه إلى الأمام مرتين خلال الاجتماع كأنه يريد قول شيء ، لكنه يقرر أن من الأفضل له الاتكاء إلى الخلف هناك تعبير حائر يلوح على وجهه يكتشف أن شيئاً غريباً يجري هنا لا يستطيع وضع اصبعه عليه تماماً ، مثل أن يمتنع الجميع عن الضحك لقد كان واثقاً انه سيثير الضحك حين سأل ركلي « زوجة من ؟ » لكن أحداً لم يبد حتى علامة على الضحك الجو تضغطه الجدران السميكة بشكل لا يتيح الضحك هناك شيء مريب في المكان الذي يمنع الرجال من الاسترخاء والضحك ، شيء غريب في الطريقة التي يستكينون بها لتلك الأم العجوز ذات الوجه الذي بلون الدقيق وأحمر الشفاه القاني والثديين الهائلين ويفكر

ان عليه الانتظار قليلاً ليفهم قصة هذا المكان الجديد قبل أن يقدم على أي نوع من الدعابات قاعدة عتيدة لمقامر عتيد راقب اللعبة قبل أن تطلب ورقاً ليدك

لقد سمعت نظرية « الجماعة العلاجية » مرات كافية تجعلني أكررها من أولها لآخرها ـ كيف ينبغي على الرجل أن يتعلم التواصل مع المجموعة قبل أن يكون صالحاً في مجتمع طبيعي ؛ كيف أن المجموعة تساعد الرجل في اظهار نقاط جموحه ؛ كيف أن المجتمع يقرر من هو معافى عقلياً ومن هو مريض ، وقس على ذلك كل هذا جامد كلما وصل مريض جديد إلى الجناح يستفيض الطبيب في شرح النظرية بلسانه ويديه ؛ والممتع دائماً هو الوقت الذي ينهي فيه الاشياء ويختم الاجتماع ، يشرح كيف أن الجماعة العلاجية تطمح الى جناح ديمقراطي ، يديره النزلاء وأصواتهم بصورة كاملة ، يعمل بهدف خلق المواطنين الصالحين للعودة ثانية إلى « الخارج » والى الشارع أي مطلب صغير ، أية شكوى ، أي شيء ترد تغييره ، كما يقول ، عليك طرحه أمام المجموعة ومناقشته بدلاً من تركه يخبو في داخلك ، عليك أيضاً أن تشعر بالراحة في الأجواء التي من حولك لدرجة أنك تستطيع مناقشة المشاكل العاطفية أمام المرضى والادارة تحدث ، ناقش ، اعترف ، كما يقول ولو سمعت صديقاً يقول شيئاً خلال مجرى حواركما اليومي ، سجله في السجل اليومي لتراه الادارة انه ليس « دسيسة » كما تقول الأفلام السينمائية ، انه يساعد زميلك اكشف هذه الآثام القديمة على الملأ حيث يمكن غسلها تحت سمع وبصر الجميع شارك في « **مناقشة المجموعة** » ساعد نفسك واصدقاءك لاكتشاف أسرارهم ودخائلهم يجب أن لا تكون من حاجة للأسرار بين الأصدقاء

قصدنا ، هكذا يختم كلامه عادة ، أن نجعل الجناح قدر استطاعتنا بديمقراطية وحرية المحيط ـ عالم « **داخل** » صغير هو صورة طبق الأصل مصنوعة بمهارة عن عالم « **الخارج** » الكبير الذي ستأخذ مكانك فيه يوماً

وربما كان لديه المزيد مما يريد قوله ، لكن الممرضة الكبيرة تخرسه عند هذه النقطة ، وينهض بيت العجوز في غمرة ذلك ليهز ذلك الرأس الأشبه بوعاء النحاس ويخبر الجميع كم هو متعب ، تطلب الممرضة أن يسكته أحدهم ليستمر الاجتماع ، ويجري عادة اسكات بيت فيتواصل الاجتماع

مرة ، مرة واحدة استطيع تذكرها ، منذ أربع أو خمس سنوات ، جرت الأمور

باختلاف طفيف انهى الطبيب موعظته وافتتحت المرضة الاجتماع بقولها « والآن من سيبدأ ؟ بوحوا بتلك الاسرار القديمة » وهي بذلك تحشر « المبرحين » كافة بجلوسها هناك صامتة طوال عشرين دقيقة بعد السؤ ال ، هادئة كمنبه كهربائي موشك على الانطلاق ، منتظرة أن يبدأ أحدهم في سرد حدث ما حدقت عيناها بهم واحداً واحداً عينان ثابتتان كمشعلين دوّارين ، غرقت الغرفة النهارية بالصمت طوال عشرين دقيقة طويلة ، تسمّر جميع المرضى في أماكنهم حين مرت الدقائق العشرون نظرت إلى ساعتها وقالت « هل اعتبر أنه يوجد بينكم رجل ارتكب فعلة ما ولم يفض بها ؟ » بحثت في السلة عن السجل اليومي ، « هل نعود إلى تاريخ الماضي ؟ »

حرّك قولها شيئاً ما ، وسيلة صوتية مركبة في الجدران ، دارت في اللحظة ذاتها حين انطلق فمها هاتفاً بتلك الأصوات والكلمات تيبّس « المبرحون » فغروا أفواههم سوية توقفت عيناها الجوالتان على أول رجل قريب من الجدار

تذبذب فمه « سرقت محاسباً مالياً في محطة وقود »

انتقلت الى الرجل المجاور

« حاولت اقتياد شقيقتي إلى الفراش »

وثبت عيناها الى الرجل التالي ، قفزت كل منهما كدريئة رماية

« أردت ذات يوم اقتياد شقيقي الى الفراش »

« قتلت قطتي حين كنت في السادسة آه ، ليغفر الله لي ، رجمتها حتى الموت واتهمت جاري بذلك »

« كذبت حين ذكرت المحاولة لقد اقتدت شقيقتي إلى الفراش بالفعل »

« وأنا كذلك ! وأنا كذلك ! »

« **وأنا ! وأنا !** »

كان الموقف أفضل مما حلمت به كانوا جميعهم يصرخون ليتفوق أحدهم على الآخر ، يستزيدون ويستزيدون ، لا مجال للتوقف ، يسردون الاشياء التي تجعلهم لا يجرؤ ون على مواجهة بعضهم البعض بالنظر المرضة تومىء لكل اعتراف نعم ، نعم ، نعم

ثم نهض بيت العجوز على قدميه ، « أنا متعب » صرخ بقوة ، ايقاع النحاس الغاضب يجلجل في صوته بوتيرة لم يسمعها أحد بعد تلك المرة

سكت الجميع شعروا بالعار كأنه قال فجأة شيئاً حقيقياً وصادقاً وهاماً فألحق العار بكل تخرصاتهم. ثارت الممرضة الكبيرة حدقت به ، ابتسامتها تتدلى على ذقنها ، لقد كان الأمر يسير بصورة حسنة

قالت « ليعتن أحدكم بالسيد بانشيني البائس »

نهض اثنان أو ثلاثة حاولوا تهدئته ، ربتوا على كتفه لكن بيت العجوز لم يخلد الى الصمت «متعب ! متعب ! » واصل الصراخ

أخيراً أوعزت الممرضة لأحد الفتيان السود كي يجره خارج الغرفة النهارية بالقوة نسيت في ثورتها أن الفتيان السود لا يملكون السيطرة على أناس مثل بيت

لقد كان بيت « مزمناً » طوال حياته ، ورغم أنه لم يأت الى المستشفى حتى تجاوز الخامسة عشرة ، فقد كان مزمناً على الدوام في رأسه -حزّتان كبيرتان ، واحدة على كل جانب ، حيث استخدم الطبيب الذي عني بتوليد أمه ملقطاً في محاولة لسحبه نظر بيت لأول مرة إلى العالم ، ورأى آلات غرفة التوليد بانتظاره وأدرك بطريقة ما الكون الذي ولد فيه ، فتمسك بأي شيء داخل الرحم محاولاً الامتناع عن الولادة تمكن الطبيب منه وأخرجه من رأسه مستخدماً مجموعة من الالسنةالجليدية العنيدة،

أرخى جسده وتصور أن كل شيء على ما يرام ، لكن رأس بيت كان لا يزال طرياً ، ناعماً كالفخّار ، وحين تمّ تجهيزه احتفظ بالحزّتين اللتين تركتهما الملاقط وجعله ذلك بسيطاً يحتاج الى جهد شاق وتركيز وطاقة لأداء المهام التي يسهل على الطفل في سن السادسة أن ينفذها

فيه ميزة واحدة حسنة ـ طبيعته البسيطة تلك جعلته بمأمن من قبضة « الائتلاف » فلم يكونوا قادرين على حشره في الثقب ولذا أعطوه عملاً بسيطاً في السكك الحديدية ، وكل ما عليه أن يفعله هو الجلوس في مقصورة صغيرة عند تحويلة سكك منعزلة ، يلوح بمصباح أحمر للقطارات اذا كانت التحويلة في اتجاه واحد ، وأخضر اذا كانت غير ذلك ، وأصفر اذا كان هناك قطار آخر في مكان ما على السكة ونجح في ذلك ، بالقوة الأساسية والقدرة التي لم يتمكنوا من استئصالها عن

رأسه ، وحيداً مع ذاته في التحويلة لم يكن بحاجة لتركيب أجهزة السيطرة في عمله

لهذا لم يكن الفتيان السود يوجهون له أي ملاحظة لكن الفتى الأسود لم يفكر بالأمر كما لم تفكر فيه الممرضة حين أمرت بخروج بيت من الغرفة النهارية تقدم الفتى الأسود وقبض على ذراع بيت وهزها باتجاه الباب ، تماماً كما تهز نير حصان المحراث لتحثه على العمل

« هذا حسن يا بيت لنذهب إلى المهجع أنت تزعج الجميع »

-حرّر بيت ذراعه « أنا **متعب** » قال محذراً

« هيا أيها العجوز ، أنت تثير الضجيج لنذهب إلى الفراش كن فتى طيباً »

« متعب »

« قلت أنك ستذهب إلى المهجع ، أيها الخرف ! »

هزّ الفتى ذراعه ثانية ، وتوقف بيت عن هزهزة رأسه وقف مستقيماً وساكتاً ، وأصبح اللون صافياً في عينيه عينا بيت زائغتان ونصف مغمضتين عادة ، كأنهما طافحتان بالحليب . لكنهما اكتسيتا هذه المرة بصفاء النيون الأزرق بدأت يد الفتى الأسود الملقاة على الذراع في التأرجح كان المشرفون ومعظم البقية الباقية من المرضى يتحدثون فيما بينهم ، غير عابئين بهذا العجوز وأغنيته المكرورة عن التعب ، موقنين انه سيهدأ كالعادة ويستمر الاجتماع لم يروا تلك اليد في نهاية الذراع وهي تتضخم وتتضخم كلما أحكم قبضته أو أرخاها كنت الوحيد الذي رآها رأيتها تتأرجح وتنغلق بإحكام ، تطفو أمام عيني ، تصبح ناعمة ، قاسية كرة حديدية صدئة ضخمة في نهاية سلسلة تأملتها وانتظرت ، بينما كان الفتى الأسود يهز ذراع بيت ثانية باتجاه المهجع

« أيها الخرف ، أقول أن عليك ـ »

ورأى اليد حاول تحاشيها قائلاً « أيها الفتى الطيب بيتر » لكنه تأخر . تدلت كرة بيت الحديدية الضخمة في المسافة الفاصلة بين ركبتيه ارتمى الفتى الأسود على

الجدار والتصق به ، ثم انزلق الى الأرض كالجدار المتداعي   سمعت الأنابيب تنطّ وتنكمش داخل ذلك الجدار ، والجصّ يقرقع حيث تلقى الضربة

الآخران ، الضئيل والضخم ـ وقفا مسمّرين   التقطت الممرضة أصابعها التي تمددت للعمل   حركة فورية ، انزلاق على الأرض   الضئيل قرب الآخر كصورة في مرآة مشوهة   كان على مقربة من بيت حين خطر لهما ما كان على الفتى الثالث أن يتذكره ـ أن بيت لم يكن خاضعاً للسيطرة مثلنا جميعاً ، وأنه لن يستجيب لمجرد أنه تلقى أمراً أو تعرضت ذراعه للهز   واذا كانوا سيقتادونه فعليهم أخذه كما يقاد دب ضار أو ثور ، واذا كان أحدهم قد استلقى هناك في البرد ، فالآخران لم يعبأ بمساعدته

امتلكتهم هذه الفكرة معاً فتجمدا ، الضخم وتلك الصورة الشاحبة ، في الوضع ذاته ، قدم إلى الأمام ، اليد اليمنى ممدودة ، في منتصف الطريق بين بيت والممرضة الكبيرة   تلك الكرة الحديدية التي تتأرجح أمامهما ، ذلك الغضب الأبيض كالثلج وراءهما ، ارتجفا وخارت قواهما وأكاد أسمع صرير تروس التعشيق داخلهما   أكاد أراهما عاجزين وسط الاضطراب ، كالآلات الدائرة بأقصى طاقتها والمكابح تشلّها

وقف بيت هناك في منتصف الأرضية، ملوّحاً بتلك الكرة الحديدية الى الأمام والى الخلف والى جانبه ، ثقلها يدفعها للهبوط دائماً   الجميع كانوا يراقبونه الآن كان ينتقل بنظراته من الفتى الضخم الى الضئيل ، وحين رأى انهما لا يزمعان الاقتراب ، استدار نحو المرضى

« كما ترون ، انهم مجرد فقاعات فارغة ، الأمر كله فقاعة فارغة »

انزلقت الممرضة الكبيرة عن كرسيها وأخذت تعبث بحقيبتها المنسوجة القابعة عند الباب   « نعم يا سيد بانشيني » تمتمت « لو حافظت على هدوئك فقط »

« هذا كل ما في الأمر   لا شيء سوى فقاعة فارغة »   فقد صوته قوته النحاسية وأصبح مجهداً وملحاً كأنه لا وقت عنده لاتمام ما يريد قوله   « كما ترون ، لا أستطيع تفادي الأمر   لا أستطيع ولا أقدر كما ترون   ولدت ميتاً   لست مثلكم   لم تولدوا أمواتاً   آه ه ه   كان الأمر شاقاً   »

انخرط في البكاء لم يعد بمقدوره نطق الكلمات بصورة سليمة ، فتح فمه ، أغلقه ليتكلم لكنه لم يعد يستطيع تصنيف الكلمات في جمل هز رأسه لتنظيفه ورمش أمام المبرحين

« آه ، أنا أقول لكم أقول لكم »

بدأ ينتحب ثانية ، وتقلصت كرته الحديدية لتعود يداً من جديد. رفعها مضمومة أمامه كأنه كان يعرض شيئاً أمام المرضى

« لا أستطيع تفادي الأمر لقد ولدت مشوهاً تعرضت لإهانات كثيرة بأني ميت ، ولدت ميتاً لا أستطيع تفادي الأمر أنا متعب سأقلع عن المحاولة انتم لديكم الفرص تعرضت لاهانات كثيرة بأني ولدت ميتاً الأمر أسهل عندكم ولدت ميتاً والحياة صعبة ، أنا متعب أنا متعب من الكلام والوقوف لقد كنت ميتاً طوال خمس وسبعين سنة »

أمسكت به الممرضة الكبيرة في منتصف الغرفة ، من منتصف ثيابه الداخلية قفزت الى الوراء دون أن تسحب الإبرة بعد غرزها في جسده فانتصبت وسط سرواله كذنب صغير من الزجاج والفولاذ ، وبيت العجوز يذوي الى الأمام أكثر فأكثر ، ليس من الحقنة ، بل من الجهد ، الدقيقتان الأخيرتان أرهقتاه أخيراً بصورة تامة ، مرة والى الأبد ليس عليك سوى أن تنظر اليه لتقول أنه انتهى

وفي الحقيقة لم تكن هناك حاجة للحقنة ؛ أخذ رأسه يرتعش إلى الوراء والى الأمام وعاد الغبش الى عينيه وحين عادت الممرضة لاسترجاع الإبرة انحنى الى الأمام يبكي في مواجهة الأرض مباشرة دون تبليل وجهه ، الدموع ترسم بقعة عريضة وهو يؤرجح رأسه إلى الوراء وإلى الأمام ، يفيض ويفيض في ايقاع منتظم على أرضية الغرفة النهارية ، كأنه كان يبذر دموعه هتف « آه ه ه ه » ولم يبد حراكاً حين سحبت الإبرة

عاد إلى الحياة بعد دقيقة ليخبرنا بشيء ما ، شيء لم يكترث أحد منا لسماعه أو يحاول فهمه ، والمحاولة شحنت فيه اليباس تلك الحقنة في ردفه كانت ضائعة كأنها غرزت في جسد ميت ، لا قلب ليمتصها ، لا شريان ليحملها إلى رأسه ، لا دماغ

هناك يموت بسمّها لكنها كانت ستحقنها حتى في جثة هامدة ، منخورة ، عتيقة

« أنا متعب »

« والآن لو امتلكتها ما يكفي من **الشجاعة** ، أظن أن السيد بانشيني سيخلد الى فراشه كرجل طيب »

« متعب حتى الموت »

« والمساعد وليم قادم اليك يا دكتور سبايفي ، اعتن به من فضلك خذ ساعته تحطمت وذراعه مجروحة »

لم يقدم بيت على شيء كهذا ثانية ، ولن يفعل أبداً وكلما حاول الآن أن يمثل داخل الاجتماع عمدوا الى اسكاته فيسكت ، ينهض من وقت لآخر ويهز رأسه ويعلمنا كم هو متعب ، لكن نواحه لم يعد شكوى أو اعتذار أو تحذير ، لقد انتهى من ذلك انه أشبه بساعة قديمة لا تعطي الوقت لكنها لا تتوقف أيضاً ، العقارب ملتوية بشكل غير مألوف والميناء خال من الأرقام وجرس التنبيه صدىء صامت، ساعة قديمة تافهة لا تحسن سوى مواصلة التكتكة والدوران دون أن تعني شيئاً

لا يزال الاجتماع يفضح هاردنغ البائس حين تدق الساعة معلنة الثانية

في الثانية يبدأ الطبيب في التململ داخل كرسيه الاجتماعات غير مريحة للطبيب الا اذا تحدث عن نظريته ، والا فخير له ، أن يقضي الوقت في مكتبه يمارس الرسم يتلفت من حوله ويتنحنح فتنظر الممرضة في ساعتها وتطلب منا اعادة المناضد الى غرفة الحوض وسنعاود النقاش غداً في الواحدة ينتقل « المبرحون» من زاوية تجمّعهم ، ينظرون قليلاً إلى هاردنغ وجوههم يحرقها الخجل وكأنهم انتبهوا منذ برهة فقط للوجه الذي أجبروا على مخادعته ثانية. يذهب بعضهم الى غرفة الحوض عبر القاعة لإحضار المناضد ، بعضهم يعبث برفوف المجلات مظهراً اهتماماً بالغاً بأعداد قديمة من مجلة « ماكولي » ، ولاكن ما يفعلونه جميعاً هو تحاشي هاردنغ لقد وقعوا ثانية في مناورة جعلتهم ينهشون أحد أصدقائهم وكأنه مجرم وهم المدّعون والقضاة والمحلفون لقد كانوا يمزقون أوصال الرجل خلال خمس وأربعين دقيقة ، كأنهم استمتعوا بالأمر ، يرمونه بالاسئلة ما الذي **يظن** انه السبب في عدم قدرته على امتاع السيدة الصغيرة ؛ لماذا **يصرّ** انها ليست على علاقة برجل آخر ،

كيف يتوقع التحسن وهو لا يجيب على الاسئلة بصراحة ؟ ـ أسئلة وتلميحات ندموا عليها الآن ، ولا يريدون المزيد من الإحساس بالضيق عند اقترابهم منه

عينا ماكمورفي تتابعان ذلك كله لا ينهض عن كرسيه يبدو حائراً من جديد يجلس في مقعده فترة من الزمن ، مراقباً « المبرحين » ، يمرر شدة الورق تلك أعلى وأسفل ذقنه الأحمر ، ثم يغادر كرسيه أخيراً يتمطى ويتثاءب ويحك سرّته بزاوية الورقة ، ثم يضع الشدّة في جيبه ويتقدم من هاردنغ المنعزل المتصبب عرقاً في كرسيه

ينظر ماكمورفي الى هاردنغ لدقيقة ، ثم يرخي يده الضخمة على ظهر كرسي خشبي مجاور ، ويجره كما يجر حصاناً صغيراً لم يلحظ هاردنغ شيئاً يدس ماكمورفي يده في جيبه حتى يعثر على سجائره ، يأخذ واحدة ويشعلها ، يضعها في مواجهته وينفخ في جمرتها ، يلعق ابهامه واصبعه ، يهيىء النار بما يناسبه

لا يبدو أن واحدهما يحس بالآخر ولا استطيع الجزم بأن هاردنغ انتبه لماكمورفي طوى هاردنغ كتفيه حول نفسه ، كالأجنحة الطرّية ، وهو جالس باستقامة على حافة كرسيه يداه محجوزتان داخل ركبتيه ، يحملق في الفضاء الواسع أمامه ، يهمهم لنفسه ، يحاول اصطناع الهدوء ـ لكنه يمضغ خديه مما يضفي على جمجمته مظهراً مضحكاً ، انه ليس هادئاً أبداً

يعيد ماكمورفي سيجارته إلى أسنانه ويطوي يديه على ظهر الكرسي الخشبي ويستند بذقنه عليهما ، مصوباً عيناً واحدة إلى الدخان ويرقب هاردنغ بالأخرى ، ثم يبدأ الكلام والسيجارة ترتعش بين شفتيه

« قل لي يا صاحبي ، أهكذا تدور الاجتماعات الصغيرة عادة ؟ »

« تسير عادة ؟ » تتوقف همهمة هاردنغ لم يعد يمضغ خديه لكنه لا يزال يحدق في الفراغ ، عبر كتف ماكمورفي

« أهذا هو الاجراء المعتاد في اجتماعات العلاج الجماعي ؟ شلّة كتاكيت في حفلة لقط ؟ »

يرتعش رأس هاردنغ ويستدير لتلتقي عيناه بماكمورفي ، كأنها المرة الأولى التي

يعرف فيها أن أحداً يجلس في مواجهته يتضاءل وجهه ثانية من منتصفه حين يعض خديه يجعله ذلك يبدو كالمبتسم ، يسحب كتفيه إلى الوراء ويركن إلى مسند الكرسي ويحاول ادعاء الارتياح

« حفلة لقط ؟ أخشى أن ألفاظك المحلية الغريبة ضائعة عندي يا صديقي ، ليست لي أدنى فكرة عما تتحدث عنه »

« حسن اذاً سأشرحها لك » يرفع ماكموري صوته رغم انه لا ينظر إلى « المبرحين » الذين يصغون وراءه ، فهم الذين يتحدث اليهم « تقع أعين القطيع على بقعة دم في جسم كتكوت فيذهبون جميعاً لنقرها ولقطها حتى يمزقون أوصال الكتكوت إلى نتف ، دم وعظام وريش لكن زوجاً من القطيع يتلوث في الصراع ، فيحين دوره عندها البعض منهم أيضاً يتعرض لبقع في جسمه فيتم لقطه حتى الموت ، ثم المزيد فالمزيد آه ، حفلة لقط قد تمحو قطيعاً بأكمله خلال ساعات قليلة يا صاحبي ، لقد رأيتها مشهد هائل مؤلم الطريقة الوحيدة لمنعها ـ أقصد الكتاكيت ـ هو عصب أعين أفراد القطيع لكي لا يبصروا »

يعلق هاردنغ أصابعه الطويلة على ركبته ويسحب الركبة باتجاهه ، مستنداً إلى الخلف على الكرسي « حفلة لقط هذه مقارنة ملفتة للانتباه يا صديقي »

« وهي بالضبط ما ذكرني به الاجتماع الذي حضرته لتوي يا صاحبي ، إن اردت معرفة الحقيقة القذرة ذكرني بقطيع من الكتاكيت القذرة »

« أي أنني كنت الكتكوت الملطخ ببقعة الدم يا صديقي ؟ »

« نعم يا صاحبي »

لا يزالان يتبادلان الابتسام ، لكن صوتهما خفت وضعف فاضطررت للتكنيس قريباً منهما ليتسنا لي سماعهما كذلك تحرك « المبرحون » ليزدادوا اقتراباً

« هل تريد أن تعرف شيئاً آخر يا صاحبي ؟ هل تريد أن تعرف من نقر النقرة الأولى ؟ »

ينتظر هاردنغ ليتم الآخر كلامه

« انها تلك الممرضة العجوز انها هي »

تخيم بارقة من الفزع فوق الصمت اسمع الآلات في الجدران تلتقط وتعمل يعاني هاردنغ لحظة عصبية حين تسكن يداه ، لكنه يواصل اصطناع الهدوء

« هكذا » يقول « الأمر بهذه البساطة ، بهذه البساطة الغبية أنت في جناحنا لست ساعات وقد بسطت كامل عمل فرويد ويونغ وماكسويل جونز ولخصته في مقارنة واحدة ، انه « حفلة لقط » فقط »

« أنا لا أتحدث عن فرويد،يانغ أو ماكسويل جونز يا صاحبي أنا اتحدث عن ذلك الاجتماع اللعين فحسب ، وما فعلته الممرضة وهؤلاء الأوغاد الآخرون بك ما قوضوه بمعاولهم »

«فعلوه لي ؟ »

« هذا صحيح ، **فعلوه** انتهزوا كل فرصة لاحت لهم هل جئت وهل ذهبت لابد أنك ارتكبت شيئاً ما جعلك هدفاً لمجموعة الاعداء هنا في هذا المكان يا صاحبي ، لا بد من وجود مجموعة اعداء يتحينون لك الفرص »

« تباً لك ، هذا غير معقول انت تتجاهل تماماً ، تتجاهل وتفضل حقيقة أن ما كان الزملاء يفعلونه اليوم هو في صالحي وان أي سؤال أو مناقشة تثيرها الآنسة راتشدت أو بقية المسؤولين هدفه الوحيد هو الغاية العلاجية لا بد أنك لم تسمع كلمة من نظرية الدكتور سبايفي عن الجماعة العلاجية ، أو ليست لديك الثقافة لفهمها لو أصغيت لقد خيبت أملي يا صديقي ، خيبت أملي كثيراً لقد حكمت من لقائنا هذا الصباح أنك أكثر ذكاء ـ متهور جاهل ربما ، متفاخر فاشل لا تزيد حساسيته عن الأوزة ـ لكنك في جوهرك ذكي مع ذلك ولكن ، رغم أني بصير وبعيد النظر عادة ، لا أزال ارتكب الأخطاء »

« لتذهب إلى الجحيم يا صاحبي »

« آه ، نعم نسيت أن أضيف انني لاحظت جلافتك البدائية أيضاً هذا الصباح مختل عقلياً بميول سادية أكيدة ، ربما كانت بواعثها اعتلال نفسي أناني غير مفهوم نعم كما ترى ، كل هذه المواهب الطبيعية تؤهلك بالتأكيد لكي تكون محللاً نفسياً بارعاً وتجعلك قادراً حقاً على انتقاء اجراءات اجتماع الآنسة راتشدت ، بغض النظر عن حقيقة كونها ممرضة نفسانية ذات كفاءة عالية لها خبرة عشرين عاماً في هذا المجال نعم بموهبتك ، يا صديقي ، يمكن ان تجترح معجزات اللاوعي ،

تهدئ ألم الأنا وتضمد جراح الأنا الأعلى لعل بمقدروك شفاء الجناح بأسره ، « البلداء » وغيرهم ، في ظرف ستة شهور قصيرة سيداتي سادتي وفروا نقودكم »

وبدلاً من الدخول في الجدل ، يكتفي ماكمورفي بالنظر إلى هاردنغ ، ثم يسأل بصوت هادىء « وتظن حقاً أن دق طاولة الزهر الذي جرى في ذلك الاجتماع اليوم يفيد في الشفاء ، أو يقدم شيئاً نافعاً ؟ »

« أي سبب آخر يدعونا لإجبار أنفسنا على حضوره يا صديقي ؟ الادارة ترغب في شفائنا كما نرغب فيه . ليسوا وحوشاً قد تكون الآنسة راتشدت سيدة متوسطة العمر ، حازمة ، لكنها ليست وحشاً عملاقاً من فصيلة الدواجن ، تنحني لتنقر عيوننا بسادية لا يمكنك أن ترى فيها ذلك ، لا يمكنك »

« كلا يا صاحبي ، ليس هذا انها لا تنقر **عينيك** ليس هذا ما تريد نقره »

تنتفخ أوداج هاردنغ ، أرى يديه تتسللان من بين ركبتيه كعنكبوتين أبيضين خارجين من جذري شجرة يكسوها الطحلب ، يصعدان فوق الجذرين حتى يلتقيان عند الجذع يقول

« ليس أعيننا ؟ أتوسل اليك اذاً ، ماذا تنقر الآنسة راتشدت يا صديقي ؟ »

يكشر ماكمورفي مبتسماً ، « **ألا تعرف** حقاً يا صاحبي ؟ »

« كلا ، لا أعرف بالطبع ! أقصد ، لو كنت تصر »

« تنقر خصيتيك يا صاحبي ، **خصيتيك** الحبيبتين »

يصل العنكبوتان الى نقطة اتصال الجذع ويستقران هناك ، يقرضان يحاول هاردنغ الابتسام ، لكن شفتيه ووجهه ممتقعان فتضيع الابتسامة يحدق في ماكمورفي يسحب ماكمورفي السيجارة من فمه ويكرر ما قاله

« تستهدف خصيتيك بالضبط كلا ، تلك الممرضة ليست نوعاً متوحشاً من الكتاكيت يا صاحبي ، انها ليست سوى قاطعة خصيتين لقد رأيت الآلاف منهم ، شيوخاً وشباباً ، رجالاً ونساء رأيتهم في طول البلاد وعرضها وفي البيوت ، أناس يحاولون اضعافك لكي تظل على الخط ، لتتبع قواعدهم ، لتحيا كما يريدون لك

وأفضل الطرق لذلك ، لانضوائك تحت سيطرتهم ، هي اضعافك بالنيل مما يؤذيك أشد الأذى هل حدث أن ركعت يوماً في غمرة شجار عنيف يا صاحبي ؟ تجمد أطرافك أليس كذلك ؟ لا شيء أسوأ تجعلك مريضاً ، تحتسي كل قطرة مما تملك من قوة ولو واجهت ، رجلاً يريد الفوز بجعلك الأضعف بدلاً من جعل نفسه الأقوى ، راقب ركبته اذاً ، فسينال من أعضائك التناسلية ، وهذا ما تفعله هذه الحدأة الشمطاء ، استهداف حيويتك »

لا يزال وجه هاردنغ ممتقعاً ، لكنه سيطر على يديه ثانية ، يخفقان بحرية أمامه ، يحاولان ملاقاة ما قاله ماكمورفي

« عزيزتنا الآنسة راتشدت ؟ ملاكنا الرحيم العذب ، الباسم ، الحلو ، أمنا راتشدت قاطعة خصيتيه ؟ لماذا يا صديقي ؟ هذا أبعد ما يكون عن التصديق »

« يا صاحبي ، لا تحدثني عن طاولة الزهر هذه التي تدعونها الأم العذبة الصغيرة قد تكون أمّاً ، لكنها ضخمة كأهراء لعينة وحادة كنصل السكين ، لقد خدعتني بمسحة الأم العجوز الرقيقة الرؤوم لثلاث دقائق ربما حين جئت إلى هنا هذا الصباح ، ثلاث دقائق لا أكثر ولا أظن أنها خدعت أياً منكم طوال ست شهور أو سنة ، هووي ، لقد مرّ علي في زماني العديد من العاهرات ، لكنها تفوقهم جميعاً »

« عاهرة ؟ ولكنها منذ لحظة كانت قاطعة خصيتين وحدأة جارحة أو لعلها كتكوت ؟ ان استعاراتك تتضارب يا صديقي »

« الى الجحيم ، انها عاهرة وحدأة جارحة وقاطعة خصيتين ، ولا تتغابى فأنت تعرف عن ماذا أتحدث »

حركة هاردنغ ويديه أكثر سرعة من السابق ، شريط سينمائي سريع من الايماءات ، الابتسامات ، الاستهزاء ، والاستنكار وكلما حاول إيقاف الشريط كلما زادت سرعته وحين يرخي العنان لوجهه ويديه ولا يحاول كبح جماحهما ، يحلقان ويومئان بطريقة جديرة بالمراقبة ، لكنه حين ينتبه إليهما ويحاول السيطرة عليهما يصبح دمية ضارية راعشة تؤدي رقصة معقدة كل شيء يتحرك أسرع فأسرع ، وصوته يتسارع للحاق بالسباق

« ولكن اسمعني يا صديقي السيد ماكمورفي ، أيها المشاكس المختل عقلياً ،

آنستنا راتشدت ملاك رحمة حقيقي والكل يعرف ذلك انها غير أنانية كالريح ، تشقى في سبيل الجميع دون عرفان منهم ، يوماً بعد يوم خمسة أيام في الاسبوع هذا يأخذ بشغاف القلب يا صديقي ، يستولي على القلب وفي الحقيقة ، لقد علمت من بعض المصادر ، ولست في مقام يسمح لي بالكشف عن مصادري ، لكني قد أصرح أن مارتيني وثيق الصلة بالاناس أنفسهم خلال وقت لا بأس به - انها **أيضاً** تخدم الإنسانية في عطلها الاسبوعية بتقديم عمل طوعي سخي لصالح البلدة تحضر لحملة تبرعات سخية ، أطعمة محفوظة ، جبن ، صابون - وتقدمها للعائلات الفقيرة الشابة التي تعاني من عسر مالي ما » تلمع يداه في الفضاء لترسما الصورة التي يصفها « آه ، انظر ها هي هناك ، ممرضتنا طرقتها الرقيقة على الباب سلّتها المزركشة بالشرائط العائلة الشابة تبتهج وينعقد لسانها يفغر الزوج فاه ، الزوجة تبكي تأثراً تمتدح مسكنهم ، تعد بارسال النقود اليهم ، مسحوق مطهر نعم ، تضع السلة في منتصف الغرفة وحين تغادر ملاكنا - ناشرة القبل والابتسامات الأثيرية **تسكرها** نشوة حليب الرقة الانسانية الذي أفرزه صنيعها في صدرها الكبير ، فتظل وحيدة مع **نفسها** وكرمها وحيدة مع نفسها ، هل تسمع ؟ تتوقف عند الباب ، تختلي بالعروس الشابة وتمنحها عشرين دولاراً من مالها الخاص اذهبي واشتري لنفسك ثوباً **لائقاً** **أظن** أن زوجك لا يستطيع شراءه ، خذي هذه ، واذهبي ويظل الزوجان مدينين لصنيعها الخيّر »

كانت كلماته تتسارع وتتسارع ، حبال صوته تتمدّد في عنقه حين يتوقف عن الكلام يصمت الجناح بأكمله لا أسمع سوى ايقاع متواتر ضعيف ، ويخيل اليّ أن آلة تسجيل هي التي تصدره

يجول هاردنغ ببصره من حوله ، يرى أن الجميع يرقبونه ، ويبذل ما بوسعه ليضحك يخرج من فمه صوت أشبه باقتلاع مسمار من جذع سنديانة خضراء اي ي ي - ي ي ي ، لا يستطيع ايقافه تحوم يداه كالذبابة ويغلق عينيه على صوت الصرير المرعب لكنه لا يستطيع ايقافه يعلو الصوت شيئاً فشيئاً حتى يلتقط أنفاسه أخيراً ويترك لوجهه أن يسقط بين يديه المنتظرتين

« آه العاهرة ، العاهرة ، العاهرة » يهمس من بين أسنانه

يشعل ماكمورفي سيجارة أخرى ويقدمها له ؛ يأخذها هاردنغ دون كلمة لا

يزال ماكمورفي يرقب وجه هاردنغ المواجه له بتساؤل حائر ، ناظراً اليه وكأنه أول وجه بشري تقع عيناه عليه يرقب هاردنغ الذي تأخذ حركاته واختلاجاته في التباطؤ ويخرج الوجه من اليدين

« أنت محق في كل شيء » يقول هاردنغ ينظر إلى المرضى الآخرين الذين يرقبونه « لم يجرؤ أحد من قبل على التفوه بالحقيقة ، لكن لا يوجد بيننا من لا يؤمن بها ، لا يحس بها وبالأمر كله كما تفعل أنت يحس بها في مكان عميق من نفسه الصغيرة الجزعة »

يسأل ماكمورفي « وماذا عن الطبيب الخائب الصغير ؟ قد يكون بطيء الفهم قليلاً لكن ليس إلى حد التعامي عن رؤيتها وهي تسيطر وتفعل ما تشاء »

يسحب هاردنغ نفساً عميقاً من سيجارته وينفخه وهو يتكلم « الدكتور سبايفي هو مثلنا جميعاً ، مدرك تماماً لعجزه انه أرنب صغير فزع ، يائس ، قاصر ، عاجز كلياً عن ادارة هذا الجناح دون مساعدة الآنسة راتشدت ، وهو يعرف ذلك الأنكى انها تعرف انه يعرف وتذكره به في كل مناسبة تسنح لها كلما وجدت انه كتب قصاصة صغيرة في المراسلات أو ، لنقل ، في ميثاق الجناح فلك أن تتصورها هناك وهي تسحق أنفه فوق ما كتب »

« هذا صحيح » يقول شيزويك ، مقترباً من ماكمورفي « تسحق أنوفنا فوق أخطائنا »

« لماذا لا يعمل على فصلها ؟ »

يقول هاردنغ « في هذه المستشفى لا يملك الطبيب سلطة الاستخدام والفصل هذه السلطة يستأثر بها المشرف ، والمشرف امرأة ، صديقة قديمة عزيزة للآنسة راتشدت عملتا ممرضتين في الحرب خلال الثلاثينات نحن ضحايا سلطة أمومية هنا يا صديقي ، والطبيب عاجز ازاءها كما نحن عاجزون يعرف أن كل ما على راتشدت أن تفعله هو رفع سماعة الهاتف التي تراها الى جانب مرفقها وتخاطب المشرفة وتذكر ، آه لنقل ، أن الطبيب مثلاً يكثر من استخدام الديميرول »

« توقف يا هاردنغ ، لم أتعرف بعد على معاني الاصناف هذه »

« الديميرول يا صديقي مخدر مركب ، ضعف الطاقة الإدمانية للهيروين من

الشائع أن يدمن عليه الأطباء »

« ذلك الخائب الصغير . هل هو مدمن مخدرات ؟ »

« أنا متأكد من أني لا أعرف »

« كيف يتسنى لها أن تتهمه اذاً ؟ »

« آه ، أنت لا تعيرني انتباهك يا صديقي . انها لا تتهم انها ببساطة تكتفي بالتلميح التلميح الى أي شيء ، ألا ترى ؟ أما لاحظت اليوم ؟ انها تستدعي رجلاً الى باب مركز الممرضات وتقف هناك وتسأله عن منديل ورقي وجد تحت سريره لا شيء أكثر ، مجرد سؤال وسيشعر أنه يكذب عليها ، مهما كان جوابه لو قال أنه كان ينظف قلماً ، تقول آه ، نعم نعم ؛ أو لو قال أنه كان يعاني من رشح في أنفه ، ستقول ، آه ، نعم رشح ، وستهزّ تسريحة شعرها الأنيقة الصغيرة وتبتسم ابتسامتها الصغيرة الأنيقة وتستدير لتدخل في مركز الممرضات ، تتركه واقفاً هناك يتساءل عن السبب الحقيقي في استعماله لذلك المنديل الورقي »

يبدأ في الارتعاش ثانية ، ينطوي كتفاه حول ظهره

« كلا ، لم تكن بحاجة للإتهام عبقرية في التلميح هل سمعتها يوماً ، في مجرى نقاشنا اليوم ، هل سمعتها مرة واحدة وهي تتهمني بأي شيء ؟ لكني مع ذلك اتهمت بالعديد من الأشياء ، بالغيرة والبارانويا ، في أني لست رجلاً بما يكفي لإشباع زوجتي ، في اقامة علاقات مع زملائي الذكور ، في حمل سيجارتي بطريقة غير لائقة ، حتى ، كما يبدو لي ـ الاتهام بأني لا أملك شيئاً بين ساقيّ باستثناء جزّة من الشعر ، شعر ناعم ، شعر أشقر هناك في الأسفل ! قاطعة خصيتين ؟ آه ، أنت تقلّل من قدراتها ! »

يصمت هاردنغ بغتة وينحني الى الأمام ليأخذ يدي ماكمورفي بين يديه يتلون وجهه بتعبير غامض ، قرمزي محتقن ورمادي ، زجاجة نبيذ نصف مليئة

« هذا العالم يخص القوي يا صديقي ! طقس وجودنا يرتكز على ازدياد قوة القوي بابتلاع الضعيف يجب أن نواجه ذلك لا مناص من أن يكون الحال هكذا علينا أن نتعلم كيف نقبله كقانون للعالم الطبيعي الأرانب تقبل بدورها في

الطقس وتعترف للذئب بأنه الأقوى يصبح الأرنب في دفاعه خبيثاً ، فزعاً ومراوغاً فيحفر الجحور ليختبىء بها حين يقترب الذئب ويتحمل ، يواصل وجوده يعرف مكانته وهو على الأرجح لا يتحدى الذئب في الصراع هل من الحكمة أن يفعل ، هل يفعل ؟ »

يطلق يدي ماكموري وينحني إلى الوراء وتتصالب قدماه ، يسحب نفساً عميقاً آخر من سيجارته ينفخ الدخان من شقّ ابتسامته النحيلة ، وتعوده ضحكته ثانية أي ي ي - ي ي ي - ي ي ، كالمسمار المقتلع من جذع شجرة

« ماكمورفي ، يا صديقي لست كتكوتاً ، أنا أرنب ، الطبيب أرنب شيزويك هناك أرنب بيللي بيبيت أرنب كلنا هنا أرانب بدرجات وأعمار مختلفة ، نتقافز في عالمنا ، عالم والت ديزني هذا آه ، لا تسيء فهمي ، لسنا هنا **لأننا** أرانب ، فسنكون أرانب أينما حللنا ـ نحن جميعاً هنا لأننا لا نستطيع **التلاؤم** مع حالة تأرنبنا **نحتاج** الى ذئب قوي كاسر كالممرضة ليدلنا على موقعنا »

« يا صاح ! أنت تتحدث كالمغفل هل تريد القول أنكم تنوون الاستكانة وافساح المجال أمام امرأة زرقاء الشعر لتقنعكم بأنكم أرانب ؟ »

« لا تقنعني بذلك ، كلا لقد ولدت أرنباً انظر إليّ فقط أنا ببساطة أحتاج الى الممرضة لتجعلني سعيداً بدوري »

« أنت لست أرنباً لعيناً ! »

« انظر الى أذني ، الأنف المسطح ، الذيل الصغير المدبب »

« أنت تتحدث كرجل مجنون »

« كرجل مجنون ؟ يا للباقة ! »

« اللعنة يا هاردنغ ، لا أقصد ذلك لست مجنوناً بهذا المعنى ، أقصد ، لقد دهشت من سلامة عقولكم أيها الرجال ، وأكاد أقول أنكم لستم أكثر جنوناً من أي قوّاد يسير في الشارع »

« آه ، نعم القواد في الشارع »

« لكنكم لستم ، كما تعلمون ، بجنون الناس الذين تخلقهم الأفلام السينمائية أنتم محاصرون فقط ، أشبه بـ »

« أشبه بالأرانب ، أليس كذلك ؟ »

« أرانب ! **يا للجحيم** ! لستم شيئاً شبيهاً بالأرانب اللعنة ! »

« يا سيد بيبيت ، اقفز قليلاً ليراك السيد ماكمورفي شيزويك ، بين له كم هو **أملس** فراؤوك »

يتحول بيللي بيبيت وشيزويك إلى أرنبين أبيضين محدودبين أمام عينيّ مباشرة لكنهما من الخجل الى درجة تمنعهما من أداء ما طلبه منهما هاردنغ

« آه ، انهما يشعران بالحياء يا ماكمورفي ، أليس هذا جميلاً ؟ أولئك الزملاء ليسوا مرتاحين لأنهم لم يألفوا صديقهم لعلهم يشعرون بالذنب للطريقة التي أتاحوا فيها للمرضة أن تستخدمهم كضحايا تتولى التحقيق بدلاً منها ابتهجوا أيها الأصدقاء ، لا سبب يدعوكم للإحساس بالعار الأمر بالضبط كما ينبغي له أن يكون ليس من واجب الأرنب أن يألف صديقه سيكون هذا عملاً أحمق كلا ، كنتم حكماء جبناء ولكن حكماء »

يقول شيزويك « اسمع يا هاردنغ - »

« كلا ، كلا يا شيزويك لا يجب أن تشعر بالمهانة ازاء الحقيقة »

« إسمع الآن ؛ لقد مضى زمن قلت فيه عن الآنسة راتشدت الأشياء ذاتها التي قالها ماكمورفي »

« نعم ، لكنك قلتها بهدوء بالغ ثم سحبتها جميعاً في ما بعد أنت أرنب أيضاً ، لا تحاول إغماض عينيك عن الحقيقة ، لهذا ليس لي عتب عليك بسبب ما طرحته من أسئلة خلال اجتماع اليوم كنت فقط تؤدي دورك ولو كنت أنت في قفص الاتهام ، أو أنت يا بيللي ، أو أنت يا فريدريكسون ، لما توانيت عن مهاجمتكم بالقسوة التي هاجمتموني فيها لا يجب أن نخجل من أفعالنا ، هذا ما خلقنا نحن الحيوانات الصغيرة لادائه »

يستدير ماكمورفي ويقلب النظر في « المبرحين » الآخرين « لست واثقاً تماماً مما ينبغي لهم أن يخجلوا بسببه بالنسبة لي شخصياً ظننت أنه من العار أن ينقلبوا هكذا إلى جانبها ضدك ظننت لدقيقة أنني عدت ثانية إلى معسكر الاعتقال الصيني الأحمر ذاك »

« بحق الإله يا ماكمورفي » يصرخ شيزويك « انصت قليلاً »

يستدير ماكمورفي وينصت ، لكن شيزويك يواصل الكلام شيزويك لا يتم شيئاً ، انه من الرجال الذين يثيرون ضجة كبيرة وكأنهم سيقودون هجوماً ، يصدرون الأوامر بصوت عالٍ ويتنطحون للمسؤولية ، يخطون خطوتين ثم ينصرفون ينظر إليه ماكمورفي في المكان الذي ضبط فيه وقد تحول إلى فأر بعد ذلك التأهب الساخن ، ويقول له « الكثير من جحيم معسكر الاعتقال الصيني »

يرفع هاردنغ يديه لتهدئة الجو « آه ، كلا كلا هذا ليس صحيحاً لا يجب أن تديننا يا صديقي كلا ، في الحقيقة »

أرى تلك الحمى البطيئة تزحف على عين هاردنغ من جديد أظن أنه سيبدأ الضحك لكنه بدلاً من ذلك يسحب سيجارته من فمه ويشير الى ماكمورفي ـ وتبدو السيجارة في يده كواحدة من أصابعه البيضاء الصغيرة ، تدخن من أناملها

« أنت أيضاً يا سيد ماكمورفي ، رغم كل خيلاء رعاة البقر فيك وزهوك الارستقراطي ، أنت أيضاً ـ تحت قشرتك السطحية ـ قد تكون ناعماً وأملساً وأرنباً في الروح مثلنا »

« نعم ، تراهن على ذلك لي ذيل قطني ما الذي بالضبط يجعلني أرنباً يا هاردنغ ؟ ميولي الإختلالية ؟ نزوعاتي العدوانية ، أم ميولي للمضاجعة ؟ لا بد أنها ميول المضاجعة أليست هي ؟ نعم ، تلك العلاقات الجنسية هي التي تجعلني أرنباً ـ »

« انتظر ! أظن انك أثرت نقطة تتطلب المزيد من التدقيق الأرانب تتحلى بتلك السمة ، أليس كذلك ؟ انها هوجاء في علاقاتها نعم ! ولكن النقطة التي تثيرها ببساطة تشير في كل حال إلى انك أرنب معافى وفعال وقادر ، بينما معظمنا هنا تنقصه القدرة الجنسية ليساوي الأرانب القادرة حالات فشل نحن ، مخلوقات صغيرة ضعيفة مشلولة في عرقنا الصغير الضعيف أرانب بلا تزلف ، فكرة عاطفية مؤثرة »

« انتظر ، أنت تهذو بعكس ما أردت قوله ـ »

« كلا ، كنت على حق تذكّر ، كنت أول من لفت انتباهنا إلى المكان الذي

تستهدف الممرضة نقره كان ذلك صحيحاً ليس منا أحد لا يخشى انه يفقد ، أو قد فقد ، القدرة الجنسية نحن المخلوقات الصغيرة الهزلية لا نستطيع تحقيق ذكورتنا في عالم الأرانب ، هكذا نحن ضعفاء وقاصرون هييه ! نحن الأرانب ـ قد يقول المرء ـ من عالم الأرانب ! »

ينحني إلى الأمام وضحكته المحشرجة المجهدة التي كنت أتوقعها تبدأ في الاندفاع من فمه يداه ترفرفان ، وجهه يمتقع

« هاردنغ ! أغلق فمك اللعين »

انها أشبه بضعفه يصمت هاردنغ يختلج مصطقاً من برد مجهول فمه لا يزال منفرجاً عن ابتسامة باهتة ، يده تغرق في سحابة من دخان التبغ الأزرق يلبث هكذا لثوان ، ثم تضيق عيناه لتصبحا حفرتين صغيرتين ماكرتين يدعهما تنزلقان نحو ماكمورفي يتحدث بصوت خافت حتى انني اضطررت لدفع مكنستي على يمين كرسيه لاسمع ما يقول

« يا صديقي قد تكون ذئباً ! »

« اللعنة ! لست ذئباً ولا أرنباً ، هوووه ، لم يسبق لي سماع مثل ـ »

« لك زئير الذئب الكاسر »

يستدير ماكمورفي الى « المبرحين » الآخرين القريبين وهسيس أنفاسه يعلو « هيا ، جميعكم أيها الرجال ! ما خطبكم جميعاً بحق الجحيم ؟ لستم مجانين الى حد اعتبار أنفسكم حيوانات »

« كلا ! » يهتف شيزويك ويقف إلى جانب ماكمورفي « كلا بحق الله ، لست أنا أنا لست أرنباً أبداً »

« هكذا الفتيان يا شيزويك وبقيتكم أيضاً ،دعونا نزيل الفكرة

انظروا إلى أنفسكم ، تتحدثون عن فزعكم هاربين من امرأة عجوز في الخمسين من عمرها ما الذي تستطيع انزاله بكم مع ذلك ؟ »

« نعم ، ماذا ؟ » يقول شيزويك ويحدق في الآخرين من حوله

« لا تستطيع أن تجلدكم ، لا تستطيع أن تحرقكم بالحديد الحامي ، لا تستطيع تقييدكم الى الزاوية لديهم اليوم قوانين تنظم هذه الأشياء ، انه ليس العصر

الوسيط الا شيء في العالم تستطيع ـ »

« رأ رأ رأيت ما تسـ تسـ تستطيع عمله بنا في الاجـ الاجـ الاجتماع اليوم » أرى بيللي بيبيت ينقلب من حالة الأرنب يدنو من ماكمورفي يحاول مواصلة الكلام وفمه مبلل ببصاقه ووجهه محتقن يستدير مبتعداً وهو يتمتم « آه لافا فا فائدة سوف أق ـ أق ـ. أقتل نفسي فقط »

يهتف به ماكمورفي « اليوم ؟ ماذا رأيت اليوم يا لأجراس الجحيم ! كل ما رأيته اليوم أنها طرحت سؤالين أو ثلاثة ، مهذبة ولطيفة الأسئلة لا تكسر الظهر ، ليست عصيّاً وحجارة »

يستدير بيللي « ولكن لما لما لماذا تطرحها ؟ »

«لستم ملزمين بالإجابة ، أليس كذلك ؟ »

« اذا لم تجـ تجـ تجب فهي تب ـ تب تبتسم فقط وتجسل ملاحظة في دفترها الصغير ثم آه ، **يا للجحيم** ! »

يقف سكانلون قرب بيللي ويقول « اذا لم تجب عن اسئلتها يا ماك فأنت تعترف بها بسكوتك انها الطريقة التي ينال فيها منك أنذال الحكومة هؤلاء لا مفر الحل الوحيد هو إزالة الشلّة بأكملها عن سطح الأرض النازف ، ازالته من جذوره »

« حسناً حين تسأل أسئلتها هذه ، لماذا لا يخبرها أحدكم أن تلقي بنفسها في الجحيم ؟ »

« نعم » يقول شيزويك رافعاً قبضته « أخبروها أن تلقي بنفسها في الجحيم »

« ثم ماذا يا ماك ؟ ستكتفي بالتراجع إلى الوراء قليلاً لتقول لماذا يثير حفيظتك هذا السؤال بالذات أيها المريض ماكمورفي ؟ »

« فتخبرها أن تذهب ثانية إلى الجحيم ! أخبرهم أن يذهبوا جميعاً إلى الجحيم فلا يعود بمقدورهم ايذاؤك من بعد »

يحتشد « المبرحون » حوله ويزدادون اقتراباً منه يجيب فريدريكسون هذه المرة

« طيب ، تخبرها بذلك فيسجل اسمك في قائمة « احتمال الميول العدوانية » فتشحن الى الطابق الأعلى حيث جناح « المضطربين » حدث الأمر معي ثلاث مرات أولئك التعساء ، لا يتاح لهم حتى الخروج من الجناح لحضور سينما مساء السبت ، حتى التلفزيون يعدمونه »

« ويا صديقي ، لو واصلت اظهار هذه الميول العدوانية ، كالطلب من الناس أن يذهبوا الى الجحيم ، يتقرر ارسالك إلى « دكان الصدمة » ، وربما أشياء أصعب كالجراحة و ـ »

« اللعنة يا هاردنغ ، قلت لك أنني لا أفهم هذه الألفاظ »

« دكان الصدمة ، يا ماكمورفي هو التسمية الخاصة لجهاز ع ص ك أي العلاج بالصدمة الكهربائية إنه ابتكار يقوم مقام الحبة المنومة ، الكرسي الكهربائي ، **آلة التعذيب** انه اجراء ذكي بسيط ، سريع ، عابر ، غير مؤلم تقريباً ويحدث بسرعة فائقة ، لكن أحداً لا يرغب في تجربته ثانية ، أبداً »

« ما الذي يفعله هذا الشيء ؟ »

« تقيد إلى طاولة لها مجازاً شكل الصليب ، وتاج الشرارات الكهربائية بمثابة الأكاليل تلمسك الاسلاك في كل جانب من رأسك ززاب ! بكلفة خمسة سنتات من الكهرباء التي تعبر الدماغ تكون بجمـاع قواك قد تعرضت للعلاج والعقاب على سلوكك العدائي الذي يهدد الآخرين بالجحيم ـ وتكون الخاتمة أن تعرف في طريق مرور الآخرين ست ساعات يومياً خلال ثلاثة أيام طبقاً لحالة الفرد تظل في حالة من التيه أياماً طويلة حتى حين تستعيد وعيك لست قادراً على التفكير بصورة متماسكة لا تستطيع استرجاع الأشياء وبما يكفي من حالات العلاج هذه يصبح الرجل شبيهاً بالسيد إيلليس الذي تراه هناك على الجدار معتوه في الخامسة والثلاثين من عمره يتبول في ثيابه أو يصبح آلة فاقدة الذهن تأكل وتطرح وتهتف « ضاجع الزوجة » مثل ركلي أو انظر إلى الزعيم المكنسة ملتصقاً بمسمّاه هناك بالقرب منك »

يشير هاردنغ بسيجارته تجاهي ، ويكون الوقت قد فات على انسلالي   أتظاهر بأني لا ألاحظ شيئاً   أواصل التكنيس

« سمعت أن الزعيم ـ منذ سنوات خلت ـ تعرّض لما يزيد على المائتي جلسة علاج بالصدمة حين كان استخدامها يسير على قدم وساق   تصور ما يمكن أن تفعله تلك بدماغ كان تائهاً قبلها   انظر اليه   مارد عملاق ، ها هو مواطنك الأمريكي المندثر ، مكنسة آلية بقياس يزيد على تسة أقدام ونصف ، يرتعد من ظلّه ، هذا يا صديقي ما يمكن أن تهددنا به »

يرقبني ماكمورفي لبرهة ، ثم يتحول إلى هاردنغ ، « يا رجل ، أقول كيف تحملتم ذلك ؟ ماذا عن الموعظة الديمقراطية التي أمطرني بها الطبيب ؟ لماذا لا تصوتون ؟ »

يبتسم هاردنغ ويأخذ نفساً بطيئاً من سيجارته « نصوت على ماذا يا صديقي ؟ نصوت على أن تمتنع المرضة عن طرح الاسئلة في اجتماع المجموعة ؟ نصوت على امتناعها عن التحديق بنا بطريقة معينة ؟ أخبرني يا سيد ماكموري ، على أي شيء نصوّت ؟ »

« يا للجحيم ! لا يهمني   صوتوا على أي شيء   ألا ترون أن عليكم القيام بشيء ما يظهر أنكم تمتلكون بعض الرمق ؟ ألا ترون أنه ينبغي عليكم ألا تدعوها تسيطر كلية ؟ ها أنا أنظر اليكم   قلت أن الزعيم يرتعد من ظلّه الخاص ، وأقول انني لم أر في حياتي شلّة يلوح عليها الفزع مثلكم يا جماعة »

« لست هكذا ! » يقول شيزويك

« ربما كنت مختلفاً يا صاحبي ، غير أن الباقين يفزعون حتى من فتح أفواههم للضحك   هل تعلمون ، الشيء الوحيد الذي لفت انتباهي في هذا المكان انه خال من الضاحكين   لم أسمع ضحكة حقيقية منذ أن عبرت الباب ذاك   هل تعرفون هذا ؟ يا رجل ، حين تفقدون ضحكتكم تهتز أقدامكم على الأرض   الرجل منكم يذهب بعيداً في السماح لامرأة أن تعتليه حتى لا يصبح قادراً على الضحك فيفقد بذلك أحد جوانب قوته   أول ما سيحس به كما تعلمون أنها أقوى منه و ـ »

« آه   أظن أن صديقي مخادع ، أيها الزملاء الأرانب   أخبرني يا سيد

ماكمورفي كيف يستطيع المرء إظهار تفوقه على المرأة ، اقصد بمعزل عن الضحك عليها ؟ كيف يظهر لها من هو ملك الجبل ؟ مثلك يجب أن يكون قادراً على اخبارنا لا تشبعها ضرباً كما أظن ، وإلا للجأت إلى القانون ، لا تفقد أعصابك فتصرخ في وجهها ، فهي ستفوز حتماً حين يتصدى لك ابنها الغاضب ويتشدق قائلاً هل ستثير المتاعب أيها الرجل الصغير ؟ آههه ، هل جربت يوماً أن تحفظ ماء وجهك غاضباً ونبيلا ازاء استفزاز كهذا ؟ وكما ترى يا صديقي ، الأمر كما ذكرته تقريباً ، الرجل يمتلك سلاحاً واحداً فعالاً حقاً ضد عتوّ السلطة الأمومية المعاصرة ، لكنه ليس الضحك سلاح واحد ، وكلما انقضت سنة في هذا الجناح وامتلك المجتمع دوافع مدروسة فسيكتشف المزيد والمزيد من الناس كيف يمكن تعطيل ذلك السلاح والسيطرة على أولئك الذين كانوا من قبل هم الغزاة »

« يا للرب ! هاردنغ ، أنت تقترب من الموضوع » يقول ماكمورفي

«وهل تظن ، مع كل قدراتك النفسية المزعومة ـ انك تستطيع استخدام سلاحك بفعالية ضد بطلتنا ؟ هل تظن أنك تستطيع استخدامه ضد الآنسة راتشدت يا سيد ماكمورفي ؟ مرة واحدة ؟ »

ويرفع يده المتثاقلة نحو المقصورة الزجاجية تستدير كافة الرؤوس لتنظر. انها هناك ، تراقب من نافذتها ، تخفي شريط تسجيل في مكان ما بعيداً عن الأنظار ، مسجلة كل ما يقال لقد باشرت لتوها التخطيط لادخاله في النظام

تلاحظ الممرضة أن الجميع ينظرون اليها ، تومىء برأسها فيتحولون جميعاً يخلع ماكمورفي قبعته ويجري يده في ذلك الشعر الأحمر الجميع الآن ينظرون اليه ، كأنهم ينتظرون ردّه يحس بأنه محرج بصورة ما يعيد القبعة ويحك آثار القطب على أنفه

« اذا كنتم تقصدون أنني أستطيع اعتلاء تلك الحدأة الشمطاء فأقول كلا ، لا أظن أنني أستطيع »

« ليست قبيحة إلى هذا الحد يا ماكمورفي وجهها وسيم تماماً وجذاب ، ثدياها عامران رغم كل محاولاتها لاخفائهما في ذلك الرداء الكالح غير المثير . لا بد أنها كانت امرأة فتية جميلة مع ذلك ، ولاستكمال النقاش ، هل تستطيع التغلب عليها

لو لم تكن شمطاء ، أو حتى لو كانت شابة في جمال هيلين ؟ »

« لا أعرف هيلين ، لكني أفهم ما ترمي اليه وأنت والله محق لا أستطيع اعتلاء ذلك الوجه الجامد العجوز حتى لو كانت في جمال مارلين مونرو »

« ها أنت تقولها الفوز لها »

هكذا يتكيء هاردنغ الى الخلف وينتظر الجميع ما سيقوله ماكمورفي ، لا يرى ماكمورفي أنه حشر في زاوية الجدار ينظر إلى الوجوه قليلاً ، ثم يهزّ كتفيه وينهض عن كرسيه

«حسناً ، بحق الجحيم ، هل سلختم الجلد عن أنفي ؟ »

« كلا ، لم يسلخ الجلد عن أنفك »

« كما أني لا أريد ، يا للعنة ، أن تتعقبني ممرضة خارجة من الجحيم تحمل ثلاثة آلاف فولت ليس حين أخرج من العملية بالمغامرة وحدها »

« كلا أنت على صواب »

ربح هاردنغ المناقشة غير أن الجميع لا تلوح عليهم السعادة يعلق ماكمورفي ابهامه في جيبه ويحاول الضحك

« كلا يا سيدي لم أسمع بمكافأة قدرها عشرون عظماً للفوز بقاطعة خصيتين »

يبتسم الجميع لملاحظته ، لكنهم ليسوا سعداء أنا سعيد لأن ماكمورفي لن يقع في براثن من لا يستطيع مواجهته وان كان تعرّض للحرج لكني أعرف كيف يحس الرجال ، لست سعيداً أنا نفسي يشعل ماكمورفي سيجارة أخرى ، لم يتحرك أحد بعد لا يزالون واقفين هناك ، مقطبين وممتعضين يحك ماكمورفي أنفه ثانية ويتطلع بعيداً عن شلّة الوجوه المتحلقة حوله ، ينظر إلى الممرضة ويمضغ شفتيه

«لكنكم تقولون أنها لا ترسلكم إلى الطابق الأعلى حتى تنهك قواكم ؟ حتى تجعلكم تنهارون بطريقة ما أو تشتمونها أو تحطمون نافذة أو شيئاً من هذا القبيل ؟ »

« إلا إذا فعلنا شيئاً كهذا »

« هل أنتم متأكدون من ذلك الآن ؟ أقول ذلك لأن لدي فكرة بسيطة عن كيفية متابعتكم العيش هنا أيها الطيور لكني لا أريد أن أصبح مغفلاً في المسألة كان لدي وقت وافر للخروج من ذلك الجحر الآخر ؛ لا أريد القفز من المقلاة إلى النار »

« كل التأكيد انها عاجزة حتى يقترف المرء ما يدفع به إلى جناح « المضطربين » أو ع ص ك اذا كنت صلباً بما يكفي لإتقاء شرّها ، فليس بوسعها فعل شيء »

« ولو تصرفت بصورة سليمة ولم أشتمها ؟ »

« أو تشتم أحد مساعديها »

« أو أشتم أحد مساعديها أو أمزق لافتة في مكان ما ، لن تستطيع القيام بأي شيء ضدي ؟ »

« هذه قواعد اللعبة طبعاً هي تفوز دائماً يا صديقي ، دائماً إنها شخصياً منيعة ، وعنصر الزمن يعمل لصالحها ، يجعلها تخترق ما في داخلنا جميعاً لهذا تعتبرها المستشفى كبيرة الممرضات وتمنحها الكثير من الصلاحيات ، انها حجّة في عزل الليبيدو وتركه يرتجف في العراء ـ »

« الى الجحيم ، ما أريد معرفته هو ان كنت سأظل في مأمن لو حاولت التغلب على لعبتها ؟ لو جئت اليها نقياً مرتباً كالفطيرة ، مهما **ألمحتُ** ، ألن تقلب سحنتها وتعرضني للكهرباء ؟ »

« أنت في مأمن طالما حافظت على رباطة جأشك طالما أنك تضبط اعصابك ولا تعطيها سبباً فعلياً لطلب احتجازك في جناح «المضطربين» أو تعريضك للكهرباء ، فأنت في مأمن لكن هذا يقتضي أولاً وأخيراً رباطة الجأش ، وأنت ؟ بشعرك الأحمر وسجلك الأسود ؟ لماذا توهم نفسك ؟ »

« حسناً ، لا بأس » يفرك ماكموري راحتيه « اليكم ما أفكر به أنتم أيها الطيور تظنون أن لديكم البطل الذي لا يجارى ، أليس كذلك ؟ البطل الذي ـ ماذا قلت عنها ؟ ـ نعم ، امرأة منيعة أريد أن أعرف عدد الواثقين بينكم ثقة نهائية

تجعلهم يراهنون بمبلغ صغير على القضية ؟ »

« ثقة نهائية ؟ »

« أردت أن أقول ، من منكم أيها الأذكياء يأخذ مني خمسة دولارات حين يراهن أنني لا أستطيع النيل من أفضل ما تملكه تلك المرأة ، قبل نهاية الأسبوع ، دون أن تنال هي شيئاً مقابلاً مني؟ اسبوع واحد ، واذا لم أجعلها تحار ان كانت ستتبرّز أم تنقلب إلى مجنونة ، تفوزون أنتم بالرهان »

« أنت تراهن على ذلك ؟ » يقول شيزويك وهو ينط من قدم إلى أخرى ويفرك يديه كما يفعل ماكمورفي

« أنت على صواب تماماً »

هاردنغ وبعض الآخرين يقولون أنهم لم يفهموا

« الأمر بسيط للغاية ، ليس فيه شيء معقد أحب المقامرة وأحب الفوز وأظن أنني أستطيع الفوز بهذا الرهان ، تقبلون ؟ في بيندلتون لم يكن الرجال يراهنون ببنس واحد معي لأنهم يتوقعون فوزي دائماً والحق أن أحد الأسباب الكبيرة لمجيئي الى هنا كان حاجتي إلى حمقى جدد سأخبركم بشيء لقد اكتشفت بعض الأمور في هذا المكان قبل أن أصل اليه نصفكم تقريباً أيها الرجال يتلقى تعويضات ثلاثمائة واربعمائة في الشهر ولا شيء في الجناح لانفاقها فتظل حبسية الغبار فكرت أنني قد أستفيد من هذا وأسبغ بعض الثراء على حياتنا سأبدأ معكم أنا مقامر غير معتاد على الخسارة ولم أر في حياتي امرأة اعتبرها تفوقني في الرجولة ، ولا أعبأ ان كان باستطاعتي اعتلاءها أم لا قد تمتلك عنصر الوقت ، لكني أمتلك تاريخاً شخصياً طويلاً في الفوز »

يخلع قبعته ويديرها حول إصبعه ويلتقطها من وراء ظهره باليد الأخرى ، برشاقة ممتعة

« شيء آخر أنا في هذا المكان لأنه المكان الذي خططت له ، بوضوح وبساطة لأنه أفضل من مزرعة العمل وبقدر ما أعرف ، أظن أنني لست معتوهاً ، أو لم أكن يوماً ما ممرضتكم لا تعرف ذلك ؛ انها لا تتوقع أن يواجهها أحد

بذهن متقّد حاد كالذهن الذي من الواضح أنني أمتلكه ، هذا الأمر يزودني بالسلاح الذي أفضله   ولذا أقول خمسة دولارات لكل من يظن منكم أنني لا أستطيع وضع بقّة وبقة في عقب تلك الممرضة خلال أسبوع »

« لا زلت غير واثق من ـ »

«هكذا تماماً. نحلة في عقبها. نبات شائك في ثيابها الداخلية. أنهك قواها أشدد عليها الخناق حتى تأتي وحيدة نحو هذه الغضون الأنيقة الصغيرة وتظهر ، مرة واحدة فقط ، انها ليست صعبة المنال كما تظنون   اسبوع واحد   سأترك لكم ان تحكموا بفوزي أو خسارتي »

يخرج هاردنغ قلماً ويكتب شيئاً ما على رقعة البينيكيل »

« هاك   تنازل بعشرة دولارات من النقود التي يحفظونها بإسمي في الخزينة ولا تجلب لي سوى الغبار ، المبلغ يساوي ضعفه بالنسبة لي يا صديقي ، حين أرى انهيار تلك المعجزة المستحيلة »

ينظر ماكمورفي في الورقة ويطويها « هل من مهتم آخر بينكم أيها الطيور ؟ »

يصطف « مبرحون » آخرون الآن ويأخذون دورهم أمام الرقعة   يجمع هو قصاصات الورق حين ينتهون ، يكوّمها فوق راحته ، يثبتها تحت إبهامه الضخم الخشن   أي قصاصات الورق تتراكم في يده ، يتفحصها

« هل تثقون بي حين احتفظ بالمراهنات يا أصحاب ؟ »

« أظن أنه ما من خطر علينا في ذلك » يقول هاردنغ « لن تذهب إلى أي مكان آخر لفترة قادمة »

في المقر القديم ، ذات عيد ميلاد عند إطفاء الأنوار في منتصف الليل ، ينصفق باب الجناح محدثاً ضجة عظيمة ، يدخل رجل بدين ملتح ، عيناه محمرتان من البرد وأنفه بلون الكرز يحصره الفتيان السود في زاوية من زوايا القاعة ويسلطون عليه الأضواء الكاشفة وأرى انه مرتبك لمرأى الأشياء التي يثرثر عنها عادة رجل العلاقات العامة ، يحملق في جوانب المكان القابعة في الظلام يهرب بعينيه من الأضواء الكاشفة ويلقي بهما على شاربه . يقول « هو هو هو ، أحب البقاء ولكن علي أن أسرع في الذهاب توقيت صارم للغاية كما تعلمون هوهو ، يجب أن أذهب »

يتحرك الفتيان السود بالأضواء الكاشفة أبقوه معنا ست سنوات قبل أن يطردوه ، حليق اللحية وهزيلاً كالقطب الكهربائي

الممرضة الكبيرة قادرة على ضبط ساعة الحائط على السرعة التي تريدها بضغط أحد الأقراص الدوارة في الباب الفولاذي ، يخطر ببالها أن تسرّع الأشياء فترفع السرعة ، تلهث تلك العقارب في الأسطوانة كأنها صحن الدولار يتغير المشهد عبر نافذة صالة العرض السينمائي من خلال نقلات ضوئية سريعة ، الصباح الظهر ، المساء يضطرم المشهد بعصبية معلناً النهار والليل يندفع الجميع كالمجانين للّحاق بالزمن المزيف، تزاحم مرعب من توقيتات الحلاقة والافطار والمواعيد والغداء والعلاج وعشر دقائق من الليل لكي تتمكن من إغماض عينيك قبل أن يصرخ ضوء المهجع في عينيك المغمضتين لتبدأ في التزاحم ثانية تذهب كابن العاهرة في هذا الاتجاه تذهب في توقيت النهار الكامل عشرين مرة في الساعة ، حتى ترى الممرضة الكبيرة ان الجميع شارفوا على نقطة الانفصال ، فتبطيء الصمام الخانق ، تهديء من سرعة قرص الساعة ، كطفل يلهو بآلة عرض سينمائية وحين يتعب من رؤ ية الفيلم يسير عشرة أضعاف سرعته المعتادة ويضجر من سماع حشرجة الأصوات وصريرها كالحشرات يعيد السرعة إلى طبيعتها

لقد اعتادت على تسريع الزمن بهذه الطريقة في الأيام التي تستقبل فيها زائراً أو

في العروض القادمة من بورتلاند ـ أوقات كهذه ، أوقات تحب أن تقتنصها وتطيلها هنا تسرّع الممرضة كل شيء

لكن العكس هو ما يجري عادة ، الطريقة البطيئة تحرك ذلك القرص حتى يتوقف نهائياً فتجمد الشمس هناك على الشاشة ولا تتحرك قيد إنملة عن مكانها طوال أسابيع ، لا تهتز على ورقة في شجرة أو نبتة عشب صغيرة في مرعى تتوقف عقارب الساعة عند الدقيقة الثانية قبل الساعة الثالثة وقد تترك على حالها حتى تصدأ تجلس جامداً ، فلا أنت قادر على الانزياح من مكانك ، ولا أنت قادر على السير أو الحركة لإراحة نفسك من جهد الجلوس ، ولا أنت قادر على الشهيق أو الزفير الشيء الوحيد الذي تستطيع تحريكه هو عيناك ، وهنا لا ترى شيئاً سوى « المبّرحين » في مساحة الغرفة ينتظرون من سيبدأ بينهم « المزمن » العجوز الى جانبي مات منذ ستة أيام ، وهو يتعفن على السرير وهي تستعيض احياناً عن الضباب بغاز كيميائي شفاف يتسلل إلى العروق ، ويتجمد الجناح بأسره حين يتحول الغاز إلى بلاستيك

الله وحده يعلم كم نلبث هكذا

ثم ترفع القرص تدريجياً مقدار درجة واحدة ، وهو حال أسوأ استطيع أن أرفع جثة هامدة أسهل مما يستطيع سكانلون الجالس هناك في القاعة ، رفع يده البطيئة ، اذ يحتاج إلى ثلاثة أيام ليلقي بورقةاللعب على الطاولة تستنشق رئتاي الهواء البلاستيكي وكأنه يمرّ في خرم إبرة أحاول النهوض للذهاب إلى المغاسل فأشعر أنني مدفون تحت طن من الرمال ، رمال تضغط على مثانتي حتى تطفر الشرارات الرطبة وترتمي على جبهتي

أجهد بكل عضلة وعظم للخروج من ذلك الكرسي والذهاب إلى المغاسل ، أعمل للنهوض حتى تكلّ ذراعاي وقدماي فترتجف وتصطك أسناني أسحب نفسي ، أسحب بكل قواي ، ولا احقق أكثر من ربع إنش من الارتفاع عن المقعد الجلدي ، أتداعى إلى الخلف وأستسلم وأترك البول يتصبب راسماً شريطاً ملحياً ساخناً على طول قدمي اليسرى يخمد التنبيهات وصفارات الانذار وبقع الضوء الكل يدورون ويصرخون في القاعة ، والفتيان السود الضخام يفرقون الزحام يميناً ويساراً في اندفاعهم نحوي ، ملوحين بألواح مرعبة من الاسلاك النحاسية المرطبة التي تقرقع وتهسّ وهي تتقلص في الماء

الوقت الوحيد الذي نجد فيه مخرجاً من هذه السيطرة على الزمن هو وقت الضباب عندها لا يعني الزمن شيئاً ، يضيع في الضباب ، مثل الأشياء الأخرى كافة (لم يغمروا المكان بضباب كاف هذا اليوم ، وذلك منذ جاء ماكموروفي أراهن أنه كان سيصرخ كالثور لو غمروه بالضباب)

وحين لا يحدث شيء آخر عليك عادة أن تقنع بالضباب أو السيطرة على الزمن لكن شيئاً حدث اليوم لم يطبق علينا أي من تلك الأشياء طوال اليوم ـ منذ الحلاقة بعد ظهر هذا اليوم كل شيء منتظم وحين يأزف موعد التبديل تشير الساعة إلى الرابعة والنصف ، كما ينبغي لها أن تفعل تصرف الممرضة الكبيرة الفتيان السود وتلقي نظرة أخيرة على الجناح تستلّ دبوساً فضياً طويلاً من عقدة شعرها الذي بزرقة الحديد وراء رأسها ، ثم تخلع قبعتها البيضاء وتضعها بعناية في صندوق من الورق المقوى (يحتوي على كرات نفتالين) وتغرز الدبوس ثانية بضربة من يدها

من وراء الزجاج أراها تلقي تحية المساء على الجميع ، تسلّم الممرضة الصغيرة المناوبة مذكرة ما ، ثم تمتد يدها إلى لوحة التحكم في الباب الفولاذي ، تفتح مكبر الصوت في الغرفة النهارية « مساءاً سعيداً أيها الفتيان تصرفوا بشكل لائق » وترفع صوت الموسيقى أكثر مما كانت عليه تحكّ باطن رسغها بالنافذة ، تظهر للفتى الأسود المناوب بنظرة اشمئزاز ان من الأفضل له تنظيف الزجاج فيسرع اليه بمنشفة ورقية قبل أن تغلق باب الجناح وراءها

تصفر الآلة في الجدران ، تتنهد ، تهبط إلى سرعة بطيئة

ثم نقضي الليل في الأكل والاستحمام والعودة للجلوس في الغرفة النهارية بلاستيك العجوز؛ أكبر « البلداء» سمناً، يمسك معدته ويئن. جورج الذي يسميه الفتيان السود أخرق الفرك يغسل يديه في نافورة الشرب يجلس « المبرحون » ويلعبون الورق ويعملون على تحسين الصورة في التلفزيون بنقله إلى أي مكان يسمح به الشريط

مكبرات الصوت في السقف لا تزال تبث الموسيقى ولأن الموسيقى لا تصدر عن المذياع فالآلة لا تتدخل تأتي الموسيقى من شريط تسجيل طويل في مركز الممرضات ، شريط نعرفه كلنا عن ظهر قلب فلم يعد أحدنا يسمعه بوعي باستثناء

رجل جديد مثل ماكمورفي لم يعتد عليه بعد كان يلعب مقايضاً بالسجائر ، مكبر الصوت فوق طاولة اللعب تماماً أرخى قبعته إلى الأمام بصورة أجبرته على رفع رأسه إلى الوراء واختلاس النظر من أسفل واقيتها ليرى ورقه يحمل سيجارة بين أسنانه ويتحدث من خلالها كدلال في مزاد علني رأيته مرة في مزاد للخراف في دالاس

« هيا ، هيا ، تعالوا ، تعالوا » يردد بسرعة فائقة « أنا أنتظركم أيها الحمقى ، إلعب أو انصرف تلعب ؟ حسناً حسناً حسناً يريد اللعبَ والملك في يده بئس الحظ لك ، بنت صغيرة للفتى ، يقفز بعدها على الجدار ويهرع في الطرقات ، يصعد التل ويلقي بحمله الدور لك يا سكانلون وأتمنى أن يعمل أحمق ما في حجرة الممرضات على إسكات موسيقى الأصوات هذه هوووي ! هل يعزفونها ليلاً نهاراً يا هاردنغ ؟ لم أسمع لغطاً لجوجاً مثل هذا في حياتي »

يلقي عليه هاردنغ نظرة فارغة « أي ضجيج بالضبط تشير إليه يا سيد ماكمورفي ؟ »

« ذلك المذياع اللعين يا فتى انه يعمل منذ أتيت هذا الصباح ولا تخرج باحدى فقاعاتك لتقول بأنك لا تسمعه »

يصيخ هاردنغ سمعه متجهاً برأسه إلى السقف « آه ، نعم تقصد ما يسمونه موسيقى أظن أننا نسمعها لو ركّزنا ، ولكن يستطيع المرء عندها أن يسمع نبضات قلبه أيضاً ، لو ركّز بصورة كافية » يبتسم لماكمورفي قائلاً « كما ترى ، إنه شريط تسجيل يعزف في الأعلى يا صديقي نادراً ما نسمع المذياع أخبار العالم قد لا تكون مفيدة من الناحية العلاجية وقد سمعنا ذلك التسجيل مراراً وتكراراً فأصبح ينزلق ببساطة من آذاننا ، كما يصبح صوت الشلال غير مسموع لمن يعيشون قربه هل تظن أنك لو عشت قرب شلال ستسمع صوته طويلاً ؟ »

(لا أزال أسمع شلالات كولومبيا ، سأسمعها دائماً ، دائماً أسمع حشرجة « شارلي أحشاء الدب » وهو يطعن نفسه بخنجر طويل ، أسمع خبطة السمك في الماء ، الصبيان العراة الضاحكين قرب الضفة ، النسوة قرب المعالف أسمعها منذ زمن طويل طويل)

يقول ماكمورفي « هل يدعونه هكذا طوال الوقت ، كشلال الماء ؟ »

« ليس حين ننام » يقول شيزويك « ويضعونه طوال الوقت الباقي ، وهذه هي الحقيقة »

«الى الجحيم! سأطلب من ذلك الزنجي أن يسكتها والا ركلت قفاه المترهل »

كاد ينهض حين لمس هاردنغ ذراعه « يا صديق ، هذا بالضبط هو نوع الالفاظ التي تصنف المرء في خانة العدوانيين هل أنت متلهف إلى هذا الحد لخسارة الرهان ؟ »

ينظر إليه ماكمورفي « هكذا إذن ، هيه ؟ لعبة ضغط ! مواصلة النخز ! »

« هكذا الأمر »

يجلس ببطء في كرسيه وهو يقول « كما تساس الخيول »

يقلّب هاردنغ نظره في « المبرحين » الآخرين الجالسين الى طاولة اللعب « أيها السادة ، يبدو أنني كدت لتوي أكتشف في متحدّينا أحمر الشعر هبوطاً غير بطولي في الرواقية المألوفة عند رعاة البقر الذين يظهرون في التلفزيون »

ينظر إلى ماكمورفي مبتسماً عبر الطاولة يوميء ماكمورفي اليه ، يبعد رأسه غامزاً ويلعق إبهامه الضخم « حسناً يا سيدي ، البروفيسور العجوز هاردنغ يبدو مزهواً يربح لعبتين فيختال كرجل حكيم ، حسناً حسناً حسناً ها هو يجلس هناك كاشفاً رقم فوزه ، وها هي علبة مارلبورو تقول أنه سيخسر هوب ، يراني ، حسناً يا بطل ، يا بروفيسور هذا رقم يفوق رقمك ، تريد المزيد ، حاول ثانية يا بروفيسور جرب اللعبة المزدوجة ، أم هل تلعب على المضمون ؟ توزيع جديد يقول أنك ستخسر حسناً حسناً حسناً ، البروفيسور يراني ، منظره يحكي الحكاية ، أمر سيء ، بنت أخرى ويخسر البروفيسور امتحانه »

تصدح الأغنية الثانية من مكبر الصوت ، عالية وحافلة بموسيقى الأوكورديون ينظر ماكمورفي إلى مكبر الصوت ، تأخذ ثرثرته في الارتفاع أكثر فأكثر لمجاراته

« هيه ، يا هيه حسناً ، التالي اللعنة ، إلعب أو انصرف الدور لك »

وهكذا حتى تطفأ الأضواء في التاسعة والنصف

لقد كنت قادراً على مراقبة ماكموروفي عند طاولة اللعب طوال الليل ، طريقة تعامله وكلامه اجتذابه لهم وقيادتهم مباشرة إلى النقطة التي يوشكون عندها على الانصراف ، ثم أخذهم بالحسنى ثانية لعبة أو لعبتين لاعادة الثقة إلى نفوسهم وإغرائهم باللعب ثانية وحين يأخذ استراحة يغرق في كرسيه ، يداه مطويتان خلف رأسه ، ويخبر الرجال « سرّ بقاء المرء رابحاً هو قدراته على معرفة ما يحتاج اليه الخصم ، وكيف يمكن دفعه إلى الظن بأنه سيناله .تعلمت ذلك حين عملت موسماً في عربة سكيللو في الكرنفال تقع عيناك على المغفل وتحس به حين يصل فتقول « هذا طير يحتاج إلى تزلف وتخبره « من فضلك يا سيدي ، لا تثر المتاعب ، سأعطيك الدور القادم يا سيدي » وهكذا ينال كلا كما ما يريده »

يتأرجح الى الأمام ، وتصدر أقدام كرسيه صريراً يلتقط شدّة الورق ، يطبق ابهامه عليها ، يطرق حافتها بسطح الطاولة ، يلعق ابهامه واصبعه

« ويخيّل إليّ أن ما تحتاجونه أيها الشركاء هو وعاء سمين ضخم ليغريكم ها هي عشر علب على اللعبة القادمة هي يا بيض الخصيتين هنا أمامكم »

يطوح برأسه ويضحك بصخب على طريقة الرجال في وضع مراهناتهم

دوّت تلك الضحكة في الغرفة النهارية طوال المساء ، وكان خلال وقت المساومة يمازح اللاعبين ويتحدث معهم ويحاول اضحاكهم معه لكنهم كانوا خائفين من أن يفلت الأمر من أيديهم بعد مرور وقت طويل أقلع عن المحاولة واستقر على المساومة الجادة فازوا مرتين أو ثلاثة ، لكنه كان يسترد كل شيء ويصارع لاسترداده ، وكانت السجائر تتكوم من حوله لتشكل اهرامات أكبر فأكبر

ثم بدأ ، قبل التاسعة والنصف بقليل ، يسمح لهم بالفوز ، يعطيهم فوزاً سريعاً متلاحقاً جعلهم بالكاد يتذكرون أنهم خسروا يدفع آخر زوج من السجائر ويطوي رقعة اللعب ويتكيء إلى الوراء متنهداً ودافعاً القبعة عن عينيه ، وتنتهي اللعبة

« حسناً يا سيدي ، أقول عادة أربح القليل واخسر الباقي » يهز رأسه شبه يائس ، « لا أدري ، كنت زبوناً حاذقاً للغاية في الواحدة والعشرين من عمري ، لكنكم كنتم أقوى مني أيها الطيور تمتلكون حيلاً فورية تجعل المرء يتردد في اللعب بنقود حقيقية مع أمثالكم غداً »

انه لا يخدع حتى نفسه حين يظن أنهم أخذوا بكلامه   لقد سمح لهم بالربح ، وكل من راقب اللعب يعرف ذلك   اللاعبون يعرفونه أيضاً ، لكن أحداً لم يقارب كومة السجائر ، السجائر التي لم يربحها في حقيقة الأمر بل استردها لأنها في الأصل كانت ملكه ، وهذا أفقده الابتسامة المتكلفة التي توحي بأنه أعتى المقامرين في الميسيسيبي

يخرجنا الفتى الأسود ، البدين والآخر المسمّى غيبفر من الغرفة النهارية ويبدآن في إطفاء الأنوار بواسطة مفتاح صغير ذي سلسلة   وكلما غرق الجناح في الظلمة والعتمة كلما ازداد اتساع عيني الممرضة الصغيرة الوحمة وازداد بريقهما   انها تقف في باب المركز الزجاجي تلقم الحبوب الليلية للرجال الذين يقفون أمامها في صف ؛ ينتظرها وقت عصيب يتطلب منها الانتباه لمن سيتلوث بأية أفكار هذه الليلة   انها لا تراقب المكان الذي تصب فيه الماء ، يشدّ انتباهها ذلك الرجل الضخم أحمر الشعر بقبعته المرعبة وندبته المخيفة ، يتقدم نحوها   انها تراقب ماكمورفي وهو يخطو بعيداً عن طاولة اللعب في الغرفة النهارية المظلمة ، يده المتحفزة تفتل خصلة الشعر الناتئة من عنق قميص مزرعة العمل الذي يرتديه   وأدرك من طريقة تراجعها حين يصل الى باب المركز أن الممرضة الكبيرة طالبتها مسبقاً بالحذر (آه ، شيء آخر قبل أن أضع الجناح بين يديك يا آنسة بيلباو ، ذلك الرجل الجديد الجالس هناك ، ذو الشاربين الحمراوين المزركشين والندوب على الوجه ، لديَّ أسباب للاعتقاد بأنه مهووس جنسياً)

يرى ماكموري كيف تبدو فزعة وجاحظة العينين ، يحشر رأسه في باب المركز حيث توزع الحبوب ، ويرميها بابتسامة ودية للتعارف   تربكها الابتسامة فتدلق الماء على قدميها   تطلق صرخة وتنط على قدم واحدة ، ترتعش يدها ، والحبة التي كانت توشك على تقديمها لي تقفز بعيداً عن الكأس الصغيرة إلى منحدر عنق ردائها حيث تهبط وصمة الوحمة كنهر من النبيذ يصب في وادٍ

« اسمحي لي أن أساعدك يا سيدة »

وتخترق اليد ذاتها باب المركز ، موشومة بالندوب ومكتسية بلون اللحم الحي

« ابتعد ! هناك مساعدان معي في الجناح »

تنتقل بعينيها بحثاً عن الصبيين الأسودين ، لكنهما غائبين يعملان على تقييد « المزمنين » في أسرتهم ، غير قريبين منها لتستنجد بهما كل ما تستطيع رؤ يته هو التماع الضوء على الراحة الشمعية الملساء المتفطرة

« كل ما أقصده يا آنسة هو ـ »

« ابتعد ! غير مسموح للمرضى بالدخول ـ آه ، ابتعد ! أنا كاثوليكية ! »

وتمتد يدها مباشرة إلى السلسلة الذهبية التي تطوق جيدها فيقفز صليب من بين نهديها ، دافعاً الحبة في الهواء يضرب ماكموري يده في الفضاء المقابل لوجهها تصرخ وتلقي بالصليب في فمها وتغمض عينيها بشدة وكأنها ستتلقى لكمة ، تظل هكذا ، ممتقعة بلون الورق باستثناء تلك الوحمة التي تزداد سواداً ، كأنها امتصّت الدم من بقية أطراف جسدها وحين تفتح عينيها ثانية ترى تلك اليد المتفطرة مبسوطة أمامها وبرشامتين تستقر فوقها

« ـ لكي التقط وعاء الماء الذي سقط منك » ويكون الوعاء في يده الأخرى

تعلو انفاسها بهسيس مرتفع تأخذ الوعاء منه متمتمة « شكراً ، عمت مساء ، عمت مساء » وتغلق الباب في وجه الرجل التالي « لا مزيد من الحبوب هذه الليلة »

في المهجع ، يلقي ماكموري الحبة في فراشي « هل تريد حبّة خميرتك يا زعيم ؟ »

أهزّ رأسي بالنفي فيقذفها عن السرير كبقّة مزعجة تنط على الأرض وتخشخش كالجدجد يستعد للنوم يخلع ثيابه. سرواله الداخلي مصنوع من الساتان الأسود كالفحم مغطى بحيتان كبيرة بيضاء ذوات أعين حمراء يبتسم حين يرى أنني أنظر إلى السروال « من تلميذة مدرسة داخلية في ولاية أوريغون يا زعيم ، في القسم الأدبي » يشد المطاط مزهواً « أعطتني اياه لأنها اعتبرتني رمزاً »

لفحت الشمس ذراعيه وعنقه ووجهه واكتست بشعر برتقالي مجعد وشم على كل كتف الأول موسوم بعبارة « رماة البحرية المقاتلون » ورسم لشيطان ذي عين حمراء وقرنين باللون ذاته وبندقية من طراز م ـ ١ ، والثاني مجموعة بوكر مفروشة على

عضلته تضم آسان وثمانية يضع صرة ملابسه على الطاولة الصغيرة قرب سريري ويبدأ في تسوية مخدّته لقد أعطوه السرير الذي الى يميني مباشرة

يدخل بين الأغطية ويخبرني أن من الخير لي أن آوي الى فراشي لأن أحد هؤلاء الفتيان السود قادم لاطفاء الأنوار أتطلع من حولي ، ويأتي الفتى الأسود المسمى غييفر ، أركل حذائي وأدخل في الفراش حالما يدخل ليربط شرشفاً فوقي حين ينتهي مني يلقي نظرة أخيرة ويقهقه ثم يطفيء أضواء المهجع

المهجع مظلم باستثناء مسحوق أبيض من الضوء ينثره مركز الممرضات في القاعة استطيع الإحساس بماكمورفي قريباً مني ، يتنفس بعمق وانتظام ، الأغطية فوقه تعلو وتهبط تهدأ أنفاسه شيئاً فشيئاً ، حتى أخال أنه قد أغفى منذ برهة ثم أسمع صوتاً ناعماً حلقياً ينبعث من سريره ، كصهيل الجواد لا يزال مستيقظاً يضحك بينه وبين نفسه لأمر ما

يتوقف عن الضحك ويهمس « ولكن ، لقد قفزت حين أخبرتك أن الزنجي قادم أيها الزعيم ظننت أن أحدهم أفادني بأنك صم ؟ »

أرقد في الفراش ، للمرة الأولى منذ زمن طويل ، دون تناول تلك البرشامة الحمراء ، (لو اختبأت لأتفادى تناولها ، فالممرضة المناوبة ذات الوحمة سوف ترسل الصبي الأسود المسمى غييفر ليتصيّدني ، يأسرني بأضوائه الكاشفة حتى تجهز هي الإبرة) ، ولذا أتظاهر بالنوم حين يمر الفتى الأسود بضوئه

حين تتناول واحدة من هذه الحبوب الحمراء فأنت لا تغرق في النوم فحسب بل يشلّك النوم فلا تستيقظ طوال الليل ، مهما حدث من حولك لهذا يعطيني المشرفون تلك الحبوب ، في المقر القديم اعتدت على الاستيقاظ ليلاً وضبطهم وهم يرتكبون أفظع الجرائم ضد المرضى النائمين من حولي

ألبث ساكناً وأكتم أنفاسي ، منتظراً أن يحدث شيء ما الظلام دامس يا إلهي وأسمعهما يجوسان هنا وهناك بأحذيتهما المطاطية ، يطلان على الجناح مرتين ويسلطان الأضواء على الجميع أواصل الاستيقاظ مغلقاً عينيّ أسمع نحيباً في جناح المضطربين ، لووو ـ لوووو ـ لوووو ـ لا بد انهم ربطوا رجلاً بالأسلاك ليتلفوا اشارات الشيفرة

« آه ، البيرة ، الليل طويل أمامنا » ، أسمع الفتى الاسود يهمس للثاني. تزقزق الأحذية المطاطية متجهة صوب مركز المرضات حيث الثلاجة « هل تحبين البيرة ، أيتها الحلوة ذات الوحمة ؟ الليل طويل أمامنا ! »

يصمت الرجل في الطابق الأعلى عواء الأجهزة المثبتة في الجدران يهدأ تدريجياً ، حتى يتوقف عن الطنين لا صوت في المستشفى باستثناء هزيم مكتوم رتيب في مكان ما عميق من أحشاء المبنى ، صوت لم ألحظه من قبل ـ أشبه بما تسمعه عادة حين تقف في ساعة متأخرة من الليل فوق سطح سدٍّ هيدروكهربائي طاقة مكبوتة ، ضارية ، شديدة القسوة

يقف الفتى الاسود البدين هناك في القاعة حيث استطيع رؤ يته ، ينظر من حوله ويضحك يخطو نحو باب المهجع ، ببطء ، يمسح راحتيه المبلّلتين بإبطيه الضوء القادم من مركز المرضات يلقي على باب الجناح ظله الرمادي الهائل كالفيل ، يصغر كلما اقترب من باب الجناح وأطل منه يقهقه ثانية ويغلق صندوق الكهرباء قرب الباب ثم يقول « هكذا أيها الأطفال ؟ غطّوا في النوم ! »

يضغط زرّاً ، تنزلق الأرضيه بأكملها من مكان وقوفه في الباب ، تهبط في البناء كأرضية المصعد

لا يتحرك شيء عدا أرضية المهجع ، تنزلق بعيداً عن جدران وباب ونوافذ الجناح في جحيم من التلاطم ؛ والآلة ، التي قد تكون مسنّناً يسير على سكة في كل من زوايا مهبط المصعد ، غُذّيت بزيت يكفي لجعلها صامتة كالموت الصوت الوحيد الذي أسمعه هو غطيط الرجال ، وقرع الطبل ذاك من تحتنا وهو يزداد كلما هبطنا عميقاً إلى الأسفل ضوء باب المهجع على بعد خمسمائة ياردة من هذه الحفرة ليس سوى بصيص ، يغمر الأطراف المربعة مهبط المصعد بمسحوق كامد « تزداد

قتامة لونه الكامد حتى تعلو صرخة نائية يتردد صداها في جوانب المهبط ، « ابتعد ! » وتخبو كافة الأضواء

تصل الأرضية الى قاع صلب في أعماق الأرض وتتوقف برجّة ناعمة   الظلام دامس ، واستطيع الاحساس بالشرشف الملتف حولي وهو يكتم أنفاسي   وحين أنجح في حلّ الشرشف تبدأ الأرضية في الانزلاق الى الامام بارتجاج طفيف   هناك نوع من الزيوت تحتها يمنعني من سماعها   حتى الرجال الذين يتنفسون من حولي لا أستطيع سماعهم ، وأدرك فجأة أن السبب يعود إلى علوّ قرع الطبل تدريجياً حيث لم أعد أسمع شيئاً غيره   لا بد أننا في المنتصف   أبدأ في التخلص من الشرشف اللعين المربوط من حولي ، وحين أوشك على حلّه ينزلق جدار كامل وينتصب أمامي ، كاشفاً عن غرفة هائلة غاصة بآلات لا نهاية لها تمتدّ بعيداً عن النظر ، تطفح برجال عراة معروقين يصعدون ويهبطون على الممرات الضيقة ، بوجوه فارغة حالمة تسبح في النار المتصاعدة من مائة مرجل عاصف

كل ما أراه يشبه ما يوحي به   أعماق سدّ عارم مضطرم   أنابيب نحاس هائلة تختفي صاعدة نحو الأعلى في الظلام   تتصل الاسلاك بناقلات خفية   الشحم والرماد يعلق بكل شيء ، ملطخاً المحركات والمولدات والقارنات بسواد فاحم وأحمر

العمال جميعهم يتحركون بالايقاع الناعم ذاته ، خطوة صغيرة رشيقة   ليسوا في عجلة من أمرهم   يتوقف أحدهم لثانية من الزمن ، يدير قرصاً ، يضغط زرّاً ، يفتح مفتاحاً كهربائياً فيستضيء جانب وجهه ببياض كالبرق الصادر عن شرارة مفتاح الوصل ، ويتقدم فوق سلالم فولاذية وممرات حديدية متعرجة ، يحاذي أحدهما الآخر برشاقة وتكاثف حتى انني أسمع خبطة الاطراف الرطبة كخبطة ذيل السلمون في الماء ، يتوقف ثانية ، يسلط الضوء من مفتاح آخر ، يتابع من جديد   يمضون في كل الاتجاهات يختفون عن الأنظار ، هذه الصور البارقة من وجوه العمال الكابية الحالمة

يغمض العامل عينيه وهو يتابع العمل ، يسقط في سكّتة ينتشله اثنان من زملائه ويرفعانه ثم يلقيان به في مرجل أثناء مرورهم   يقذف المرجل كرة من النار وأسمع

تقافز ملايين الأنابيب ، كالسير في حقل من بذور البسّلة يختلط الصوت بأزيز وقعقعة باقي الآلات

تتوافق الأصوات بإيقاع واحد ، أشبه بنبض راعد

ينفصل باب المهجع عن مهبط المصعد ويسقط في غرفة الآلات أرى ما هو في مواجهتي مباشرة ـ شكل من أشكال المناصب التي تراها في المسالخ ، اسطوانات تسير على سكك لتنقل الذبائح إلى الجزار دون بذل الجهد لرفعها ، رجلان يرتديان السراويل الفضفاضة والقمصان البيضاء ذات الأكمام المطوية وربطات عنق ضيقة ينحنيان فوق الممرات الضيقة التي تعلو أسرّتنا ، يشيران لبعضهما خلال حديثهما ، والسجائر ذات الاعقاب الطويلة ترسم خطوطاً من الضوء الأحمر كذلك لا تستطيع فهم الكلمات وسط الزئير المتصاعد من حولك يمدّ احد الرجال أصابعه فيقفز العامل الآخر في التفاتة حادة ويقف إلى جانبه يشير الرجل إلى احد الأسّرة بوهج لفافته ، يهرع العامل إلى السلم الفولاذي المتحرك ويهبط إلى مستوانا ، حيث يختفي عن الأنظار بين محوّلين هائلين كمخازن البطاطا

وحين يظهر ذلك العامل ثانية يسحب خطافاً على طول المنصب المرتفع ويسير بخطوات عملاقة يمرّ بالقرب من سريري ويضيء وجهه مرجل متقد يظهر فجأة في مواجهتي ، وجه وسيم وحشي وشمعي كالقناع ، لا يريد شيئاً لقد رأيت ملايين الوجوه المماثلة

يتجه نحو السرير ويجتث « البليد » بلاستيك العجوز بالخطاف ويرفعه كأن بلاستيك لا يزن أكثر من أرطال قليلة ، يدفع الخطاف باليد الأخرى ليعلقه بأسفل العقب ، ويصبح الرجل معلقاً هناك رأساً على عقب ، وجهه منتفخ ، فزع ، وعيناه تصرخان بخوف أبكم ، يرفرف بذراعيه وقدمه الحرّة حتى تسقط شدة منامته فوق رأسه يمسك العامل بالسترة ، ويعقدها مثل كيس الخيش ويسحب المزلاج ذي البكرة فوق المنصب إلى الممر الضيق ويعلقه حيث يقف الرجلان المتشحان بقميصين أبيضين يتناول أحد الرجلين مبضعاً من غمد معلق في حزامه المبضع مربوط بسلسلة يخفض الرجل السلسلة للعامل ، يثبت طرف السلسلة الثاني حول الدرابزون لكي لا يهرب العامل بالسلاح

يأخذ العامل المبضع ويشرّح جبهة بلاستيك العجوز بحركة متقنة فيتوقف

العجوز عن التملّص ، توقعت أن أتقيأ ؛ لكني لم أشاهد دماً ينزف أو أحشاء تتساقط كما توقعت ـ لا شيء سوى دفقة من الصدأ والرماد ، وبين الحين والآخر سلك أو قطعة زجاج يجثو العامل هناك على ركبتيه كما يفعل عامل سكب الحديد

يفتح مرجل أشداقه في مكان ما ، يبتلع شخصاً ما

أفكر بالقفز والفرار وأيقاظ ماكمورفي وهاردنغ وأكبر عدد ممكن من الرجال ، ولكن لا معنى في ذلك أبداً لو هززت أحدهم وأيقظته لصرخ لماذا ، أيها الأحمق المجنون ! ما الذي يقلقك هكذا ؟ وربما ساعد العمال بنفسه في رفعي على احدى هذه الخطافات قائلاً ما رأيكم في أن نرى كيف يبدو هذا الهندي من الداخل ؟

أسمع فحيح آلة الضباب البارد ، المرتفع ، الصافر أي أولى نفحاتها تهب ، يسيل نزيزها من تحت سرير ماكمورفي أرجو أن يحتاط للأمر ويختفي بعيداً عن الضباب

أسمع هذراً سخيفاً يذكرني بشخص ما مألوف ، وأمدّ جسدي بما يكفي لكي أرى الجانب الآخر إنه رجل العلاقات العامة الاصلع بوجهه المتدرّن الذي يتجادل المرضى دائماً عن سبب تدرّنه واحتقانه وانتفاخه يقول أحدهم « أقول انه يضع وجهاً اصطناعياً » ، ويقول الآخر « أما أنا فأقول كلا هل سمعت برجل يضع وجهاً غير وجهه ؟ » يهز المريض الأول كتفيه ويقول « نقطة هامة »

انه الآن عارٍ الا من قميص داخلي مزركش برسوم حمراء مخاطة من الأمام والخلف وأرى مرة واحدة والى الابد قميصه الداخلي يعلو ظهره حين يمرّ بي ويسترق نظرة إلي ، انه قطعاً يرتدي الوجه ، يحكم وثاقه حتى يكاد يفلت في أية لحظة

يتدحرج على السلاسل وكأنه مثقل بدزينة من الأشياء ، مربوطة بشعره كفروة الرأس

يحمل قارورة مليئة بشيء يرشف منه لتظل حنجرته مفتوحة للكلام ، كان يضع منديلاً أمام أنفه من وقت لآخر ليتقي الرائحة الكريهة هناك ثلّة من معلمات المدارس وطالبات الجامعة يسرعن خلفه يرتدين مآزر زرقاء ، تجعيدات شعورهن ملفوفة بدبابيس يصغين إليه وهو يلقي محاضرة موجزة عن الجولة

يفكر بشيء مرح ، وعليه التوقف طويلاً ليرشف ما يكفيه للتوقف عن القهقهة خلال صمته تحدق احدى تلميذاته وترى « المزمن » المشرّح معلقاً من عقبه تشهق وترتد إلى الخلف يستدير العلاقات العامة ويلمح الجثة فيندفع لتناول واحدة من اليدين المشلولتين ويحركها تتقدم الطالبات بحذر ووجهوهن معلقة بالمشهد

« هل ترون ؟ هل ترون ؟ » ينبعث منه الصرير وهو يجول بعينيه ثم يصب من سائل قارورة حين يضحك بشدة يضحك حتى يخيل إلي أنه سينفجر

وحين يكتم الضحك يعود إلى صف الآلات ويتابع محاضرته يقف فجأة ويلطم جبهته ويهتف « آه ، تبّاً لي ! » يعود مهرولاً إلى « المزمن » المشنوق ويخرج وساماً جديداً يعلقه على حزامه

على اليمين واليسار تحدث أشياء أخرى أشدّ هولاً ـ أشياء مجنونة رهيبة أكثر اثارة للقرف من أن تُبكي وأشد حقيقة من أن تضحك ـ لكن الضباب يتكاثف إلى حد يمنعني من المراقبة يلمس أحدهم ذراعي أعرف فوراً ما سيحدث ، سيجّرني أحدهم خارج الضباب ثم يعود بي ثانية إلى الجناح دون علامة على ما حدث هذه الليلة ، ولن أكون أحمقاً فأخبر الجميع بما حدث ، إذ سيقولون أحمق ، لم تر سوى كابوساً ؛ أشياء مجنونة كغرفة الآلة الضخمة داخل أحشاء السد حيث تقطّع أوصال الناس على يد عمال آليين لا وجود لهم

ولكن كيف يراهم المرء إذا كانوا غير موجودين ؟

انه السيد تركل يسحبني خارج الضباب من يدي ، يهزّني مبتسماً يقول « انت ترى حلماً مزعجاً يا سيد برومدن » انه المساعد الذي يعمل وحيداً من الحادية عشرة وحتى السابعة ، زنجي عجوز ذي تكشيرة متهدلة ضخمة في نهاية عنق طويل متمايل رائحته توحي بأنه شرب القليل فقط

« عد الى النوم الآن يا سيد برومدن »

يعمد في بعض الليالي الى حلّ الشرشف عني إذا كان محكماً بصورة تجعلني أتململ ويمتنع اذا لاحظ أن مشرفي النهار سيعلمون بأمره ، فهم سيفصلونه ربما ، لكنه يظن أن المشرفين سيشكّون بي أولاً أعتقد أنه يفعل ذلك ليكون لطيفاً ،

ليساعد ، لكنه يضمن سلامته الشخصية أولاً

لا يحلّ الشرشف هذه المرة بل يسير مبتعداً عني ليقدم العون إلى مساعدين لم أرهما من قبل ، طبيب شاب يرفع بلاستيك العجوز على النقالة ويخرجه ، مدثّراً بشرشف ، يحيطه برعاية لم يسبق له أن لقيها من أي انسان في حياته

يطلع الصباح ، ماكمورفي مستيقظ قبلي ، المرة الأولى التي يستيقظ فيها أحد قبلي منذ أن كان العم « جول ذراع الجدار » في الجناح كان جول زنجياً عجوزاً أشيب الشعر حصيفاً يؤمن بنظرية مفادها أن الفتيان السود يقلبون العالم رأساً على عقب خلال الليل ؛ اعتاد التسلّل في الصباحات المبكرة مستهدفاً اصطيادهم وهم يقلبونه ، وأنا ، مثل جول ، استيقظ في الصباح لأراقب ما يركبونه سرّاً من آلات في الجناح أو تجهيزات في غرفة الحلاقة أتواجد عادة أنا والفتيان السود طوال خمسين دقيقة قبل أن يغادر أول مريض فراشه لكني هذا الصباح أسمع ماكمورفي يثرثر في المغاسل حين أرفع عني الأغطية ، أسمعه يغني ! يغني حتى تظن أنه غير مكترث بما في العالم صوته واضح وقوي يرتطم بالاسمنت والفولاذ « جيادك جائعة ، هذا ما قالته » يستمتع بطريقة تردّد صوته في المغاسل « تعال واجلس بقربي ، وأطعمها بعض القش » يلتقط أنفاسه ، يقفز صوته بنغمة اضافية ، ممتلكاً طبقة وقوة تسبب اهتزاز الاسلاك في كل الجدران « جيادي ليست جائعة ، لن تأكل قشـ ـ ش ـ ش ـ ك » ، يلتقط النغمة ويواصل ترديدها ، ثم ينتقل إلى تتمة الأغنية « فوداعاً يا حبيبتي ، سأمضي في طريقي »

يغني ! الجميع مصعوقون لم يسمعوا شيئاً كهذا منذ سنوات ، ليس في هذا الجناح يستيقظ معظم « المبرحين » في المهجع ويستندون على مرافقهم ، يطرفون بعيونهم ويصغون يتبادلون النظرات ويرفعون حواجبهم كيف حدث ان الفتيان السود لم يسكتوه ؟ انهم لا يسمحون لأي كان أن يثير تلك الضوضاء ، أليس

كذلك ؟ كيف حدث أنهم يعاملون هذا الرجل الجديد بصورة مختلفة ؟ انه رجل من لحم وعظم معرّض للضعف والشحوب والموت، مثلنا جميعاً. انه يعيش في القوانين ذاتها، عليه أن يأكل، يرتطم بالمتاعب نفسها، هذه الأشياء تجعله ممتثلاً لـ « الائتلاف » كالآخرين جميعاً، أليس كذلك ؟

لكن الرجل الجديد مختلف، و « المبرّحون » يلاحظون ذلك، مختلف عن كل من جاء الى الجناح خلال السنوات العشر الماضية، مختلف عن كل من قابلوه في « الداخل »، لعله مطلوب أيضاً، لكن « الائتلاف » لا يطاله بعد

« عرباتي محمّلة » يغني « وسوطي في يدي »

كيف أتيح له الافلات من الطوق ؟ ربما فات « الائتلاف » أن يعرضه لما يكفي من السيطرة كما حدث مع بيت العجوز لعله امتد بصورة وحشية في أرجاء البلاد خفّ من مكان إلى آخر، لم يمكث في بلدة واحدة أكثر من بضعة شهور حين كان صبياً فلم تتمكن منه المدرسة بصورة كافية، متسكعاً، مقامراً، مشتغلاً بعربات الكرنفال، مسافراً بخفة وسرعة، مثابراً على التنقل إلى حد لم يعط « الائتلاف » فرصة تركيب أي شيء فيه لعل هذا هو السبب، لم يعط « الائتلاف » أية سانحة، كما لم يعط هو فرصة للفتى الأسود كي يضع ميزان الحرارة في فمه صباح البارحة الهدف المتحرك تصعب اصابته

لا زوجة تطلب مشمعاً جديداً لا أقارب يضجرونه بعيونهم الدامعة العجوز لا أحد يعبأ به، وهو ما يجعله حرّاً بما يكفي لأن يكون رجلاً حاذقاً ولعل السبب في عدم اندفاع الفتيان السود الى المغاسل ووضع حد لغنائه يعود إلى معرفتهم بأنه خارج السيطرة، ويتذكرون بيت العجوز وما يمكن أن يفعله رجل بلا سيطرة ولا يخفي عليهم أن ماكمورفي أضخم من بيت العجوز، ولو كان عليهم استنزافه لاقتضى الأمر أن تتكاتف جهود الثلاثة وأن تنتظر الممرضة الكبيرة على مقربة منهم والإبرة في يدها يوميء « المبرحون » لبعضهم، هذا هو السبب، كما يتصورون، في أن الفتيان السود لم يوقفوا غناءه في حين أنهم لا يتورعون عن إسكاتنا جميعاً في حالة كهذه

أخرج من المهجع في لحظة خروج ماكمورفي من المغاسل يعتمر قبعته ولا شيء غيرها، منشفة مربوطة على ردفيه يحمل فرشاة أسنان في يده الأخرى يقف

في القاعة ، متطلعاً يمنة ويسرة ، يسير على اطراف أصابعه ليتحاشى الأرضية الباردة قدر استطاعته تقع عينه على احد الفتيان السود ، الفتى الضئيل ، فيسير نحوه ويربت على كتفه كأنهما صديقين طوال عمرهما

« هيه ، أيها العجوز ! ما هو حظي في الحصول علي معجون اسنان لغسل ضواحكي ؟ »

ينكمش رأس الفتى الأسود القزم ويتكتل من أنفه حتى مفاصله داخل تلك اليد يعبس الأسود ، ثم يخطف نظرة سريعة إلى مكان وقوف الاسود الآخر توخياً للحذر ، ثم يخبر ماكمورفي أن المستودع لا يفتح حتى السادسة والنصف ، ويقول « انها التعليمات »

« هل هذا صحيح ؟ أعني ، أهو المكان الذي يحفظون فيه معجون الاسنان ؟ في المستودع ؟ »

« تماماً ، يغلقون عليه في المستودع »

يحاول الفتى الأسود العودة إلى تلميع حواف الجدران ، لكن تلك اليد لا تزال مطبقة على كتفه كملزمة ضخمة حمراء

« قلت أنهم يغلقون عليه في المستودع ؟ حسناً حسناً لماذا تظنون أنهم يغلقون عليه في المستودع ؟ أقصد أنه ليس مادة خطيرة أليس كذلك ؟ لا تستطيع تسميم رجل به ، هل تستطيع ؟ لا تستطيع أن تسحق جمجمة رجل بأنبوب ، هل تستطيع ؟ أي سبب تفترضونه لوضع أنبوب صغير من المعجون وراء قفل ومفتاح ؟ »

« انها سياسة الجناح يا سيد ماكمورفي ، هي السبب » ، وحين يرى أن هذا السبب لا يقنع ماكمورفي كما يجب ، ينظر شزراً إلى تلك اليد على كتفه ويضيف « ماذا تظن أنه سيحدث حين يغسل كائن من كان أسنانه كلما حلى له ذلك ؟ »

يرخي ماكمورفي يده عن الكتف ، يلوي خصلة الشعر في عنقه ، ويفكر بالأمر « أها ها أظن أنني أفهم ما تقصده سياسة الجناح تحصي الذين لا يستطيعون غسل أسنانهم بعد الطعام »

« يا الهي ، ألا تفهم ؟ »

« نعم ، أستطيع الآن تقول أن الناس سيغسلون أسنانهم كلما سوّلت لهم أنفسهم ذلك »

« هذا صحيح ، ولهذا فنحن ـ »

« ويا لله ! هل تتخيّل ؟ الاسنان تغسل في السادسة والنصف ، في السادسة عشرين دقيقة ، من يعلم ! ربما في السادسة أيضاً نعم ، أفهم قصدك »

يغمز لي من وراء الفتى الأسود وأنا أقف إلى الجدار

« علي أن أتابع التنظيف يا سيد ماكمورفي »

« آه ، لم أقصد عرقلتك عن عملك » ، يبدأ في الابتعاد فينحني الفتى الأسود مواصلاً عمله ، لكنه يتقدم من جديد ويدنو لينظر في الوعاء القريب من الفتى الأسود

« حسناً ، أنظر ما لدينا هنا ؟ »

يدنو الفتى ناظراً « أين أنظر ؟ »

« انظر هنا في هذا الوعاء القديم يا سام ما هي المادة التي يحتويها الوعاء القديم ؟ »

« هذا مسحوق الصابون »

« حسناً ، أنا استعمل المعجون عموماً ، ولكن » يغمس ماكمورفي فرشاته في المسحوق ويحركها ثم يسحبها ويطرقها على طرف الوعاء ـ « لكن هذا سينفع تماماً أشكرك سننظر في سياسة الجناح لاحقاً »

يعود أدراجه إلى المغاسل ، حيث أسمع غناءه يعلو مختلطاً بضربات فرشاته

يقف ذلك الفتى الاسود هناك يلاحقه بنظراته وخرقته التي يستخدمها في المسح تتدلى من يده الرمادية يطرف بعينيه بعد برهة ثم يتطلع من حوله ويراني أراقب المشهد فيتجه نحوي ويسحبني الى القاعة من حزام منامتي ويدفعني إلى ذلك المكان من الأرضية الذي مسحته البارحة

« هنا ، اللعنة عليك ، هنا فقط ! أريدك أن تعمل هنا لا أن تحملق من حولك كبقرة لا فائدة منها ! هنا ! هنا ! »

وأنحني الى الأرض وأباشر المسح وظهري له كي لا يرى ابتسامتي أحس بالارتياح بعد رؤيتي لماكمورفي يهزأ من ذلك الفتى الاسود وهو ما لا يجرؤ عليه أحد كان بابا قادراً على ذلك ، يجلس القرفصاء كآلهة المراعي ، يحدق في السماء حين ظهر رجال الحكومة للمرة الأولى لكي يتفاوضوا حول عقد اتفاقية « كندا تستغيث هناك ! » يقول ويحملق بعيداً في السماء ينظر رجال الحكومة ويقلبون أوراقهم « ماذا تقول ؟ في تموز ، كلا ، آه ، في هذا الوقت من السنة ، أووه كلا ! »

كانوا يتحدثون كالسّواح القادمين من الشرق الذين يتصورون أنه عليك فقط أن تتحدث مع الهنود ليفهموا لم يبد على بابا أنه يفهم شيئاً من طريقة كلامهم واصل النظر الى السماء « يا للمسيح ، أنت هناك أيها الرجل الأبيض انت تعلم ، هذا العام بحق المسيح ، في السنة الماضية والسنة التي سبقتها والتي سبقتها »

تبادل الرجال النظرات وتنحنحوا « نعم ، لعلك على حق أيها الزعيم برومدن انسى الأمر بحق المسيح انتبه للعقد ما نعرضه قد يكون في صالحك تماماً ـ في صالح شعبك ـ يغيّر حياة الرجل الأحمر » قال بابا « والسنة التي سبقتها ، والتي سبقتها ، والتي سبقتها »

خلال ذلك هيمن على رجال الحكومة الاحساس بأنهم تعرضوا للسخرية ، رجال المجلس بأكملهم الذين كانوا جالسين في رواق خيمتنا ، واضعين الغلايين في جيوب قمصانهم الصوفية الحمراء والسوداء يخرجونها ثانية ، يتبادلون الابتسامات بينهم وبين بابا ـ انفجروا جميعاً في ضحك صاخب كاد يقتلهم الخال « راء وجيم الذئب » كان يتقلب على الأرض ، يشهق من الضحك وهو يقول « تعرف ذلك أيها الرجل الأبيض »

تعرضوا للهزء الأكيد ، اداروا ظهورهم واتجهوا صوب الطريق العام ، أعناقهم محمّرة ، ونحن نضحك وراءهم ، يكاد يغمى علينا من الضحك كدت أنسى في بعض الأحيان ما تستطيع الضحكة أن تفعله

يضرب مفتاح الممرضة الكبيرة قفل الباب ، ويسرع إليها الفتى الأسود حالما تصبح في الباب ، ينتقل من قدم لأخرى كصبي يريد القبول أكون قريباً بحيث

أسمع اسم ماكمورفي يتخلل حواره مرتين ، وأعلم أنه يخبر الممرضة بغسل ماكمورفي لاسنانه ، متناسياً تماماً إخبارها عن « البليد » الذي مات الليلة الفائتة يلّوح بيديه محاولاً إعلامها بما فعله ذلك الأحمق أحمر الشعر في الصباح المبكر ، وكيف تجاوز كل شيء ضارباً عرض الحائط بسياسة الجناح ، ألا تستطيع هي أن تفعل شيئاً ؟

تحدّج الفتى الاسود بنظراتها حتى يتوقف عن تذمره ، ثم تنظر في القاعة إلى حيث أصبح غناء ماكمورفي الصادر عن المغاسل أعلى وأعلى « آه ، أهلك لا يحبونني ، يقولون أنني فقيـ ـ يـ ـ يـر جداً ، يقولون أنني لست جديراً بدخول بابك »

يحار وجهها قليلاً ، مثلنا جميعاً ، مضى زمن طويل منذ أن سمعت غناءً ولهذا فهي بحاجة الى بعض الوقت لتدرك ماهيته

« شظف العيش متعتي ، ونقودي ملكي ، وهؤلاء الذين لا يحبوني فليدعوني وشأني »

تنصت اليه دقيقة أخرى لتتأكد أنها لا تسمع شيئاً آخر ، ثم تبدأ في اللهاث تنفتح خياشيمها ، وكلما سحبت نفساً ازدادت ضخامة ضخمة وشرسة الملامح كما رأيتها مرة حين كان تيبر هنا تحرك مفاصل ساعديها وأصابعها أسمع فحيحاً خافتاً تبدأ في التحرك ، وأتراجع مستنداً إلى الجدار ، وحين تهدر قريباً مني تبدو ضخمة كجرافة ، تجرّ الحقيبة المجدولة وراءها بتثاقل شبيه بما يحدث لصندوق شاحنة الديزل شفتاها منفرجتان وابتسامتها تسبقها كشبكة الرادياتور ، أستطيع أن أشم الزيت الساخن والشرارات المغناطيسية حين تعبر ، كل خطوة تقرعها على الأرض تزيد حجمها ضخامة ، تزفر وتنفخ ، تسحق كل شيء أمامها ! أرتعد حين أفكر بما ستفعله

ثم ، وهي في أوج اكتساحها وضخامتها ، يخرج ماكمورفي من باب المغاسل ليواجهها تماماً ، يلف تلك المنشفة فوق ردفيه تجمد في مكانها بلا حراك ! تجحظ عيناها وهي تنظر إلى المنشفة التي تغطيه ، أما هو فيبتسم لها ، ابتسامتها تتلاشى ترتخي عند الأطراف

« صباح الخير يا آنسة راتشدت ، كيف الأمور في الخارج ؟ »

« لا يمكنك التجول هنا ـ بمنشفة ! »

« كلا ؟ » يهبط بنظره إلى المنشفة التي تنظر اليها ، مبلّلة ولصيقة بجسده «هل المناشف ضد سياسةالجناح أيضاً؟ حسناً، أظن أنه لا شيء آخر نفعله سوـ».

« توقف ! كيف تجرؤ ؟ عد إلى المهجع وارتد ثيابك على الفور ! »

تبدو كمدرس يوبخ طالباً ، فيطرق ماكمورفي برأسه كطالب خجول ويقول بصوت من يوشك على البكاء « لا أستطيع يا سيدتي أخشى أن أحدهم رفع ثيابي وأنا نائم أنام بعمق رهيب على الحشايا التي تملكونها هنا »

« أحدهم رفع ؟ »

« سلّ ، اقتنص ، سرق » يقول بسعادة « هل تعرف يا رجل من اقتنص خيوطي ؟ » ويدغدغه هذا القول فيمضي في الرقص أمامها عاري القدمين

«سرق ثيابك ؟ »

« هذا يلّخص الموضوع بأكمله »

« ولكن ـ ثياب السجن لماذا ؟ »

يتوقف عن التأرجح ويطرق برأسه ثانية « كل ما أعرفه أنها كانت هناك حين أويت إلى فراشي واختفت حين أفقت ، طارت كالصفارة ، آه أعرف انها ليست سوى ثياب السجن ، رثّة وخشنة وخلقة يا سيدتي ، أعرف ذلك ـ وثياب السجن قد لا تبدو شيئاً لمن عنده غيرها ولكن بالنسبة لرجل متواضع ـ »

« ذلك الزي » تقول منتبهة « يفترض أنه أخذ منك لقد أعطيت رداء أخضر من المستشفى هذا الصباح »

يهزّ رأسه ويتنهد ، لكنه لا يرفع نظره « كلا ، كلا ، أخشى أنني لم أحصل عليه ، لا شيء هذا الصباح عدا القبعة التي على رأسي الآن »

« ويليامز ! » تهتف بالفتى الاسود الذي لا يزال عند باب الجناح كأنه سيفر منه ، « ويليامز ، هل لك أن تأتي لحظة الى هنا ؟ »

يزحف نحوها ككلب سوف يجلد بالسياط

« ويليامز ، لماذا لم يستلم هذا المريض ثياب المستشفى ؟ »

يحس الفتى الاسود بالارتياح ، يستقيم ويبتسم ، يرفع تلك اليد الرمادية ويشير الى الطرف الآخر من القاعة إلى أحد الضخمين الاسودين

« السيد واشنطن مناوب في المصبغة هذا الصباح ، لست أنا ، كلا »

« سيد واشنطن ! » تسمّره وممسحته التي تغطي السطل تجمّد هناك

« هل لك أن تأتي لحظة الى هنا ؟ »

تنزلق الممسحة في السطل دون صوت ، يركن ذراعها بحركات بطيئة حذرة إلى الجدار يستدير ناظراً صوب ماكمورفي والفتى الضئيل والممرضة ينظر يميناً ويساراً ، كأنها ستصرخ في شخص آخر

« تعال إلى هنا ! »

يضع يديه في جيوبه ويبدأ في التدحرج على طول القاعة متجهاً نحوها لا يسير بسرعة أبداً ، وأتصور كيف أنه لو لم يتحرك لكانت جمدته ومزقته إرباً وأرسلته إلى الجحيم بمجرد النظر كل الحنق والثورة والكراهية التي كانت تخطط لاستخدامها مع ماكمورفي تحلّق الآن في القاعة لتنصبّ فوق الفتى الاسود ويحس بها تضغط عليه كجناح الحدأة ، تبطيء من حركاته أكثر فأكثر عليه أن يجثو ليتحاشاها ، يغطي نفسه بذراعيه يتشكل الجليد في شعره وحاجبيه يزداد انحناؤه إلى الأمام ، لكن خطواته تتباطأ ، لن ينجح في الوصول

يصفر ماكمورفي أغنية « سمراء جورجيا الحلوة » فتبتعد الممرضة بنظرها عن الفتى الاسود في الوقت المناسب. إنها الآن أكثر ثورة وجنوناً، أكثر جنوناً مما رأيتها في حياتي ابتسامتها الباهتة تلاشت ، امتدت بصلابة ونحول السلك المتقد الأحمر ولو رآها بعض المرضى في حالتها هذه لكان في وسع ماكمورفي أن يجمع مراهناته

يصل إليها الفتى الاسود أخيراً ، بعد أن استغرق ساعتين للوصول ، تسحب نفساً عميقاً « واشنطن ، لماذا لم يستلم هذا المريض ثيابه البديلة صباح اليوم ؟ ألا ترى أنه لا يرتدي سوى منشفة ؟ »

« وقبعتي ! » يهمس ماكمورفي لامساً واقية قبعته بإصبعه
« سيد واشنطن ؟ »

ينظر الفتى الاسود الضخم إلى الآخر الضئيل الذي أشار نحوه ، ويبدأ الفتى الاسود الضئيل في التذمّر ثانية ينظر اليه الفتى الاسود مطوّلاً بعينيه الاشبه بحدقتي الراديو ، ويخطط لتسوية الأمور معه في ما بعد ؛ ثم ينداز الوجه ، يقلب النظر في ماكمورفي ، محدّجاً بالكتفين الثقيلين الصلبين ، الابتسامة المكشوفة ، الندبة على الانف ، اليد المحكمة على المنشفة ، ثم ينظر الى الممرضة ، « أظن » ، يبدأ الكلام

« تظن ! ستفعل شيئاً آخر غير الظن ! ستجلب له الرداء على الفور يا سيد واشنطن ، أو تقضي الاسبوعين القادمين في العمل داخل جناح طب العجزة نعم ، لعلكم بحاجة إلى شهر من العمل في مبولات السرير وحمامات « البلداء » لإنعاش تقديركم للعمل البسيط الذي تؤدونه هنا أيها المساعدون لو كان هذا الجناح مثل بقية الأجنحة فمن في رأيكم ينظف الأرض طوال اليوم ؟ السيد برومدن هنا ؟ كلا ، أنتم تعرفون من سيفعل ذلك ، نحن نعطيكم أيها المساعدون من معظم واجباتكم الداخلية لنتيح لكم العناية بالمرضى ، وهذا يتضمن التأكد من عدم استعراضهم لأنفسهم وهم عراة ماذا سيحدث في ظنكم لو دخلت احدى الممرضات المتدربات في وقت مبكر وشاهدت مريضاً يجري هنا وهناك في القاعة دون رداء ؟ ماذا تظنون ؟ »

الفتى الأسود الضخم لا يظن شيئاً ، لكنه يندفع كالسيل إلى غرفة الملابس ليحضر لماكمورفي مجموعة من الثياب الخضراء ، لعلها أصغر من قياسه بعشر مرات ، لكنه يندفع عائداً ويقدمها له ونظراته يقطر منها حقد لم أره من قبل يتظاهر ماكمورفي بالاضطراب ، كأنه لا يعرف كيف يستلم الملابس التي قدمها له الفتى الاسود ، فيده الأولى تحمل فرشاة الاسنان والأخرى تشد المنشفة يغمز الممرضة أخيراً ويهز كتفيه وينزع المنشفة ، يردفها على كتفها وكأنها مشجب خشبي

أرى أنه لا يرتدي سوى سرواله القصير تحت منشفته

أظن أنها كانت تفضل رؤ يته عارياً تحت تلك المنشفة على رؤ يته في سرواله القصير . تحدق في الحيتان البيضاء الضخمة السابحة على سرواله والثورة الصامتة

تعتمل في وجهها هذا أكثر مما تحتمل تمرّ دقيقة كاملة قبل أن تلّم شتات نفسها لتستدير إلى الفتى الاسود ، صوتها يرتجف منذراً وعاتياً ، طـاش صوابها الآن وهي عارمة الجنون

« ويليامز ! أعتقد كان مفروضاً بك أن تلمع زجاج مركز الممرضات قبل وصولي هذا الصباح ! »

ينتفض كالبقّة المبرقشة « وأنت يا واشنطن ـ وأنت »

يتدحرج واشنطن إلى سطله فيما يشبه الخبب تلمحني ، لكن بعض المرضى كانوا قد أصبحوا خارج المهجع الآن يدورون من حولنا داخل القاعة تغلق عينيها وتركّز تفكيرها لا تحتمل أن يروا وجهها في هذه الحالة ممتقعاً وطافحاً بالثورة تستخدم كامل طاقة السيطرة الكامنة داخلها ، تنضم شفتاها تدريجياً تحت الأنف الأبيض ، تتّسقان ، كالسلك المتقد حين يبلغ درجة الانصهار ، تتوهجان لثانية من الزمن ، تتقلصان ، ثم تنقلبان سبيكتين من المعدن المصهور ، وأخيراً تخمدان وتتبددان تنفرج شفتاها ، يدخل لسانها بينهما قطعة غليظة من خبث المعادن تنفتح عيناها ثانية ، يلوح عليهما ذلك المظهر الغريب ، الجامد والبارد المسطح الذي للشفتين لكنها تمضي في روتينها الصباحي في القاء التحيات وكأن شيئاً مختلفاً لم يطرأ عليها ، تظن أن المرضى من النعاس بحيث لا يلاحظون

« صباح الخير يا سيد سيفليت ، هل تحسنت أسنانك ؟ صباح الخير يا سيد فريدريكسون ؟ تناما ن متجاورين ، أليس كذلك ؟ هل قضيت أنت والسيد سيفليت ليلة هانئة ؟ بالمناسبة ، لفت انتباهي أنكما معاً أجريتما ترتيباً معيناً لعلاجكما ـ سمحتما لبروس أن يتولى علاجكما ، أليس كذلك يا سيد سيفليت ؟ سنناقش ذلك فيما بعد صباح الخير يا بيللي ، رأيت أمك وأنا قادمة ، أكّدت علي أن أخبرك بأنها تديـم التفكير بك طوال الوقت وتعلم أنك لن تخيب آمالها صباح الخير يا سيد هاردنغ ـ ماذا ؟ أناملك حمراء وجافة ؟ هل عدت إلى قرض أظافرك ثانية ؟ »

وقبل أن يجيبوا ، اذا كان لا بد من الاجابة ، تلتفت إلى ماكمورفي الذي لا يزال واقفاً هناك بسرواله القصير ينظر هاردنغ الى السروال ويصفر « وأنت يا سيد ماكمورفي » تقول بابتسامتها العذبة كالسكر ، « اذا انتهيت من عرض رموز ذكورتك

ولباسك الداخلي البديع ، أظن أن من الأفضل لك العودة الى المهجع وارتداء لباسك الأخضر »

يلمس قبعته تحية لها وللمرضى الضاحكين من سرواله ذي الحيتان البيضاء ويذهب إلى المهجع دون كلمة تستدير لتغادر القاعة في الاتجاه الآخر ، ابتسامتها المسطحة الحمراء تسبقها ؛ وقبل أن تغلق عليها باب المركز الزجاجي ، يتناهى اليها غناؤه الصادر عن باب المهجع يملأ القاعة ثانية

« أخذتني الى ردهتها و خفـ ـ فـ ـ فـ ـ ت عني بمروحتها » ، وأكاد أسمع صوت معدته العارية وهي تتلقى لطمة من يده ، « وهمست بصوت خافت في اذن أمها ، أحـ ـ حـ ـ حـ ـ بي ذلك المقامر »

بعد أن يخلو الجناح أبدأ بالتكنيس، أتابع فِئران الغبار تحت سريره حين أشم رائحة شيء يجعلني أدرك للمرة الأولى منذ كنت في المستشفى ان هذا المهجع المكتظ بالأسِّرة الذي ينام فيه أربعون رجلاً بالغاً ، تفوح منه ألف رائحة أخرى روائح المبيدات ، ملهم الزنك ، مسحوق الاقدام ، رائحة البول وبراز العجوز ، البابلوم وقطرة العين ، سراويل متعفنة وجوارب نتنة رغم عودتها حديثاً من المصبغة ـ نشاء الحرير ، النتنة الحامضية للأفواه الصباحية ، رائحة الموز الصادرة عن زيت الآلات ، وأحياناً رائحة شعر محروق لكن لم يحدث قبل الآن ـ قبل أن يأتي ـ أن تفوح من الرجل رائحة الغبار والقذارة وهو قادم من الحقول الفسيحة ، من العرق والعمل

طوال الإفطار كان ماكمورفي يتحدث ويضحك مزهواً بعد هذا الصباح يظن أن الممرضة الكبيرة ستصبح أضحوكة لا يعرف أنه أخذها على حين غرة وانه ، رغم كل شيء ، زاد من قوتها

كان يمثل دور المهرّج ، يجهد لانتزاع الضحكة من أفواه الرجال يزعجه أن أقصى ما يفعلونه لا يتجاوز الابتسامة الباهتة والمكتومة في بعض الأحيان يسخر من بيللي «بيبيت» الجالس في موازاته على الجانب الآخر من الطاولة ، يقول بصوت خافت « هيه ، يا بللي الفتى ! أتذكر تلك المرّة في سيتل حين اصطحبنا أنا وأنت الصبيتين الصغيرتين ؟ أجمل جولة مرت عليّ في حياتي »

تقفز عينا بيللي عن صحنه . يفتح فمه لكنه لا يتمكن من قول شيء . يتحول ماكمورفي الى هاردنغ « ما كنا سننجح في اصطيادهما تلك اللحظة لولا أنهما سمعا الأعاجيب عن بيللي بيبيت كان يعرف بلقب بيللي « نادي » بيبيت في تلك الأيام الصبيتان كانتا على وشك الانصراف حين نظرت اليه احداهما وقالت هل أنت **المعروف** باسم بيللي « نادي » بيبيت ؟ أي العضو الشهير بطول أربعة عشر إنشاً ؟ ويطرق بيللي ويحمّر وجهه خجلاً كما يفعل الآن ثم مضينا وأتذكر ، حين أخذناهما إلى الفندق ، وكانت تلك المرأة قرب سرير بيللي تقول يا سيد بيبيت ، لقد خابت آمالي بك ! سمعت أنك تملك أربعة - أربعة - دعني **بحق السماء !** »

ويقفز ليلطم ساقه ويداعب بيللي بإبهامه حتى أخمّن أن بيللي سيسقط ميتاً بلا حراك من فرط خجله وابتسامه

يقول ماكمورفي أن المستشفى تنقصها في الحقيقة صبيتان شبيهتان بمن تحدث عنهما السرير الذي يعطونه للرجل هنا من أفضل الاسّرة التي نام فيها ، يا لها من مائدة عامرة هذه التي يمدّونها هنا لا يفهم لماذا يكتئب الجميع لأنهم محجوزون في المكان

« انظروا اليّ الآن » يخاطب الرجال ويرفع كأسه إلى الضوء « أتناول أول كوب من عصير البرتقال منذ ستة أشهر هوووه ، هذا حسن أسألكم ، ماذا كان طعام إفطاري في مزرعة العمل تلك ؟ ماذا كانوا يقدمون لي ؟ حسناً ، أستطيع أن أصف ما كان الطعام يشبهه ، لكني واثق أنني لا أستطيع تسميته في الصباح والظهيرة والمساء هناك مادة سوداء محروقة مع البطاطا تبدو أشبه بغراء الاسطحة أعرف شيئاً واحداً ، لم تكن تلك المادة عصير البرتقال انظروا إلي الآن لحم خنزير ، خبز محمص ، زبدة ، بيض ، وتسألني الحنونة الصغيرة في المطبخ إن كنت أحب القهوة سوداء أم بيضاء ، شكراً لك كأس هائل ، عظيم ، بارد من عصير البرتقال لن

أغادر هذا المكان حتى لو دفعتم لي ! »

يأكل من كل الاصناف مرتين ويضرب موعداً مع الفتاة التي تصبّ القهوة في المطبخ ليقابلها عند الإنصراف ، ويثني على طبخ الزنجي وتحميره لأفضل بيض تناوله في حياته   يتناول حفنة من الموز ورقائق الذرة ويخبر الفتى الاسود أنه سيقشر له موزة لأنه يبدو متضوراً من الجوع ، وينقل الأسود عينيه إلى حيث تجلس الممرضة في صندوقها الزجاجي ، يرد عليه أنه غير مسموح للمساعد أن يأكل مع المرضى

« ضد سياسة الجناح ؟ »

« هذا صحيح »

« حظ عاثر ! » ، يقشر ثلاث موزات تحت أنف الفتى الاسود ويأكلها واحدة تلو الأخرى ، ويخبر الفتى أنك حينما تحتاج في أي وقت الى شطيرة من صالة الطعام اخبرني فقط يا سام

حين يجهز ماكمورفي على آخر موزة يلطم معدته وينهض متوجهاً إلى الباب يغلق الفتى الأسود الباب ويخبره أن القاعدة تقضي ببقاء المرضى في قاعة الطعام حتى يغادروها جميعاً في السابعة والنصف   يحدق ماكمورفي به وكأنه لا يصدق أذنيه ، ثم يستدير ناظراً إلى هاردنغ ، يوميء له هاردنغ برأسه فيهز كتفيه ويعود القهقرى إلى كرسيه قائلاً « لا أريد قطعاً الخروج على تلك السياسة اللعينة »

تشير الساعة المعلقة في جدار قاعة الطعام إلى السابعة والربع ، وهي تكذب إذ تفيد أننا قضينا خمسة عشرة دقيقة هنا ونحن نعلم أننا مكثنا ساعة كاملة على أقل تقدير   الجميع فرغوا من تناول طعامهم واستندوا بظهورهم إلى الخلف ، يراقبون اقتراب العقرب الكبير من السابعة والنصف   يحمل الفتيان السود أطباق « البلداء » الطافحة ويقودون دواليب العجوزين الى الطابق السفلي لتنظيفهما   في قاعة الطعام يرخي نصف الرجال رؤ وسهم على سواعدهم ، محاولين اقتناص غفوة سريعة قبل أن يعود الفتيان السود   لا شيء آخر يفعلونه   لا توجد مجلات أو أحاجي صور أو ورق لعب   النوم ومراقبة الساعة فقط

لكن ماكمورفي لا يحتمل سكوناً كهذا ، ينهض للإقدام على شيء ما ، بعد دقيقتين من استخدام الملعقة في تجميع فتات الطعام حول صحنه ، يستعد للمزيد

من الإثارة   يعلق إبهاميه في جيوبه ويتطلع إلى تلك الساعة على الجدار بعين واحدة ، ثم يحك أنفه

«هل تعلمون ـ تذكرني هذه الساعة القديمة هناك بأهداف حقل الرمي في فورت رايلي   هناك حصلت على وسامي الأول ، وسام الهداف الماهر   مورفي ذو العين الميتة   من يراهنني بدولار صغير انني لا أستطيع رمي قطعة الزبدة هذه في منتصف ميناء الساعة تلك ، أو على الاقل في مينائها ؟ »

يتناول ثلاث مراهنات ويمسك قطعة الزبدة ويضعها فوق سكينه ويقذفها فتلتصق مسافة ستة انشات على يسار الساعة ، فيهزأ منه الجميع حتى يدفع مراهناته   كانوا لا يزالون يستجوبونه إن كان يقصد عيناً ميتة أم عيوناً ميتة حين يدخل الفتى الاسود الضئيل بعد أن فرغ من تنظيف البلداء فينظر الجميع في صحونهم ويصمتون   يحس الفتى الاسود أن أمراً ما يدور في الجناح ، لكنه لا يتمكن من معرفته   وما كان ليعرف أبداً لولا أن الكولونيل ماتيرسون العجوز يتلفت من حوله ، ويرى قطعة الزبدة ملتصقة على الجدار فتدفعه رؤيتها إلى أن يبسط يده وينخرط في واحدة من دروسه ، يشرحه لنا جميعاً بصوته المريض المرتجف ، وكأن لما يقوله معنى ، يشير بيده

« الزبدة ، هي الحزب الجمهوري   »

ينظر الفتى الاسود إلى حيث أشار الكولونيل ، وها هي قطعة الزبدة تسيل على الجدار كالأفعى الصفراء   يطرف بعينيه ولا ينبس بنت شفة ـ لا يكلف نفسه عناء النظر إلى المرضى ليعرف جلية الأمر

يهمس ماكمورفي لـ « المبرحين » الجالسين من حوله فيشيرون له جميعاً ، يرمي ثلاثة دولارات على الطاولة ويستند إلى الوراء   يحول الجميع كراسيهم ويرقبون الزبدة وهي تسيل على الجدار ، تنحدر وتمتد إلى الامام وتترك ذيلاً لامعاً وراءها على الطلاء   لا ينطق أحدهم بكلمة   ينظرون إلى الزبدة ، ثم إلى الساعة ، ليعودوا إلى الزبدة   تتحرك الساعة الآن

تهبط الزبدة إلى الأرض قبل حوالي نصف دقيقة من السابعة والنصف فيستعيد ماكمورفي النقود التي فقدها

يصحو الفتى الاسود ويبتعد عن الخط اللزج السائل على الجدار ويقول أن باستطاعتنا الذهاب يخرج ماكموري من القاعة وهو يدس نقوده في جيبه يلف ذراعيه حول كتفي الفتى الاسود وهو يكاد يحمله ويسير به إلى الغرفة النهارية في الاسفل ، « مضى نصف اليوم يا سام ، يا صاحبي العجوز ، وأنا لا أزال مفلساً سأحاول التعويض ما رأيك في اقتحام شدّة الورق التي تغلق عليها في ذلك المستودع ؟ وسأرى ان كان باستطاعتي رفع صوتي أعلى من مكبر الصوت ذاك »

يقضي معظم الصباح في محاولات التعويض فيمارس العاباً عديدة يلعب الآن على النقود بدلاً من السجائر يحرك طاولة اللعب مرتين أو ثلاثة ليتفادى مكبر الصوت يلاحظ المرء أن الصوت يضغط على أعصابه يذهب أخيراً إلى مركز الممرضات وينقر على لوح الزجاج حتى تتزحزح الممرضة الكبيرة عن كرسيها وتفتح الباب ، فيسألها أن توقف تلك الضوضاء الجهنمية لوقت قصير انها الآن أهدأ مما كانت عليه بعد احتلالها لمقعدها وراء لوح الزجاج ما من وثني يتسكع نصف عار ليفقدها توازنها ابتسامتها ساكنة وصلبة تغلق عينيها وتهزّ رأسها وتخبر ماكموري بكل رقة ، كلا

« ألا تستطيعين أيضاً خفض الصوت ؟ لا حاجة لولاية أوريغون بأسرها أن تسمع لورانس ويلك يغني « شاي لاثنين » ثلاث مرات كل ساعة ، اليوم بطوله ! لو كان الصوت ناعماً لاتيح للواحد منا أن يسمع من يراهنه على الطاولة ، فلعبة البوكر تسير ـ »

« لقد أعلمت يا سيد ماكموري أن سياسة الجناح لا تقرّ المقامرة بالنقود »

« حسناً ، اخفضي الصوت لنقامر على علب الكبريت ، على بيض الذباب ! فقط اخفضي الصوت اللعين ! »

« سيد ماكموري » تنتظر وتتلبّس لهجة معلمة المدرسة الهادئة قبل أن تواصل الكلام ؛ تعلم أن كل « مبّرح » في الجناح يصغي اليهما ـ « أتريد معرفة ما أفكر به ؟ أظن أنك كنت أنانياً للغاية ألم تلاحظ أن أناساً آخرين يجلسون قربك ؟ هناك كهول لا يستطيعون سماع المذياع اذا كان صوته منخفضاً ، زملاء طاعنون في السن غير قادرين ببساطة على القراءة ، أو حلّ الاحاجي ـ أو المقامرة للفوز بسجائر الآخرين كهول مثل الكولونيل ماتيرسون وكيتلنغ ، تلك الموسيقى المنبعثة من

مكبر الصوت هي كل ما لديهم ، وتريد انتزاعها منهم تحب سماع الاقتراحات والطلبات كلما استطعنا ، ولكن أظن أن عليك الالتفات قليلاً إلى الآخرين قبل أن تتقدم بطلباتك »

يستدير وينظر إلى زاوية « المزمنين » ويرى أن فيما تقوله بعض الحق ينزع قبعته ويجري يده في شعره ، يستدير نحوها أخيراً يعلم كما تعلم هي أن جميع « المبرحين » يصغون الى كل حرف يقولانه

« حسناً ، لم أفكر بذلك »

« أظن أنك لم تفعل »

يقبض على خصلة الشعر الحمراء الناتئة من عنق قميصه ، ثم يقول « طيب ؛ ما رأيك في نقل طاولة الورق الى مكان آخر ؟ غرفة أخرى ؟ لنقل ، مثلاً ، تلك الغرفة التي تضعون فيها المناضد خلال الإجتماع لا شيء في تلك الغرفة بقية النهار بأكمله ، تستطيعين فتح الغرفة والسماح للاعبين بدخولها ، وتبقين الكهول هنا مع مذياعهم ـ صفقة طيبة للجميع »

تبتسم وتغلق عينيها ثانية وتهز رأسها برّقة « بالطبع تستطيع حمل اقتراحك إلى بقية الجهاز الاداري يوماً ما ، لكني أخشى أن مشاعرهم ستتجاوب مع مشاعري ليس لدينا الإمكانية الكافية لتغطية غرفتين نهاريتين ، ليست لدينا عناصر كافية ، وأتمنى ألا تستند على الزجاج من فضلك » « يداك دبقتان وتلطخان النافذة هذا يعني عملاً اضافياً لبعض الرجال الآخرين »

يبعد يده ، وأرى أنه يوشك على قول شيء ما ثم يمسك ، مدركاً أنها لم تترك له شيئاً يقوله ، إلا إذا أراد البدء بمناحرتها يحتقن وجهه وعنقه ، يسحب نفساً عميقاً ويركز على قوة ارادته والحفاظ على برودة أعصابه كما فعلت هي هذا الصباح ، يخبرها أنه آسف جداً لإزعاجها ، ويعود إلى طاولة اللعب

يحس جميع من في الجناح أن المواجهة بينهما وشيكة

في الحادية عشرة يقف الطبيب على باب الغرفة النهارية ويطلب من ماكمورفي أن يمرّ على مكتبه لاجراء المقابلة « أنا أقابل كل النزلاء الجدد في اليوم التالي »

يضع ماكمورفي أوراقه وينهض ، يذهب إلى الطبيب الذي يبادر بسؤاله كيف

قضى ليلته ، لكن ماكمورفي يكتفي بالتمتمة

« تبدو مشغول الذهن اليوم يا سيد ماكمورفي ؟ »

« أوه ، أنا أفكر بصورة سليمة » يقول ماكمورفي ويمضيان إلى أسفل القاعة بعد فترة بدت كأيام طويلة يعودان مبتسمين وسعيدين بشيء ما يمسح الطبيب الدموع عن نظارته ويلوح أنه قد توقف لتوه عن الضحك ماكمورفي عائد بصخبه وجلافته وخيلائه كما كان دائماً يظل هكذا طوال الغداء ، وفي الساعة الواحدة يكون أول من يشغل مقعده في الإجتماع ، عيناه زرقاوان مشاكستان تلمعان من مكانه في الزاوية

تدخل الممرضة الكبيرة إلى الغرفة النهارية مصحوبة بجوقتها من طالبات التمريض وسلّتها الحافلة بالملاحظات تلتقط السجل اليومي من الطاولة ، تتصفحه قليلاً (لم يبلغ أحد عن أي معلومات بخصوص الآخرين طوال اليوم) ثم تأخذ مقعدها قرب الباب تخرج بعض الملفات من السلة التي في حجرها وتقلبها حتى تعثر على ملف هاردنغ

« كما أذكر ، كنا قد حققنا تقدماً لا بأس به البارحة فيما يتعلق بمشكلة السيد هاردنغ ـ »

« آه ـ قبل الدخول في تلك المشكلة » يقول الطبيب « أود المقاطعة قليلاً إذا سمح لي الأمر يتعلق بحديث دار بيني وبين السيد ماكمورفي في مكتبي هذا الصباح حديث ذكريات في الواقع ، حديث عن الأيام الخوالي والحق أني وماكمورفي اكتشفنا شيئاً مشتركاً بيننا ـ لقد درسنا في مدرسة ثانوية واحدة »

الممرضات يتبادلن النظر ويتساءلن عما حلّ بالرجل يرمق المرضى ماكمورفي المبتسم من زاويته ينتظر أن يواصل الطبيب كلامه ، يهز رأسه

« نعم ، المدرسة الثانوية ذاتها وفي مجرى ذكرياتنا حدث أننا أثرنا موضوع الكرنفالات التي كانت المدرسة تقيمها ـ مناسبات باهرة ، صاخبة ، احتفالية زينة ، رايات من ورق الكريب ، أكشاك ، العاب كانت دائماً احدى أهم أحداث السنة كنت ، كما ذكرت لماكمورفي ـ رئيس كرنفال المدرسة الثانوية منذ دخولي وحتى تخرجي سنوات رائعة من المرح »

يسود هدوء تام في الغرفة النهارية يرفع الطبيب رأسه ، يسترق النظر من حوله ليرى ان كان يثير السخرية من حوله تحدجه الممرضة الكبيرة بنظرة لا تترك مجالاً للشك في مضمونها ، لكنه لا يضع نظارتيه وتفوته النظرة

« على كل حال ـ لإنهاء عرض الحنين الجيّاش هذا ـ تساءلنا في مجرى مناقشتنا عن موقف الآخرين هنا لو أقمنا كرنفالاً في الجناح ؟ »

يضع نظارته ويسترق النظر من جديد لا يعرب أحد عن فرحه بالفكرة يتذكر بعضنا تيبر حين حاول تصميم كرنفال منذ بضع سنوات ، وما حدث للكرنفال وبينما ينتظر الطبيب ، ينبعث الصمت من الممرضة ليحلق فوق الجميع ، يتحدى من يجرؤ على خرقه أعلم أن ماكموري لا يستطيع ذلك لأنه من مخططي الكرنفال ، وبينما كنت أفكر أنه لن يكون بيننا أحمق يقدم على خرق الصمت ، يزفر شيزويك الجالس قرب ماكمورفي ويقف على قدميه ، يحك أضلاعه قبل أن يعلم ما حدث

« آه ـ اعتقد شخصياً حسناً » ينظر إلـى قبضة ماكمورفي الجاثمة على مسند الكرسي بالقرب منه وذلك الإبهام الضخم الجامد الذي ينبثق منها كقرن البقرة ـ « ان الكرنفال فكرة عظيمة حقاً هو شيء يخرق الرتابة »

« هذا صحيح يا شارلي » يقول الطبيب ـ مقدّراً دعم شيزويك « كما أنه لا يخلو من الفائدة العلاجية »

« بالتأكيد » يقول شيزويك وهو يبدو أكثر سعادة ، « كلا ! في الكرنفال الكثير من الاسس العلاجية ، أراهن على ذلك »

« وسيكون مـ مـ ممتعاً » يقول بيللي بيبيت

« نعم ، المرح أيضاً » يقول شيزويك « نستطيع القيام به يا دكتور سبايفي نستطيع بكل ثقة سيؤدي سكانلون دور القنبلة البشرية ، وأستطيع صنع حلقة الناقوس في العلاج المهني »

« سأنجّم عن الحظوظ » يقول مارتيني مشيراً إلى بقعة في رأسه

أما أنا ، فإني جاهز في تشخيص الأمراض من قراءتي لراحة اليد » يقول هاردنغ

« جيد ، جيد » يقول شيزويك مصفقاً بيديه لم يحدث أن دعم أحد أي شيء قاله من قبل

«أما أنا، يقول ماكمورفي متصنعاً الكلام »« فسيشرفني العمل على الدولاب لدي بعض الخبرة »

« أوه ، هناك امكانيات متعددة » يقول الطبيب معتدلاً في كرسيه وطافحاً بالحماس ، « عندي مليون فكرة »

يتحدث باندفاعة النبع خمس دقائق أخرى ، يمكنك القول أن الكثير من الافكار كان قد ناقشها مع ماكمورفي يصف الالعاب والاكشاك ، يتحدث عن بيع التذاكر ، ثم يتوقف فجأة وكأن نظرة المرضة قد لطمته بين عينيه يطرف بعينيه صوبها ويسأل ، « ما رأيك بالفكرة يا آنسة راتشدت ؟ في الكرنفال ! هنا ، في الجناح ؟ »

« أوافق على أنها قد تتضمن عدداً من الامكانيات العلاجية » تقول وتنتظر تدع ذلك الصمت ينبعث منها ثانية وحين تتأكد أن أحداً لن يتحدى الصمت ، تواصل الكلام « لكني أعتقد أيضاً أن فكرة كهذه يجب أن تناقش في اجتماع الجهاز الاداري قبل التوصل إلى قرار بشأنها ألم تكن فكرتك يا دكتور ؟ »

« بالطبع ، لقد فكرت ببساطة كما ترين ، أن أجس نبض بعض الرجال أولاً ولكن بالتأكيد ، اجتماع الجهاز الاداري أولاً ثم سنتابع خططنا »

ويعلم الجميع أن هذه نهاية الكرنفال

تحاول المرضة العودة إلى نقطة البدء بتقليب الملف الذي تحمله « حسناً ، اذا لم تكن هناك قضايا أخرى ـ ولو يجلس السيد شيزويك ـ أظن أن باستطاعتنا الدخول في المناقشة لدينا ـ » تأخذ ساعتها من السلّة وتنظر اليها « ثمان وأربعون دقيقة باقية إذن ، كما كنت ـ »

« أوه ـ هيه ، انتظري ، تذكرت ان هناك قضية أخرى » ، ماكمورفي يرفع يده واصبعه بارز منها تنظر إلى اليد مطولاً قبل أن تقول

« نعم ، يا سيد ماكمورفي »

« لست أنا   الدكتور سبايفي   أخبرهم يا حكيم بما توصلت اليه بشأن ثقيلي السمع والمذياع »

يرتجف رأس الممرضة قليلاً ، ارتجافة لا تكاد ترى ، لكن قلبي يخفق فجأة تعيد الملف ثانية إلى السلّة ، تحول نظرها إلى الطبيب

« نعم » يقول الطبيب « كدت أنسى حقاً » يستند الى الوراء ويصالب ساقيه ويضم أنامله ؛ أرى أن معنوياته لا تزال عالية حول كرنفاله   « كما ترون ، كنت وماكمورفي نتحدث حول المشكلة الأزلية التي نعانيها في الجناح   إختلاط السكان ، الشباب والكهول معاً   إنها ليست الأجواء المثالية لجماعتنا العلاجية ، لكن الإدارة تقول أنه ليس في وسعها التخفيف من ازدحام المبنى في وضعه الحالي   سأكون أول من يقرّ بأن الوضع ليس حسناً تماماً بالنسبة لجميع المعنيين   في حديثنا ، مع ذلك ، صدف أنني وماكمورفي توصلنا إلى فكرة تجعل الأمور أكثر بهجة لمجموعتي العمر المختلفتين ، لاحظ ماكمورفي أن بعض الكهول يعانون من صعوبة في سماع المذياع ، اقترح رفع صوت المكبر ليتمكن « المزمنون » ذوي المتاعب السمعية من سماعه   اقتراح انساني للغاية كما أعتقد »

يبسط ماكمورفي يده دلالة على التواضع ، فيومىء له الطبيب ويردف

« لكني أخبرته بما تلقيته من شكاوى عديدة قدمها بعض الرجال الاصغر سناً وتضمنت أن صوت المذياع عالٍ الى حد يعيق الحديث والقراءة   قال ماكمورفي أنه لم يفكر بذلك ، لكنه ذكر أنه من العار على أولئك الراغبين في القراءة أن لا ينعزلوا في مكان هادىء ويدعوا المذياع للراغبين في سماعه   وافقته على أنه عار عليهم وكنت على وشك الانتهاء من المسألة حين خطر لي أن أفكر بغرفة الحوض القديمة حيث نخزن الطاولات في اجتماعات الجناح   نحن لا نستعمل الغرفة لغير ذلك الغرض ؛ ولم نعد الآن بحاجة للعلاج المائي الذي صممت من اجله بعد أن توصلنا إلى العقاقير الحديثة   ولذا ، ما رأي المجموعة في استخدام تلك الغرفة في ما يشبه الغرفة النهارية الثانية ، غرفة لعب إذا صحّ التعبير ؟ »

لا تنبس المجموعة بحرف   انهم يعرفون من سيكون التالي في الحديث تطوي هي ملف هاردنغ وتضعه في حجرها وتعقد يديها فوقه ، تتطلع من حولها وكأن أحداً سيجرؤ على قول شيء   وحين يتضح أن أحداً لن يسبقها في الكلام تستدير

« يبدو المخطط رائعاً يا دكتور سبايفي ، وأنا أقدر اهتمام السيد ماكمورفي بالمرضى الآخرين ، لكني أخشى حقا أن لا تكون لدينا العناصر الكافية لتغطية غرفة نهارية ثانية »

ولأنها واثقة كل الثقة من أن كلامها يضع حدّاً نهائياً للموضوع تعاود ثانية فتح الملف   لكن الطبيب كان قد إحتاط بأكثر مما تصورت

« فكرت بذلك أيضاً يا آنسة راتشدت   ولكن طالما أن غالبية من سيظلون هنا بالقرب من المذياع في الغرفة النهارية هم من المزمنين ـ ومعظمهم مقيد بكراسي الدواليب والأرائك ـ فان مساعداً واحداً وممرضة واحدة سيكونان قادرين هنا على إخماد أي عصيان أو إنتفاضة مما قد يحدث ، ألا تظنين ذلك ؟ »

لا تجيب ، ولا تكترث كثيراً بدعابته حول العصيان والانتفاضات ، لكن وجهها لا يتغير   تبقى الابتسامة

« وهكذا يستطيع المساعدان الآخران والممرضتان تغطية الرجال في غرفة الحوض ، ربما بصورة أفضل من هذه الرقعة الواسعة هنا   ما رأيكم يا رجال ؟ فكرة مدروسة ! أنا متحمس لها بعض الشيء وأقول دعونا نجربها ، نختبرها لبضعة أيام   إذا لم تفلح ، حسناً ، لا يزال مفتاحها لدينا لنعيد إقفالها ، أليس كذلك ؟ »

« صحيح ! » يقول شيزويك مكوّراً قبضته في راحة يده   لا يزال واقفاً كأنه يخشى ملامسة ابهام ماكمورفي ثانية   « صحيح يا دكتور سبايفي ، اذا لم تفلح لا يزال لدينا المفتاح لإقفالها   أراهن على ذلك »

يجيل الطبيب أنظاره في أنحاء الغرفة ويرى كافة « المبّرحين » وهم يهزّون رؤوسهم ويبتسمون ويبدون مبتهجين بفكرته وبما آل اليه الطبيب فيتورد خجلاً مثل بيللي بيبيت ، ويتعينّ عليه مسح نظارته مرة أو مرتين قبل متابعة الكلام   يضحكني أن الرجل التافه يبدو راضياً عن نفسه   ينظر إلى كل الرجال وهم يومئون له ثم يهزّ رأسه ويقول « رائع   رائع   » يعقد يديه على ركبتيه « جيد جداً   والآن اذا اعتبرنا الأمر منتهياً ومُقرّاً ، آه   يبدو انني نسيت ما كنا نخطط له هذا الصباح »

يرتجف رأس الممرضة مرة أخرى ، تنحني على سلتها ، تلتقط الملف تعبث بالأوراق بيديها المرتعشتين تسحب ورقة ، ولكن مرة ثانية قبل أن تتمكن من تلاوتها يقف ماكموروفي رافعاً يده ومتنقلاً من قدم إلى أخرى ، مطلقاً عبارة « قل لي » طويلة متأنية تجعلها تكف عن العبث بالأوراق تتجمد كأن صوته جمّدها كما جمد صوتها ذلك الفتى الاسود هذا الصباح يعاودني ذلك الإحساس الطائش ثانية حين تتجمد أراقبها بإمعان وماكموروفي يتحدث

« قل لي يا حكيم ، أنا متلهف لمعرفة معنى الحلم الذي شاهدته الليلة الماضية كما ترى ، كنت كأني أرى **نفسي** ، ومع ذلك لم أكن **أنا** نفسي كأني رجل آخر يشبهني ، مثل مثل **والدي** ! نعم ، كان هو من رأيته ! كان والدي لأني حينما كنت أرى نفسي ـ أو أراه ـ كنت أرى ذلك الحزام الحديدي الذي اعتاد والدي وضعه على عظم الفك »

« هل كان والدك يلف حزاماً حديدياً حول فكه ؟ »

« حسناً ، لم يعد يفعل ، لكنه فعلها مرة حين كنت صبياً كان يتجول طوال عشرة شهور بذلك الحزام المعدني **هنا وهناك** ! يا الله ، كان يبدو صورة طبق الأصل عن فرانكشتين كان يلفه حول الفك مربوطاً بفأس حادة حين يتنازع مع ذلك الرجل في منشرة الخشب ـ هيه ! دعوني أحكي لكم كيف جرت **تلك** الحادثة »

لا يزال وجهها هادئاً ، كأنها وضعت قناعاً مطلياً بالنظرة التي تريدها واثقة صبورة ، رابطة الجأش لم يعد رأسها يرتجف ـ عاد الرأس البارد المخيف ، عادت الابتسامة هادئة ملتصقة على بلاستيك أحمر ، عادت الجبهة ناعمة ليس بها خط واحد يدل على الضعف أو القلق ، العينان واسعتان ، مسطحتان ، سابحتان بالأخضر ، محاطتان بتعبير يقول باستطاعتي الانتظار ، قد أفقد ياردة بين الحين والآخر لكني أستطيع الانتظار أظل صبورة وهادئة وواثقة ، أنا أعلم أن خسارة حقيقية لن تصيبني

خُيّل اليّ لحظة واحدة أنني رأيتها منهزمة لعلي رأيتها لكني أرى الآن أنها لم تختلف ، بأخذ المرضى واحداً بعد الآخر في اختلاس النظرات اليها ليروا كيف تقابل طريقة ماكموروفي في تسيّد الاجتماع يرون الشيء ذاته إنها أكبر من أن تنهزم

ها هي تغطي جانباً بأكمله من الغرفة وكأنها تمثـال ياباني لا مجال لزحزحتها ولا حول في قوتها لقد خسرت معركة صغيرة اليوم ، لكنها معركة ثانوية في حرب طويلة كانت تربحها وستظل تربحها ، يجب أن لا ندع ماكمورفي يستنهض أمالنا ويغيّرها ، يوقعنا في شرك مسرحيـة إيمائيـة بكماء ستـواصل الفـوز ، كما « الائتلاف » ، لأنها تختزن كل قوة « **الائتلاف** » وراءها إنها لا تخسر على حسابها بل تفوز لحسابها ولكي تهزمها ينبغي عليك أن لا تذلّها مرتين من ثلاث أو ثلاثة من خمسة ولكن في كل مرّة تقابلها وحالما تهبط يقظتك ، حالما تخسر مرة واحدة ، ستفوز هي إلى الابد ويحدث دائماً أننا نخسر ليس في وسعنا عمل شيء

الآن بالضبط ، تشغّل آلة الضباب التي تدور بسرعة فائقة ولا أرى شيئاً سوى وجهها ، يتطاول وتزداد سماكته أشعر أنني يائس وميت بقدر ما شعرت أنني سعيد منذ دقيقة خلت ، حين صدرت عنها تلك الحركة ، تلك الرجفة الصغيرة لعلي يائس أكثر من ذي قبل ، خصوصاً وأني أعرف الآن أنه ما من عون ضدها وضد « **ائتلافها** » لم يعد في وسع ماكمورفي أن يساعد أكثر مما أساعد أنا لا أحد في وسعه عمل شيء وكلما فكرت بفقدان ما يمكن عمله ازدادت سرعة حلول الضباب

وأنا سعيد إذ تزداد كثافته ستصبح ضائعاً فيه ويطلق سراحك ، فتنجو مرة أخرى

لعبة « المونوبولي » تدور رحاها في الغرفة النهارية إنهم يلعبونها منذ ثلاثة أيام البيوت والفنادق في كل مكان ، تلاصقت طاولتان لتوضع عليهما أكداس نقود اللعب أقنعهم ماكمورفي بادخال تحسين طريف على اللعبة وذلك بدفع بنس واحد عن كل دولار لعب مزيف يصدره المصرف ، وقد غص صندوق الاحتكار بالنقود الصغيرة

« الدور لك يا شيزويك »

« انتظروا لحظة قبل أن يلعب   كم يحتاج المرء لشراء الفنادق ؟ »

« تحتاج الى أربع   بيوت   لكل لون واحد يا مارتيني. دعونا نتابع بحق المسيح ! »

« انتظروا لحظة   »

هناك وفرة من النقود على الجانب الآخر من الطاولة ، حمراء وخضراء وصفراء تتطاير في كل اتجاه

« هل تشتري فندقاً أم تلعب عاماً سعيداً   بحق المسيح ؟ »

« انه دورك اللعين يا شيزويك »

« عين الأفعى ! هوووي يا شيزويك ! أين سيفضي بك ذلك ؟ انه لا يوصلك الى حدائق مارفن مهما كان حظك   هذا لا يعني أنك ستدفع لي ، سنرى ، ثلاثمائة وخمسون دولاراً ؟ »

« اشتريت »

« ما هي الأشياء الأخرى ؟ انتظروا لحظة   ما هي الأشياء الأخرى على الرقعة ؟ »

« مارتيني ، لقد شاهدت الأشياء الأخرى على الرقعة طوال يومين   لا عجب أنني أخسر قفاي   ماكمورفي ، لا أدري كيف تستطيع التركيز مع مارتيني الذي يهذي بمناسبة وبغير مناسبة   »

« لا تكترث لمارتيني يا شيزويك. انه يلعب جيداً   إلعب بخمسيناتك الثلاثة وسيعنى مارتيني بنفسه، ألا نأخذ منك الايجار في كل مرة تهبط فيها أشياؤك على أملاكنا ؟ »

« انتظروا لحظة   هناك العديد منها »

« حسناً يا مارت   أعلمنا فقط على أية أملاك ستهبط   لا يزال الزهر بيدك يا شيزويك   لعبت مرتين ، فالعب ثانية   هيا يا فتى ، فسوود ! ستة رائعة ! »

« تأخذني الى   الحظ   لقد انتخبت رئيساً لمجلس الادارة. إدفع لكل لاعب »

«اشتريت وضاعفت شرائي »

« لمن هذا الفندق الذي على سكة حديد القراءة بحق المسيح ؟ »

«يا صديقي ، هذا كما يمكن للجميع أن يروا ليس فندقاً بل مستودعاً »

« ولكن انتظروا لحظة ـ »

يحيط ماكموري في بطرف الطاولة ، يحرك الأوراق ، يعيد ترتيب النقود ، يسوّي فنادقه هناك ورقة بمائة دولار مطوية في واقية قبعته كبطاقة الصحافة ، نقود مجنونة كما يسميها

«.سكانلون ! اظن أن الدور لك يا صاحبي »

« أعطني هذا الزهر سأمزّق هذه الرقعة ارباً ها نحن نبدأ ليبنتي ليبن »

« أضف الى حسابي أحد عشر يا مارتيني »

« نعم بالطبع »

« ليست تلك أيها الوغد المجنون ! هذه ليست قطعتي ، ذاك هو بيتي »

« انه نفس اللون »

« ماذا يفعل هذا البيت الصغير فوق شركة الكهرباء ؟ »

« هذه محطة طاقة »

« مارتيني ، هذا الذي تهزه ليس زهراً »

« ليكن ، ما الفرق ؟ »

« انه زوج من البيوت ! »

« فووه ! ، مارتيني يرمي زهراً عالياً ، لنرى ، تسعة عشر هائلة ممتاز ! مارت ، هذا يضعك في ـ أين قطعتك يا صاحبي ؟ »

« هيه ؟ انها هنا ! »

«لقد وضعها في فمه يا ماكموري. ممتاز! ! هذه حركتان فوق الطرف الثاني والثالث ، أربع حركات فوق الرافعة وهي تأخذك الى ـ شارع البلطيق يا مارتيني أملاكك الخاصة الوحيدة كم يكون الانسان محظوظاً أيها الأصدقاء ! لقد لعب مارتيني منذ ثلاثة أيام وهو يحصل على أملاكه في كل مرة »

« اغلق فمك والعب يا هاردنغ انه دورك »

يجمع هاردنغ الزهر باصابعه الطويلة ، متحسساً السطح الناعم بإبهامه كأنه مكفوف الاصابع بلون الزهر وتبدو كأنها منحوتة من يده الأخرى يخشخش الزهر في يده حين يهزّه يتدحرج الزهر ليتوقف أمام ماكمورفي

« فووه ! خمسة ، ستة ، سبعة ، حظ رهيب يا صاحبي هذه خسارة أخرى على حسابي أنا مدين لك ، آه ، مائتا دولار ستغطي الخسارة »

« يا للأسف »

وتستمر اللعبة وتستمر ، خشخشة الزهر واختلاط نقود اللعب

هناك نوبات طويلة ـ ثلاثة أيام ، ثلاثة أعوام ـ حيث لا تتمكن من رؤية شيء ، ولا تعرف أين أنت إلا بواسطة المكبر الذي يلعلع فوق رأسك كمطرقة الجرس المتخبطة في الضباب حين أستعيد الرؤية ، يكون الرجال في حالة تسكع ولا مبالاة وكأنهم لم يلاحظوا الضباب في الفضاء أعتقد أن الضباب يؤثر على ذاكرتهم بطريقة لا تؤثر في ذاكرتي

حتى ماكمورفي يبدو غير عارف بما غمره من ضباب ولو عرف لتجنب الإفصاح عن برمه به انه يعمل على ألا يراه أحد من الاداريين وهو يتذمر من شيء ما ، يعرف أنه ما من طريقة لإثارة من يريد التشديد عليك أفضل من الايحاء بأنك غير متضايق

يحافظ على سلوكه الراقي مع الممرضات والفتيان السود بصرف النظر عما يتفوهون به ، بصرف النظر عن أي حيلة يحيكونها له لإخراجه عن طوره حدث مرة أو مرتين أن قاعدة ما تدفعه الى الجنون ، لكنه يتصنع السلوك المهذب واللباقة حتى يبدأ في إدراك أن الأمر مضحك للغاية ـ القواعد ، نظرات الاستنكار التي يستخدمونها لفرض القواعد ، طرائق حديثهم معك باعتبارك صبياً في الثالثة من عمره

لا أكثر ـ وحين يرى كم يبدو الأمر مضحكاً ينخرط في الضحك ليثيرهم الى ما لا نهاية انه آمن طالما ظل قادراً على الضحك ، كما يعتقد ، وقد نجح الاسلوب كثيراً مرة واحدة ، يفقد السيطرة على نفسه ويظهر جنونه ، ليس بسبب الفتيان السود أو الممرضة الكبيرة أو أي شيء اقترفوه ، بل بسبب المرضى ، بسبب شيء لم يقترفوه

حدث ذلك في احدى اجتماعات المجموعة حين جنّ جنونه لأن الرجال يتصرفون بخنوع زائد ، ويسمي تصرفهم براز الدجاج لقد راهنهم جميعاً على أنهم سيشاهدون « المسلسل العالمي » الذي سيعرض يوم الجمعة دخل في مزاجه أنهم لا بد أن يشاهدوا المباريات في التلفزيون رغم أنها لا ترد في الوقت النظامي المخصص لمشاهدة التلفزيون خلال الاجتماع الذي جرى قبل أيام يسأل اذا كان ممكناً أن يقوموا بعملية التنظيف خلال الليل ، أي في وقت مشاهدة التلفزيون ، ويشاهدوا المباريات خلال فترة ما بعد الظهر تجيبه الممرضة بالنفي ، وهو ما كان يتوقعه تخبره أن التوقيتات وضعت وفق محتوى دقيق التوازن يجعلها فوضى مطلقة إذا مسّ الروتين مرة واحدة

لا يدهشه ذلك ، فهو يصدر عن الممرضة ؛ ما يدهشه هو تصرف « المبرّحين » حين سألهم رأيهم في الفكرة لا ينبس أحدهم ببنت شفة ، ينكمشون جميعهم بعيداً عن الأنظار في جيوب صغيرة من الضباب أكاد لا أستطيع رؤيتهم

« والآن أنظروا الي » يهتف بهم ، لكنهم لا ينظرون اليه ، كان ينتظر أن يقول أحدهم شيئاً ،يجيب على سؤاله يتصرف الجميع بما يوحي أنهم لم يسمعوا سؤاله

« انظروا إليّ عليكم اللعنة ! » يصرخ حينما لا يتحرك أي منهم « أعرف منكم أثني عشر رجلاً يهمّهم أن يعرفوا نتيجة هذه الألعاب ألستم حريصين على رؤيتها ؟ »

« لا أعرف يا ماك » يقول سكانلون أخيراً ، « أنا معتاد على مشاهدة أخبار السادسة واذا كان وقت المباريات سيفسد التوقيتات بالشكل السيء الذي ذكرته الآنسة راتشدت ـ »

« لتذهب التوقيتات الى الجحيم ! تستطيع العودة إلى التوقيت اللعين في الاسبوع القادم حين ينتهي المسلسل ما رأيكم يا أصحاب ؟ لنصوّت على مشاهدة

التلفزيون في فترة ما بعد الظهر بدلاً من الليل ، من يؤيد ؟ »

« أنا ! » يقول شيزويك ويقف على قدميه

« قصدت أن يرفع جميع من يؤيدوه أيديهم حسناً ، من يؤيد ؟ »

ترتفع يد شيزويك يتطلع بعض الرجال من حولهم ليروا ان كان هناك أحمق آخر لا يصدق ماكمورفي ما يرى ما هذه الأسماك ؟ لقد اعتقدت أن بامكانكم أيها الرجال أن تصوتوا على السياسة ، ان تقترحوا أليس كذلك يا حكم ؟ »

يومىء الطبيب دون أن يرفع رأسه

« حسناً الآن ، من يريد مشاهدة الألعاب ؟ »

يرفع شيزويك يده اعلى فأعلى ويرقب الآخرين يهز سكانلون رأسه ويرفع يده مبقياً مرفقه على ذراع الكرسي لا أحد سواه ، تلجم الدهشة لسان ماكمورفي

« اذاً انتهينا من الأمر » تقول الممرضة » لعلنا نواصل اجتماعنا ؟ »

« نعم » يقول ، ينزلق في كرسيه حتى تكاد واقية قبعته أن تلمس صدره « لعلنا نواصل اجتماعنا ابن العاهرة هذا ! »

« نعم » يقول شيزويك وهو يرمي كافة الرجال بنظرة قاسية ويجلس « نعم ـ لنواصل اجتماعنا المبارك » يومىء بصلف ، ثم يرخي ذقنه على صدره عابساً إنه سعيد بالجلوس إلى جوار ماكمورفي ، يشعر بالشجاعة في هذا الوضع انها المرة الأولى التي يجد فيها شيزويك شخصاً يناصره في قضاياه الخاسرة

بعد الإجتماع يمتنع ماكمورفي عن محادثة أي منهم ، انه مشمئز وثائر للغاية يتجه بيللي بيبيت نحوه

« بعضنا كا. كا. كان هنا منذ خمـ خمـ خمس سنوات يا راندل» يقـول بيللي يحمل مجلة مطوية ملفوفة بين يديه ، حروق السجائر واضحة على ظاهر يده « وبعضنا سيبـ سيبـ سيبقى هنا فترة أطـ أطـ أطول ، أطول مما ستبـ ستبـ ستبقى أنت ، أطول من هذه المسلسل العا العا العالمي ، ألا ترى ؟ » يرمي المجلة ويعود أدراجه ، « أوه ، ما الفائدة على كل حال »

يرمقه ماكمورفي وهو ينصرف ، التقطيبة تعقد حاجبيه اللامعين وتضمهما ثانية

يمضي بقية النهار في جدال مع بعض الرجال حول السبب الذي جعلهم يمتنعون عن التصويت ، لكنهم غير راغبين في الحديث ، فيبدو وكأنه استسلم اذ لا يثير المسألة ثانية حتى اليوم الذي يسبق موعد بدء المسلسل « اليوم هو الخميس » يقول بحزن وهو يهز رأسه

يجلس على احدى الطاولات في غرفة الحوض وقدماه على الكرسي ، محاولاً تدوير قبعته على إصبعه يذرع بعض « المبرحين » الغرفة متحاشين الالتفات اليه بعد الآن لن يلعب معه أحدهم البوكر أو غيره ، فبعد أن رفض المرضى التصويت تلبّسه الجنون وسلخ جلودهم جميعاً وأصبحوا مدينين له بمبالغ أفزعتهم وجعلتهم يمتنعون عن المضي في اللعب ليس بمقدورهم أيضاً أن يلعبوا على السجائر لأن الممرضة بدأت تجبر الرجال على ترك العلب الكبيرة فوق المقعد في مركز الممرضات ، حيث تمنحهم علبة واحدة كل يوم وتقول انها تحرص على صحتهم لكنهم جميعاً يعرفون أن السبب الحقيقي هو منع ماكمورفي من الفوز بها في لعب الورق بغياب البوكر وغيره تبدو غرفة الحوض هادئة ، خاوية الا من صوت المكبر يتسلل من الغرفة النهارية هدوء مطبق يتيح لك سماع رجل في طابق « المضطربين » الأعلى يتسلق الجدار ، مطلقاً شارة عابرة ، **لووو ـ لووو ـ لووو** ، صوت مضجر رتيب ، كما ينتحب الطفل ليجبر نفسه على النوم

« الخميس » يردد ماكمورفي ثانية

« **لووووو** » يصيح الرجل في الطابق الأعلى

« هذا رولر » يقول سكانلون ناظراً إلى السقف لا يريد الالتفات إلى ماكمورفي « رولر القذارة جاء الى هذا الجناح منذ بضع سنوات لم يلزم الهدوء بما يناسب الآنسة راتشدت ، هل تذكر يا بيللي ؟ لووو ـ لووو ـ لووو طوال الوقت حتى ظننت انني سأنفجر ما يجب أن يفعلوه لشلّة الوطاويط الناعقة في الأعلى هو رمي زوج من القنابل اليدوية في الجناح ليسوا ذوي فائدة لأحد ـ »

« وغداً هو الجمعة » يقول ماكمورفي لن يدع سكانلون يغير الموضوع

« نعم » يقول شيزويك ، عابساً في أنحاء الغرفة « غداً هو الجمعة »

يقلب هاردنغ صفحة من مجلته « وهذا يعني مرور أسبوع على صديقنا ماكمورفي دون أن ينجح في اسقاط الحكومة ؛ هل هذا ما تقصده يا شيزويك ؟ يا الهي ، حين أفكر في درك الفتور الذي سقطنا فيه ، عار عار كبير »

« إلى الجحيم بذلك ! » يقول ماكمورفي ، « ما يقصده شيزويك هو أن أول لعبة في المسلسل ستجري غداً في التلفزيون ، وماذا سنفعل ؟ نمسح مركز التمريض اللعين ثانية »

« نعم » يقول شيزويك « مركز التمريض العلاجي للأم العجوز راتشدت »

يخامرني شعور الجاسوس وأنا ألتصق بجدار غرفة الحوض ، ذراع الممسحة في يدي مصنوع من المعدن بدلاً من الخشب (والمعدن ناقل جيد) وهو مجوّف ، هناك فراغ في داخله يكفي لإخفاء لاقط دقيق لو أن الممرضة الكبيرة تسمع الكلام فستنال من شيزويك مثلاً أتناول كرة من اللبان من جيبي وأمضغها في فمي حتى تلين

« لنعيد النظر في الموضوع ثانية » يقول ماكمورفي « كم طائراً منكم سيصوّت معي ، اذا اقترحت لموضوع التبديل ثانية ؟ »

يشير نصف « المبرحين » بالإيجاب ، أكثر في الحقيقة من العدد الذي سيصوّت فعلياً يدفع قبعته إلى الوراء ويسند ذقنه على يديه « أقول أنني لا أتصور الأمر هاردنغ ! ما خطبك ؟ لماذا لا ترفع صوتك ؟ هل تخشى إن رفعت يدك أن تقطعها تلك الحدأة ؟ »

يرفع هاردنغ حاجباً واحداً رفيعاً « ربما ؛ ربما كنت خائفاً ان تقطعها لو رفعتها »

« وأنت يا بيللي ؟ هل أنت خائف من الأمر ذاته ؟ »

« كلا ، لا أظن أنها ستفـ ستفـ ستفعل شيئاً ، ولكن ـ » يهز كتفيه ويتسلق اللوح الضخم الذي يتحكم بالرشاش ، يلبث هناك كالقرد ،

« ولكني لا أظن أن التصويت سيفـ سيفـ سيفيد في شيء ليس على المدى البعـ البعيد ، لا فائدة بكل بساطة يا ما ماك »

« يفيد ؟ هووووي ! سيفيـدكم مجرد تـدريب اليد عـلى الارتفاع أيهـا الطيور »

« لا تزال مخاطرة يا صديقي انها تمتلك دائماً القدرة على جعل الأمور أكثر سوءاً بالنسبة لنا لعبة بيسبول لا توازي المخاطرة » يقول هاردنغ

« من يقول هذا بحق الجحيم ؟ يا يسوع ! لم يفتني مسلسل عالمي واحد طوال سنوات حتى حين كنت في السجن ذات ايلول احضروا لنا تلفزيوناً لنشاهد المسلسل ، كانوا سيواجهون عصياناً لو لم يفعلوا استطيع الاكتفاء بركل ذلك الباب اللعين والذهاب إلى حانة ما في البلدة لمشاهدة المسلسل ، أنا وصاحبي شيزويك فقط

« هناك اقتراح ذو مزايا متعددة » يقول هاردنغ ملقياً بمجلته جانباً ، « لماذا لا نصوت في اجتماع المجموعة غداً على الاقتراح التالي يا آنسة راتشدت ، أود الاقتراح بنقل الجناح بقضّه وقضيضه الى حانة آيدل آور لاحتساء البيرة ومشاهدة التلفزيون »

« سأكرر الحركة » يقول شيزويك « اللعنة حقاً »

« لتذهب الأعمال الجماعية إلى الجحيم ! » يقول ماكمورفي ، « لقد مللت النظر اليكم ايتها السيدات العجائز ، حين نندفع أنا وشيزويك من هنا أقسم بالله أنني سأغلق الباب ورائي بالمسامير . الأفضل أن تظلوا وراءه ، قد لا تسمح لكم أمكم بعبور الشارع »

« ماذا ؟ هل ستفعلها ؟ » يقف فريدريكسون وراء ماكمورفي ، « هـل سترفع حذاءك الضخم وتركل الباب ؟ رجل صلب حقاً »

لا يكلف ماكمورفي نفسه عناء النظر إلى فريدريكسون ؛ لقد تعلم أن فريدريكسون قد يغلي حماساً بعض الأحيان ، لكنـه تمثيل ينهـار عند أدنى خوف

« ما رأيك يا رجل ، » يواصل فريدريكسون كلامه « هل ستركل ذاك الباب وترينا كم أنت قوي وعنيد ؟ »

« كلا يا فريدريكسون ، لا أظن ذلك لا أريد إفساد حذائي ».

« كلا ؟ حسناً ، كنت تنطق بالاعاجيب كيف ستتمكن من الإندفاع خارج هذا المكان ؟ »

يتطلع ماكمورفي من حوله « حسناً ، أظن أنني أستطيع تحطيم احدى هذه النوافذ بكرسي حين تخطر لي الفكرة »

« نعم ! تستطيع ؟ ألا تستطيع ؟ تحطمه ! حسناً ، دعنا نراك وأنت تحاول هيا يا رجل ، أراهنك بعشرة دولارات ، لن تستطيع »

« لا تتجشم عناء المحاولة يا ماك » يقول شيزويك « يعرف فريدريكسون أنك ستحطم احدى الكراسي فقط وتنتهي في جناح « المضطربين » في أول يوم جئنا فيه إلى هنا شهدنا عرضاً خاصاً لهذه الغرابيل إنها مختلفة الصنع التقط فنّي كرسياً مثل هذا الذي تسند قدمك عليه وضرب الغربول حتى أصبح الكرسي نثاراً من الخشب لم يلحق أي ضرر بالنافذة »

« حسناً إذاً » يقول ماكمورفي ناظراً من حوله أرى اهتمامه يتزايد أرجو أن لا تسمع الممرضة ما سيقوله ؛ سينتهي خلال ساعة واحدة في جناح المضطربين « نحتاج الى شيء أثقل ما قولكم في طاولة ؟ »

« مثلها مثل الكرسي نفس الخشب ، نفس الوزن »

« حسناً اذن بحق الله ، دعونا نفكر في ما يجب أن أرمي به ذلك الغربول للاندفاع خارجه واذا كنتم أيها الطيور تظنون أني لا أفعلها اذا امتلكت الدافع ، فيجب أن تفكروا مرتين حسناً ، شيء أضخم من الطاولة والكرسي حسناً ، اذا حل الليل قد أرمي بذلك الزنجي البدين ، إنه ثقيل بما يكفي »

« طري للغاية » يقول هاردنغ « سيرتطم بالغربول ويتفتت كالباذنجانة »

« ما رأيكم في احد الاسرّة ؟ »

« السرير كبير حتى لو تمكنت من رفعه لن يخترق النافذة »

« استطيع رفعه مع ذلك ، حسناً ، يا للجحيم ! هذا هو المطلوب ذلك الشيء الذي يجلس عليه بيللي لوح التحكم الضخم بمفاتيحه ومخروطاته إنه قاس بما يكفي ، أليس كذلك ؟ ولا بد أن يكون ثقيلاً عليه اللعنة ! »

« بالتأكيد »يهتف فريدريكسون « كما تركل بقدمك ذلك الباب الفولاذي عند المدخل »

« ما الخطأ في استخدام لوح التحكم ؟ لا يبدو مثبّتاً في الأرض »

« كلا ، انه ليس مثبتاً ـ لا شيء يحمله ربما سوى بعض الأسلاك ، ولكن انظر إليه بحق المسيح »

ينظر الجميع اللوح من الفولاذ والاسمنت ، نصف حجم الطاولة ، لعله يزن اربعمائة رطلاً

« حسناً ، ها أنا أنظر إليه ، لا يبدو أضخم من بالات القش التي كنت ألقيها على ظهر الجرارات »

« أخشى ، يا صديقي ، أن هذه الاداة الميكانيكية ستزن أكثر من بالات قشك »

« أراهن أنها أثقل بربع طن » يقول فريدريكسون

« انه على حق يا ماك » يقول شيزويك « ستكون ثقيلة جداً »

« يا للجحيم ، هل تريدون اقناعي انني لا أستطيع رفع هذه القذارة الصغيرة ؟ »

« يا صديقي ، لا أذكر أن مريضاً عقلياً واحداً كان قادراً على زحزحة الجبال فضلاً عن سفوحها ودعائم ثباتها وأثقالها »

« حسناً ، تقولون أنني لا أستطيع رفعها ، حسناً ، بحق الله »

ينط ماكمورفي ويبدأ في خلع سترته الخضراء ؛ يكاد وشمه يقفز من عنق قميصه حين تقفز عضلاته فوق ساعده

« من على استعداد للمراهنة بخمس دولارات ؟ لن يقنعني أحد أنني لا

أستطيع فعل شيء ما حتى أجرب بنفسي   خمس دولارات   »

« ماكمورفي ، هذا رهان أحمق أشبه برهانك على الممرضة »

« من يملك خمسة دولارات ويريد فقدانها ؟ إلعب أو إذهب   »

يسارع الرجال إلى وضع مراهناتهم   لقد غلبهم مراراً وتكراراً في البوكر ولعبة القرصان ولا يستطيعون استعادة نقودهم ؛ أما الآن فهم واثقون من الأمر كل الثقة لا أعلم ما ينوي القيام به ؛ رغم ضخامته يحتاج إلى ثلاثة أمثال وزنه لزحزحة اللوح ، وهو يعرف ذلك   يستطيع الاكتفاء بالنظر إليه ليرى أنه لن يتمكن من زحزحته ، فما بالك برفعه   من يقدر على انتزاعه سوى عملاق ؟ ولكن حين يوقع « المبّرحون » إشعارات التنازل عن نقودهم ، يخطو إلى اللوح وينزل بيللي بيبيت عنه ويبصق في راحتيه المتفطرتين يضرب الواحدة بالأخرى ، يمدّ كتفيه

« حسناً ، ابتعدوا عن الطريق   أحياناً حين أمرّن نفسي استخدم كل الهواء المحيط بي مما يسبب اختناق الرجال   ابتعدوا ! قد يحدث إنكسار في الاسمنت وتشظٍ في الفولاذ   خذوا النساء ولأاطفال الى مكان آمن   ابتعدوا   »

« بحق الاله ، قد يفعلها ! » يتمتم شيزويك

« بالتأكيد ، قد يقنع اللوح بالانفصال عن الأرض » يقول فريدريكسون

« أو أنه بالأحرى سيصاب بالفتق » يقول هاردنغ

« هيا يا ماكمورفي ، دع التصرف كالمعتوه ، ليس بمقدور رجل أن يرفع هذا الشيء »

« ابتعدي أيتها المخنّثة ، أنت تستخدمين أوكسيجيني »

يغيّر ماكمورفي موطىء قدميه أكثر من مرة ليحسن الوقوف ؛ يمسح يديه بفخذيه ثانية ، ثم ينحني ويقبض على الرافعتين في كل جانب من اللوح   حين تخور قواه ، يبدأ الرجل في السخرية والتهكم عليه   يرتخي إلى الوراء ويستقيم ويغيّر موضع قدميه ثانية

« تستسلم ؟ » يبتسم فريدركسون

« استعد للجولة الثانية فقط الآن يبدأ الجهد الحقيقي » ويقبض على الرافعتين من جديد

وفجأة يمسك الجميع عن التهكم يبدأ ذراعاه في الارتعاش ، تنتفض العروق وتكاد تمزّق جلده يطبق عينيه بشدة ، تنفرج شفتاه عن أسنانه ينحني رأسه إلى الوراء ، تنشدّ أوتاره كالحبال الملفوفة المتحدرة من عنقه الراعش إلى أسفل ذراعيه ويديه يرتجف جسده برمّته بما يبذل من جهد وهو يحاول رفع شيء يعلم أنه لا يستطيع رفعه ، شيء يعرف الجميع أنه لا يستطيع رفعه

ولكن ، خلال ثانية فحسب ، حين نسمع الاسمنت يرتجّ تحت أقدامنا ، تظن بحق الله ـ أنه سينجح

ثم تنفجر أنفاسه ، ويسقط عاجزاً على الجدار الدم يلطخ الرافعتين حيث تمزقت يداه يلهث برهة وهو مستند إلى الجدار وعيناه مغمضتان لا صوت سوى أنفاسه الجافة الخشنة ؛ يصمت الجميع واجمين

يفتح عينيه ويجيل بصره فينا ينظر إلى الرجال واحداً بعد الآخر ـ ينظر إليّ أيضاً ـ ثم ينقب في جيوبه عن إشعارات التنازل التي ربحها في الأيام القليلة الماضية بالبوكر ينكب على الطاولة ويحاول فرزها ، لكن يداه تخونانه بعد أن تجمدتا في شكل براثن ممزقة حمراء ، ولا يستطيع التحكم بأصابعه

أخيراً يرمي بالكومة كلها على الأرض ـ لعلها أربعون أو خمسون دولاراً من كل فرد يستدير خارجاً من غرفة الحوض يتوقف عند الباب ويلتفت إلى الواقفين جميعاً

« لكنني حاولت مع ذلك » يقول « اللعنة ، أنا واثق من أنني بذلت كل جهدي ، ألم أفعل ؟ »

يخرج تاركاً وراءه تلك القطع المدماة من الورق منثورة على الأرض لكل من يريد فرزها وتوزيعها

طبيب زائر ذو شعر رمادي أشبه ببيت العنكبوت فوق جمجمة صفراء يخاطب الفتيان المقيمين في غرفة المشرفين

اقترب منه وأنا أكنس « أوه ، ما هذا الذي أراه هنا ؟ » ينظر إليّ وكأني نوع من أنواع البق يشير أحد النزلاء إلى أذنيه موحياً أنني أصم ، فيتابع الطبيب الزائر كلامه

ادفع مكنستي لتصبح وجهاً لوجه مع صورة ضخمة أحضرها العلاقات العامة ذات مرة حين كان الضباب كثيفاً فلم أره تمثل الصورة رجلاً يصطاد السمك في مكان ما من الجبال ـ يشبه مناطق الأوكوكوس في بينيفيل ـ والثلوج تغطي القمم الظاهرة وراء اشجار الصنوبر ، جذوع طويلة بيضاء من الحور تصطف على طول النبع ، نبات الحماض ينمو في مروج خضراء بعيدة الرجل يرمي صنارته في بحيرة وراء الصخرة ليس المكان مناسباً للصنارة انه يناسب بيضة واحدة في خطاف سداسي ـ الأفضل أن يرمي الصنارة فوق تلك المنحدرات داخل النبع

هناك طريق فرعي يهبط وسط اشجار الحور ، أحشر مكنستي وسط الطريق واجلس على صخرة وأتطلع عبر الإطار الى ذلك الطبيب الزائر وهو يحادث النزلاء أستطيع رؤيته ، يغمد نقطة ما في راحة يده مستخدماً اصبعه ، لكني لا أستطيع سماع ما يقول بسبب خرير النبع البارد المزبد وهو ينبثق من الصخور أستطيع أن أشم الثلج من الرياح التي تبعثها القمم ، أستطيع رؤيةجحور الخلد تتحدب تحت العشب وطحالب الجاموس انه مكان حقيقي رائع تمدّ فيه ساقيك وترتاح

تنسى ـ اذا جلست وجهدت لاسترجاع ماضيك ـ تنسى كيف كان الحال في المستشفى القديمة ، لا يملكون أماكن نظيفة مثل هذه على الجدران لتثب

اليها   لا يملكون تلفزيوناً أو حوض سباحة أو دجاجاً مرتين في الشهر   لا يملكون شيئاً سوى الجدران والكراسي ، سترات ضيقة تحتاج منك إلى ساعات من الجهد الشاق للخروج منها   لقد تعلموا الكثير منذ ذلك الحين ، ولقد قطعوا شوطاً طويلاً ، يقول العلاقات العامة ذو الوجه السمين   لقد جعلوا الحياة هانئة جداً بالطلاء والزخارف وتجهيزات الحمام المصنوعة من الكروم ، « الرجل الذي يرغب في الفرار من مكان لطيف كهذا » يقول العلاقات العامة ذو الوجه السمين « أقول ، لا بد أنه مخبول بهذا المعنى أو ذاك »

خارج غرفة المشرفين يحك السلطة الزائرة مرفقه ويرتجف كأنه يعاني من البرد وهو يجيب على الاسئلة التي يطرحها الفتيان المقيمون   إنه نحيف ، أعجف ، تتطاير ثيابه فوق عظامه   يقف هناك ، يهرش مرفقه ويرتجف لعله يحسّ بدوره بريح الثلج الباردة ، تلك التي تهب من القمم

أجد صعوبة في الاستقرار على سريري ليلاً   عليّ أن أجثو فوق يدي وركبتيّ متلمساً الرفاسات السفلية حتى أجد كتلة اللبان ملتصقة هناك   لا يشكو أحد من الضباب   أعلم السبب الآن   لأنه على ما هو عليه من سوء تستطيع المكوث فيه والإحساس بالأمان   هذا ما لا يستطيع ماكمورفي فهمه ، أننا نريد الأمان   إنه لا ينفك عن محاولة جرّنا خارج الضباب ، الى الخارج   في العراء   حيث نصبح فريسة عزلاء يسهل اصطيادها

تهبط شحنة من الأجزاء المثلّجة الى الاسفل - قلوب وكلى وأدمغة وما يشبهها   أستطيع سماعها تتكوم في مخازن باردة أسفل قناة اللحم   رجل ما

جالس في غرفة لا أستطيع رؤيتها يتحدث عن رجل في جناح « المضطربين » يقتل نفسه رولر العجوز قطع الجوزتين ونزف حتى الموت ، جالساً على المبولة في المرحاض ، نصف دزينة من الرجال كانوا معه ولم يحسوا به حتى سقط على الأرض ، ميتاً

لا أستطيع أن أفهم ما الذي يجعل الناس نافذي الصبر إلى هذا الحد ؟

كل ما على الرجال أن يفعلوه هو الإنتظار الانتظار

اعرف كيف يشغّلونها ، آلة الضباب كانت لدينا مفرزة بأكملها لتشغيل آلات الضباب في المهابط العائمة كلما قدّرت المخابرات أن قصفاً جـوياً سيحدث ـ أو كان لدى الجنرالات أمر سري يـريدون تنفيـذه ـ بعيداً عن الرؤية ، في تمويه بارع يجعل حتى الجواسيس في القاعدة عاجزين عن رؤيته الأمر بسيط لقد غمروا المنطقة بالضباب

والآلة جهاز بسيط لديك ضاغطات عادية تمتص الماء من صهريج أول والزيت من صهريج ثان ، وتضغطهما معاً ومن الجذع الأسود للآلة تنبعث سحابة بيضاء من الضباب تغطي مهبطاً كاملاً في ظرف تسعين ثانية أول شيء رأيته حين رسونا في أوروبا كان الضباب الذي تصدره تلك الآلات كانت هناك بعض الطائرات الاعتراضية قريبة من ناقلتنا ، وحالما لامست الأرض أدار طاقم الضباب الآلات كنا نستطيع مشاهـدة نوافـذ الناقلة المستديرة ذات الخدوش ونراقب سيارات الجيب تدني الآلات قريباً من الطائرة ونراقب الضباب يغلي مندفعاً حتى يلّف المهبط بأكمله ويلتصق بالنوافذ كالقطن المبلل

تستطيع تلمس طريقك خارج الطائرة باتباع بوق حَكم صغير يطلقـه الملازم ، ويبدو صوته شبيهاً بصياح الأوز وحالما تخرج خارج العش لن ترى

أبعد من ثلاثة أقدام في كل جهة أنت في مأمن من العدو ، لكنك متوحد بصورة مرعبة الأصوات تموت وتضمحل بعد بضعة ياردات ، لست قادراً على سماع أحد من باقي طاقمك ، لا شيء سوى ذلك البوق الصغير يصرّ ويصيح خارج بياض من الزغب الناعم ، كثيف إلى حد أن جسدك قد انحلّ في البياض ، وما خلا القميص البني والأبزيم النحاسي لا تستطيع أن ترى سوى الأبيض ، كأنك انحللت أيضاً من الخصر وإلى الاسفل في الضباب

فجأة يبرز أماكم رجل ضائع مثلما أنت ضائع يتجسد أمام عينيك وجهه أضخم وأوضح من أي وجه بشري رأيته في حياتك عيناك تعملان بمشقة لتبصرا في ذلك الضباب ، وحين يقع شيء ما أمام ناظريك تتضاعف كل تفاصيله عشرات المرات فوق وضوحها المعتاد ، وعليكما أن تتطلعا بكل يقظة من حولكما وحين يظهر أمامك رجل لن ترغب في التطلع إلى وجهه ولن يرغب في التطلع إلى وجهك ، اذ من المؤلم حقاً أن ترى رجلاً بوضوح بالغ كأنك تراه من الداخل لكن واحدكم لا يرغب في تحويل نظره عن صاحبه حتى لا يفقده تماماً لديك الخيار إما أن تجهد نفسك وتنظر إلى الاشياء التي تواجهك داخل الضباب رغم اثارتها للألم والرعب أو أن تسترخي وتفقد نفسك

حين استخدموا آلة الضباب تلك للمرة الأولى في الجناح ، وهي واحدة اشتروها من فائض الجيش وأخفوها داخل البالوعات والمصارف في المكان الجديد قبل انتقالنا اليه ، كنت أواصل التحديق في أي شيء يظهر خارج الضباب بقدر ما أملك من جهد وطول أناة. أتشبث بآثار ما أبصر، تماماً كما اعتدت أن أفعل حين كانوا يغمرون المهبط في أوروبا ، لا أحد يطلق بوماً يدل على الطريق ، لا حبل ليتمسك به المرء ، وكان تثبيت ناظريّ إلى شيء ما هو الوسيلة الوحيدة التي تقيني الضياع كنت أحياناً أضيع رغم ذلك ، أغرق حتى عمق سحيق محاولاً الاختباء ، وكلما فعلت ذلك أبدو وكأنني انقلبت الى المكان ذاته ، عند الباب المعدني في صف البرشامات الاشبه بالعيون التي لا حصر لها ، تماماً كما كانت تلك الغرفة وراء الباب تشدني اليها ، بغض النظر عن محاولتي اليائسة للابتعاد عنها ـ التيار الذي تولده

الشياطين في تلك الغرفة ينتقل في عارضة تعلو الضباب ويشدني إليها كالإنسان الآلي قد أتجول أياماً بطولها داخل الضباب ، وأنا أكثر جزعاً من أن أستطيع رؤية شيء آخر ، وعندها يلوح ذلك الباب فاغراً فاه ليدلني على ضمادات الحشايا الموضوعة في الجانب الآخر لتخمد الأصوات ، الرجال يقفون في صفوف كخلائق الاشباح وسط أسلاك نحاسية لامعة وأنابيب تنبض بالضوء وبصريف الأقواس الكهربائية النارية أحتل مكاني في الصف وانتظر دوري قرب الطاولة الطاولة لها شكل الصليب ، عليها خيالات آلاف الرجال ، رُسُغ شفافة وكواحل تتخبط تحت الحزام الجلدي الذي اكتسى باللون الأخضر من كثرة الاستعمال ، عنق شفاف ورأس يتدحرج تحت رباط فضي يلف الجبهة هناك فتى يضبط العملية قرب الطاولة ، ينظر الى أزراره في الأعلى والى الصف في الأسفل ويشير اليّ بقفاز مطاطي « انتظر ، أعرف ذلك الوغد هناك ، الأفضل أن نقيده كالأرنب أو نطلب مساعدة إضافية أو ما شابه إنه حالة مفزعة يصعب جلدها »

وهكذا اعتدت عدم التوغل عميقاً ، خشية أن أضيع وأنتهي عند دكان الصدمة كنت أمعن التحديق في أي شيء يقع بصري عليه فأتمسك به كما يتعلق المرء في العاصفة الثلجية بسياج السكة الحديدية ، لكنهم واصلوا تكثيف الضباب واتضح لي ، مهما بلغت مشاق المحاولة ، أنني وجدت نفسي مرتين أو ثلاثة كل شهر أمام الباب الذي ينفتح عن الرائحة الحمضية للشرارات وغاز الأوزون ورغم كل ما أستطيع فعله ، كان عسيراً أكثر فأكثر أن أتفادى الضياع

ثم اكتشفت شيئاً لن انتهي عند ذلك الباب لو لبثت جامداً حين يكتسحني الضباب واحتفظت بهدوئي كانت المشكلة أنني سأفتش بنفسي عن ذلك الباب حين يعتورني الفزع وأصرخ رعباً فيتمكنون من اقتناصي وبمعنى ما ، كنت أصرخ لكي يجروني ! كنت أتصور أن أي شيء أفضل بكثير من الضياع الأبدي ، حتى لو كان دكان الصدمة لا أعرف الآن الضياع ليس أمراً سيئاً إلى هذا الحد

كنت أنتظر طوال الصباح أن يغمروننا بالضباب كانوا يكثرون من

العملية في الايام القليلة الماضية أظن شخصياً أنهم يفعلون ذلك من اجل ماكمورفي لم يسيطروا عليه بعد ، وهم يحاولـون اصطيـاده في غفلة عن العين يلاحظون أنه سيصبح معضلة ؛ لقد أثار أكثر من نصف دزينة من المرات حماس شيزويك وهاردنغ وبعض الآخرين إلى نقطة احسست عندها انهم سيصطدمون بأحد الفتيان السود ، ولكن يحدث دائماً ، كلما لاح أن المريض سيتلقى مساعدة ، أن الضباب ينطلق كما ينطلق الآن

سمعت الضواغط تضخ في الجذع منذ دقائق خلت ، وذلك حين بدأ الرجال في اخراج المناضد من الغرفة النهارية استعداداً للاجتماع العلاجي تثاقل الغبش وتجمّع فوق الأرض بكثافة بلّلت أسفل سروالي. أنظف النوافذ في باب المركز الزجاجي وأسمع الممرضة الكبيرة تلتقط سماعة الهاتف وتتصل بالطبيب لتخبره أننا مستعدون لبدء الاجتماع ، وتخبره أن يوفر ساعة من وقته بعد الظهر لإجتماع الاداريين تقول له « السبب ، كما أظن ، انـه حان الوقت لمناقشة موضوع المريض راندل ماكمورفي ومسألة أن يكون في هـذا الجناح أو لا يكون » تنصت برهة وتقول « لا أظن من الحكمة أن ندعه يواصل إحباط المرضى وتثبيط عزائمهم كما فعل في الايام القليلة المنصرمة »

لهذا تقوم بإطلاق الضباب في الجناح قبل الإجتماع إنها لا تفعل ذلك عادة ، لكنها اليوم تنوي القيام بشيء ما ضد ماكمورفي ، ولعلها ستشحنه إلى جناح « المضطربين » أضع خرقة المسح وأذهب إلى مكاني في نهاية صف « المزمنين » ، لا أكاد أرى الرجال وهم يحتلون مقاعدهم والطبيب وهو يدلف من الباب ماسحاً نظارتيه وكأنه يظن أن النظرة المغبشة ناتجة عن عدسات نظارتيه المغبشتين وليست ناتجة عن الضباب

الضباب يتكاثف بصورة لم يسبق لها مثيل من قبل

استطيع سماعهم هناك ، يحاولون افتتاح الاجتماع ، يلغطون ببعض الهزء عن تأتأة بيللي بيبيت وكيف حدثت تصلني الكلمات وكأنها تخترق المياه ، كلمات كثيفة في الحقيقة ، شيء شبيه بالماء يجعلني أطفو الى الأعلى من مقعدي ولا أدري إلى أين سأنتهي بعد برهة من الزمن الطفو يجعلني أشعر بآلام المعدة في المقام الأول ، لا أستطيع أن أرى شيئاً لم يحدث من قبل أن

ازدادت كثافة الضباب إلى الحد الذي يجعلني أطفو هكذا

تعتم الكلمات وتعلو ، تروح وتجيء ، وأنا أطفو في المكان يزداد دوي الكلمات الى حد يجعلني أدرك أنني أجاور الرجل المتكلم ، لكن رؤيتي تظل قاصرة ولا أبصر شيئاً

أتعرف إلى صوت بيللي يتأتى بأسوأ من ذي قبل لأنه مستثار

« فصـ فصـ فصـ فصلت من الكلية لأنـ لأنني تغيبت عن الدوام لم أسـ أسـ أستطع ضمان نسبة الحضـ الحضـ الحضور وكلـ كلـ كلـ كلما قرأ مراقب الدوام جدول التفقد وقال « بيبيت » لم أكن استطيع الإجابة ويفـ يفـ يفترض في المرء أن يقول حا حا حا حا » انه يصارع الكلمات ويحاول قذفها وكأنها عظم عالق في حنجرته أسمعه يبتلع ريقه ويهدأ من جديد ، « يفترض في المرء أن يقول « حاضر سيدي » ولم أستطع أن أقـ أقـ أقولها أبداً »

يتلاشى صوته ؛ ثم يدوي صوت الممرضة الكبيرة القاطع من اليسار « هل بامكانك أن تتذكر يا بيللي المرة الأولى التي عانيت فيها من مصاعب النطق ؟ متى تأتأت للمرة الأولى ، هل تذكر ؟ »

لا أدري ان كان يضحك أم لا « التأتأة الأو أو أولى ؟ التأتأة الأولى ؟ أول كلمة نطقتها تأ تأ تأتأت بها ما ما مـا ماما »

ثم يخبو الحديث بأكمله ؛ لم يسبق أن حدث هذا من قبل لعل بيللي بدوره أخفى نفسه في الضباب لعل الرجال جميعهم تجمعوا واحتشدوا نهائياً في أعماق الضباب

أطفو أنا ومقعدي فوق الجميع أرى للمرة الأولى الآن تتخل الصورة عبر الضباب إلى يميني ، ثم في مواجهة وجهي لثوان قليلة ، لكنها لا تزال بعيدة المنال لقد اعتدت في السابق على عدم مقاربة الاشياء حين تلوح أمامي في الضباب ، أجلس هادئاً وأحاول التمسك بها لكنني فزع هذه المرة ، كما كنت فزعاً في السابق أحاول بكل ما أستطيع من جهد أن التصق

بالكرسي واتشبث به ، لكن لا يوجد ما أتعلق به ، وكل ما استطيع التوصل اليه هو طحن الهواء ، كل ما أستطيع أن أفعله هو مراقبة الكرسي وهو يتوضح ، أوضح مما كان من قبل حتى أنني أتمكن من رؤية بصمات أصابع العامل الذي لمس الطلاء اللامع قبل جفافه ، يلوح لثوان معدودات ثم يخبو ثانية لم أر الاشياء وهي تطفو هكذا من قبل لم أر الضباب كثيفاً إلى هذا الحد من قبل ، كثيفاً بحيث أنني لا أستطيع الوقوف على قدمي لو أردت التجول في المكان يجعلني هذا أرتجف رعباً ، أحس انني هذه المرة سأظل أطوف في مكان ما إلى الابد

أرى « مزمناً » يطفو على مسافة أدنى مني بقليل ، انه الكولونيل ماتيرسون العجوز يقرأ من النص المتغضن على يده الطويلة الصفراء أتملّى فيه مطولاً لأنني أتصور أنها ستكون المرة الأخيرة التي أراه فيها وجهه هائل أضخم مما أستطيع تحمل رؤيته شعره وغضونه ضخمة ، كأنني أراها باحدى الميكروسكوبات. أراه بوضوح كما أرى حياته بأسرها. وجه في الستين من العمر خارج من معسكرات جيش الغرب الجنوبي ، أخاديد حفرتها عجلات عربات الذخيرة المطوقة بالحديد ، ضاربة حتى العظام بآلاف من الأقدام في مسير يومين كاملين

يمسك تلك اليد ويقربها من عينيه وينقب فيها ، يحرك يده الأخرى ويضع خطوطاً تحت الكلمات بإصبع خشبي برّاق أكسبه النيكوتين لون أخمص البندقية صوته عميق وبطيء ومريض ، أرى الكلمات تنثال سوداء وثقيلة وتسيل من شفتيه المشّتين وهو يقرأ

« الآن الراية هي أمـ ـ ر ـ ي ـ كا أمريكا هي البرقوق الخوخ البـ ـ ط ـ يـ ـ خ الأحمر أمريكا هي أقراص الصمغ بذرة اليقطين أمرياك هي التـ ـ لـ ـ فـ ـ ز ـ يون »

هذا صحيح العبارات مكتوبة على تلك اليد الصفراء لا أستطيع أن أقرأها معه

« الآن الصليب هو مكسيـ ـ كو » ، يرفع بصره ليرى ان كنت التفت اليه ، وحين يرى أنني أفعل يبتسم لي ويتابع « مكسيكو

هي ثمر الجوز ثمر البندق الذرة الصفراء مكسيكو هي
قوس القزح قوس القزح خشبي مكسيكو خشبية »

أفهم ما يرمي إليه لقد ظل يردد هذا النوع من الأشيـاء طول ست سنوات منذ أن جاء إلى هنا ، لكني لم أعبأ به ، وتصورت أنه لم يكن أكثر من تمثال ناطق شيء مصنوع من العظام والمفاصل ، يتشدق بهذه التعاريف الفارغة التي لا تعني شيئاً الآن ، أخيراً ، أفهم ما يقوله أحاول التمعن فيه بنظرة واحدة أخيرة لأتذكره وهذا ما يجعلني أجهد نفسي في فهمه يتوقف فجأة ويسترق النظر إليّ ثانية ليتأكد من أنني أتلقى ما يقوله ، وأرغب في الايماء اليه بنعم ، أنا أفهم المكسيك كثمر الجوز ، انها بنيّة اللون وصلبة تتحسسها بعينيك فتبدو كالجوزة ! أنت تعطي معنى مفيداً أيها العجوز ، معنى خاصاً بك لست مجنوناً كما يتصورون نعم أفهمك

لكن الضباب يطبق على حنجرتي فلا أستطيع النطق بحـرف واحد وحين ينثال مبتعداً أراه وهو ينكب على تلك اليد

« الآن الماشية الخضراء هي كنـ ـ د ـ ا كندا هي شجر التنوب حقل القمح التـ ـ قـ ـ و ـ يم »

أجهد لأراه وهو يتلاشى مبتعداً أتوتر بشدة فتؤلمني عيناي واضطر إلى اغلاقهما ، وحين افتحهما من جديد يكون الكولونيل قد مضى اطفو ثانية ، أكثر ضياعاً من ذي قبل

حان الوقت ، أقول لنفسي ذاب إلى الابد

ها هو بيت العجوز الوجه الاشبه بالمصباح الكهربائي ، بعيد بمقدار خمسين ياردة إلى يساري لكني أستطيع رؤ يته بوضوح ، كأنما الضباب لا وجود له اطلاقاً لعله شديد القرب وصغير حقاً ، لست واثقاً يخبرني كم هو متعب ، ومن خلال أقوالـه أرى كامـل حياتـه التي قضاهـا على السكـك الحديدية ، أراه يعمل ليتوصل إلى قراءة الساعة يتصبب منه العرق وهو يحاول وضع الزر المناسب في العروة المناسبة من رداء السكك الحديدية الذي يرتديه ، يفعل المستحيل للتلاؤم مع عمل يسهل على الآخرين أداؤه بحيث

يتاح لهم أن يسترخوا في كرسي مغطى بالورق المقوى ويقرأوا قصص الاشباح والكتب الجنسية ليس الأمر أنه تصور حقاً امكانية تلاؤمه مع العمل ـ فهو قد عرف من البداية أنه لن يسعه ذلك ـ لكن عليه أن يحاول التلاؤم لكي يروا بأم أعينهم فقط وهكذا ظل قادراً على العيش طوال أربعين عاماً ، إن لم يكن في عالم الرجال أنفسهم فعلى هامشه على الاقل

أستطيع أن أرى كل ذلك وأتألم له ، كما تألمت حين رأيت الاشياء في الجيش خلال الحرب كما تألمت حين رأيت ما حدث لبابا وللقبيلة ظننت أنني أستطيع التغلب على رؤية تلك الاشياء وتبديدها لا معنى في ذلك لا شيء يمكن عمله

« أنا متعب » هذا ما يقوله

« أعرف أنك متعب يا بيت ليس بوسعي أن أفعل شيئاً لتخليصك من تعبك تعرف أنني لا أستطيع »

يطفو بيت مبتعداً في طريق الكولونيل ماتيرسون

وها هو بيللي بيبيت يأتي كما أتى بيت انهم يتكدسون جميعاً لألقي عليهم النظرة الأخيرة أعرف أن بيللي لا يمكن أن يكون بعيداً أكثر من قدم واحدة ، لكنه ضئيل للغاية حتى يخيّل إليّ أنه على مبعدة ميل كامل وجهه مكشوف أمامي كوجه المتسول ، يحتاج لأكثر بكثير مما يمكن أن يمنحه أحد يعمل فمه كما يعمل فم الدمية

« تلعثمت حتى حين تقدمت لخطبة فتاة قلت يا حبـ حبيبتي ، هل تتزو تتزو تتزو تتزوجـ حتى انفجرت الفتا ضاحكة »

صوت الممرضة ، لا أستطيع أن أرى من أين يصدر « حدثتني أمك عن تلك الفتاة يا بيللي من الواضح أنها كانت أدنى مستوى منك ماذا تظن أنه أفزعك منها إلى هذا الحد يا بيللي ؟ »

« كنت أحبـ أحبها »

لا أستطيع أن أفعل لك شيئاً ، أنت أيضاً يا بيللي أنت تعرف ذلك

لا أحد منا يستطيع عليك أن أن تفهم أنه حالما يسارع المرء لمساعدة شخص ما يكشف نفسه علانية يتعرض للحصارَ يا بيللي ، ولا بد أن تعرف هذا كما يعرفه الجميع ماذا أفعل ؟ لا أستطيع إيقاف تأتأتك لا أستطيع إزالة ندبة موسى الحلاقة عن معصميك أو حروق السجائر عن يديك لا أستطيع منحك أمّاً جديدة وطالما أن الممرضة تقودك هكذا ، تداعب أنفك وسط ما تعانيه من ضعف حتى يغادرك ما بقي فيك من كرامة فتتكمش متحولاً إلى لا شيء بفعل التحقير ليس بوسعي أن أفعل شيئاً ازاء ذلك أيضاً في آنزيو وجدت صاحباً لي مقيداً إلى شجرة على بعد خمسة عشر قدماً مني ، يصرخ طالباً الماء ، وجهه قرّحته الشمس أرادوا مني أن أحاول مساعدته كانوا سيمزقونني نصفين في المزرعة تلك

تنحّ بوجهك جانباً يا بيللي

لا زالوا يتكدسون أمامي

كل وجه كان يبدو وكأنه يعلّق شارة تشبه تلك التي تقول « أنا ضرير » ، كالتي يعلقها عازفو الأوكورديون حول أعناقهم في كولومبيا الفارق أن هذه الشارات تقول « أنا متعب » أو « أنا خائف » أو « أنا أموت من كبد فاسد » أو « أنا مقيّد الى آلة والناس يواصلون دفعي إلى الامام » أستطيع قراءة كل الشارات، ولا فرق في أن يصغر الحرف أو يتلاشى. بعض الوجوه يتطلّع في بعضها ويمكن لها أن تقرأ ما يقابلها من وجوه لو أرادت ، ولكن ما الفائدة ؟ الوجوه تصعد في الضباب كنثار الورق

أعلو وأعلو أكثر من أي وقت مضى ، هكذا تكون حالة الميت أظن أنها حالة « البليد » ؛ تفقد نفسك في الضباب لا تبدي حراكاً يحشون جسدك حتى يتوقف أخيراً عن تناول الطعام ؛ ثم يحرقونه ليس الأمر سيئاً إلى هذا الحد لا ألم لا أشعر بشيء يفوق لمسة صقيع أتصور أنها ستزول مع الزمن

أرى ضابطي القائد يعلق الملاحظات على لوحة الإعلان ؛ ما يجب أن نرتديه اليوم أرى وزارة الداخلية في الولايات المتحدة تهبط على قبيلتنا بكسّارة حصى ثقيلة

أرى والدي يتقدم من مكمنه ليتقدم بخطى بطيئة حذرة ويحاول التسديد على ظبي ضخم يقفز من بين أشجار الأرز تنطلق طلقة إثر أخرى من السبطانة، تثير الغبار من حول الظبي أخرج من المكمن وراء بابا وأسقط الظبي بالطلقة الثانية عندما يحاول صعود حافة الصخور ابتسم لبابا

لم أعرف أنك تخطيء هدفاً كهذا من قبل يا بابا

انطفأت العيون يا ولدي لا أستطيع تركيز نظري الشعيرة في بندقيتي كانت تهتزّ ككلب يتبرّز عجوة مشمش

أقول لك يا بابا: «صبّار القمر» الذي تشربه سيجعلك تشيخ قبل أوانك

يشرب المرء «صبار القمر» ذاك يشيخ قبل أوانه يا ولدي اذهب لإحضار الظبي قبل أن ينهشه الذباب

حتى هذا لا يحدث الآن هل تلاحظ؟ لا شيء يمكنك القيام به ازاء ما كان يحدث في الماضي.

«إنظر هناك يا صاحبي »

أسمع همسات الفتيان السود

« انظر هناك ذلك العجوز الخرف، المكنسة غرق في سبات عميق »

« هذا أفضل أيها الزعيم المكنسة هذا أفضل نم وابتعد عن المتاعب نعم »

لست عجوزاً بعد الآن أظن أنني تجاوزت تلك المرحلة أنا ماضٍ الى حيث لا يطالني البرد أستطيع الغياب إلى الابد لم أعد أفزع من شيء بعد الآن لا يستطيعون الوصول إلي الكلمات تصلني فقط، هي تتلاشى أيضاً

« حسناً طالما أن بيللي قرر التوقف عن المناقشة هل لدى أحدكم مشكلة أخرى يطرحها أمام الإجتماع؟ »

« في الحقيقة يا سيدتي هناك شيء ما »

ها هو ماكمورفي   إنه بعيد جداً ، لا يزال يحاول تخليص الناس من الضباب   لماذا يتركني داخله ؟

« هل تتذكرين ذلك التصويت الذي أجريناه منذ يوم أو نحوه،، حول موعد التلفزيون ؟ حسناً ، اليوم هو الجمعة ، وخطر لي أن أعيد التصويت ثانية ، لأرى ان كان البعض قد استجمع القليل من الجرأة »

« سيد ماكمورفي ، هدف هذا الإجتماع هو العلاج ، علاج المجموعة ، ولا أظن أن هذه الشكاوى الصغيرة ـ »

« نعم ، نعم   ليذهب العلاج إلى الجحيم ! لقد سمعت ذلك من قبل   قررت أنا وبعض الرجال أن ـ »

« لحظة يا سيد ماكمورفي ، دعني أطرح سؤالاً على المجموعة   هل يشعر أحدكم أن السيد ماكمورفي يحاول فرض رغباته الشخصية على البعض منكم إلى درجة التطرف ؟ كنت أفكر أنكم ستكونون سعداء لو نقل إلى جناح آخر »

لا ينطق أحد بشيء لبرهة قصيرة ، ثم يقول أحدهم « دعيه يصوّت ، لماذا لا تفعلين ؟ لماذا تريدين شحنه إلى « المضطربين » لمجرد أنه يريد اجراء التصويت ؟ ما الخطأ في تغيير المواعيد ؟ »

« حقاً يا سيد سكانلون ؟ أذكر أنك رفضت تناول الطعام ثلاثة أيام حتى سمحنا لك أن تفتح الجهاز في السادسة بدلاً من السادسة والنصف »

« المرء بحاجة لمشاهدة أخبار العالم ، أليس كذلك ؟ يا إلهي ، كان يمكن أن يقصفوا واشنطن ويمرّ أسبوع قبل أن نسمع الخبر »

« حقاً ؟ وما رأيك في إلغاء أخبارك العالمية لتشاهد نفراً من الرجال وهم يلعبون البيسبول ؟ »

« لا نستطيع الجمع بين الاثنين ، هيه ؟ كلا ، لا أظن ، حسناً ، لا يهم   لا أعتقد أنهم سيقصفوننا هذا الاسبوع »

« لندعه يصوّت يا آنسة راتشدت »

« لا بأس لكني أظن أن هذا دليل كافٍ على مدى ما يمارسه من إفساد لبعض المرضى ما الذي تقترحه يا سيد ماكمورفي ؟ »

« اقترح تبديل موعد مشاهدة التلفزيون إلى فترة ما بعد الظهر »

« هل أنت واثق من أن تصويتاً اضافياً سيكفيك ؟ لدينا أشياء أخرى هامة »

« سيكفيني أردت فقط أن أرى من يمتلك الجرأة من بين هذه الطيور ومن يفتقدها »

« هذه الألفاظ بالذات ، يا دكتور سبايفي ، هي التي تجعلني أفكر ان المرضى سيصبحون أكثر رضى في حال نقل السيد ماكمورفي »

« دعيه يصوّت ، لماذا لا تفعلين ؟ »

« بالتأكيد يا سيد شيزويك التصويت سيجري الآن أمام المجموعة ، هل يناسبك رفع الأيدي يا سيد ماكمورفي ، أم أنك ستطالب باقتراع سري »

« أريد رؤية الأيدي أريد رؤية الايدي التي لا ترتفع أيضاً »

« فليرفع يده كل من يؤيد تغيير موعد التلفزيون لفترة ما بعد الظهر »

أستطيع القول أن أول يد ترتفع هي يد ماكمورفي ، لأني أرى الضمادة التي تلّفها بعد محاولته رفع لوح التحكم ثم أراهم فوق مستوى الضباب ، أيد أخرى ترتفع خارج الضباب كأن يد ماكمورفي الحمراء الضخمة تنغمس في الضباب وتفتش عن الرجال وتنتشلهم من أيديهم ، تجرهم وعيونهم مطرقة إلى الفضاء الرحب يد واحدة أولاً ، ثم يد ثانية ، وأخرى على طول صف « المبرحين » يده تنتشلهم من الضباب حتى يقفوا على أقدامهم ، يقف عشرون منهم ، لا يرفعون أيديهم لمشاهدة التلفزيون فقط ، بل يرفعونها ضد الممرضة الكبيرة ، ضد محاولتها إرسال ماكمورفي الى « المضطربين » ، ضد طريقة حديثها معهم ومعاملتها وهزيمتها لهم طوال سنوات

يصمت الجميع أرى كيف تجمدوا في أماكنهم جمياً ، المرضى والاداريون

أيضاً لا تفهم الممرضة ما حدث البارحة ، قبل محاولته رفع ذلك اللوح ، لم يقبل التصويت سوى أربع أو خمس رجال لكنها حين تتحدث لا تدع لصوتها أن يفصح عن دهشتها العميقة

« أرى عشرين فقط يا سيد ماكمورفي »

« عشرين ؟ حسناً ، ولم لا ؟ نحن هنا عشرون » يتهدج صوته حين يدرك ما تعنيه

« انتظري دقيقة واحدة لعينة ، أيتها السيدة ـ »

« أخشى أن التصويت خائب »

« انتظري دقيقة واحدة لعينة ! »

« هناك أربعون مريضاً في الجناح يا سيد ماكمورفي أربعون مريضاً صوّت منهم عشرون لا بد أن تحصل على الأغلبية لتغيير سياسة الجناح أخشى أن التصويت قد أغلق »

تهبط الايدي إلى أسفل الغرفة يعرف الرجال أنهم دحروا يحاولون الإنزلاق إلى أمان الضباب ماكمورفي يقف على قدميه

« حسناً سأكون ابن عاهرة هل تقصدين أنك تنوين ايقاف التصويت ؟ تضعين في الحساب أصوات تلك الطيور القابعة هناك أيضاً ؟ »

« ألم تشرح له حيثيات التصويت يا دكتور ؟ »

« أخشى أن الأغلبية مطلوبة يا ماكمورفي انها على حق إنها على حق »

« الأغلبية يا سيد ماكمورفي انها في صلب سياسة الجناح »

« وأظن أن طريقة تغيير دستور الجناح اللعين هي الأغلبية في التصويت طبعاً ! من بين كل براز الدجاج الذي رأيته في حياتي تفوز هذه المسألة بالجائزة ، وأقسم بالله ! »

« أنا آسفة يا سيد ماكمورفي ، لكنك ستجدها مكتوبة في السياسة لو ارتأيت أن ـ »

« اذن هكذا تظهرين ديمقراطية براز الثور هذه ـ يا لأجراس الجحيم ! »

« تبدو خائباً يا سيد ماكمورفي ألا يبدو خائب الأمل يا دكتور أريدك أن تلاحظ ذلك »

« لا تشوّشي عليّ أيتها السيدة حين يتعرض الرجل للنكاح لا بد أن يعلو صوته بالصراخ ولقد نُكحنا بشكل لعين »

« ربما أيها الطبيب ، بالقياس إلى وضع المريض ، يتعين علينا أن نختم اجتماع اليوم بصورة مبكرة ، »

« انتـظري ! انتـظري دقيقـة ، دعيني أتحـدث إلى بعض هؤلاء الكهول »

« أُقفل التصويت يا سيد ماكمورفي »

« دعيني أتحدث اليهم »

يعبر الغرفة النهارية مقترباً منا يكبر ويكبر ، وجهه يحترق بالدم القاني يقترب من الضباب ويحاول انتشال ركلي إلى السطح لأنه الأصغر سناً

« ماذا عنك يا صاحبي ؟ ألا تريد مشاهدة المسلسل العالمي ؟ البيسبول ؟ ألعاب البيسبول ؟ ارفع يدك هذه فقط ـ »

« ضاااااا جع الزوجة ! »

« حسناً ، إنسى الأمر أنت أيها الشريك ، ما رأيك ؟ ماذا كان اسمك ، إيلليس ؟ ما قولك يا إيلليس في مشاهدة لعبة الكرة في التلفزيون ؟ ارفع يدك فقط »

يدا إيلليس مسمرتان إلى الجدار ؛ لا يمكن حسابها في التصويت

« قلت أن التصويت أقفل يا سيد ماكمورفي أنت تستعرض عضلاتك فقط ؟ »

لا يعيرها أي انتباه يسير على طول صف المزمنين « هيا ، هيا ، صوت واحد منكم أيها الطيور ، ارفعوا يداً واحدة فقط ، أظهروا لها أنكم تستطيعون انتزاع القرار منها »

« أنا متعب » يقول بيت ورأسه يتذبذب

« الليل هو المحيط الباسيفيكي » يقرأ الكولونيل راحة يده لا يزعجه التصويت

« واحد منكم فقط أيها الرجال ، للصراخ بصوت عالٍ ! ها هنا تقفون على الحافة ، ألا ترون ؟ علينا أن نفوز بالتصويت أو ندحر ! ألا يفهم واحد منكم أيتها الدجاجات الصائتة ما أقول بشكل يجعله يعطينا يده ؟ أنت يا غابرييل ؟ كلا ؟ أنت أيها الزعيم ، ماذا عنك ؟ »

يقف في مواجهتي داخل الغبش لماذا لا يدعني أنغمس فيه ؟
« أيها الزعيم ، أنت رهاننا الأخير »

الممرضة الكبيرة تطوي أوراقها ، الممرضات الأخريات يتجمعن من حولها ، نهضت على قدميها أخيراً
« تأجل الاجتماع إذن » أسمعها تقول « واحب أن أرى الاداريين في غرفة الاداريين خلال ساعة. وهكذا ، اذا لم يكن هناك شيء آخر ـ »

فات الأوان على ايقاف يدي الآن حقنها ماكمورفي بشيء ما منذ اليوم الأول لمجيئه ، وضع شيئاً أشبه بالاصفاد فلم تعد تأتمر بأمري لا فائدة الآن ، وأي أحمق يرى ذلك ؛ لو كان الأمر بيدي لما فعلت تكفي طريقة تحديق الممرضة الكبيرة بي لأفهم أنني وقعت في متاعب ، لكنني لا أستطيع إيقافها ربطها ماكمورفي بأسلاك خفية ، رفعها ببطء ليخرجني من الضباب الى الفضاء الرحب حيث أبدو دمية خرافية يحركها أسلاك

كلا هذا ليس صحيحاً **لقد رفعتها بنفسي**

يقفز ماكمورفي ويسحبني وأنا واقف ، يربت على كتفي يصرخ « واحد وعشرون ! بصوت الزعيم نصبح واحداً وعشرين ! وبحق الله اذا كانت هذه ليست أغلبية فسآكل قبعتي ! »

« ايبيبي ! » يهتف شيزويك يتقاطر « المبرحون » الآخرون من حولي

« كان الإجتماع قد أغلق » تقول هي ، لا تزال ابتسامتها مرسومة ، لكن عنقها حين تخطو خارجة من الغرفة النهارية الى مركز الممرضات يحمّر ويتورم كأنه سينفجر أشلاء في أية لحظة

لكنها لا تنفجر ، ليس مباشرة ، ليس قبل حوالي ساعة من الآن

ابتسامتها وراء الزجاج باهتة وغريبة كما لم نرها من قبل تكتفي بالجلوس استطيع رؤية كتفيها يرتفعان وينخفضان أثناء تنفسها

ينظر ماكمورفي إلى الساعة ويقول أن موعد اللعبة قد حان انه هناك ، قرب بركة الشرب ومعه بعض « المبرحين » يلّمع رقعة اللعب فوق ركبتيه أكنس خارج حجرة المماسح للمرة العاشرة هذا اليوم سكانلون وهاردنغ ينقلان عجلة التلميع من مكان إلى آخر في القاعة ، يلمعان اسطوانة التشغيل على رقم ثمانية الجديد يكرر ماكمورفي أن وقت اللعبة قد حان ثم يقف ، يترك الرقعة حيث تكومت لا يتوقف أحد عن عمله يعبر ماكمورفي النافذة التي ترقبه من خلالها ويبتسم لها وكأنه يعرف الآن أنه دحرها حين يلتفت برأسه إلى الوراء ويغمز لها تصدر عن رأسها تلك الرجفة الجانبية الصغيرة

يواصل الجميع ما يفعلونه ، لكنهم جميعاً يراقبون بزوايا أعينهم حين يسحب أريكته في مواجهة جهاز التلفزيون ثم يفتح الجهاز ويجلس ترتعش على الشاشة صورة ببغاء في حفل بسيبول يغني أغان حادة ينهض ماكمورفي ويرفع الصوت ليخمد الموسيقى المنبعثة من المكبر في السقف ، يسحب كرسياً آخراً أمامه ويجلس واضعاً قدميه على الكرسي ويتكيء إلى الوراء ويشعل سيجارة يهرش بطنه ويتثاءب

« هوووي ! كل ما أحتاجه الآن علبة بيرة وسجقاً أحمر

نستطيع أن نرى وجه الممرضة وهو يزداد احمراراً وفمها يعمل اذ تحدجه بنظراتها ، تنظر من حولها قليلاً وترى أن الجميع يراقبون ما ستفعل - حتى الفتيان السود والممرضات الصغيرات يسترقون النظر اليها ، المقيمون أخذوا يتوافدون لحضور الاجتماع وهم يراقبون تطبق فمها تتطلع الى ماكمورفي وتنتظر حتى تنتهي الأغنية الحادة ، ثم تقف وتذهب إلى الباب الفولاذي حيث لوحات التحكم ، تضغط مفتاحاً فتختفي الصورة في جهاز التلفزيون وتعود الشاشة إلى لونها الرمادي لا شيء على الشاشة سوى بؤرة صغيرة من الضوء تنعكس مباشرة على مكان جلوس ماكمورفي

لا تستفزه تلك العين أبداً ، وللحقيقة ، لا يظهر أبداً أنه لاحظ غياب الصورة يضع سيجارة بين أسنانه ويرخي قبعته إلى الأمام لتضم شعره الأحمر حتى يكاد يضطر لإلقاء رأسه إلى الوراء ليرى من أسفل الواقية

ويجلس هكذا ، عاقداً يديه فوق رأسه وقدماه ممدودتان على الكرسي ، سيجارة مشتعلة تبرز من تحت واقية القبعة ـ يشاهد التلفزيون

تظل الممرضة واقفة بلا حراك قدر استطاعتها ؛ ثم تأتي إلى باب مركز الممرضات وتطلب منه أن يساعد الرجال في الترتيب والتنظيف يتجاهلها

« قلت يا سيد ماكمورفي انه يفترض بك أن تعمل خلال هذه الساعات » لصوتها عواء جاف أشبه بصوت منشار كهربائي في شجرة صنوبر «سيد ماكمورفي ، أنا احذرك ! »

توقف الجميع عمّا كانوا يفعلونه تتطلع من حولها ، ثم تخطو خطوة واحدة صوب ماكمورفي

« أنت تدرك أنك مودع أنت تحت سلطتي الشرعية سلطة الادارة » ، تلوّح بقبضتها ، كل تلك الأظافر البرتقالية الحمراء تحترق في راحتها ، « تحت السلطة الشرعية والسيطرة ـ »

يغلق هاردنغ عجلة التلميع ويتركها في القاعة ، ثم يمضي ويسحب كرسياً إلى جوار ماكمورفي ويجلس ، يشعل سيجارة أيضاً

« سيد هاردنغ ! عد إلى واجباتك المقرّرة ! »
أفكر كيف أن صوتها يتردد كما يقرع المسمار ، تغمرني الفكرة بالمرح فأكاد أضحك

« سيد هارد ـ نغ ! »
ثم يمضي شيزويك ويأخذ كرسياً ، ثم بيللي بيبيت يذهب ، ثم سكانلون ، ثم فريدريكسون وسيفليت ، ثم نضع جميعنا مماسحنا ومكانسنا وخرق التنظيف ونذهب لنسحب الكراسي لأنفسنا

« أنتم أيها الرجال ـ أوقفوا ذلك ـ توقفوا ! »
ونجلس هناك جميعنا في صفوف مواجهة لشاشة التلفزيون البيضاء ،

نراقب الشاشة الرمادية وكأننا نرى لعبة البيسبول واضحة كضوء النهار ، وهي وراءنا تصرخ وتولول

ولو دخل انسان ما وألقى نظرة الرجال يشاهدون شاشة بيضاء ، امرأة في الخمسين تولول وتصرخ على ظهورهم وتتحدث عن الانضباط والنـظام والعقوبات لتبادر إليه على الفور أن الشلّة بأكملها شلّة من المجانين ومختلي العقول

الجزء الثاني

على حافة مستوى رؤيتي أستطيع أن أرى ذلك الوجه المصقول في مركز الممرضات ، ينوس فوق المكتب ، يلتف ويتلوى في محاولة اتخاذ شكل ما باقي الرجال يراقبون أيضاً ، رغم أنهم يتصنعون العكس يحاولون التصرف وكأن عيونهم لا تزال مثبتة على شيء واحد هو شاشة التلفزيون المواجهة لنا لكن الواضح لكل من يرى أنهم يسترقون النظر إلى الممرضة الكبيرة هناك وراء زجاجها ، كما أفعل أنا بالضبط للمرة الأولى تقبع هي وراء الجانب الآخر من الزجاج تتذوق طعم الاحساس بأنها مراقبة من الآخرين حين تتمنى أكثر من أي شيء آخر لو أنها أسدلت ستارة خضراء بينها وبين العيون التي لا تستطيع الفرار منها

لم يعد هناك ضباب في أي مكان

أتذكر فجأة أنه كان علي أن أنظف غرفة الاداريين أنظف غرفة الاداريين دائماً قبل أن يعقدوا اجتماعهم فعلت هذا منذ سنوات ، لكنني الآن أخشى كل الخشية مغادرة مقعدي يسمح لي الادرايون بتنظيف الغرفة لأنهم يعتقدون أنني لا أسمع ، أما الآن بعد أن شاهدوني أرفع يدي حين سألني ماكمورفي ذلك ، هل سيعرفون أنني أسمع ؟ هل سيتخيلون أنني كنت أسمع طوال هذه السنوات ؛ إصغي إلى الاسرار التي تسرّ في آذانهم فقط ؟ ماذا سيفعلون بي في غرفة الاداريين تلك لو عرفوا ؟

لا يزالون ينتظرون مني أن أدخلها، سيعرفون بالتأكيد أنني أسمع، انهم أمامي يفكرون ألم أقل لك ؟ انه لا يقوم بالتنظيف ، ألا يثبت ذلك كل شيء ؟ واضح ما يجب أن نفعله

أدرك الآن بجلاء قوة المخاطر التي سمحنا لانفسنا بالسقوط فيها حين سمحنا لماكمورفي بانتشالنا من غياهب الضباب

هناك-فتى أسود يستند إلى الجدار قرب الباب ، ذراعاه معقودتان ، لسانه القرنفلي يتمدد ويتقلص فوق شفتيه ، يراقبنا ونحن جلوس أمام جهاز التلفزيون تدور عيناه في محجريهما ما يفعل لسانه وتتوقفان عليّ ، أرى حاجبيه الجلديين يرتفعان قليلاً يراقبني زمناً طويلاً وأعرف أنه يحار في طريقة تصرّفي خلال اجتماع المجموعة ثم يغادر الجدار مترنحاً فقد انقطع عنه التيار الكهربائي ، ويذهب إلى مقصورة المكانس ويحضر دلولاً من الماء الممزوج بالصابون وممسحة ، يرفع يدي إلى الأعلى ويعلق السطل بها ، كما تعلق غلاية فوق مشبك مدفأة حديدية

« لنذهب يا زعيم » ، يقول « لنذهب كي تعود إلى واجباتك »

لا أتحرك يهتز الدلو في ذراعي لا أبدي حركة تظهر أنني سمعته يحاول خداعي، يسألني ثانية ان أنهض، وحين لا أتحرك يرفع عيناه الى السقف ويتنهد ، يمدّ يده ويقبض على ياقة قميصي ، يشدني قليلاً ، وأنهض يعلق الممسحة بجيبي ويشير الى القاعة حيث تقع غرفة الاداريين ، وأذهب

وبينما أصعد إلى القاعة حاملاً السطل ، فجأة ، تمرّ بي الممرضة الكبيرة بكل هدوئها القديم وجبروتها وتدلف من الباب يحيرني الأمر

وحين أقف وحيداً خارج الغرفة ألاحظ كم يبدو المشهد واضحاً ، انحسر الضباب عن المكان الجو بارد قليلاً في البقعة التي مرت منها الممرضة ، والأنابيب البيضاء في السقف تنشر ضوءاً جامداً أشبه بقضبان الجليد اللامع ، بأسلاك الثلاجة الممدودة فوق بياض ناصع تمتد القضبان حتى باب غرفة الاداريين في نهاية القاعة حيث دلفت الممرضة قبل قليل ، باب فولاذي ثقيل كباب « دكان الصدمة » في المبنى الأول ، باستثناء الأرقام المطبوعة على هذا الباب والثقب الزجاجي المرتفع الذي يتيح للاداريين معرفة الطارق وحين اقترب أرى ضوءاً ينسل من الثقب الزجاجي ، ضوءاً أخضر ومرّاً كالصفراء يوشك اجتماع الادرايين أن يبدأ في الداخل ، وهذا سبب انبعاث

الموشور الأخضر ، سوف يكتسح الجدران والنوافذ حين ينقضي نصف الاجتماع ، وعلي أن أمسحه وأعصره في دلوي ، ثم استخدم الماء فيما بعد لتنظيف رشح المغاسل

تنظيف غرفة الاداريين عمل سيء على الدوام ، الأشياء التي علي تنظيفها في هذه الاجتماعات لا يصدقها عقل أشياء رهيبة ، سموم مشتقة من مسام الجلد مباشرة وبالذات ، أحماض تعبق في المكان وتكفي لإذابة الكائن البشري حدث أن رأيتهم يفعلونها

في بعض هذه الإجتماعات تتوتر أرجل الطاولة وتلتوي الكراسي وتتلاطم الجدران حتى تكاد الغرفة تقطر عرقاً حضرت اجتماعات يواصلون فيها الكلام عن مريض ما فترة طويلة حتى يتجسد المريض أمامهم بلحمه ودمه ، عارياً على طاولة القهوة أمامهم ، جاهزاً لكل فكرة شيطانية تراودهم يلوثونه ويمثلون به بصورة فظيعة قبل أن ينفضوا أيديهم عنه

لهذا يحضرونني إلى اجتماعات الاداريين ، فهم يخلفون مكاناً حافلاً بالفوضى ولا بد أن ينظفه شخص ما ؛ ولأن غرفة الاداريين لا تفتح إلا خلال اجتماعهم فينبغي أن يكون الشخص المطلوب غير قادر على فهم ما يدور من حوله‘ هذا أنا قمت بهذه المهمة زمناً طويلاً أمسح وأنفض وأكنس غرفة الاداريين هذه والأخرى الخشبية العتيقة الى جوارها ، ولا يمنحني الاداريون أدنى التفاتة ، أدور في مهمتي اليومية ، يبصرون من خلالي وكأني غير موجود ، الشيء الوحيد الذي يفتقدونه اذا لم أظهر هو الممسحة الاسفنجية ودلو الماء يدوران في أرجاء المكان

أقرع الباب هذه المرة وتطل الممرضة الكبيرة من الثقب فتنظر الي بامعان ، وتستغرق زمناً أطول من أي مرة لكي تفتح الباب وتدعني أدخل عاد وجهها إلى شكله السابق ، قوياً كما كان أبداً ـ هكذا بدا لي يبدأ الجميع في اضافة السكر الى القهوة وتوزيع السجائر ، كما يفعلون عادة قبل كل اجتماع ، لكن التوتر يسود الجو أعتقد للوهلة الأولى أن وجودي هو السبب ، ثم ألاحظ أن الممرضة الكبيرة لم تجلس بعد ، لم تكترث حتى بالحصول لنفسها على فنجان من القهوة

تدعني أنزلق من الباب وتنغرز عيناها في وجهي ثانية وأنا أمرّ بها ، تغلق الباب حين أصبح في الداخل وتقفله ، وتستدير إلى الوراء لتحدق بي فترة أخرى أعرف أن الشكوك تساورها ظننت أنها من الضيق بفعل الطريقة التي هزمها بها ماكموري بحيث لن تعبأ بوجودي إطلاقاً ، لكنها لا تبدو مهتزة على الاطلاق ذهنها صافٍ الآن وهي تتساءل كيف سمع السيد برومدن ذلك « المبرح » ماكموري حين طلب منه أن يرفع يده في التصويت ؟ تتساءل كيف توصل إلى إلقاء مكنسته والذهاب للجلوس مع « المبرحين » أمام جهاز التلفزيون لم يفعل ذلك من بين « المزمنين » سواه تتساءل إذا كان قد حان الوقت لاجراء مراجعة ما على زعيمنا السيد برومدن

أدير ظهري لها وأغرق في الزاوية حاملاً ممسحتي أرفع الممسحة فوق رأسي ليرى كل من في الغرفة كم هي متشبعة باللزوجة الخضراء وكم أعمل بجدّ ونشاط ، ثم أنحني إلى الأسفل وأواصل المسح بشدة ، ولكن كلما عملت بقوة كلما شقّ علي أن أتصنع اللامبالاة بمن تقف وراء ظهري ، لا أزال أشعر بها واقفة عند الباب تثقب جمجمتي حتى تكاد تشطرها نصفين بعد دقيقة ، حتى أكاد أستسلم وأصرخ وأفضي بكل شيء إذا لم تزح تلك العينين عني

ثم تدرك أنها كانت عرضة للنظرات أكثر مما ينبغي ، من بقية الاداريين كما كانت تتساءل عني كذلك كانوا يتساءلون عنها وعما تخططه لمواجهة أحمر الشعر ذاك الجالس في الغرفة النهارية يراقبونها ليروا ما ستقوله عنه ، وهم لا يعيرون أدنى التفاتة لهندي أبله يسير على يديه وركبتيه في الزاوية ولأنهم ينتظرونها تتوقف عن الإمعان في جمجمتي وتذهب لسكب فنجان من القهوة وتجلس ، تضيف السكر بعناية فائقة فلا تلامس الملعقة جانب الفنجان

الطبيب هو الذي يبدأ الاجتماع « والآن أيها الاخوة هل نستطيع استعراض الأمور ؟ »

يوزع ابتساماته على المقيمين الذين يحتسون القهوة ، يحاول تجنب النظر الى الممرضة الكبيرة إنما تجلس صامتة فتجعله عصبياً ونزقاً يلتقط نظارتيه ويضعها لينظر الى ساعته ويربصها خلال حديثه

« مرت خمسة عشرة دقيقة حان الوقت لنبدأ والآن الآنسة راتشدت ، كما يعلم بعضكم ، قد دعت إلى هذا الاجتماع اتصلت بي قبل اجتماع العلاج الجماعي وقالت أن ماكمورفي في رأيها يكاد يصبح مصدر ازعاج في الجناح ولأنها قادرة على الحدس ، وبالنظر إلى ما حدث منذ دقائق ، ما رأيكم ؟ »

يتوقف عن ربط ساعته حين تمتلىء تماماً وأية دورة أخرى ستحطمها ، ويجلس هناك مبتسماً في تطلّعه اليها يقرع ظاهر يده بأصابعه الصغيرة الوردية؛ منتظراً عند هذه النقطة يكون على الممرضة عادة أن تباشر الكلام ، لكنها لا تقول شيئاً

« بعد هذا اليوم » يواصل الطبيب كلامه « لا يستطيع أحد القول أن هذا الرجل الذي نتعامل معه رجل سوي كلا ، بالتأكيد كلا انه عنصر مزعج ، هذا واضح وهكذا ، آه ، كما أرى ، موضوعنا في هذه المناقشة هو أن نقرر أي اجراء سنتخذه في معاملته أظن أن الممرضة دعت إلى هذا الاجتماع- وأرجو يا آنسة راتشدت أن تصححي ما أقول إذا أخطأت ، للتباحث في الموقف وتوحيد رأي الاداريين في ما يجب عمله بصدد السيد ماكمورفي »

يتطلع اليها برجاء ، لكنها تظل صامتة رفعت رأسها إلى السقف ، تبحث عن الأوساخ كعادتها ، لا يبدو أنها سمعت شيئاً مما كان يقول

يتحول الطبيب الى صف المقيمين عبر الغرفة، كلهم عقدوا أرجلهم ووضعوا فناجين القهوة على ركبهم « أنتم أيها الزملاء » يقول الطبيب «أدرك انه لم يتح لكم الوقت الكافي للتوصل الى تشخيص ملائم لحالة المريض ، الا أن فرصة مراقبته عملياً قد أتيحت لكم ماذا تعتقدون ؟ »

يجعل السؤال رؤوسهم تقفز إلى الأعلى أسقط في يدهم لقد وضعهم بذكاء على البساط هم أيضاً نظروا اليه ثم إلى الممرضة الكبيرة لقد استعادت كامل سيطرتها بطريقة ما خلال دقائق معدودات تكتفي بالجلوس ، بالابتسام والتحديق في السقف دون النطق بشيء ، استعادت

السيطرة من جديد وجعلت الجميع يحسون أنها القوة التي يجب التوجه اليها هنا إذا لم يشارك هؤلاء الفتيان في اللعبة فسيكملون تدريبهم في المستشفى الجراحي ببورتلاند بدأوا في التململ كالطبيب

« انه يمارس تأثيراً مزعجاً ، هذا صحيح تماماً » يشارك الفتى في اللعبة آمناً

يحتسون القهوة ويفكرون في الأمر ، ثم يقول الآخر « ويمكن له أن يشكل خطراً فعلياً »

« هذا صحيح ، هذا صحيح » يقول الطبيب

ويظن الفتى أنه ربما وجد المفتاح فيتابع « خطر محدق في الحقيقة » ، يتقدم بكرسيه ويقول « ضعوا في اعتباركم أن هذا الرجل مارس أفعالاً عنيفة بهدف واحد وحيد هو الفرار من مزرعة العمل إلى رخاء العيش في المستشفى »

« أفعال عنيفة عن سابق تصميم »

ويتمتم الفتى الثالث « بالطبع ، طبيعة هذا التصمميم بالذات قد تشير إلى أنه ببساطة فتى مراوغ ذكي ، وليس مختلاً عقلياً على الإطلاق »

يتلفت من حوله ليرى تأثير كلامه عليها ويرى أنها لا زالت صامتة ولا تبدي حراكاً لكن بقية الاداريين يرمقونه بنظراتهم وكأنه قال شيئاً مبتذلاً مرعباً يلاحظ كيف أنه تجاوز الحدود فيحاول تخفيف الأمر وتحويله إلى نكتة فيضحك ويضيف « انه مثل من يخرج عن الجوقة فيسمع طبلاً آخر » ، لكن الوقت قد فات يتطلع اليه المقيم الأول بعد أن يضع فنجان قهوته ويخرج غليوناً ضخماً كقبضة اليد

« بصراحة يا ألفين » يقول مخاطباً الفتى الثالث ، « لقد خيبت آمالي حتى لو لم يقرأ المرء حالته فكل ما يحتاجه هو الانتباه إلى سلوكه في الجناح ليدرك كم يبدو الاقتراح عبثياً هذا الرجل ليس مريضاً بشدة فقط ، لكني أظن أنه عدواني في قرارة نفسه أظن أن هذا ما كانت تشك فيه الآنسة راتشدت حين دعت إلى هذا الاجتماع ألا تعترف بوجود نوع خبيث من المرضى العقليين؟ لم أسمع بحالة أكثر وضوحاً هذا الرجل نابليون ،

جنكيز خان ، أتيلا الهوني »

يشارك أحدهم أيضاً يتذكر تعليقات الممرضة عن المضطربين « روبرت على حق يا ألفين ألم تشهد طريقة الرجل في التصرف اليوم ؟ حين فشلت احدى مخططاته قفز عن كرسيه ، أصبح على حافة العنف ، أخبرنا يا دكتور سبايفي ، ماذا يقول ملفه عن العنف ؟ »

« هناك عدم اكتراث ملحوظ بالنظام والسلطة » يقول الطبيب

« بالضبط تظهر حالته يا ألفين أنه بين الحين والآخر قد أظهر العدوانية تجاه ممثلي السلطة ـ في المدرسة ، في الخدمة ، في السجن ! وأظن أن سلوكه بعد ضجة التصويت هذا اليوم هو إشارة حاسمة على ما يمكن أن نتوقعه منه في المستقبل » يتوقف وينفخ في غليونه ، يعيده إلى فمه ، يشعل عود ثقاب ويمتص اللهب بصوت مرتفع حين يشتعل ، يختلس نظرة عبر سحابة الدخان الصفراء الى الممرضة الكبيرة ؛ لا بد أنه يعتبر صمتها علامة إقرار فهو يواصل كلامه أكثر حماساً وثقة من قبل

« توقف لحظة وتخيل يا ألفين » يقول وكلماته عابقة بالدخان « تخيل ما يمكن أن يحدث لأحدنا حين يختلي في العلاج الفردي مع ماكمورفي تخيل أنك تقترب من نقطة خاصة فاصلة ومؤلمة ويقرر هو أنه اكتفى منك ـ كيف سيعبر عن موقفه ؟ سيقول اللعنة على فضولك الأحمق الشبيه بفضول الجراء وتخبره أن لا يلجأ الى العدوانية فيقول اذهب إلى الجحيم ! وتخبره أن يلزم الهدوء بصوت فيه لهجة الأمر بالطبع، فينكشف أمامك، بشعره الأحمر وعياره الايرلندي المثقل من الاختلال العقلي ، عبر طاولة المقابلة بالضبط ، هل أنت ، هل أي منا بالمقابل ، مستعد للتعامل مع السيد ماكمورفي حين تبدأ تلك اللحظات ؟ »

يعيد غليونه الضخم إلى زاوية فمه ويفرش يديه على ركبيته وينتظر يفكر الجميع بذراعي ماكمورفي الضخمتين ويديه المغطاة بالندوب وكيف يخرج عنقه من قميصه كالإسفين الصديء شحب وجه المقيم المسمّى الفين أمام الفكرة ، كأن ذلك الغليون الأصفر الذي يدخنه صاحبه قد لطخ وجهه

« أنت تظن إذن أن من الحكمة نقله الى جناح « المضطربين»؟ » يسأل الطبيب

« أظن أنها خطوة وقائية في الحد الأدنى » يجيب الفتى ذو الغليون مغلقاً عينيه
« أخشى أن علي سحب اقتراحي واتفق مع روبرت » يخاطبهم الفين ، « لحماية نفسي على الأقل »

يضحكون جميعاً إنهم أكثر ارتياحاً الآن لقد وصلوا بالتأكيد إلى المخطط الذي تريده هي يحتسون جرعة من القهوة عند هذه النقطة باستثناء الفتى ذي الغليون ، فلديه عمل دائم يؤديه للشيء الذي ينطفيء باستمرار ، اشعال الثقاب والامتصاص والنفخ وفرقعة الشفتين يدخن الغليون أخيراً بشكل يرضيه ، فيقول بقليل من الفخر « نعم ، جناح « المضطربين » لصديقنا ماكمورفي الأحمر ، أخشى أن هذا ما يجب عمله ، هل تعرفون ما كنت أفكر به ، وأنا أراقبه في الأيام القليلة الماضية ؟ »

« ردّ فعل لانفصام الشخصية ؟ » يسأل ألفين
يهز الغليون رأسه بالنفي
« شذوذ جنسي كامن مع بنية ردّ الفعل ؟ » يقول الثالث
يهز الغليون رأسه بالنفي ثانية ، ثم يغلق عينيه « كلا » يقول وهو يوزع ابتسامته من حوله ، « نزوع أوديبي سلبي »
يهنئونه جميعاً

«نعم ، أظن أن هناك الكثير مما يشير إلى هذه الحالة » يقول ، « ومهما كان التشخيص النهائي ، يجب أن نضع شيئاً واحداً في اعتبارنا لسنا نتعامل مع رجل عادي »

« أنت ـ أنت مخطيء كل الخطأ يا سيد غيديون »

انها الممرضة الكبيرة

ترتجف كل الرؤوس متجهة نحوها ، رأسي أيضاً ، لكني أنتبه لنفسي وأغيّر الحركة لكي توحي بأني أحاول حك بقعة اكتشفتها لتوي على الجدار فوق

رأسي   الجميع مضطربون أشد الاضطراب الآن   تصوروا أنهم كانوا يقترحون ما تريده بالضبط ، ما كانت تخطط لاقتراحه بنفسها في الاجتماع   اعتقدت هذا أنا أيضاً ، رأيتها ترسل رجلاً بنصف حجم ماكمورفي إلى « المضطربين » لا لسبب سوى أنهم بصقوا على شخص ما ذات مرة ؛ لديها الآن هذا الرجل الثور الذي سخر منها ومن كل الإدرايين ، ورجل قبلت بأي شيء سوى بقاءه في الجناح في فترة سابقة على الاجتماع ، وهي ترفض الآن ؟

« كلا ، لا أوافق   لا أوافق بتاتاً »   تبتسم لهم جميعاً ، « لا أوافق على ارساله إلى « المضطربين » ، فهذا يعني بكل بساطة طريقة مريحة لدفع معضلتنا إلى جناح آخر ، ولا أوافق على أنه كان غير عادي ـ نوع من المختلين الفائقين »

تنتظر قليلاً ، لكن أحداً لا يعترض   تحتسي جرعة من قهوتها للمرة الأولى ؛ يهبط الفنجان من فمها متشحاً باللون البرتقالي   أحدق بحافة الفنجان رغماً عني ، لا يمكن أن تكون شفتاها مطليتين بهذا اللون من أحمر الشفاه   لا بد أن يكون اللون الذي على حافة الفنجان ناتجاً عن الحرارة ، لمسة شفتيها جعلته يحترق دون لهب

« سأعترف أن أول فكرة راودتني حين بدأت أفهم السيد ماكمورفي بما يمتلكه من قوة ازعاج كانت إرساله دون تردد إلى « المضطربين »   لكني أعتقد الآن أن الوقت قد فات على ذلك   هل يزيل نقله ما لحق بجناحنا من أذى ؟ لا أعتقد ، ليس بعد ما حدث اليوم   أظن أنه لو أرسل إلى « المضطربين » لتحوّل إلى ما يريده المرضى بالضبط   سيصبح شهيراً بالنسبة لهم   لن تتاح لهم الفرصة ليروا ان هذا الرجل ليس ـ كما عبرت عنه يا سيد غيديون ـ شخصاً غير عادي »

تحتسي جرعة أخرى وتضع الفنجان على الطاولة ، فيصدر صوتاً كمطرقة القاضي ، يتسمّر المقيمون الثلاثة في أماكنهم

« كلا   انه ليس شخصاً غير عادي   إنه رجل ببساطة ولا شيء فوق ذلك ، خاضع لكل مخاوف وجبن وخشية أقرانه من البشر   لنعطه فرصة أيام قليلة أخرى ، لدي شعور قوي أنه سيثبت هذه الحقيقة ، لنا ولباقي المرضى   لو أبقيناه في الجناح أنا أكيدة أن صلفه سيخمد وينهار عصيانه وكبرياؤ ه ، سيتحول إلى لا شيء و ـ » تبتسم ، تعرف شيئاً لا يعرفه غيرها « ـ أن بطلنا أحمر الشعر سيتورط في شيء لن يقرّه المرضى فيفقد احترامهم   متبجّح ومدعٍ   من النوع الذي يتسلق صندوق

صابون ويصرخ طالباً المزيد ، كما رأينا جميعاً كيف تصرف السيد شيزويك ، ثم تراجع حين أحس أن خطراً حقيقياً يحدق به شخصياً »

« المريض ماكمورفي » يقول الفتى ذو الغليون وهو يحس أنه يتحتم عليه محاولة الدفاع عن موقفه ويحفظ ماء وجهه قليلاً « لا يخطر لي .أنه جبان »

أتوقع أن تستشيط غضباً ، لكنها لا تفعل ، ترمقه بنظرة تقول لننتظر ونرى وتقول « لم أقل بالتحديد أنه جبان يا سيد غيديون ؛ أوه ، كلا إنه ببساطة شديد الولع بنمط معين كمريض عقلي هو مفرط الولع بالسيد راندل باتريك ماكموري إلى درجة تعريضه لخطر غير ضروري » ترشق الفتى بابتسامة تجعله يطفيء غليونه تماماً هذه المرة ، « لو انتظرنا ردحاً قليلاً من الزمن فإن بطلنا سوف ـ ماذا يعبر زملاؤك عنها ؟ ـ يفقد شكيمته ؟ صحيح ؟ »

« ولكن قد تستغرق العملية أسابيع ، » يجفل الفتى

« لدينا الاسابيع » تقول هي تقف وشعور الرضى عن نفسها يتعاظم حتى أقصى مدى رأيته منذ أن أزعجها ماكمورفي قبل أسبوع « لدينا الاسابيع ، أو الشهور ، أو حتى السنوات اذا احتاج الأمر لا تنسوا أن السيد ماكمورفي تحت الإيداع الفترة التي يقضيها في المستشفى نقررها نحن كلياً والآن إذا لم يكن هناك شيء آخر »

طريقة تصرف الممرضة الكبيرة بهذا الوثوق في اجتماع الاداريين ، أقلقتني بعض الوقت ، لكنها لم تشكل فارقاً عند ماكمورفي طوال عطلة نهاية الاسبوع ، والاسبوع التالي ، ظل قاسياً عليها وعلى فتيانها السود كما كان من قبل ، وكان المرضى يرغبون في ذلك لقد فاز برهانه ؛ أخرج الممرضة عن طورها كما وعد أن يفعل ، وجمع مراهناته ، لكن ذلك لم يمنعه من المضي بعيداً والتصرف كما اعتاد دائماً ، الصراخ والضجيج في القاعة ، الضحك على الفتيان السود ، الهزء من

الادارة ، وبلغ حدّ الصعود إلى الممرضة الكبيرة ذات يوم ليسألها إن كانت تجد غضاضة في إخبارنا عن المسافة الدقيقة الفاصلة بين ثدييها الضخمين العامرين اللذين حاولت ما بوسعها لإخفائهما دون جدوى مرت من جانبه متجاهلة إياه تماماً ، كما اختارت أن تتجاهل الطبيعة التي حبتها هاتين الشارتين الضخمتين الدالتين على الانوثة ، كأنها كانت أرقى منه ، ارقى من الجنس ، أرقى من كل ما هو ضعيف ويمت إلى الجسد بصلة

حين علقت أوامر العمل على لوحة الاعلان قرأ أنها أسندت اليه مهمة تنظيف المراحيض ذهب اليها في مكتبها ، قرع على نافذتها وشكرها شخصياً على هذا الشرف ، وأخبرها أنه سيتذكرها كلما مسح مبولة أخبرته أن لا ضرورة لتذكرها ويكفي أن يؤدي عمله ، شكراً لك

كل ما فعله هو إدخال فرشاة في البالوعة مرة أو مرتين ، ثم يصب مادة الكوروكس ويعتبر العمل منتهياً ، « أصبحت هذه نظيفة تماماً » يقول للفتى الاسود الذي يتابع سرعته في العمل ؛ « لعلها ليست نظيفة بما يكفي لبعض الناس ، لكنني أخطط شخصياً للتبوّل فيها وليس لتناول الغداء منها » وحين استجابت الممرضة لتوسلات الفتى الاسود وجاءت لتتفقد بنفسها ما أنجزه ماكمورفي من عمل ، أحضرت مرآة صغيرة ووضعتها تحت حافة البالوعة وتجولت تهز رأسها وتقول « هذا مشين ، هذا مشين » كلما مرت ببالوعة حشر ماكمورفي نفسه بقربها وهو يردد « كلا ، هذه **بالوعة** مرحاض ، **بالوعة** مرحاض »

لكنها لم تفقد أعصابها أيضاً أو تتصرف بما يفيد أنها قد تفقدها مرة واحدة برفقته في كل المراحيض ، مستخدمة ذلك الضغط البطيء ، الصبور المفزع الذي تستخدمه مع الجميع ؛ وهو يقف هناك أمامها ، يبدو كطفل صغير يتعرض لتوبيخ حاد ، مرخياً رأسه ، واضعاً مقدم حذائه فوق الآخر ، قائلاً « أحاول وأحاول يا سيدتي ، لكني أخشى أن لا تؤهلني درجاتي لاحتلال منصب زعيم اللاعبين »

كتب مرة قصاصة من الورق ، كتابة غريبة أشبه بأبجدية أجنبية ، وألصقها فوق احدى بالوعات المراحيض ؛ وحين جاءت الى المرحاض تحمل مرآتها اطلقت شهقة صغيرة أمام ما قرأته منعكساً فأسقطت المرآة في المرحاض لكنها لم تفقد أعصابها احتفظ وجه الدمية ذاك وابتسامتها بالثقة نهضت من بالوعة المرحاض

ورمقته بنظرة تسلخ الطلاء وأخبرته أن مهمته تنظيف المغاسل لا زيادتها قذارة

وبالفعل ، لم يعد تنظيف الجناح يجري بصورة سليمة حينما يأزف موعد التنظيف بعد الظهر، يأزف معه موعد ألعاب البيسبول في التلفزيون، فيذهب الجميع ليحتلوا أماكنهم أمام الجهاز ولا يغادرونه حتى موعد العشاء لم يشكل قطع التيار من مركز الممرضات أي فارق ، وما كنا لنشاهد سوى الشاشة الرمادية الفارغة ، لكن ماكمورفي كان يسلينا طوال ساعات ، يجلس ليزوي كل أصناف الحكايات ، كيف فاز مرة بألف دولار في شهر واحد لقيادته شاحنة تحمل فريقاً من الغجر ثم خسر آخر بنس منه مع كندي في مباراة رمي الفؤوس ، أو كيف ورط هو وصاحبه شخصاً لامتطاء ثور هندي في مضمار سباق في آلباني، في «ركوبه وهو معصوب العينين ، » لا أقصد الثور ، بل أن الرجل كان يضع العصابة أخبرا الرجل أن العصابة تقيه الدوخة حين يأخذ الثور في الدوران ؛ ثم ، حين ربطا عينيه بالعصابة فلم يعد يستطيع الرؤية ، أطلق فوق ظهر الثور روى ماكمورفي هذه الحكاية مرتين وصفق فخذه بقبعته وضحك كلما تذكرها « معصوب العينين يمتطي الثور ، بالعكس وأكون ابن نغل اذا لم يتجاوز الحاجز ويفوز بالسباق كنت أنا الثاني ، ولو تعرقل قيد إنملة لنلت المرتبة الأولى ومعها محفظة محترمة من النقود أقسم في المرة القادمة اذا خدعت أبلهاً مثله فسأعصب الثور اللعين بدلاً عنه »

يحك ساقه ويلقي برأسه إلى الوراء ويضحك ويصخب ويضحك ، يغرز إبهامه في اضلاع كل من يجاوره ، محاولاً دفعه إلى الضحك أيضاً

حدث مرات عديدة ذلك الاسبوع انني سمعت تلك الضحكة الرنانة ، راقبته يهرش بطنه ويتمطى ويتثاءب ويتكيء إلى الوراء ليغمز كل من يمازحه ، كل الأشياء في نظره طبيعية كالتنفس ، حتى أكاد أقلع عن الخوف والقلق من الممرضة الكبيرة و « الائتلاف » من ورائها كدت أفكر أنه كان قوياً ومنسجماً مع نفسه بحيث أنه لن يتورط كما كانت الممرضة تأمل وأظن ، لعله حقاً نوع غير عادي إنه كما هو ، باختصار لعل هذا هو ما يمنحه القوة الكافية ان يكون كما هو لم ينل منه « الائتلاف » طوال هذه الأعوام ؛ ما الذي يجعل تلك الممرضة تظن أنها ستكون قادرة على انجاز الأمر في بضعة أسابيع ؟ لن يدعهم ، يعجنونه ويخبزونه كما يشاؤ ون

فيما بعد ، وأنا أتخفى عن الفتيان السود ، كنت أتملى وجهي في المرآة وأفكر كيف يتوصل المرء إلى أن يصبح كما هو عليه ها هو وجهي في المرآة ، وجه أسود وصلب ذو وجنتين ضخمتين مرتفعتين ، كان الخدان تحتهما قد غرقا بالبلطة ، العينان سوداوان قاسيتان وبائستان ، مثل عيني بابا أو أعين الهنود القساة البائسين الذين تراهم في التلفزيون وأفكر لست أنا هذا الوجه ، هذا ليس وجهي لم يكن وجهي حتى حين كنت أحاول تقلد هذا الوجه لم أكن هكذا حينئذ ؛ كنت تماماً كما أبدو الآن ، كما أراد الناس لا يبدو أنني كنت نفسي أبداً ، كيف يكون ماكمورفي هو نفسه ؟

كنت أراه مختلفاً عما جاء عليه للمرة الأولى ، كنت أرى فيه أكثر من اليدين الضخمتين والحروق والندوب والابتسامة الواسعة كنت أراه يقدم على اشياء لا تتلاءم مع وجهه أو يديه ، أشياء مثل رسم صورة زيتية بألوان حقيقية على ورقة فارغة دون خطوط أو أرقام تدله على المكان الذي يجب أن يرسم فيه ، أو كتابة الرسائل لشخص ما بيدٍ جميلة طليقة. كيف يستطيع رجل يشبهه أن يرسم الصور أو يكتب الرسائل للناس أو يبدو كئيباً وقلقاً كما رأيته مرة حين تلقى رداً على رسالته ؟ كان هذا هو نوع الاشياء التي ينتظرها المرء من بيللي بيبيت أو هاردنغ يمتلك هاردنغ يدين تشبهان أيدي من يمارس الرسم رغم أنه لم يسبق له ذلك ؛ كان هاردنغ يشبك يديه ويجبرهما على العمل في نشر الألواح الخشبية لبيوت الكلاب ، لم يكن ماكمورفي هكذا ، لم يدع لما يشبه ذاته أن يسوق حياته في هذا المساء أو ذاك ، أكثر مما عليه أن يدع « الائتلاف » يطحنه ليناسب ما أرادوا أن يسقطوه فيه

رأيت العديد من الأشياء بصورة مختلفة تصورت أن آلة الضباب تحطمت داخل الجدران حين شغلوها حتى أقصى مدى لها في اجتماع الجمعة الماضي وهم الآن غير قادرين على نشر الضباب والغاز وتشويه الشكل الذي تبدو عليه الأشياء للمرة الأولى منذ سنوات كنت أرى الناس مجردين عن ذلك الخيط الأسود الذي يقترن بهم عادة ، وفي ليلة ما كنت قادراً على رؤ ية ما وراء النوافذ

كما شرحت ، في معظم الليالي قبل أن يقيدونني إلى السرير يعطوني هذه الحبة ، تخدرني وتأخذني خارج المكان ولو حدث خطأ في عبوة الجرعة وأفقت من النوم ، تكون عيناي زائغتين ويطفح المهجع بالدخان ، الأسلاك في الجدران محملة بأقصى

طاقتها ، تلتوي وتتشظى موتاً وكراهية في الهواء ـ أكثر مما أستطيع احتماله فأدفن رأسي تحت الوسادة وأحاول العودة إلى النوم كلما اختلست النظر إلى الخارج تفوح رائحة الشعر المحترق ويتناهى صوت يشبه وضع اللحم الحي على مشواة ساخنة

هذه الليلة بالذات ، عدة ليال بعد الاجتماع المشهود ، استيقظت وكان المهجع صامتاً ونظيفاً ؛ ما خلا غطيط الرجال وتجوال المشرفين وهم يقتادون « البليدين » العجوزين ، ساد صمت الأموات كانت هناك نافذة مرفوعة ، وكان الهواء في المهجع نقياً له نكهة جعلتني أشعر بنوع من النعاس والسكر ، أعطاني الدافع المفاجىء للنهوض من الفراش والقيام بشيء ما

أنزلقت من بين الأغطية وسرت حافي القدمين فوق الأرضية الباردة وسط الاسرّة تحسّست الأرضية بقدمي وفكرت كم من المرات ، آلاف المرات ، قمت بتكنيس هذه الأرضية دون الاحساس بها على الاطلاق ذلك التكنيس لاح كالحلم بالنسبة لي ، كأني لم أصدق أن السنوات التي قضيتها وأنا أقوم به مرات حقاً ذلك اللنيوليوم البارد كان موجوداً فعلاً تحت قدمي في تلك اللحظة بالذات

سرت بين الرجال المتكومين في صفوف طويلة أشبه بالضفاف الثلجية، محاذراً ألا أرتطم بأحدهم ، حتى وصلت إلى الجدار ذي النوافذ مررت بالنوافد ، توقفت عند واحدة منها كانت الستارة تتلاطم فيها الى الداخل والخارج بفعل النسيم ، ثم ضغطت جبهتي على الشبكة كانت الاسلاك باردة وحادة ، فمرغت رأسي بها يميناً ويساراً لأتحسّسها بخدي وتنشقت النسيم ، انه شلال ينحدر ، كما ظننت ، أستطيع أن أشم رائحة العلف تلك الأشبه برائحة دبس السكر الحامض ، تقرع الفضاء كالجرس ، رائحة شخص ما كان يحرق أوراق البلوط ، تركها تتجمّر خلال الليل لأنها كانت طرية جداً

انه الشلال ينحدر ، ظللت أفكر ، الشلال ينحدر ، وكأن الشيء الأكثر غرابة يحدث الآن الشلال حلّ الربيع قليلاً في الخارج ، ثم الصيف ، والآن ها هو الشلال ، انها فكرة غريبة حقاً

أدركت أن عيني ما زالتا مغمضتين أغلقتها حين ألصقت وجهي بالشبكة ، كأني أخشى النظر إلى الخارج ، علي أن أفتحها الآن نظرت من النافذة ورأيت

للمرة الأولى كيف كانت المستشفى نائية في الريف كان القمر منخفضاً في السماء ينحني على المراعي ؛ وجهه مكتسٍ بالخدوش والندوب بعد أن تمزق قبل قليل عند خروجه من دغل البلوط الشائك وأشجار المادرون التي تحتل الأفق النجوم القريبة ، من القمر كانت شاحبة ، تصبح أكثر بريقاً وشجاعة كلما ابتعدت عن دائرة الضوء التي يسيطر عليها القمر العملاق أعادت إلى ذهني الشيء ذاته تماماً الذي لاحظته حين خرجت للصيد مع بابا والأخوالِ والتفـفت بين الأغطية التي حاكتها الجدّة ، مستلقياً لبعض الوقت بعيداً عن الرجال الذين جلسوا في حلقة صامتة حول النار بعد أن تجرعوا ربع ابريق من شراب الصبار أراقب قمر مرج أوريغون الكبير يلحق العار بكل النجوم في الأعلى ظللت يقظاً أراقب ، لأرى ان كان القمر سيعتم أو تزداد النجوم بريقاً ، حتى بدأ الندى يتساقط فوق خدي واضطررت لسحب الغطاء فوق وجهي

تحرك شيء ما على الأرض أسفل نافذتي ، يلقي بظل عنكبوتي ثقيل على العشب وهو يختفي عن الأنظار وراء سياج الشجيرات حين جرى إلى حيث أستطيع تبيّنه بصورة أوضح ، رأيت أنه كلب ، كلب فتي هجين فرّ من البيت ليتعرف على الاشياء عند حلول الظلام كان يتشمم جحور السنجاب لا بقصد مواصلة الحفر وتعقب احداها بل ليعرف فقط كيف تكون عليه في هذا الهزيع من الليل يحشر خيشومه في الجحر ، يقفز في الفضاء ويمضي هازّاً ذيله ، ثم يندفع إلى جحر آخر ، سطع القمر من حوله فوق العشب الرطب ، وحين ركض خلّف وراءه آثار أقدام كبقع الطلاء الأسود المرشوقة على ضياء الشاش الأزرق حين أخذ يخبّ من جحر يثير انتباهه إلى آخر، انشغل كثيراً بما سيجري ـ القمر في الأعلى ، الليل، النسيم العابق بروائح برّية تسكر كلبا فتيا فاستلقى على ظهره وتمرّغ انفلت واستدار كالسمكة ، ظهره محني وبطنه مرتفع ، وحين وقف على قدميه ونفض جسده انبعث منه رذاذ بدا في ضوء القمر كالفضة السائلة

تشمّم كل الجحور ثانية وبسرعة ليحسن تخزين الرائحة ، ثم تجمد في مكانه وقد رفع احدى مخالبه ولوى رأسه ، وأصغى أصغيت بدوري ، لكني لم أسمع شيئاً ما عدا تلاطم ستارة النافذة أصغيت زمناً طويلاً ، ثم تناهى الي ، من مسافة نائية ، لغطاً صاخباً ضاحكاً ، خافتاً ودافئاً الأوز البري الكندي يرحل

جنوباً نحو الشتاء ، تذكرت الصيد والزحف على البطن في محاولة اصطياد أوزة ، وهو ما لم يحدث أبداً

حاولت النظر باتجاه نظر الكلب لأرى ان كان باستطاعتي العثور على السرب ، لكن الظلام كان دامساً اقترب صياح الأوز أكثر فأكثر حتى لاح أنها تطير فوق المهجع بالضبط ، فوق رأسي بالضبط . ثم عبر السرب القمر ، عقد أسود متقاطر يشكل رقم ٧ بالأوزة القائدة كانت الأوزة القائدة في مركز الحلقة ، أضخم من الأخريات ، صليب أسود ينفتح وينغلق ، ثم تقود سربها متخفية عن الأنظار في أعماق السماء

أصخت السمع اليها وهي تتلاشى حتى أصبح كل ما أسمعه هو صدى ذاكرتي عن الصوت لا يزال الكلب قادراً على سماعها فترة طويلة بعدي لا يزال واقفاً ومخلبه مرفوع ، لم يتحرك أو ينبح حين مرّت من فوقه وحين لم يعد بمقدوره سماعها ، عاود القفز والجري في الاتجاه الذي أخذته ، نحو الطريق العام ، يرتفع بثبات واتزان كأنه على موعد كتمت أنفاسي وكنت أسمع ارتطام مخالبه الضخمة على العشب وهو يركض ؛ ثم سمعت سيارة تنهب الطريق العام ؛ سطعت الأضواء على المرتفع وامتدت على الطريق العام راقبت الكلب والسيارة يحتلان البقعة ذاتها من الرصيف

كاد الكلب يقترب من سياج السكة على حافة الاساس حين أحسست بمن يتسلل ورائي شخصان ، لم أستدر ، لكني عرفت أنهما الفتى الاسود المسمى غينيفر والممرضة ذات الوحمة والصليب ، سمعت طنين الخوف في رأسي أمسك الفتى الاسود بذراعي وأدارني نحوه وقال « سأناله »

« الجو رطب عند النافذة يا سيد برومدن » تخبرني الممرضة ، « ألا تظن أن من الأجدى لنا أن نصعد إلى سريرنا الدافيء ؟ »

« إنه لا يسمع » يخبرها الفتى الاسود « سآخذه إنه يفك وثاقه ويتسكع هنا وهناك »

أتحرك ، وتتنحى هي إلى الوراء وتقول للفتى الأسود « افعل ذلك من فضلك » ، تعبث بتلك السلسلة المنحدرة من عنقها في البيت تغلق على نفسها

باب الحمام بعيداً عن الأنظار ، تتعرّى وتستخدم ذلك الصليب في إزالة وحك الوحمة التي تبدأ من زاوية فمها وتهبط في خط رفيع عبر كتفيها وثدييها تحكّ وتحك وتصلي للعذراء لتقصف الرعد ، لكن الوحمة تبقى تنظر في المرآة ، ترى أنها أكثر سواداً من ذي قبل تتناول أخيراً فرشاة ذات أسنان تستخدم في إزالة طلاء السفن ، تكشط الوحمة ، ترتدي قميص النوم فوق البقعة المتأصلة النازّة ، وتزحف إلى سريرها

لكنها تظل مغمورة كلياً في تلك المادة حين تكون نائمة تزحف البقعة نحو حنجرتها وداخل فمها ، تسيل من زاوية فمها كبصقة وردية لتهبط الى حنجرتها ، فوق جسدها في الصباح تلاحظ كم هي ملطخة من جديد وتظن أنها لا يمكن أن تنبثق من داخلها ، كيف يحدث ذلك ؟ فتاة كاثوليكية صالحة مثلها ؟ ويخيل اليها أن الأمر راجع إلى عملها مساء بين مجموعة كاملة من أمثالي أنه خطؤنا ، وستعاقبنا على ذلك لو كان هذا آخر ما ستفعله أتمنى لو يستيقظ ماكمورفي ويساعدني

« قيّده في السرير يا سيد غيبيفر ، وسأجهز العلاج »

في اجتماعات المجموعة أثيرت أوجاع كانت دفينة لزمن طويل بعد أن تغيرت أسبابها الآن وقد عاضدهم ماكمورفي بدأ الرجال يتذمرون من كل شيء يحدث في الجناح ولا يروق لهم

« لماذا تقفل المهاجع في عطلة نهاية الاسبوع ؟ » يسأل شيزويك أو غيره « الا يستطيع الرجل منا أن يستمتع بعطلته كما يشاء ؟ »

« حقاً يا آنسة راتشدت » سيقول ماكمورفي ، « لماذا ؟ »

« لو تركت المهاجع مفتوحة فستعودون الى النوم بعد الإفطار هكذا علمتنا التجربة »

« هل هذه خطيئة فادحة ؟ أقصد ، يتأخر الناس العاديون في النوم أثناء العطل »

« أما أنتم فتقيمون في المستشفى » ستقول وكأنها تكرر العبارة للمرة المائة ، « بسبب عجزكم الثابت عن التلاؤم مع المجتمع ، يعتقد الطبيب وأنا أيضاً أن كل دقيقة تقضونها في صحبة الآخرين ، مع بعض الاستثناءات ، لها أساس علاجي ، بينما كل دقيقة تقضونها منعزلين في الرقاد لا تزيد الا من انفصالكم »

« هل هذا هو السبب في أن ثمانية على الأقل من الرجال يجتمعون معاً قبل التوجه إلى حالات العلاج المختلفة ؟ »

« هذا صحيح »

« هل تقصدين أن الانفراد حالة مَرَضية ؟ »

« لم أقل ذلك »

« تقصدين أنني لو ذهبت الى المراحيض لارتاح يجب أن أصطحب معي سبعة من الأصحاب على الأقل لوقاية نفسي من الرقاد على الحوض ؟ »

وقبل أن تجيب على هذا السؤال يقفز شيزويك على قدميه ويهتف بها « نعم ، هل هذا ما تقصدينه ؟ » ويردد « مبرحون » آخرون يجلسون في الاجتماع « نعم ، نعم ، أهذا ما تقصدينه ؟ » تنتظر حتى يسود الهدوء من جديد ثم تقول بأناة « لو هدأتم قليلاً أيها الرجال وتصرفتم كمجموعة راشدين في المناقشة بدلاً من التصرف كالأطفال في الملعب ، فسنسأل الطبيب إذا كان مفيداً ادخال تعديل على سياسة الجناح خلال هذا الوقت ، ما رأيك يا دكتور ؟ »

عرف الجميع نوع الاجابة التي سيدلي بها الطبيب ، وقبل أن يجد الفرصة للاجابة يجنح شيزويك مرة ثانية « ثم ماذا عن سجائرنا ، يا آنسة راتشدت ؟ »

« نعم ، ماذا عنها ؟ » يقول المبرحون متذمرين

يلتفت ماكمورفي إلى الطبيب ويطرح عليه السؤال مباشرة قبل أن تجد الممرضة فرصة للإجابة ، « نعم يا حكيم ، ماذا عن سجائرنا ؟ كيف يحق لها أن تبقي السجائر ، **سجائرنا** ، مكومة أمام مكتبها وكأنها ملكها ، تلقي الينا بعلبة بين الحين والآخر وكلما عنّ لها ذلك ؟ لا أعبأ كثيراً بفكرة ابتياع رزمة من علب الدخان ليخبرني أحدهم متى أستطيع التدخين »

مطّ الطبيب رأسه لينظر إلى الممرضة من خلال نظارته لم يسمع أنها تحجز السجائر الزائدة لايقاف المقامرة ، « ماذا عن فكرة السجائر هذه يا آنسة راتشدت ؟ .لا أعتقد أنني سمعت ـ »

وأحسّ يا دكتور أن ثلاث أو أربع وأحياناً خمس علب من السجائر يومياً أكثر بكثير مما يستطيع الرجل تدخينه هذا ما حدث في الاسبوع الماضي ، بعد مجيء السيد ماكمورفي ـ ولهذا فكرت أن من الأفضل حجز علب السجائر الكبيرة التي يبتاعها الرجال من متجر المستشفى ومنح الواحد منهم علبة واحدة يومياً »

اقترب ماكمورفي من شيزويك وهمس له « اسمع ، أخبرها أن القرار التالي سيتعلق بالرحلات الى المرحاض ، ليس على المرء أن يصطحب معه زملاؤه السبعة الى المغاسل فحسب بل يحظر عليه أيضاً أن يقوم بأكثر من رحلتين يومياً ، وهذا ينسجم مع كلامها »

واتكأ من جديد على كرسيه وضحك بشدة فمنع الجميع من التفوّه بشيء خلال دقيقة كاملة

كان ماكمورفي يوجه الطعنات ، الحادة في كل مسألة يثيرها ، وأظنه كان يعجب قليلاً لعدم تعرضه لضغط كبير من الاداريين أيضاً ، يعجب خصوصاً لأن الممرضة الكبيرة لم يعد لديها ما تقوله أكثر مما قالته « ظننت الحدأة الشمطاء أشرس من ذلك » قال لهاردنغ بعد احدى الاجتماعات ، « لعل ما تحتاجه لتعديل سلوكها هو المواجهة الصلبة » ثم يضيف ، « كل ما في الأمر أنها تتصرف وكأنها تحتفظ بكافة الأوراق في كمّ ردائها الأبيض »

واصل التشديد عليها ومضايقتها حتى يوم الأربعاء من الاسبوع التالي . ثم عرف لماذا كانت الممرضة الكبيرة واثقة من سلطتها الأربعاء هو اليوم الذي يقتادون فيه من تراكمت على جسده الأوساخ الى بركة السباحة ، سواء شئنا أم أبينا حين كان الضباب يجتاح الجناح كنت اختفي فيه لأتهرب من الذهاب البحيرة تفزعني دائماً ؛ أخشى دائماً أن أدخلها فتغمرني وأغرق ، تمتصني البالوعة وتقذفني الى البحر كنت شجاعاً تماماً قرب المياه حين كنت صبياً في كولومبيا ؛ كنت أسير على السقالات المنصوبة فوق الشلالات مع باقي الرجال ، أدفع بمنكبي المياه الخضراء والبيضاء والغبش الذي يصنع قوس قزح ولكن حين رأيت أن بابا بدأ يفزع من بعض

الأشياء فزعت بدوري ، الى درجة أنني لم أعد احتمل الخوض في بركة ضحلة

خرجت من غرفة تبديل الثياب وكانت البحيرة طافحة ومائجة وغاصة برجال عراة ، كانت تعلو وتطفح فوق السطح المرتفع كما يحدث في برك الاستحمام الداخلية ساقنا الفتيان السود اليها كانت درجة حرارة الماء لطيفة لكنني لم أكن راغباً في الخروج من الجانب (يسير الفتيان السود حاملين عصي البامبو الطويلة ليدفعوا بها من يحاول التمسك بالخوف) فبقيت ملاصقاً لماكمورفي لأنهم غير قادرين على دفعه إلى الأعماق اذا لم يرد الذهاب

كان يتحدث الى المنقذ ، وكنت واقفاً على بعد بضعة أقدام لا بد أن ماكمورفي يقف في غور لأنه كان يدفع المياه بينما وقفت أنا على القاع كان المنقذ واقفاً على حافة البركة ، لديه صفّارة ويرتدي قميصاً مفتوح العنق ورقم جناحه مثبت عليه كان يحادث ماكمورفي عن الفارق بين المستشفى والسجن ، وكان ماكمورفي يخبره بأفضلية المستشفى لم يكن المنقذ واثقاً من ذلك سمعته يخبر ماكمورفي أن الإيداع ليس كالحكم القضائي ، « يحكم عليك بالسجن ، ولديك تاريخ محدد تعرف أنك ستخرج بعده »

توقف ماكمورفي عن طرطشة الماء سبح ببطء الى حافة البركة وتوقف هناك ، ناظراً إلى المنقذ « فاذا كنت مودعاً ؟ » سأل بعد وقفة تأمّل

هزّ المنقذ كتفيه وارتجفت عضلاته وعلّق الصفارة حول عنقه كان لاعب كرة متقاعد ، جبهته حفرتها الأخاديد ، وفي كل مرة يخرج فيها من جناحه تصدر عن عينيه شارة معينة فتتصافق شفتاه وتبصق الأرقام ، ثم يجثو على أربع في وضعية متطاولة ويرتخي حين تمرّ ممرضة عابرة ، يدفع كتفه في خاصرتها في الوقت المناسب ليدع الظهير يسدّد الكرة من الفتحة التي صنعها خلفه لهذا السبب أرسلوه إلى « المضطربين » ، وكلما فرغ من عمله في الانقاذ يعود الى ممارسة الشيء ذاته

هز كتفيه ثانية أمام سؤال ماكمورفي ، ثم تطلع من حوله ليتأكد أن أحداً من الفتيان السود ليس قريباً منه ، وركع على حافة البركة رفع ذراعه لينظر اليها ماكمورفي

« هل ترى هذه الجبيرة ؟ »

نظر ماكمورفي إلى الذراع الضخمة ، « ليست هناك جبيرة على الذراع يا صاحبي »

ابتسم المنقذ « الجبيرة موجودة ، لأني تعرضت لكسر في المباراة الأخيرة مع فريق براون لا أستطيع ارتداء السترة الا بعد ازالة الجبيرة المعرضة في جناحي تخبرني أنها تعالج الذراع سرّاً نعم يا رجل ، تقول أنني لو عنيت بذراعي ولم أجهدها أو أثقل عليها فستزيل الجبيرة وأستطيع العودة إلى نادي الكرة »

يسند مفاصله على الأرض المبللة ، ويتخذ وضعية ثلاثية ليختبر تماثل الذراع للشفاء راقبه ماكمورفي برهة ثم سأله منذ متى ينتظر اعلامه بشفاء ذراعه وامكانية مغادرته للمستشفى نهض المنقذ ببطء ومسح ذراعه بدا ساخطاً لسؤال ماكمورفي وكأنه اتهمه بالتذلل ولعق الجراح « أنا مودع » قال « « كنت سأغادر المستشفى قبل الآن لو عاد لي الأمر لعلي لا أستطيع العزف على وتر بهذا الذراع ، لكني أستطيع طيّ منشفة ، ألا أستطيع ؟ استطيع أن أفعل شيئاً ما تلك الممرضة في الجناح تقنع الطبيب دائماً أنني غير قابل للخروج بعد ليس حتى لطيّ منشفة في غرفة تبديل الملابس المتداعية غير مستعد بعد »

استدار ومضى إلى منصة الانقاذ ، تسلق سلم المنصة كالغوريلا المقيدة واختلس النظر الينا ، شفته السفلى بارزة إلى الامام « اعتقلت بسبب السكر وإثارة الشغب ، وأنا هنا منذ ثمانية أعوام وثمانية أشهر »

تراجع ماكمورفي عن حافة البركة ودفع الماء ثم فكر ملياً ؛ حكم عليه بالسجن ستة أشهر في مزرعة العمل قضى منها شهرين وبقيت أربعة ، وأربعة شهور هي أقصى فترة يرغب فيها باحتجاز نفسه في أي مكان ، كاد أن ينقضي عليه شهر في مستشفى المجانين هذه ، وربما كانت أفضل من مزرعة العمل ، بأسرّتها الوثيرة وعصير الافطار ، ولكن ليس إلى درجة الرغبة في البقاء سنة أو اثنتين

سبح الى السلم في الطرف الضحل من البركة وجلس هناك طوال الفترة المتبقية ، يعبث بخصلة الصوف النابتة في عنقه ويقطب حاجبيه أراقبه يجلس هناك مقطباً ، أتذكر ما قالته الممرضة الكبيرة في الاجتماع ، ويعتورني الخوف

حين يطلقون لنا الصفارة كي نغادر البركة ، ونتزاحم نحو غرفة التبديل ،

نختلط بجناح آخر قادم بدوره إلى بركة السباحة   في حمام الدوش الذي يجب أن نمرّ فيه كان الفتى من الجناح الآخر   كان ذو رأس قرنفلي اسفنجي وردفين وساقين منتفختين ، كما يمسك رجل ببالون مليء بالماء ويضغطه من المنتصف   كان مستلقياً على جنبه في الحمام ، يصدر ضجيجاً كالفقمة النائمة   شيزويك وهاردنغ ساعداه في النهوض ، ثم استلقى على ظهره في الحمام   تذبذب رأسه في الصابون المطهّر راقبهما ماكمورفي وهما ينتشلانه عن الأرض

« ما هذا بحق الشيطان ؟ »

« انه مريض باستسقاء الدماغ » قال هاردنغ   « شكل من أشكال اضطراب الأوعية اللمفاوية كما أعتقد   رأسه مليء بالسائل ، ساعدنا لننهض »

مددا الصبي واستلقى على ظهره في الحمام من جديد   كانت النظرة المرتسمة على وجهه يائسة وعاجزة وصبورة وعنيدة ، كان فمه يزبد وينفخ الفقاعات في الماء الأبيض كالحليب   كرّر هاردنغ على ماكمورفي أن يساعدهم ، وانكب هو وشيزويك على الصبي   دفعهما ماكمورفي واتجه نحو الدوش مارّاً بالصبي

« دعوه مستلقياً » قال وهو يغسل نفسه تحت الدوش « لعله لا يحب المياه العميقة »

أرى الخوف قادماً   في اليوم التالي أدهش الجميع باستيقاظه مبكراً وتلميعه المغاسل حتى تألقت ، ثم مضى لتنظيف أرضية القاعة حين طلب منه الفتى الاسود أن يفعل ، أدهش الجميع باستثناء الممرضة الكبيرة   لم يظهر عليها أن هناك ما يدهش حقاً

وفي ذلك الإجتماع بعد الظهر حين أعلن شيزويك أن الجميع راغبون في نوع من التساهل بخصوص السجائر ، قائلاً « لست طفلاً صغيراً لتخفي عني السجائر كالأطعمة ! يجب اتخاذ اجراء ما ، أليس هذا صحيحاً يا ماك ؟ » وانتظر أن يعاضده ماكمورفي ، لكنه لم يتلق سوى الصمت

حدّق في زاوية جلوس ماكمورفي   فعل الجميع مثله   كان ماكمورفي هناك ، يعبث بشدّة الورق التي تختفي وتظهر بين يديه   لم يرفع عينيه   ساد صمت مفزع ، ما خلا الارتطام الدبق للورق وانفاس شيزويك الثقيلة

« أريد اجراء ما ! » هتف شيزويك ثانية « لست طفلاً صغيراً ! » ضرب الأرض بمعدته ونظر من حوله كأنه ضائع وسينفجر باكياً في أية دقيقة أغلق قبضتيه وعقدهما أمام صدره المستدير اليهم صنعت قبضتاه كرتين صغيرتين قرنفليتين فوق الثياب الخضراء ، وكانتا مغلقتين بشدة جعلته يرتعش

لم يظهر ضخماً هكذا من قبل ، كان قصيراً ومفرط البدانة ، بقعة صلعاء في رأسه بدت كالدولار الزهري ، لكن وقفته أعزل في منتصف الغرفة النهارية جعلته يبدو صغيراً نظر إلى ماكمورفي فلم يتلق ردّاً على نظرته ، ثم استعرض صف « المبّرحين » مفتشاً عن التأييد ، في كل مرة كان الرجال يحولون أنظارهم ويرفضون ملاقاته ، فتضاعف الهلع في وجهه توقفت نظراته أخيراً على الممرضة الكبيرة ضرب قدمه ثانية

« أريد اجراء ما ! هل تسمعين ؟ أريد **اجراء** ما ! شيئاً ما ! **شيئاً** ! ـ »

طوق الصبيان الأسودان ذراعيه من الخلف ولفّه الضئيل بحزام ، تدلّى وكأنه ثُقب من الداخل ، وجرّه الضخمان إلى « المضطربين » يمكنك سماع وقع خطواته الطرية على الدرج حين عادا وجلسا التفتت الممرضة الكبيرة إلى صف « المبرحين » وحدجتهم بنظراتها لم ينطقوا بشيء منذ أن غادر شيزويك

« هل هناك مناقشة أخرى ؟ » قالت ، « فيما يتعلق بحصة السجائر ؟ »

حين نظرتُ الى الصف الغائب من الوجوه المعلقة الى الجدار على طول الغرفة استقرت عيناي أخيراً على ماكمورفي وكرسيه في الزاوية ، يركّز على تحسين طريقته في خلط الأوراق بيد واحدة بدأت الأنابيب البيضاء تضخ ضوء الثلاجة من جديد أحس بها ، تثقل باستمرار على معدتي

بعد أن امتنع ماكمورفي عن المواجهة ، تحدث بعض « المبرحين » أنه لا يزال يفوق الممرضة الكبيرة ، أنه تناهى اليه نيّتها في إرسالـه إلى « المضطربين » وقرر افلات الحبل قليلاً وعدم اعطائها السبب الكافي تصوّر بعضهم أنه يعطيها استراحة ، ثم يندفع ضدها بشيء جديد ، شيء أكثر ضراوة وقوة من ذي قبل تستطيع سماعهم يتحدثون في مجموعات ، يتساءلون

أما أنا **فأعرف** السبب سمعته يتحدث مع المنقذ ، أحس بالخطر أخيراً

هذا كل ما في الأمر كما فعل بابا أخيراً حين أدرك عجزه عن هزيمة المجموعة القادمة من المدينة والتي أرادت من الحكومة أن تبني السدّ بحجة أنه يؤمن المال والعمل ، لأنه سيزيل القرية لتأخذ قبيلة الاسماك تلك رائحتها الكريهة والألفي دولار التي تدفعها لها الحكومة وترحل إلى مكان آخر ! فعل بابا الشيء الأجدى بتوقيعه كل الأوراق ، ولا فائدة من المراوغة والتنصل ستحصل الحكومة على ما تريد أولاً وأخيراً ، عاجلاً أم آجلاً ؛ هذه الطريقة تؤمن للقبيلة على الأقل مبلغاً طيباً

كان ماكمورفي يفعل الشيء المجدي ، أفهم ذلك ، كان يرضخ لأنه الشيء الأجدى المتاح أمامه ، وليس لأي من الأسباب التي يتخيلها « المبرحون » لم يفصح عن السبب ، لكني أعرفه وأقول لنفسي أنه الشيء الأجدى أقنعت نفسي بذلك مراراً وتكراراً إنه الأمان ، كالاختباء ، الشيء الأجدى ، لا ينكر أحد أنه كذلك ، أعرف ما يفعله

ثم ذات صباح يعرف كل « المبرحين » أيضاً ، يعرفون السبب وراء تراجعه وأن الأسباب التي يتصورونها كانت مجرد أكاذيب يخدعون بها أنفسهم لم يذكر هو شيئاً عن الحوار بينه وبين المنقذ ، لكنهم عرفوا أظن أن الممرضة أذاعت الأمر خلال الليل على الصفوف الصغيرة في المهجع ، فعرفوا الأمر سوية وفجأة ، وأجزم بذلك من نظراتهم الى ماكمورفي ذلك الصباح وهو يدخل الغرفة النهارية لا يبدو عليهم أنهم غاضبون منه أو حتى أنه خيّب آمالهم ، لأنهم يتفهمون كما أتفهم أنا أن الطريقة الوحيدة لرفع يد الممرضة عن الاستمرار في إيداعه هي التصرف وفق رغباتها وكما يحلو لها ، لكنهم لازالوا ينظرون اليه وكأنهم لا يتمنون أن تجري الأمور كما جرت

حتى شيزويك كان باستطاعته أن يتفهم الموقف فلم يحمل على ماكمورفي لأنه لم يثر ضجة كبيرة حول السجائر عاد من « المضطربين » في اليوم ذاته الذي أذاعت فيه الممرضة المعلومات على كافة الأسرّة ، وأخبر ماكمورفي بنفسه أنه يتفهم تصرفه وانه أفضل ما ينبغي فعله ، وأنه لو عرف أن ماك مودع لما ورّطه كما حدث في السابق أخبر ماكمورفي بذلك ونحن نمضي إلى بركة السباحة ، ولكن حالما كنا نوشك على دخول البركة قال أنه تمنى مع ذلك لو اتخذ اجراء ما ، وغطس في الماء

علقت أصابعه في مكان ما من المقبض الذي يعلو البالوعة في قاع البركة ، ولم يستطع المنقذ أو ماكمورفي أو الصبيان الأسودان انتزاعه عنها وخلال الوقت الذي

أحضروا فيه مفكّاً وفكّوا المقبض وانتشلوا شيزويك والمقبض لا يزال عالقاً في أصابعه القرنفلية والزرقاء اللحيمة ، كان قد مات غرقاً

فوق رأسي في صف الغداء ألمح صينية تعبر الفضاء ، سحابة بلاستيكية خضراء تمطر الحليب والفاصوليا وحساء الخضار يزفر سيفليت منفلتاً من الصف على قدم واحدة وذراعاه مرفوعتان في الهواء ، يتداعى إلى الوراء مشكّلاً قوساً حاداً ، تجحظ عيناه وتنقلبان يرتطم رأسه بأرضية الغرفة مصدراً صوتاً أشبه بتحطم الصخور في الماء ، ويظل في وضعية التقوس ، كالجسر المرتجف المشدود يقفز فريدركسون وسكانلون لمساعدته ولكن الفتى الاسود الضخم يطردهما إلى الوراء ويلتقط عصا مسطحة من جيبه الخلفي ، ملفوفة بشريط ومغطاة ببقع بنيّة يفتح فم سيفليت ويدس العصا بين أسنانه ، وأسمع العصا تتشظى تحت وطأة عضته أستطيع الإحساس بطعم قطع الفضة تهدأ انتفاضات سيفليت ويستعيد قواه ، يجهد ويبني الركلات الحادة التي ترفعه كالجسر ، ثم يسقط ، يرتفع ويسقط ، أبطأ فأبطأ حتى تطل الممرضة الكبيرة وتقف فوقه لعابه يسيل على الأرض مشكّلاً بركاً رمادية

تعقد يديها أمامها ، ربما كانت تخفي شمعة ـ وتنظر إلى ما تبقى منه ينتفض في ثيابه « السيد سيفليت ؟ » تسأل الفتى الاسود

« إنه هو » ، يحاول الفتى الاسود استعادة عصاه ، « السيد سيفليت »

« والسيد سيفليت كان يؤكد أنه لم يعد **بحاجة للمزيد من العلاج** » ، تهز رأسها وتبتعد خطوة واحدة عن امتداده نحو حذائها الأبيض ترفع رأسها وتنظر من حولها مستعرضة حلقة « المبرحين » الذين تجمعوا لمراقبة المشهد تومىء برأسها وتكرر « **للمزيد من العلاج** » وجهها باسم ، آسف ، صبور ، مشمئز في آن معاً ـ تعبير تدربت عليه

لم يسبق لماكمورفي أن رأى شيئاً كهذا من قبل ، « ماذا حدث له ؟ » يسأل

تثبت عينيها على البركة غير ملتفة إلى ماكمورفي « السيد سيفليت مصاب بالصرع يا سيد ماكمورفي هذا يعني أنه معرّض لنوبات كهذه في أي وقت اذا لم يتبع الارشاد العلاجي يعرف ذلك حق المعرفة أعلمناه أن هذا سيحدث إذا لم يتناول علاجه مع ذلك ، يلّح على التصرف بحماقة »

يخرج فريدريكسون من الصف بحاجبيه المنتصبين ، إنه رجل نحيل هزيل أشقر الشعر ذو حاجبين مزججين وفك طويل ، يتصرف بحدة وامتعاض كما اعتاد شيزويك أن يفعل ، يصخب ويشتم ويلعن احدى الممرضات ، يقول انه سيغادر هذا المكان الكريه ! يتركونه دائماً يطلق صراخه ويهز قبضته حتى يهدأ ، ثم يسألونه اذا انتهيت يا سيد فريدريكسون فسنذهب لنكتب أمر الاخلاء ، ثم لا يمرّ وقت طويل حتى يهرع إلى مركز الممرضات ويقرع الزجاج بنظرة مذنبة ويطلب الاعتذار ونيسان تلك العبارات الساخنة التي قالها ، ادفنوا فقط هذه الاشكال القديمة يوماً أو اثنين ، حسناً ؟

يقترب من الممرضة ملوّحاً بقبضته « أوه ، أهذا كل ما في الأمر ، هذا كل ما في الأمر هيه ؟ تريدين صلب سييف العجوز وكأنه يفعل ذلك نكاية بك أو بشيء آخر ؟ »

تربتّ على ذراعه بيدها فترتخي قبضته

« لا بأس يا بروس ، صديقك سيتحسن ، من الواضح أنه لم يكن يتناول جرعته من الديلانتين ، بكل بساطة لا أدري ما يفعل بها »

تعرف مثلما يعرف الجميع ، يحمل سيفليت الكبسولات في فمه ثم يعطيها لفريدريكسون فيما بعد لا يحب سيفلييت تناولها بسبب ما يسميه « مضاعفات جانبية خطيرة » بينما يرغب فريدريكسون في جرعة مضاعفة لأنه يفزع حتى الموت من النوبة تعرف الممرضة ذلك ، ويمكنك أن تراه على وجهها ، ولكن حينما تتمعن فيها ، في رقتها وتعاطفها ، يخيل اليك أنها ليست على علم نهائياً بأي شيء مما يدور بين فريدريكسون وسيفليت

« أي نعم » يقول فريدريكسون ، لكنه لا يحسن تنظيم هجمته ثانية
« نعم ، حسناً لست بحاجة لادعاء السذاجة حول تناول الجرعة أو عدم تناولها

تعلمين كم يقلق سييف حول شكله وكيف أن النساء يتهمنه بالدمامة وغير ذلك ، وتعلمين كيف يعتبر الديلانتين ـ»

« أعلم » ، تلمس ذراعه ثانية ، « انه أيضاً يلوم الدواء لسقوط شعره يا للعجوز البائس ! »

« انه ليس عجوزاً إلى هذا الحد ! »

« أعرف يا بروس ، لماذا ترغي وتزبد هكذا ؟ لم أفهم أبداً ما يدور بينك وبين صديقك بحيث تركن الى الدفاع ! »

« حسناً ، وماذا بعد ! » يقول وهو يدس قبضته في جيبه

تجثو الممرضة وتمسح مساحة صغيرة على الأرض تسند ركبتها إليها وتبدأ في تدليك سيفليت واعادته إلى شكله السابق تطلب من الفتى الاسود أن يلازم العجوز البائس ، ريثما ترسل نقالة اليه تجره إلى المهجع وينام بقية النهار حين تقف تربت على ذراع فريدريسكون ، فيتذمّر « نعم ، علي أن أتناول الديلانتين أيضاً كما تعرفين لهذا أعرف ما يواجهه سييف أقصد ، لهذا أنا ، حسناً ـ »

« أفهم يا بروس ما ينبغي أن يمرّ به كلاكما ، ولكن ألا تظن أن أي شيء أفضل من ذلك ؟ »

وينظر فريدريسكون إلى حيث تشير. عاد سيفليت إلى نصف ما كان عليه سابقاً ، تعلو أنفاسه الرطبة الخشنة وتنخفض هناك كتلة متورمة على احدى جانبي رأسه حيث سقط وزبد أحمر حول عصا الفتى الاسود التي دسّها في فمه ، وبدأت عينه تعودان إلى سابق عهدهما يداه مسمّرتان إلى كل جانب والراحتان منبسطتان والأصابع تنفتح وتنغلق ، تماماً كما رأيت الرجال ينتفضون في « دكان الصدمة » وهم مقيدون إلى الطاولة المتصالبة ، الدخان يتجعد مندفعاً من راحات اليد بفعل التيار لم يجرب فريدريكسون أو سيفليت « دكان الصدمة » ، لقد صُنعا بطريقة تسمح لهما بتوليد توترهما الكهربائي الخاص ، يخزنانه في عمودهما الفقري ويمكن تشغيلهما عن بعد من الباب الفولاذي في مركز الممرضات اذا خرجا عن الخط ـ يكونان حاضرين في اللحظة المناسبة من النكتة ، فينقلبان كالنخاع في أسفل الظهر هذا يوفر متاعب اقتيادهما إلى تلك الغرفة

تهزّ الممرضة ذراع فريدريكسون وكأنها توقظه من النوم ، وتكرر « حتى لو أخذت بعين الاعتبار المضاعفات المؤذية للعقار ، ألا تظن أنه افضل من هذه الحالة ؟ »

ويطرق الى الأرض ، يـرتفع حاجبا فريدريكسون الشقراوان كأنه يرى للمرة الأولى كيف يبدو صديقه مرة واحدة في الشهر على الأقل تبتسم الممرضة وتربت على ذراعه وتتوجه نحو الباب ، تنظر الى « المبرّحين » لتوبخهم على احتشادهم لرؤية هذا الشيء ؛ حين تغيب عن الأنظار يرتعش فريدريكسون ويحاول الابتسام

« لا أدري ، لماذا جننت غضباً أمام هذه الفتاة العجوز ، أقصد أنها لم تقترف ما يعطيني مبرراً للانفجار على هذا النحو ، أليس كذلك ؟ »

لا يبدو أنه ينتظر جواباً ؛ انه بالأحرى يدرك أنه لا يستطيع وضع يده على السبب يرتعش ثانية ويبدأ في الانسلال من المجموعة يقترب ماكموري ويسأله بصوت خافت عما يتناولانه

« ديلانتين يا ماكموري مضاد للتشنج ـ اذا كنت ترغب في معرفته »
« هل يفيد في شيء ؟ »
« نعم ، أظن أنه يفيد كثيراً ، لو تناولته »

« لماذا اللغط اذاً حول تناوله أو عدم تناوله ؟ »
« حسناً ، اذا أردت أن تعرف ! سأشرح لك السبب » يمسك شفته السفلى ويشدّها بإصبعه وإبهامه ، يخفضها ليظهر اللثة متآكلة وقرنفلية ومسحوبة الدم حول أسنان طويلة لامعة « لثتّك » يقول وهو يشدّ الشفة « الديلانتين يصيب أسنانك بالعفونة والنوبة تجعل أسنانك تصطك ، وتصبح ـ »
تعلو ضجة على الأرض ينظرون إلى حيث يئن سيفليت ويتلوى ، في اللحظة التي ينزع فيها الفتى الاسود زوجاً من الاسنان بعصاه المفتولة

يحمل سكانلون صينية وينفصل عن المجموعة قائلاً

« يا لحياة الجحيم ! ملعون أنت اذا فعلت وملعون اذا لم تفعل أقول انها تضع المرء في ملزمة واحدة حقيرة »

يقول ماكمورفي « نعم أرى ما تقصده » ناظراً إلى وجه سيفليت الممتقع يكتسي وجهه بنظرة الوقر الحائرة المضنية التي تعلو الوجه الملقى على الأرض

مهما حدث من عطب في آلية التشغيل فهم يسارعون إلى إصلاحه ثانية الحركات المسحوبة المنسّقة تعود الاستيقاظ في السادسة والنصف ، في السابعة الى قاعة الطعام ، في الثامنة تصل الاحاجي لـ « المزمنين » وورق اللعب لـ « المبرحين » في مركز الممرضات أستطيع أن أرى يدي الممرضة الكبيرة البيضاوين تطوفان فوق لوحة التحكم

يأخذونني مع « المبرحين » أحياناً ؛ وأحياناً لا يفعلون يأخذونني مرة معهم إلى المكتبة وأتوجه الى القسم التقني ، أقف هناك مستعرضاً عناوين الكتب الخاصة بالكهرباء ، الكتب التي أتذكرها منذ سنوات الدراسة أتذكر أن الكتب حافلة بالرسوم التخطيطية والمعادلات والنظريات ـ أشياء صعبة لكنها بالتأكيد آمنة

أريد التفرج على احد الكتب ، لكني خائف أنا خائف من فعل أي شيء أحس كأنني أطفو في فضاء المكتبة الأصفر المغبر ، في منتصف المسافة بين السطح والأرض فوق الكتب تنوس من فوقي ، مجنونة متعرّجة ، راكضة في زوايا مختلفة نحو بعضها البعض ينحني رف إلى اليسار قليلاً ، والآخر إلى اليمين ، بعضها يدنو مني ولا أفهم كيف تظل الكتب ثابتة ولا تسقط ترتفع وترتفع الى الأعلى ، تختفي عن الأنظار ، الرفوف الخشبية متلاصقة بواسطة المسامير والأضلاع الثنائية والرباعية ، مدعمة بأعمدة ، مستندة إلى السلالم ، في كل جانب من حولي لو سحبت كتاباً يعلم الرب أي نتيجة مرعبة ستحدث

سمعت أحدهم يدخل ، إنه احد الفتيان السود من جناحنا يصطحب زوجة

هاردنغ معه ، يتحدثان ويبتسمان أثناء دخولهما المكتبة

« أنظر من هنا يا ديل » يهتف الفتى الاسود بهاردنغ المشغول بقراءة كتاب « انظر من جاء لزيارتك أخبرتها أن هذا ليس وقت الزيارة لكنها بكلامها الحلو أقنعتني باحضارها الى هنا مهما حدث » يتركها واقفة أمام هاردنغ ويمضي بعد أن يهمس لها بغموض « لا تنسي ما اتفقنا عليه ، هل تسمعين ؟ »

ترسل قبلة إلى الفتى الاسود ، ثم تستدير نحو هاردنغ وهي تهز ردفيها « مرحباً يا ديل »

« حبيبتي » يقول ، لكنه لا يقوم بأي حركة يتجاوز بها مسافة الخطوتين اللتين تفصلانه عنها ينظر من حوله إلى الجميع وهم يراقبونه

إنها بنفس طوله ، ترتدي حذاءً عالي الكعب وتحمل محفظة سوداء بدون حزام ، تحملها كما يحمل الكتاب أظافرها حمراء تقطران الدم فوق محفظة الجلد المصقولة اللامعة

« هيه يا ماك » يدعو هاردنغ ماكمورفي ، الجالس في نهاية الغرفة يتصفح كتاب رسوم متحركة « لو تؤجل اهتماماتك الأدبية لحظة لأقدمك الى زوجتي وآلهة انتقامي ؛ سأكون دقيقاً وأقول إلى نصفي الجميل لكني أظن أن هذه العبارة تشير إلى نوع من التقسيم الجوهري المتكافىء ، ألا تظن ؟ »

يحاول الضحك ، يدس أصابعه العاجية اللزجة في جيب قميصه بحثاً عن سيجارة ، يتململ قليلاً لأنها آخر ما في العلبة ترتعش السيجارة حين يضعها بين شفتيه هو وزوجته لم يتحركا للاقتراب من بعضهما ينهض ماكمورفي عن كرسيه بتثاقل ويرفع قبعته وهو يسير تنظر إليه زوجة هاردنغ وتبتسم ، رافعة أحد حاجبيها

« مساء الخير يا سيدة هاردنغ » يقول ماكمورفي

ترد عليه بابتسامة عريضة وتقول « أكره عبارة السيدة هاردنغ يا ماك ، لماذا لا تناديني فيرا ؟ »

يجلس الثلاثة على الأريكة التي كان هاردنغ جالساً عليها ، ويحكي لزوجته عن ماكمورفي وكيف هزم الممرضة الكبيرة ، تبتسم وتقول ان هذا لا يدهشها أبداً يتحمس هاردنغ وهو يروي الحكاية فينسى يديه ويلوح بهما في الفضاء لتشكلا صورة

واضحـة، صورة راقصة متناغمة مع إيقاع صوته كراقصتي باليه جميلتين في ثياب بيضاء يداه يمكن أن تكونا أي شيء ولكن حالما يفرغ من الرواية يلاحظ أن ماكمورفي وزوجته يرقبان يديه فيدفنهما بين ركبتيه يضحك لذلك ، وتقول زوجته « ديل ، متى ستتعلم أن تضحك بدلاً من اصدار صرير الفأرة الصغيرة هذا ؟ »

ماكمورفي قال الشيء ذاته عن ضحكة هاردنغ في اليوم الأول ، لكن الوضع مختلف نوعاً ما ، فبينما هدأ قول ماكمورفي من ثورة هاردنغ فان قولها زاد من غضبه

تطلب سيجارة ، ويدس هاردنغ أصابعه في جيبه ثانية فتعود فارغة « لقد فرضت علينا حصصاً محددة » يقول ، يطوي كتفيه النحيلين إلى الأمام كأنه يحاول اخفاء نصف السيجارة التي يحملها ، « علبة واحدة يومياً هذا لا يترك للمرء هامش فروسية ، يا عزيزتي فيرا »

« أوه ، ديل ، ليس لديك ما يكفي ، أليس كذلك ؟ »
تلتقط عيناه تلك النظرة اللعوب المحمومة فيتطلع اليها ويبتسم ، « هل نتحدث بالرمز ، أم لا نزال نتعامل بالسجائر الحقيقية الملموسة ؟ لا بأس ؛ تعرفين الجواب على السؤال ، مهما كان قصدك »

لم أقصد لا شيء غير ما قلته يا ديل ـ »

« لم تقصدي شيئاً يا حبيبتي ؛ استخدامك لكلمتي » لم ، و « لا شيء » يشكل نفياً مزدوجاً ماكمورفي ، لغة فيرا لا تقل عامية عنك ، انظري يا عزيزيتي ، تعرفين أنه بين « لم » و « لا » هناك ـ »

« حسناً ! هذا يكفي ! قصدت الشيئين معاً قصدت ما تشاء فهمه قصدت القول أنك ليس لديك ما يكفي من لا شيء »

« ما يكفي من أي شيء ، يا طفلتي الصغيرة الأنيقة »

تحدق في هاردنغ قليلاً ، ثم تتحول إلى ماكمورفي الجالس بقربها ،« لا وأنت يا ماك ، ماذا عنك هل تؤدي واجباً صغيراً مثل تقديم سيجارة لفتاة ؟ »

علبته مستلقية في حجره ، ينظر اليها ويتمنى أنها غير موجودة ثم يقول « بالتأكيد ، أحصل دائماً على السجائر السبب هو انني متطفل ، أتطفل عليهم كلما

سنحت لي الفرصة لهذا تدوم علبتي أطول من علبة هاردنغ انه يدخن حصته فقط ، لهذا ترين سجائره تنفذ قبل ـ »

« ليس عليك أن تعتذر عن تقصيري يا صديقي هذا لا يناسب شخصيتك كما أنه ليس اطراء لي »

« كلا » تقول الفتاة ، « كل ما عليك أن تفعله هو اشعال سيجارتي » وتنحني كثيراً نحو ثقابه حتى أكاد أرى بوضوح ما بداخل فتحة قميصها

تتحدث عن بعض أصدقاء هاردنغ الذين تتمنى لو انقطعوا عن الرواح والمجي باحثين عنه « تعرف هذا النوع من الناس ، أليس كذلك يا ماك ؟ » وتردف « الفتيان الطائشون المتعجرفون ذوي الشعور الطويلة المسرّحة بعناية والسلاسل الصغيرو الرنانة » يسأل هاردنغ ان كانوا يجيئون للسؤال عنه فقط ، وتقول أن أي رجل يمرّ لرؤيتها ترنّ فيه أشياء أخرى غير سلسلته الرخوة اللعينة

تنهض فجأة وتقول أن وقت ذهابها قد حان تصافح ماكمورفي وتخبره أنها تتمنى رؤيته يوماً ما وتخرج من المكتبة ظلّ ماكمورفي صامتاً ترتفع كل الرؤوس عندما تعلو طقطقة كعبيها يراقبونها تعبر القاعة حتى تختفي عن الأنظار

« ما قولك ؟ » يسأل هاردنغ

« تمتلك ثديين جهنميين » هو كل ما يراه فيها ، « ضخمين كالآنسة العجوز راتشدت »

« لم أقصد الجانب الجسدي يا صديقي ، أقصد ـ »

« يا لأجراس الجحيم يا هاردنغ ! » يصرخ ماكمورفي بغتة « لا أعرف شيئاً ! ماذا تريد مني ؟ هل أنا مستشار زواج ؟ كل ما أعرفه هو التالي لا يوجد من هو طاهر ونقي على الدوام ويبدو لي أن الكل يصرفون عمرهم في تمزيق الآخرين أعرف ما تريدني أن أقوله ، تريدني أن أشعر نحوك بالأسف ، أن أشعر أنها عاهرة حقيقية حسناً ،لكنك لـم تشعرها أنها ملكة لتغطس في البراز أنت وعبارة ما قولك لدي مخاوفي الخاصة لالتفت اليها دون أن ألتصق بمخاوفك وهمومك توقف اذاً ! »

ينظر من حوله الى باقي المرضى في المكتبة « أنتم جميعاً ! توقفوا عن مضايقتي ، عليكم اللعنة ! »

يرخي قبعته على رأسه ويعود إلى مجلته المصورة في نهاية الغرفة يفغر « المبرحون » أفواههم ويتبادلون النظرات لماذا يصرخ في وجوههم ؟ لم يكن أحد منهم يضايقه لم يطالبه أحدهم بشيء منذ أن اكتشفوا انه يحاول تعديل سلوكه لتجنب تمديد ايداعه ، يدهشون الآن لانفجاره في وجه هاردنغ ولا يتصورون كيف يأخذ الكتاب عن الكرسي ويجلس ويدفن وجهه فيه ، إما لاتقاء نظرات الناس أو الامتناع عن النظر اليهم

في المساء يعتذر من هاردنغ خلال العشاء ويخبره أنه لا يدري ما حلّ به في المكتبة ، يقول هاردنغ أن زوجته ربما كانت السبب ، فهي تثير أعصاب الناس عادة ، يجلس ماكمورفي محدّقاً في قهوته ويقول « لا أعرف يا صاحبي ! قابلتها اليوم فقط ولا يمكن بحق الجحيم أن تكون هي من توسوس لي بأحلام مزعجة طوال الاسبوع البائس الفائت »

« لماذا يا سيد ماكمورفي » يصرخ هاردنغ محاولاً تقليد الفتى المقيم النحيل الذي يحضر الاجتماعات ، « عليك بكل بساطة أن تحدثنا عن هذه الأحلام ، انتظر حتى أحضر ورقة وقلماً » يحاول هاردنغ خلق جو من المرح لتخفيف حدّة الاعتذار يلتقط ملعقة وفوطة ويتظاهر انه يدوّن الملاحظات « والآن صف لنا بدقة ما رأيته في ـ آه ، هذه الأحلام ؟ »

لا تنفرج شفتا ماكمورفي عن أي ابتسامة « لا أدري يا صاحبي ، لا شيء سوى الوجوه الوجوه فقط كما أظن »

في الصباح التالي يقف مارتيني وراء لوح التحكم في غرفة الحوض ، يمثل دور قائد طائرة مقاتلة تتوقف لعبة البوكر للضحك على المشهد

« إيييياه هووووو ييييير ررر ، أرض جو ، أرض جو هدف مرئي على بعد ألف وستمائة ـ يلوح انه قاعدة صواريخ معادية تقدم على الفور ، أيييييا و أووووم » يدير قرصاً ، يسحب رافعة الى الأمام وينحني على ضفة الحوض يحوّل الإبرة على « السرعة القصوى » ، لكن الماء لا يندفع من الأنابيب الملتفة حول القاعدة المربعة المواجهة له لقد أقلعوا نهائياً عن استعمال العلاج المائي ، ولم يعد

أحد يشغل الماء، معدات الكروم الجديدة واللوح الفولاذي لم تعد تستخدم. يبدو اللوح والرشاش أشبه بلوازم العلاج المائي التي كانت تستخدم في المستشفى القديمة منذ خمسة عشر عاماً خراطيم قادرة على الوصول إلى كل أجزاء الجسد من كل زاوية، فني في معطف مطاطي يقف في الجانب الآخر من الغرفة يدير أقراص التحكم في اللوح، يملي على الخراطيم اتجاهها، شدّتها، سخونتها، فتمتد لتتضح، ناعمة، وملطفة، ثم تنضغط حادة كالإبرة - وتتعلق أنت هناك بين الخراطيم مشدوداً بأحزمة قماشية، مبلّلاً ومشلولاً ومتهدلاً بينها، الفنيّ يلهو بلعبته

« إيبي وووو أو ووم م م جو - أرض، جو - أرض صاروخ مرئي؛ في مجال رؤيتي الآن »

ينكبّ مارتيني ويسدد من فوق اللوح عبر حلقة الخراطيم يغمض عيناً وينظر بالأخرى من خلال الحلقة

« إلى الهدف! استعد! سدّد! نار! - »

تنتفض يداه، تتراجعان عن اللوح فينتصب واقفاً، شعره منكوش وعيناه معلقتان بقرص الرشاش، مبهوراً وخائفاً إلى حدّ يجعل لاعبي الورق يستديرون في كراسيهم ليتمكنوا من الرؤية أيضاً لكنهم لا يرون شيئاً سوى الابزيمات المعلقة بين الخراطيم فوق الأحزمة القماشية الجديدة والقاسية

يلتفت مارتيني وينظر صوب ماكمورفي، دون سواه « ألم ترهم؟ ألم ترهم؟ »

« أرى من يا مارت؟ لا أرى شيئاً »

« في كل هذه الأحزمة؟ ألم ترهم؟ » يستدير ماكمورفي ويحملق في الرشاش

« لا أحد لا شيء »

« انتظر دقيقة إنهم يحتاجون رؤيتك » يقول مارتيني

« اللعنة عليك، يا مارتيني، قلت لك أنني لا أستطيع رؤيتهم! هل تفهم؟ لا شيء على الاطلاق؟ »

« أوه » يقول مارتيني، يهز رأسه ويتحول عن قرص الرشاش « حسناً، لم أرهم أنا أيضاً كنت أمازحك »

يقطع ماكمورفي شدّة الورق ويوزع بسرعة « حسناً ، لا أعبأ بهذا النوع من المزاح يا مارت » ، يقطع ليوزع ثانية ، وتتناثر الأوراق في كل مكان كالرزمة المتشظية بين يديه المرتعشتين

أذكر أن اليوم كان يوم جمعة أيضاً ، بعد ثلاثة أسابيع من تصويتنا على التلفزيون ، وكأن كل من بمقدوره المشي يقاد الى المبنى الأول لاجراء ما يسمونه تصويراً شعاعياً للصدر ؛ بهدف اكتشاف التهاب الرئة ، لكني أعرف أن الغرض هو فحص آلية المرء والتأكد من عملها وفق التعليمات

نتزاحم في صف طويل في ردهة تفضي إلى باب مكتوب عليه « تصوير شعاعي » إلى جوار باب الاشعة هناك غرفة لفحص حناجرنا خلال الشتاء يواجهنا في الغرفة ذاتها زحام آخر ، يفضي إلى ذلك الباب الفولاذي الباب المبرشم ليست عليه علامة فارقة يترنح رجلان في الصف بين اثنين من الفتيان السود ، بينما يجري علاج ضحية أخرى في الداخل واستطيع سماع الصراخ ينفتح الباب إلى الداخل فيعلو الحفيف ، وأستطيع رؤ ية الأنابيب المتقدة داخل الغرفة يدرجون الضحية خارج الغرفة والدخان يتصاعد منه ، وانكمش أنا في الصف الذي أقف فيه لاتفادى الانحشار في ذلك الباب فتى أسود وآخر أبيض يجران واحداً من الاثنين المتبقيين ، ذاك الذي يجثو على ركبته ويرتعش ويتملص بتأثير العقاقير في أحشائه ، يعطونك عادة كبسولة حمراء قبل الصدمة يدفعانه خلال الباب فيقبض عليه الفنيون من ذراعيه ولبرهة سريعة أرى الرجل يدرك إلى أين يقتادانه ، يتصلب عقباه على الأرضية الاسمنتية لمقاومة القوة التي تجرّه إلى الطاولة ، ثم ينصفق الباب ، يعلو صوت ارتطام معدني بحشية ، ولا يعود بمقدوري رؤ يته بعد ذلك

« إسمع ، ماذا يحدث في الداخل هناك ؟ » ماكمورفي يسأل هاردنغ

« هناك في الداخل ؟ حقاً ! هذا صحيح ، أليس كذلك لم تجرّب تلك المتعة يا للأسف تجربة لا يجب أن تفوت كائناً بشرياً » يرخي هاردنغ أصابعه

وراء عنقه وينحني إلى الوراء لينظر إلى الباب « هذا دكان الصدمة » الذي كنت أحدثك عنه منذ فترة سابقة يا صديقي ، إنه ع . ص ك ، العلاج بالصدمة الكهربائية ، هذه النفوس المحظوظة في الداخل تمنح رحلة مجانية إلى القمر كلا ، بمعنى آخر ليست رحلة مجانية تماماً أنت تغطي نفقاتك بخلايا الدماغ عوضاً عن النقود ، والفرد منا يمتلك ببساطة بلايين الخلايا الدماغية مودعة تحت تصرفه لن تفتقر اليها »

يشير إلى الرجل الوحيد المتبقي في الصف ، « لا يوجد الكثير من الزبائن اليوم كما يبدو ، لا شيء يشبه ازدحام السنة الماضية ولكن إنها الحياة الرغبة تخمد وتستثار وأخشى أننا نشهد أفول ع ص ك كبيرة ممرضاتنا العزيزة واحدة من قلّة تمتلك قلباً يحتمل تقليداً فوكنرياً قديماً وجليلاً في علاج مخلفات الصحة العقلية تدمير الدماغ »

ينفتح الباب تخرج نقالة بأزيزها الحاد ، لا أحد يدفعها تحتل الزاوية بعجلتين وتختفي بعد أن تعبق القاعة بالدخان يراقبهما ماكمورفي وهما يقتادان آخر رجل إلى الداخل ويغلقان الباب

« ما يفعلونه هو ـ » يصغي ماكمورفي لحظة ثم يقول « ـ اقتياد طير ما إلى الداخل واطلاق الكهرباء في جمجمته ؟ »

« هذا وصف دقيق للعملية »

« لماذا بحق الجحيم ؟ »

« يا للهول ! لصالح المريض بالطبع كل ما يجري هنا لصالح المريض قد يخامرك الانطباع احياناً ـ لأنك أقمت في جناحنا فقط ـ أن المستشفى آلية فعالة واسعة تعمل بصورة حسنة لو لم يفرض عليها المريض ، لكن الحقيقة غير ذلك ع ص ك لا يستخدم دائماً كإجراء زجري ـ كما تستخدمه الممرضة ـ كما أنه ليس ممارسة ساديّة محضة من جانب جهازنا الإداري ، عدد من الحالات المستعصية المفترضة كانت تتعرض للصدمة ، بينما عدد آخر تقتصر مساعدته على إخصاء الدماغ واستئصاله للعلاج بالصدمة بعض المحاسن ؛ انه قليل التكاليف ، سريع ، غير مؤلم على الاطلاق . انه بكل بساطة يستقريء النوبة المرضية ، يحرّضها »

« يا لها من حياة » يتشكى سيفليت « يعطون البعض منا حبوباً لايقاف النوبة ، ويعطون البعض الآخر صدمة لإثارتها »

يدنو هاردنغ من ماكمورفي ليشرح له الأمر « إليك كيف بدأ الأمر طبيبان نفسيان كانا يزوران مسلخاً ، ويعلم الله لأي سبب آثم ، وكانا يشاهدان القطيع يذبح بضربة بلطة بين العينين لاحظا أن القطيع لا يذبح بأكمله ، وأن البعض منه يتهاوى على الأرض في حالة تشبه كثيراً انتفاضات الصرع « آه ، هكذا إذن . » قال الطبيب الأول، « هذا بالضبط ما نحتاج اليه لمرضانا ـ النوبة الايحائية! » وافق زميله بالطبع . كان معروفاً ان الرجال الخارجين من انتفاضة صرعية يزداد استعدادهم للهدوء ، والوداعة لزمن محدد ، وأن الحالات العنيفة المنقطعة كلياً عن الإتصال كانت قابلة لتبادل حوارات عقلانية بعد الانتفاضة لا أحد عرف السبب ، ولا زالوا يجهلونه واتضح أن الإيحاء بالنوبة لغير المصابين بالصرع يسفر عن فوائد جمّة وهنا ـ أمامهم ، وقف رجل يوحي بالنوبة بين الحين والآخر بثقة عالية رفيعة »

يقول سكانلون أنه ظن الرجل يستعمل بلطة بدلاً من قنبلة ، لكن هاردنغ يقول أنه سيتجاهل ذلك كلية ويواصل شرحه

« البلطة هي ما يستخدمه الجزار وهنا كان للزميل بعض التحفظات الانسان ليس بقرة في الحساب الأخير . من يعرف متى تنزلق البلطة لتجدع أنفاً ؟ أو حتى تكسر كاملِ أسنان الفم ؟ أين سيصبحون اذاً مع النفقات الباهظة لطب الانسان ؟ لو تعينّ عليهم أن يضربوا المريض برأسه فهم بحاجة لاستخدام شيء أكثر دقة ووثوقاً من مجرد بلطة ؛ استقرّ رأيهم أخيراً على الكهرباء »

« يـا يســوع ! لم يفكروا أنها ستلحق بعض الأذى ؛ والرأي العام ، ألم يقم الدنيا ويقعدها ؟ »

« لا أظن أنك تفهم الرأي العام تماماً يا صديقي ؛ في هذا البلد ، حين يخرج شيء ما عن النظام ، فالطريقة الاسرع لمعالجته هي الأفضل »

يهز ماكمورفي رأسه « هووي ! الكهرباء في الرأس يا رجل ، انها كعقوبة الكرسي الكهربائي للمجرمين »

« الاسباب الدافعة للنشاطين أكثر ارتباطاً ببعضها مما تظن ـ كلاهما علاج »
« وتقول أنه لا يؤذي ؟ »
« أضمن ذلك شخصياً غير مؤلم اطلاقاً دفقة واحدة وتفقد الوعي تماماً لا غاز ، لا إبرة ، لا بلطة قاطعة دون ألم على الإطلاق ، كل ما في الأمر أن المرء لا يرغب في التكرار أنت تتغير ، تنسى الاشياء الأمر كأنه ـ » يضغط يديه على صدغه ، مغمضاً عينيه ـ « كأن الاهتزاز يطلق كرنفالاً وحشياً من الصور والمشاعر والذكريات رأيت هذه الدواليب من قبل يجمع المقامر مراهناتك ويضغط زرّاً شانغ ! بالضوء والصوت والأرقام الدائرة والدائرة في حلقة مفرغة ، وقد تربح بما انتهيت اليه وقد تخسر ، ولكن يكون عليك أن تلعب ثانية إدفع للرجل لدورة أخرى يا بني ادفع للرجل »

« هوّن عليك يا هاردنغ »
ينفتح الباب وتخرج النقالة وقد التف الرجل بغطاء قماشي ، ويخرج الفنيون لاحتساء القهوة يمرر ماكمورفي يده في شعره « لا يبدو أنني قادر على استيعاب كل ما يجري في دماغي »

« ماذا ؟ العلاج بالصدمة ؟ »
« نعم كلا ، ليس هذا فقط كل شيء » يلّوح بيديه في حلقة « كل هذه الأشياء الدائرة »

يدا هاردنغ تلمسان ركبتي ماكمورفي « هوّن على ذهنك المضطرب يا صديقي لست بحاجة للاهتمام بـ ع ص ك من دون باقي الاشياء عفى عليه الزمن وهو لا يستخدم إلا في الحالات المتطرفة التي لا يبدو أن أحداً يبلغها ، مثل استئصال الدماغ »

« استئصال الدماغ الآن أليس احتطاب جزء من الدماغ ؟ »
« أنت على حق مرة أخرى أنت تزداد دقة في التعبير نعم ، احتطاب الدماغ اخصاء الجزء الأمامي من الدماغ أظن أنه اذا تعذر عليها قطع ما هو أسفل الحزام فستقطع ما هو فوق العينين »
« هل تقصد راتشدت ؟ »
« هي بعينها »

« لا أظن أن للمرضة ضلعاً في هذا النوع من الأشياء »

«على العكس من ذلك في الحقيقة».

يلوح على ماكمورفي أنه سعد بتحويل الحديث عن الصدمة واستئصال الدماغ والعودة إلى الممرضة الكبيرة يسأل هاردنغ عن رأيه فيما تعاني منه يرى هاردنغ وسكانلون والبعض من الآخرين أفكاراً مختلفة يتحدثون حول ما اذا كانت هي أساس المتاعب أم لا ، ويقول هاردنغ أنها الاساس في معظم الأمور أغلب الرجال يعتقدون ذلك أيضاً ، لكن ماكمورفي لم يعد واثقاً كل الثقة يقول أنه ظن ذلك في وقت ما ، لكنه لا يعرف الآن يقول أنه لا يظن أن إزاحتها ستدخل تغييراً واضحاً جوهرياً ، يقول أن هناك من هو أكبر منها يثير الفوضى ، ويمضي في محاولة تحديد هذا الشيء يقلع أخيراً حين يعجز عن وصفه

ماكمورفي لا يعرف ، لكنه وضع يده على ما أدركته أنا منذ زمن طويل سالف ، المسألة لا تتعلق بالممرضة الكبيرة فقط ، لكنه « الائتلاف » بأكمله ، « الائتلاف » الذي يشمل الأمة بطولها وعرضها هو القوة الحقيقية الضخمة ، وما الممرضة سوى موظف رفيع المقام يعمل لديهم

لا يتفق الرجال مع ماكمورفي يقولون انهم على دراية بأساس المتاعب ، ثم يدخلون في جدال حول هذه النقطة يتحاورون حتى يقاطعهم ماكمورفي

« يا لأجراس الجحيم ! حين أصغي اليكم » يقول ماكمورفي « لا أسمع سوى التذمر والتذمر والتذمر عن الممرضة أو الإداريين أو المستشفى سكانلون نسف التركيبة بأكملها ، سيفليت يلوم العقاقير فريدريكسون يشكو من متاعبه الاسرية حسناً ، أنتم تسبحون في سطل من الماء فقط »

يقول أن الممرضة الكبيرة ليست أكثر من امرأة عجوز قاسية القلب ، ومحاولة دفعه للهزء منها والتعريف بها قطعة براز لن تفيد أحداً ، وهو على رأسهم إن إحكام الطوق عليها لن يكون احكاماً للطوق على الدواء الحقيقي العميق الذي يسبب تذمرهم

« ألا تظن ذلك ؟ » يقول هاردنغ ، « طالما أنك أصبحت ضليعاً فجأة بمشكلة الصحة العقلية ، أخبرنا ما هي المشكلة ؟ ما هو هذا الدوار الحقيقي العميق ، كما أسميته بذكاء ؟ »

« أقول يا رجل أنني لا أعرف لم أختبره من قبل » . يجلس ساكناً لدقيقة يصغي الى طنين غرفة التصوير الشعاعي ، ثم يقول « ولكن اذا كان الأمر لا يتعدى ما تقولونه ، أي هذه الممرضة العجوز ذات المصاعب الجنسية ، فالحل لكل مشاكلكم سيكون طرحها على الأرض ومعالجة مصاعبها ، أليس كذلك ؟ »

يصفّق سكانلون قائلاً « يا للعنة ! هكذا بالضبط . لقد عيّناك يا ماك ، أنت الفارس الذي يتولى الموضوع »

« كلا يا سيدي وقع اختيارك على الفتى غير المناسب »

« لم لا ؟ ظننت أنكِ الفارس الأول في ممارسة الجنس »

« سكانلون ، يا صاحبي ، أخطط للبقاء بمنأى عن تلك الحدأة العجوز قدر ما أستطيع »

يقول هاردنغ مبتسماً « اذن لقد لاحظت ما حدث بينكما لقد حاصرتها لفترة من الزمن ثم أطلقتها أهي دفقة تسامح مفاجئة لملاك الرحمة ؟ »

« كلا ؛ لقد اكتشفت مجموعة أشياء ، هذا هو السبب سألت في بعض الأماكن الأخرى المختلفة اكتشفت لماذا تقبّلون مؤخرتها بأكملكم ولماذا تنحنون وتنبطحون لتمرّ هي فوقكم انتبهت إلى ما كنتم تدفعونني إليه »

« آه ، هذا مشوّق »

« حقاً انه مشوق مشوق بالنسبة لي أيها الطفيليون أنكم لم تحذروني من مخاطر ما أمضي اليه ، مخاطر ليّ ذيلها هكذا إذا كنت لا أحبها فهذا لا يعني أن أدفعها لتطيل مدّة حكمي سنة أو أكثر ، عليك أن تبتلع كبرياءك أحياناً وتفتح عينك على ما يفعله المعلّم الكبير »

« حقاً يا أصدقاء هل أنتم مقتنعون بما يتردد من إشاعات حول التزام ماكمورفي بالسياسة كي يزيد من فرص إطلاق سراحه قريباً ؟ »

« تعلم عم أتحدث يا هاردنغ لماذا لم تخبرني أن بمقدورها ابقائي تحت الإيداع هنا حتى ترضى عني ويحلو لها إطلاق سراحي ؟ »

« ماذا؟ نسيت أنك تحت الإيداع » ينطوي وجه هاردنغ من منتصفه فوق تكشيرته « نعم لقد تخاذلت تماماً كما تخاذلنا جميعاً »

« راهن على أني تخاذلت ايها اللعين لماذا يكون علي أنا أن أوطوط في تلك الاجتماعات عن الشكاوى الصغيرة العابثة ، حول فتح باب المهجع والسجائر في مركز الممرضات ؟ لم أفهم القضية في البداية لماذا يهرع الرجال إلي وكأني أشبه بالمخلِّص ؟ ثم حدث ان اكتشفت كيف ان الممرضات يمتلكن القول الفصل في من يبقى ومن يرحل ولقد تعضّلت بسرعة قلت لنفسي ، لماذا استغفلني هؤلاء الأوغاد الخاملون ، دفعوني إلى حمل حقائبهم واذا شئتم سأقول أنكم استغفلتم ر ب ماكمورفي العتيق » ، يلمس قبعته ويبتسم لنا ونحن نصطف على المقعد « حسناً ، لا أقصد شيئاً شخصياً ، أنتم تفهمون يا رجال ، يا لتلك الضوضاء العاهرة أريد الخروج من هنا كما يريد بعضكم لدي مثلكم الكثير مما أخسره في مواجهة تلك الحدأة العجوز »

يبتسم ويغمز بعينه ويلكز هاردنغ في ضلوعه بإبهامه ، كأنه فرغ من الأمر كله دون مشاعر صعبة ، لكن هاردنغ يبادره بالقول

« كلا ، لديك ما تخسره أكثر مما لديّ يا صديقي »

يبتسم هاردنغ ثانية ، يطلق نظرة جانبية رشيقة كالمهرة المتقافزة يعلو رأسه ويهبط ينظر الجميع إلى جهة محددة يخرج مارتيني من ستارة التصوير الشعاعي يزرّر قميصه ويتمتم « ما كنت لأصدق لو لم أرها » ، ويذهب بيللي بيبيت الى الزجاج الأسود ليحل محلّ مارتيني

« أنت تخسر أكثر مما أخسره أنا » يقول هاردنغ « أنا هنا بطواعيتي ، وأنت مودع »

لا ينبس ماكمورفي بكلمة .تلوح على وجهه نظرة الحيرة ذاتها وكأنه يرى خطأ ما في الأمر ، شيئاً لا يستطيع وضع إصبعه عليه يكتفي بالجلوس والنظر إلى هاردنغ ، تتلاشى ابتسامة هاردنغ المتموّجة ويبدأ في التململ والدوران من حوله بصورة مضحكة يبتلع ريقه ويقول « في واقع الأمر ، هناك القليل من الرجال في الجناح تحت الإيداع سكانلون فقط وبعض « المزمنين » كما أظن وأنت معدودة حالات الايداع في االمستشفى كلا ، انها معدودة على أصابع اليد »

ثم يتوقف ، يخبو صوته أمام نظرات ماكمورفي يقول ماكمورفي بعد هنيهة صمت « هل تتبرّز عليّ ؟ » ، يهز هاردنغ رأسه يبدو فزعاً يقف ماكمورفي وسط القاعة ويقول « هل تتبرّزون عليّ ايها الرجال ؟ »

يصمت الجميع يسير ماكمورفي جيئة وذهاباً أمام تلك الدكة ، ينكش شعره الكثيف بيده ، يسير حتى آخر صفّ « المبرحين » ، ثم يعود إلى بدايته ، الى آلة التصوير الشعاعي تهسّ الآلة وتبصق عليه

« وأنت يا بيللي ـ لا بد أن تكون مودعاً ، بحق المسيح ؟ »

يدير بيللي ظهره لنا ، ذقنه مرفوع فوق الستـرة السوداء ، يقف على أطراف قدميه كلا يقول من داخل الآلات

« لماذا إذن ؟ لماذا ؟ أنت أيضاً شاب ، كان عليك أن تخرج وتطارد الفتيات الشهوانيات كل هذا الذي تملكه » يمسح بيده على جسد بيللي « ـ لماذا تحجزه ؟ »

لا يقول بيللي شيئاً يتحول ماكمورفي عنه إلى رجال آخرين

« أخبروني لماذا تتذمرون ، تعبرون أسابيع طويلة عن ضيقكم بهذا المكان ضيقكم بالممرضة وكل ما يمت اليها بصلة ، وأنتم غير مودعين ؟ أستطيع أن أفهم حالة البعض من الكهول في الجناح انهم معتوهون ولكن أنتم ، صحيح أنكم لا تشبهون الرجل السويّ في الشارع لكنكم لستم معتوهين »

لا يردّون عليه ، ينتقل إلى سيفليت

« سيفليت ، ماذا عنك أنت ؟ لا يبدو أنك تعاني من شيء عدا تلك النوبات يا للجحيم ، لديّ خال مصاب بصرعٍ أسوأ منك مرتين ويرى أوهاماً تبدأ من الشيطان وتنتهي بالحذاء ، لكنه لا يغلق على نفسه في مستشفى مجانين بإمكانك الخروج مثله لو امتلكت الشجاعة ـ »

« حقاً ! » انه بيللي ، يلتفت من وراء الستارة وعيناه مغرورقتان بالدموع

« حقاً ! » يصرخ ثانية ، « لو امتلكت الشـ الشجاعة ! سأخرج اليوم لو امتلكت الشجاعة أو أو أمي صديقة حميمة للآ للآنسة

راتشدت ، وأستطيع الحصول على بطاقة اخلاء سبيل موقعة هذا المساء ، لو امتلكت الشجاعة ! »

يسحب قميصه عن الدكة ويحاول ارتداءه ، لكنه يرتعش بشدّة يلقيه أخيراً ويلتفت الى ماكمورفي

« أتظن أنني أر أر أريد البقاء هنا ؟ أتظن أنني لا أشتهي فتاة شبقة أو صـ صـ صديقة ؟ ولكن هل حدث أن التقيت بأناس يضـ يضـ يضحكون عليك ؟ كلا ، لأنك ضـ ضـ ضخم للغاية وقوي ! حسناً ، أنا لست ضخماً وقوياً وهاردنغ كذلك وفريد فريدريكسون ، وسيفـ سيفليت ، آه ، آه ، أنت تتـ تتحدث وكأننا راغبون في البقاء هنا بسبب ارتياحنا للمكان ! آه ـ لا فا فائدة »

ينخرط في بكاء عنيف ويزداد تلعثمه فلا يتمكن من إضافة شيء ، يمسح عينيه بظاهر يده ليتمكن من الرؤية تخدش احدى البثور يده ، وكلما واصل مسح عينيه كلما تلطخ وجهه وعيناه بالدم ثم يصاب بالعمى ، يترنح من جهة الى أخرى في القاعة بوجهه الملطّخ بالدم ، ويجري خلفه صبي أسود

يستدير ماكمورفي إلى نفر الرجال ويفتح فمه ليسأل شيئاً جديداً ، ثم يغلقه حين يرى كيف ينظرون اليه يقف برهة وصفّ الأعين مسمّر عليه كصفّ المسامير المبرشمة ، ثم يقول « يا لأجراس الجحيم » ، ولكن بطريقة ضعيفة إلى حد ما يضع قبعته فوق شعره ويشدّها بشدّة ويعود إلى مكانه على الدكة. يعود الفنيون من احتساء القهوة ويعبرون الغرفة باتجاه القاعة ، وحين ينفتح الباب تفوح رائحة الحمض في الهواء كما يحدث عند شحن بطارية يجلس ماكمورفي متطلعاً إلى الباب

« لا يبدو أن دماغي يستوعب الأمر مباشرة »

حين يعود ماكمورفي الى القاعة يتلكأ عند نهاية الدكة وقد وضع يديه في جيوب ثيابه الخضراء وأرخى قبعته فوق جبهته ، يتلهى بسيجارة مطفأة حافظ الجميع على صمتهم ووجومهم تمّت تهدئة بيللي وها هو يسير أمام المجموعة على يمينه الصبي الأسود وعلى يساره الصبي الأبيض الذي يعمل في « دكان الصدمة »

تراجعت حتى كدت أسير قرب ماكمورفي وأردت أن أقول له ألا يقلق حول الأمر وأن شيئاً لن يحيق به ، لأني كنت ألاحظ وجود فكرة ما تشغل ذهنه كما تشغل الكلب حفرة لا يعرف ما بداخلها صوت يقول أيها الكلب ، هذه الحفرة ليست من شأنك - إنها كبيرة جداً ومعتمة جداً وهناك آثار أقدام في المكان تدل على وجود دبٍّ أو شيء لا يقل عنه سوءاً صوت آخر يأتي كالهمس الحاد القادم من عشيرته البعيدة ، ليس صوتاً مخلصاً يقول **إنبش** أيها الكلب ، **إنبش** !

أردت أن أقول له ألا يقلق ، وكنت على وشك قول ذلك حين رفع رأسه ودفع قبعته إلى الوراء وأسرع الى حيث يسير الفتى الاسود الضئيل ولطمه على كتفه وقال « سام ، أريد المرور على متجر البيع لشراء علبة كبيرة أو علبتين من السجائر »

تحتّم علي الاسراع للحاق به ، زاد الجري من خفقان قلبي ، رأسي تتوتر فيه نبرة حادة ظللت أسمع الصوت الذي يقرعه قلبي في رأسي حتى داخل المخزن ، رغم أن قلبي عاد تدريجياً إلى خفقانه البطيء العادي ذكّرني الصوت بما كنت أحسّ به حين أقف في ليالي الجمعة الباردة وسط ملعب كرة القدم أنتظر ضرب الكرة وبدء المباراة يتسارع الرنين ويتسارع حتى أكاد أحس أنني أقوى على الوقوف أكثر من ذلك ؛ ثم تُلعب الكرة وتأخذ اللعبة مجراها ، شعرت

برنين ليلة الجمعة ذاته ، شعرت بالرعب ذاته ، بنفاذ الصبر المتقلب وكنت أبصر بحدَّة وتواتر عال ، كما كان يحدث قبل اللعبة وكما فعلت حين تطلعت من نافذة المهجع منذ وقت قريب كل شيء كان حاداً وواضحاً وصلباً بالحالة التي نسيتها صفوف من معاجين الاسنان وأربطة الأحذية ، رفوف من النظارات الشمسية والاقلام الناشفة التي يضمنون ذلك أنها تكتب على الزبدة وتحت الماء أشياء تحرسها من أيدي السارقين دببة جاحظة الأعين تحتل مكاناً على رفٍّ عالٍ فوق طاولة الحساب

وقف ماكمورفي إلى جانبي أمام طاولة الحساب وعلّق ابهاميه في جيوبه وطلب من البائعة أن تعطيه علبتين كبيرتين من المارلبورو « اجعليها ثلاثة » يقول مبتسماً لها » أنوي الإفراط في التدخين »

لم يتوقف الرنين خلال اجتماع ما بعد الظهر كنت نصف مصغ اليهم وهم يعملون في سيفليت استجواباً لكي يواجه حقيقة متاعبه فينجح في ملاءمتها («انه الديلانتين!») يصيح أخيراً. «إذن يا سيد سيفليت، اذا أردت المساعدة يجب أن تكون نزيهاً » تقول هي « ولكن لا بد أن يكون الديلانتين هو السبب ، ألا يزيد من ليونة اللبان في فمي ؟ » تبتسم وتقول « جيم ، أنت في الخامسة والأربعين من عمرك . . ») حين وقعت عيناي على ماكمورفي جالساً في زاويته لم يكن يعبث بشدّة الورق أو يقلب مجلّة كحاله في كل الاجتماعات خلال الاسبوعين الماضيين لم يكن مسترخياً متبلّداً ، كان منقبضاً في جلسته على كرسيه والنظرة القاطعة الصبورة تحتل وجهه وهو يتطلع إلى سيفليت ثم إلى الممرضة الكبيرة تعالى الرنين وأنا أرقبه كانت عيناه خطّين أزرقين تحت الحاجبين الأبيضين ، كانتا تنتقلان هنا وهناك كما يحدث حين يراقب مجرى لعبة بوكر كنت واثقاً أنه في أية لحظة سيرتكب عملاً مجنوناً يكفي لنقله إلى « المضطربين » بلا تردد رأيت النظرة نفسها على وجوه رجال آخرين قبل أن يصعدوا الى الأعلى مصحوبين بفتى اسود تشبثت بذراع الكرسي وانتظرت ، وَجِلاً أن يحدث الأمر كنت أشك قليلاً في أنه لن يحدث

بقيت دقيقتان على انتهاء الاجتماع ، طوت الممرضة أوراقها ووضعتها في السلّة وأنزلتها من حجرها على الأرض ثم أرسلت عيناها لترقبا ماكمورفي

ثانية واحدة وكأنها أرادت التيقّن من أنه يقظ ومنصت طوت يديها في حجرها ونظرت إلى الأصابع وسحبت نفساً عميقاً واهتز رأسها

« أيها الفتيان ، لقد كرست الكثير من تفكيري لما سأقوله الآن ، ناقشته مع الطبيب وباقي الاداريين ، وبقدر ما نشعر جميعنا بالأسف فقد توصلنا إلى النتيجة ذاتها ، انه يجب إيقاع قصاص ما ردّاً على السلوك المزري الذي اتخذتموه نحو واجبات التنظيف خلال الاسابيع الثلاثة المنصرمة » رفعت يدها وتطلعت من حولها « انتظرنا كل هذه المدة الطويلة دون التطرق إلى الموضوع آملين أنكم أيها الرجال ستلقون على عاتقكم مهمة الاعتذار عن نهج العصيان الذي لجأتم اليه لكن أحدكم لم يعرب عن أدنى إشارة ندم »

ازداد ارتفاع يدها لتوقف أية مقاطعة قد تصدر حركة قاريء حظوظ في حقيبته مقنطرة بالزجاج

« أرجو أن تفهموا لا نفرض عليكم قواعد وحدر معينة دون التفكير مطولاً في قيمتها العلاجية عدد لا بأس به منكم موجود هنا لأنكم لم تستطيعوا التلاؤم مع قواعد المجتمع في « العالم الخارجي » ، لأنكم رفضتم الارتقاء بها ، لأنكم حاولتم اجهاضها واجتنابها قد تكونون في زمن ما ـ في طفولتكم ربما ـ لقيتم تسامحاً ازاء تجاوزكم لقواعد المجتمع حين تخرقون قاعدة فأنتم تعرفونها أردتم لفت الانظار اليكم ، كنتم بحاجة الى لفت الانظار لكن العقوبة غابت التسامح الأحمق من جانب ذويكم قد يكون النواة التي كبرت فشكّلت مرضكم الراهن أقول هذا آملة أن تفهموا أن هدف النظام والانضباط هو في صالحكم كلّية »

تركت رأسها يتلفت في الغرفة لبس وجهها نظرة الاسف الهدوء مطبق باستثناء الرنين المحموم الصاخب ، الهائج في رأسي

« فرض النظام صعب في هذه البيئات يجب أن تكونوا قادرين على فهم ذلك ماذا نستطيع أن نفعل بكم ؟ لا يمكن اعتقالكم لا يمكن ابقاؤكم على الخبز والماء يجب أن تلاحظوا أن الاداريين واجهوا مشكلة ماذا نستطيع أن نفعل ؟ »

خطرت لركلي فكرة عما يجب أن يفعلوه ، لكنها لم تعره انتباهها   اضطرم الوجه بضوضاء تكتكات الساعة حتى أنجز ملامح نظرة جديدة   أجابت أخيراً على سؤالها

« يجب تجريدكم من امتياز   وبعد دراسة متأنية لظروف هذا العصيان قرّرنا أنه لا بدّ من وجود عدالة معينة في تجريدكم من امتياز غرفة الحوض التي كنتم أيها الرجال تستخدمونها في لعب الورق نهاراً   هل يبدو ذلك غبناً لكم ؟ »

لم يتحرك رأسها ، لم تنظر   لكنهم واحداً إثر الآخر نظروا اليه جالساً في زاويته   حتى « المزمنون » الكهول الذين استغربوا التفات الجميع إلى اتجاه واحد مدّوا أعناقهم العجفاء كالطيور ونظروا إلى ماكمورفي   توجهت اليه الوجوه ملأى بأمل مفضوح   خائف

ذلك الإيقاع المنفرد في رأسي أصبح أشبه بالإطارات اللاهثة المنحدرة فوق رصيف

كان يجلس مستقيماً في كرسيه ، اصبع واحد أحمر يحكّ بتكامل خطّ القطب فوق أنفه   ابتسم لجميع الناظرين اليه وخلع قبعته من واقيتها ولمسها بتهذيب ، ثم عاد بنظره إلى الممرضة

« وهكذا ، اذا لم تكن من مناقشة لهذا الإجراء ، أظن أن الساعة انتهت   »

توقفت ثانية ، نظرت إليه بذاتها   هزّ كتفيه ، تنهد بعمق ، خبط يديه على ركبتيه ودفع نفسه لينهض عن الكرسي   تمطّى وتثاءب وحكّ أنفه ثانية وبدأ يتسكع في الغرفة النهارية حيث جلست هي قرب مركز الممرضات ، رافعاً سرواله بإبهامه وهو يسير   كنت أدرك أن أوان إيقافه عن أي فعل أحمق يدور في رأسه قد فات ، وراقبته كما يفعل الجميع   سار بخطوات طويلة ، طويلة للغاية ، معلقاً إبهامه في جيبه   كان الحديد في عقبي حذائه يقدح الشرر عن الأرضية

انه من جديد المستهتر ، المقامر المتسكع ، الايرلندي المشاكس أحمر الشعر ، راعي البقر الخارج من التلفزيون ينحدر في منتصف الطريق لملاقاة غريمه

قفزت عينا الممرضة الكبيرة من محجريهما وأبيضّتا حين اقترب منها لم تحسب أنه سيفعل شيئاً كانت تقدّر أنها أحرزت الآن انتصارها النهائي عليه ، تفترض أنها سترسي ركائز حكمها مرة وإلى الابد وها هو يقترب ، ها هو ضخماً كمنزل !

بدأت تمطّ فمها بحثاً عن فتيانها السود ، فزعة حتى الموت ، لكنه توقف قبل أن يصل اليها توقف في مواجهة نافذتها وقال بجلافته العميقة البطيئة كيف أنه تصوّر امكانية استخدامه لإحدى علب السجائر التي اشتراها هذا الصباح ، ثم دفع يده في الزجاج

تحطم الزجاج هابطاً كانصباب الماء ، وألقت الممرضة يديها فوق أذنيها تناول واحدة من علبتي السجائر الكبيرتين اللتين كتب اسمه عليهما وسحب علبة ، ثم أعادها والتفت إلى حيث جلست الممرضة الكبيرة كتمثال الطباشير ، وبحنان بالغ أخذ ينفض شظايا الزجاج عن قبعتها وكتفيها

« أنا شديد الاسف يا آنستي ، والله إني آسف كان زجاج النافذة شفافاً ومتراميا حتى نسيت وجوده تماماً »

استغرق الأمر ثانيتين استدار وتركها جالسة هناك بوجهها الممتقع المرتجف وعَبَر الغرفة النهارية إلى كرسيه مشعلاً سيجارة

الرنين الذي كان يحتلّ رأسي توقف

الجزء الثالث

فيما بعد تولى ماكمورفي الاشياء بطريقته الخاصة أمداً طويلاً كانت الممرضة تتحين الفرص حتى راودتها فكرة أخرى تعيدها إلى القمة من جديد عرفت أنها خسرت جولة كبيرة وهي توشك على خسارة الأخرى ، لكنها لم تكن في عجلة من أمرها لم تكن تنوي التوصية بإطلاق سراحه ؛ وللمعركة أن تستمر حتى تشاء هي ، حتى يرتكب خطيئة أو يستسلم ، أو حتى تخرج بتكتيك جديد يعيدها ثانية إلى القمة في أعين الجميع

حدث الكثير قبل أن تخرج بذلك التكتيك الجديد بعد أن قطع ماكمورفي ما يمكن تسميته اعتزالاً قصيراً وأعلن عودته للحلبة بتحطيم نافذتها الخاصة ، أضفى على الاشياء في الجناح مظهراً ممتعاً شارك في كل اجتماع وكل مناقشة ، يمزح ويناقش ويغمز ، يطلق أفضل نكاته لانتزاع ضحكة باهتة من « مبرح » خشي الابتسام منذ الثانية عشرة من عمره اختار عدداً من الرجال لتشكيل فريق كرة سلة وأقنع الطبيب بإحضار كرة من صالة الرياضة ليتدرب عليها الفريق اعترضت الممرضة ، قالت ان الشيء التالي سيكون ممارسة كرة القدم في الغرفة النهارية وألعاب البولو هنا أو هناك في القاعة ، لكن الطبيب تمسك بموقفه للمرة الأولى وسمح لهم « لقد أظهر عدد من اللاعبين ، يا آنسة راتشدت ، تقدماً ملحوظاً منذ تأسيس فريق السلة ذاك أظن أنه أثبت قيمته العلاجية »

نظرت إليه بدهشة انه أيضاً يمرّن عضلاته بعض الشيء سجلت نبرة صوته لمرحلة قادمة حين يجيء زمنها ثانية ، واكتفت بإشارة من رأسها ومضت للجلـوس في مركز الممرضات والعبث بلوحات التحكم في أجهزتها وضع

المستخدمون لوحة من الورق المقوى في إطار النافذة فوق مكتبها حتى يتسنى لهم الحصول على لوح زجاج بنفس القياس ، لكنها جلست وراءه طوال اليوم كأنه غير موجود ، كأنها لا تزال قادرة على رؤ ية الغرفة النهارية كانت وراء مربع الورق المقوى أشبه بصورة ملصقة على الجدار

انتظرتْ ، دون تعليق ، وماكمورفي يتراكض في أرجاء القاعة خلال الصباحات بسرواله القصير ذي الحيتان البيضاء ، أو يقذف الكرات في المهاجع ، أو يذرع القاعة مستخدماً صافرة الحكم المعلقة في عنقه ، مدرّباً « المبرحين » على التنقل من باب الجناح إلى غرفة « العزل » في الطرف الآخر ، وصوت الكرة في الممر أشبه بطلقات المدفعية ، وماكمورفي يزأر كالرقيب « هيّا أيتها الأمهات السقيمات هيّا ! »

وكانت الألفاظ المفرطة في التهذيب هي ما يستخدمانه حين يتحدثان كان يسألها بكل رقّة اذا كانت تسمح له باستخدام قلمها الناشف ليكتب طلب « **اجازة دون مرافقة** » من المستشفى ، وبعد أن يكتبه أمامها على مكتبها يسلمها الطلب والقلم بعبارة شكر رقيقة للغاية. تتطلع في الطلب وتقول بكل تهذيب انها ستتشاور فيه مع المشرفين ـ ويستغرق الأمر دقيقتين أو ثلاثة ، ثم تعود لتخبره أنها آسفة حقاً ، فالاجازة في نظرهم ليست ذات فائدة علاجية الآن يشكرها بدوره ويغادر مركز الممرضات وينفخ في تلك الصافرة إلى حدٍّ يكفي لتحطيم النوافذ على بعد أميال ويصخب « تدربوا ، أيتها الأمهات ، تناولوا الكرة ودعونا نشاهد تصبّب القليل من العرق »

مضى شهر على وجوده في الجناح ، زمن يخوله رفع طلب في لوحة الاعلان لمناقشة رغبته في « **اجازة مع المرافقة** » خلال اجتماع المجموعة توجه إلى لوحة الاعلان ، حاملاً قلمها وكتب تحت عبارة (**يرافقني**) « غانية أعرفها من بورتلاند تدعى كاندي ستار » ـ وأفسد رأس القلم حين كتب المدة عرض طلبه في اجتماع المجموعة بعد ثلاثة أيام ، اليوم الأول لتركيب الزجاج الجديد في نافذة مكتب الممرضة الكبيرة ، وبعد أن رفض طلبه على أساس أن الآنسة ستار هذه لا تبدو لائقة ليمضي المريض اجازته برفقتها ، هزّ كتفيه وقال انها هكذا ترد الكيل كما يظن، ونهض متجهاً الى مركز الممرضات، الى النافذة التي

لا تزال شارة شركة الزجاج ملصقة عليها ، ويحشر قبضته فيها ثانية ـ شرح للمرضة فيما كان الدم يتدفق من أصابعه أنه ظن الإطار فارغاً بعد إزالة الورق المقوى « هل أدخلوا هذا الزجاج خلسة إلى النافذة ؟ هذا الشيء خطر حقاً ! »

ضمدت الممرضة ذراعه في المركز بينما بحث سكانلون وهاردنغ عن لوح الورق المقوى في القمامة وركباه من جديد على الإطار ، استخدما لاصقاً من الشريط ذاته الذي كانت الممرضة تلف به قبضة وأصابع ماكمورفي جلس ماكمورفي على أريكة متظاهراً باضطراب عظيم وهي تعنى بجروحه غامزاً سكانلون وهاردنغ من وراء رأس الممرضة التعبير الذي احتل وجهها كان هادئاً وفارغاً كطلاء المينا ، لكن التوتر كان يظهر بطريقة أخرى بطريقة احكامها اللاصق قدر ما تستطيع ، بإظهارها أقصى حالات الصبر الذي لم يعهد عندها

حان الذهاب إلى صالة الرياضة ومشاهدة فريقنا لكرة السلة ـ هاردنغ ، بيللي بيبيت ، سكانلون ، فريدريكسون ، مارتيني ، وماكمورفي كلما توقفت يده عن النزف زمناً يتيح له المشاركة في اللعب ، يقابـل فريق المساعدين ـ الصبيان الأسودان الضخمان يلعبان لفريق المساعدين كانا أفضل اللاعبين على الساحة ، يجريان من أول الملعب الى آخره كزوج من الاشباح بسروايل قصيرة حمراء ، يسجلان سلّة إثر أخرى بدقة ميكانيكية أما فريقنا فكان شديد البطء ، يفتقر إلى الطول وغلبنا المساعدون بفارق عشرين نقطة ولكن حدث شيء جعلنا نشعر بإحراز نصر ما ، أي نصر في احدى الاشتباكات على الكرة ارتطم الفتى الاسود المسمى واشنطون بمرفق أحدهم ، وكان على فريقه اخراجه بينما تشبث ماكمورفي بالكرة وجلس عليها ، غير مكترث نهائياًبالفتى الاسود المتهاوي وبانفه الكبير الذي ينزف دماً قانياً يغطي صدره كالدهان المرشوق على لوحة سوداء ، يشتم الرجال الذين يمسكون به « كان يسعى إلى اصابتي ! ابن العاهرة كان **يسعى حقاً** إلى اصابتي ! »

كتب ماكمورفي ملاحظات أخرى للمرضة كي تجدها في المرحاض بمرآتها كتب عن نفسه أقاصيص طويلة فظيعة في السجل اليومي ووقع باسم آنون كان في بعض الأحيان يستغرق في النوم حتى الثامنة. كانت توبخه ، دون حقد

على الإطلاق ، فيقف مطرقاً يصغي اليها حتى تنتهي فيفسد كل تأثيرها بأن يستفسر مثلاً عن قياس مشدات صدرها (أ) أم (ب) أم أي قياس آخر ؟

بدأ « المبرحون » الآخرون يحذون حذوه هاردنغ يغازل طالبات التمريض ، بيللي بيبيت أقلع عن تسجيل ما يسميه « الملاحظات » في السجل اليومي ، وحين استبدل زجاج نافذتها ، ورسم عليه حرف × كبير بالدهان الأبيض كي لا تبقى لماكمورفي أية ذريعة في تحطيمه والادعاء بعدم وجوده ، قام سكانلون بتحطيمه حين ارتطمت به الكرة مصادفة ، حتى قبل أن يجف دهان الحرف المرسوم عليه ثقبت الكرة والتقطها مارتيني عن الأرض كأنها طائر ميت وحملها إلى المركز حيث كانت الممرضة تحدق في الركام الجديد والزجاج المكسور يغطي مكتبها ، وسألها أن تصلح الكرة بلاصق أو ما أشبه ، تعيدها إلى حالتها السابقة اختطفت الكرة من يده دون كلمة والقتها في سلة المهملات

بانتهاء موسم كرة السلة قرر ماكمورفي أن صيد السمك هو المطلوب فقدم إجازة أخرى بعد اخبار الطبيب أن لديه بعض الأصدقاء في خليج سيوسلاو في فلورنيس يرغبون في اصطحاب سبعة أو ثمانية من المرضى في رحلة صيد بعرض البحر اذا سمح الاداريون بذلك وكتب في قوائم الطلبات أنه يرغب هذه المرة بمرافقة « اثنتين من عمّاته العجائز من مكان صغير في مدينة أوريغون » تمت الموافقة على طلبه في الاجتماع ، وحددت عطلة نهاية الاسبوع القادم موعداً لها حين فرغت الممرضة من مراجعة طلبه رسمياً امتدت يدها إلى سلتها المجدولة قرب قدميها وسحبت قصاصة كانت قد انتزعتها من احدى صحف الصباح ، وقرأت بصوت عال أنه رغم بلوغ الصيد في ساحل أوريغون ذروته الآن ، فإن سمك السلمون قد تأخر ظهوره كما أن البحر هائج وخطر وتقترح أن يأخذ الرجال ذلك بعين الاعتبار

« فكرة طيبة » قال ماكمورفي أغمض عينيه وسحب نفساً عميقاً من بين أسنانه « نعم يا سيدي ! الرائحة الملحية للبحر المتلاطم ، قرقعة المجداف على الأمواج عناصر مشجعة ، الرجال رجال والقوارب قوارب لقد لفت انتباهي الى هذه الحقيقة يا آنسة راتشدت سأتصل وأحجز ذلك القارب هذه الليلة بالذات هل أسجل اسمك معنا ؟ »

وبدلاً من اجابته مضت إلى لوحة الاعلانات وألصقت القصاصة

شرع في اليوم التالي بتسجيل أسماء الرجال الراغبين في الذهاب والذين يملكون عشرة دولارات لتغطية استئجار القارب ، بينما واظبت الممرضة على تعليق القصاصات المنشورة في الصحف والتي تتحدث عن قوارب غارقة وعواصف على الشاطىء سخر ماكمورفي منها ومن قصاصاتها ، قائلاً ان عمّتيه صرفتا معظم حياتهما في مقارعة الأمواج من ميناء إلى آخر مع هذا البحار أو ذاك ، وكلاهما ضمنتا أن تكون الرحلة آمنة كالفطيرة ، سالمة كالحلوى ، وهي لا توجب القلق لكن الممرضة كانت تعرف مرضاها أفزعتهم القصاصات أكثر مما تصور ماكمورفي تصور أنهم سيزدحمون لتسجيل أسمائهم ، لكنه اضطر الى اقناعهم وتملقهم كي يجمع العدد المطلوب ظلّ حتى اليوم السابق للرحلة بحاجة إلى اثنين اضافيين ليتسنى له تغطية نفقة القارب

لم أكن أملك النقود ، لكن فكرة التسجيل في القائمة تملكتني طويلاً وكلما تحدث عن صيد سلمون الشينوك زادت رغبتي في الذهاب كنت أعلم أن رغبتي حماقة ، لو سجلت اسمي لما اختلف الأمر عن الاعلان للجميع أنني لست أصماً. ولو أظهرت أنني سمعت كل تلك الأحاديث عن القوارب والصيد فسأظهر أيضاً أنني كنت أسمع كل حرف قيل سرّاً من حولي طوال السنوات العشر المنصرمة ولو اكتشفت الممرضة الكبيرة هذا ، انني سمعت كل الدسائس والمكائد التي كانت تحيكها موقنة أن أحداً لا يسمعها ، فسوف تصطادني بمنشار كهربائي ، تجهزني بحيث تتأكد نهائياً انني أصم أبكم ورغم مرارة الرغبة في الذهاب ابتسم قليلاً حين أفكر في الأمر علي مواصلة تمثيل الصمم إذا كنت أرغب في معاودة السمع يوماً ما

استلقيت على الفراش في الليلة السابقة للرحلة واستعرضت الفكرة ، ادعاء الصمم ، والسنين التي سمعت فيها كل ما يقال ، وتساءلت إن كان باستطاعتي تمثيل حالة جديدة مغايرة ، لكني تذكرت شيئاً واحداً لم أكن أنا الذي بدأت ادعاء الصمم ؛ الناس هم الذين بدأوا يتصرفون وكأني أكثر بلاهة من أن أسمع أو أرى أو أنطق شيئاً على الاطلاق

لم يبدأ الأمر عند قدومي الى المستشفى ؛ تصرف الناس منذ البداية وكأني لا

أستطيع السماع أو النطق طويلاً في الجيش عاملني الناس من مختلف الرتب بالطريقة ذاتها كانت هي الطريقة التي تصوروا أن عليهم استخدامها مع شخص يشبهني حتى أنني أعود بذاكرتي إلى المرحلة الدراسية فأتذكر الناس يعربون عن اعتقادهم بأنني لا أسمع ، ولذا أقلعوا عن سماع ما أقوله استلقيت هناك في السرير ، حاولت استرجاع المرة الأولى التي لاحظت فيها الأمر أظنها حدثت حين كنا لا نزال نقطن القرية في كولومبيا كان الوقت صيفاً

.وأنا في العاشرة من عمري أمام الكوخ أرشّ الملح على سمك السلمون لكي يشوى على المنصب خلف البيت ، حين أرى سيارة تنحرف عن الطريق العام وتقترب متثاقلة عبر الاخاديد وخلال السهول الصعيرة ، مثيرة أحمالاً من الغبار الأحمر وراءها مشدوداً كشريط الشاحنة القلابة

راقبت السيارة تنهب التلة وتقف على مبعدة من ساحتنا ، والغبار يتصاعد يتكسر تحت زئيرها ويتشرذم في كل اتجاه ثم يستقر أخيراً فوق سهل رملي ليدور حول نفسه في قطع غليظة قصيرة من حطام أحمر محروق تتوقف السيارة هناك بينما يستقر الغبار ، يومض تحت أشعة الشمس أعرف أنهم ليسوا سواحاً بآلات تصويرهم، فهم لا يقتربون الى هذا الحدّ من القرية لو أنهم يريدون شراء السمك لاشتروه من الطريق العامة لم يحضروا إلى القرية لأنهم لا زالوا يعتقدون أننا نسلخ فروة الرأس ونحرق الناس حول عمود خشبي لا يعرفون أن البعض من شعبنا يعمل في المحاماة في بورتلاند ، لن يصدّقوا لو أخبرتهم في الحقيقة،أصبح أحد أعمامي محامياً ويقول بابا أنه فعل ذلك ليبرهن بكل بساطة أنه قادر على التحول إلى محام ، رغم أنه يفضل صيد السلمون في الشلال أكثر من أي شيء آخر يقول بابا أنك ان لم تأخذ الحيطة فسيدخل الناس بطريقة أو بأخرى الى القيام بما يريدونك القيام به ، ان لم تحافظ على عناد البغل فتقوم بالعكس دون إرغام

تنفتح جميع أبواب السيارة دفعة واحدة ويخرج ثلاثة أشخاص ، اثنان في المقدمة وواحد في الخلف ، يصعدون المنحدر نحو قريتنا وأرى رجلين بثياب زرقاء في المقدمة وأخرى نزلت من المقعد الخلفي ، امرأة عجوز بيضاء الشعر

بلباس جامد ثقيل كأنه لوحة درع يلهثون ويتصبب منهم العرق حين يقطعون السهل الرملي إلى ساحتنا العارية

يتوقف الرجل الأول ويتأمل القرية انه قصير ومستدير يرتدي قبعة بيضاء من طراز ستيشون يهزّ رأسه لمرأى ركام مناصب السمك المتخلعة والسيارات المستعملة وقنن الدجاج والدراجات النارية والكلاب

« هل سبق لك في أيام حياتك كلها أن شاهدت شيئاً كهذا ؟ هل سبق لك؟ أقسم بالسماء، هل سبق لك أبداً ؟ »

يسحب القبعة ويمسح بأناة الكرة المطاطية الحمراء التي هي رأسه بمنديل كأنه يخشى اختلاط الشيئين المنديل والكتلة الصغيرة من الشعر الرطب الليفي

« هل تتخيل أناساً يرغبون بالعيش هكذا ؟ أخبرني يا جون ، هل تتخيل ؟ » يتحدث بصوت عالٍ لأنه غير معتاد على هدير الشلالات

جون الذي بجواره له شارب رمادي غليظ مرفوع إلى الأعلى أسفل أنفه لإيقاف رائحة السلمون الذي أنظفه. تصبب العرق فوق عنقه وخديه، وغطى ظهر ملابسه الزرقاء، يسجل ملاحظات في كتاب، ويواصل الدوران في حلقة، ناظراً الى كوخنا، حديقتنا الصغيرة ، ثياب ماما الحمراء والخضراء والصفراء الخاصة بليلة السبت وهي منشورة على أسلاك سرير - يواصل الدوران حتى يتم دورة كاملة ويعود اليّ ، ينظر إلي كأنه يراني للمرة الأولى ، وأنا لست بعيداً عنه أكثر من ياردتين يدنو مني وينظر شزراً ويرفع شاربه إلى أنفه ثانية كأن الرائحة تفوح مني لا من السمك

« أين تظن أهله ؟ » يسأل جون « داخل المنزل ؟ أم قرب الشلالات في الخارج ؟ لعلنا نناقش الموضوع مع الرجل طالما نحن في الخارج هنا »

« بالنسبة لي ، لن أدخل تلك الزريبة » يقول الرجل البدين

« في تلك الزريبة » يقول جون من خلال شاربيه ، « يعيش الزعيم يا بريكنريدج ، الرجل الذي سنتعامل معه ، الزعيم النبيل لهذا الشعب »

« نتعامل معه ؟ لا تحشرني أنا ، ليستِ هذه مهمتي يدفعون لي للتخمين لا للمؤاخاة »

تنتزع عبارته ضحكة جون

« نعم ، هذا صحيح   ولكن على أحدنا أن يعلمهم بخطط الحكومة »

« اذا كانوا لا يعلمون ، فسيعلمون قريباً »

« سيكون أمراً بسيطاً أن ندخل ونحادثهم »

« داخل تلك القذارة ؟ أراهنك بأي شيء أن ذلك المكان ينوء بالأرامل السوداوات   يقولون أن هذه الأكواخ تخزّن الحضارة العادية في الجدار ، بين طبقات التراب   وأريد اعلامك أنها ساخنة أيضاً يرحمنا الله   سأراهن أنها فرن عادي   أنظر ، انظر كيف يذوي هايواثا الصغير هذا ، انه محروق الى حدٍّ كاف »

يضحك ويمسح رأسه وحين تنظر إليه المرأة يتوقف عن الضحك   يتنحنح لتنظيف حنجرته ويبصق في الغبار ثم يخطو ويجلس في الأرجوحة التي بنـاها لي بابا في شجرة العرعر ، يجلس فيها متأرجحاً الى الأمام والخلف يهفهف على نفسه بقبعته

جعلني قوله استشيط غضباً كلما فكرت به   يمضي هو وجون في حديثهما عن منزلنا وقريتنا وأملاكنا ويقدران قيمتها ، وخطر لي انهما يتحدثان عن هذه الأشياء أمامي لاعتقادهما أنني لا أتكلم الانكليزية   لعلهما من مكان ما في الشرق حيث لا يعرف الناس هناك شيئاً عن الهنود سوى ما يشاهدونه في الافلام   أفكر بالخجل الذي سيعتورهما حين يكتشفان أنني أفهم ما يقولانه

تركتهما يقولان شيئاً آخر أو شيئين عن السخونة والبيت، ثم أقف وأخبر الرجل البدين ، بلُغتي الممتازة التي تعلمتها من الكتب المدرسية ، أن تربة بيتنا قابلة لنقل البرودة أكثر من أي بيت في المدينة ، أبرد بكثير ! « أعرف فعلاً أنه أبرد من المدرسة التي أرتادها وصالة السينما في دالاس ، التي تعلن بأحرف جليدية أنها صالة مبردة ! »

وكنت على وشك الاستمرار فأطلب منهم الدخول ريثما أذهب لاحضار بابا

من السقالات على الشاطىء ، حين ألاحظ أنه لا يلوح عليهم أنهم سمعوني اطلاقاً انهم لا ينظرون اليّ البدين يتأرجح إلى الامام والخلف ناظراً إلى حافة القمة البركانية حيث يحتل الرجال أماكنهم فوق السقالات المنصوبة على الشلالات ، مجرد نسيج متلفح بالقمصان من خلال الضباب والمسافة البعيدة بين الفينة والأخرى ترى أحدهم يطلق ذراعه ويخطو خطوة إلى الأمام كالمبارز ، ثم يرفع رمحه المشعب الى الأعلى فليتقط شخص آخر سمكة سلمون متخبطة يراقب البدين الرجال الواقفين في أماكنهم وسط حجاب الماء على مسافة خمسين قدماً ، ويطرف بعينيه ويشهق كلما نجح رجل في اصطياد سمكة

الآخران ، جورج والمرأة ، يكتفيان بالوقوف لا يتصرف أي من الثلاثة بما يوحي أنه سمع شيئاً مما قلته ، انهم في الحقيقة يشيحون بأبصارهم عني وكأنني غير موجود أبداً

تتوقف الأشياء هكذا برهة

يداخلني شعور ضاحك أن الشمس أصبحت أكثر لمعاناً بعد مجيء الثلاثة كل شيء يبدو كما هو عليه ـ الدجاج يقوقيء فوق الأسطح المغطاة بالقش ، الجنادب تتقافز من دغل إلى آخر ، الذباب يطير في سحب سوداء حول مناصب السمك وقرب الأطفال الصغار ومداري الحنطة اليدوي ، تماماً كأي نهار صيفي آخر ما عدا سقوط الشمس على هؤلاء الفرسان الثلاثة انها تصبح على حين غرة أكثر توهجاً من قبل وتزداد سخونتها جحيماً حتى أكاد أرى الشقوق التي ينسربون فيها معاً وأكاد أرى الجهاز في داخلهم يلتقط الكلمات التي قلتها لتوي ويحاول تركيبها هنا وهناك ، في هذا المكان أو ذاك ، وحين لا يجد مكاناً جاهزاً لتركيب الكلمات ، تطرد الآلة الكلمات وكأنها لم تنبس أصلاً

ظل الثلاثة جامدين خلال تواصل العملية ، حتى الأرجوحة توقفت ، تسمرت في سكون مفاجيء صنعته الشمس ، وتحجر البدين بداخلها كلعبة مطاطية ـ ثم تستيقظ دجاجة بابا الغينية النائمة بين أغصان العرعر ترى أن لدينا غرباء على الأراضي التابعة لنا فتأخذ في النباح عليهم كالكلاب وتندلع النوبة

يصرخ البدين ويقفز من الأرجوحة ويهرع مبتعداً وسط الضباب ، حاملاً قبعته في مواجهة الشمس ليتمكن من رؤية الشيء الذي يصدر كل هذه الضوضاء من شجرة العرعر ، وحين يرى أنه ليس سوى دجاجة مرقطة يبصق على الأرض ويعتمر قبعته

« أشعر شخصياً أن أي عرض نقدمه لهذه الحاضرة سيكون كافياً تماماً »

« ربما لا أزال اعتقد بوجوب بذل جهدٍ ما لمحادثة الزعيم ـ »

تقاطعه المرأة العجوز بتقديم خطوة قوية مسموعة إلى الأمام « كلا ! » ، هذه هي كلمتها الأولى « كلا » ، تقول ثانية بطريقة تذكرني بالممرضة الكبيرة نرفع حاجبيها وتحدق في جوانب المكان تقفز عيناها كالأرقام في آلة دفع النقود ، تنظر إلى ثياب ماما المعلقة بعناية على الشريط ، وتهز رأسها

« كلا لا نتحدث مع الزعيم اليوم ليس بعد أظن أتفق مع بريكنربدج للمرة الأولى ولكن لسبب مختلف تتذكر أن الملّف الذي بين أيدينا لا يتحدث عن زوجة هندية بل بيضاء ؟ بيضاء امرأة من المدينة اسمها برومدن اتخذ أسمها بدلاً من أن تتخذ اسمه آه ، نعم اظن أننا لو غادرنا الآن وعدنا إلى المدينة و ، بالطبع ، نشرنا أحاديثاً في البلدة عن خطط الحكومة لكي نعطيهم فرصة مزايا إقامة سد هيدروكهربائي وبحيرة بدلاً من خلايا الأكواخ قرب الشلالات ، عندها نعد عقداً ونرسله إلى الزوجة ، لنقل بطريق الخطأ أحس أننا سنعمل بيسر أكبر »

تنظر إلى الرجال فوق السقالات المتداعية ، العتيقة ، المتعرجة التي كانت تكبر وتترامى بين صخور الشلالات على مدى مئات الأعوام

« في حين أننا لو قابلنا الزوج وقدمنا له عرضاً مباغتاً ، قد يواجهنا بقدر لا سابق له من عناد نافاهو أو حب الوطن ، كما يجب أن نسميه »

كدت أخبرهم أنه ليس من قبيلة نافاهو ، ولكن هل تتخيل كم سيكون القول عقيماً وهم لا يصغون ؟ لا يعبأون بالقبيلة التي ينتمي اليها

تبتسم المرأة وتوميء للرجلين ، ابتسامة وايماءة لكل منهما ، تطوقهما عيناها

وتبدأ في التحرك بصلابة إلى السيارة ، مردّدة بصوت خفيف فتي « كما كان استاذي في علم الاجتماع يقول   هناك دائماً شخص واحد في كل موقف يجب عدم التقليل من قيمة سلطته   »

وصعدوا إلى السيارة ليرحلوا ، وأنا أقف هناك متسائلاً إن كانوا لمحوني مرة واحدة

دهشت بصورة ما لأنني تذكرت الحادثة   انها المرة الأولى في ما لاح أنه قرون من ذكريات الطفولة التي استطيع استرجاعها   سحرني اكتشاف حقيقة احتفاظي بالقدرة على التذكر   استلقيت مستيقظاً على السرير اتذكر أحداثاً أخرى   وفي تلك اللحظة بالذات ، حين غرقت في ما يشبه منتصف الحلم ، سمعت صوتاً تحت سريري أشبه بقرض فأر لحبة بندق   انحنيت على حافة السرير ورأيت لمعان معدن يقلع قطع اللبان التي أحفظها عن ظهر قلب الفتى الاسود المسمى غينيفر عثر على المكان الذي أُخفي فيه لبان المضغ ، كان يحك القطع ويلقيها في الكيس مستخدماً مقصاً طويلاً معقوفاً كالفكين

ارتجفت مندساً تحت الأغطية قبل أن يلمحني أنظر اليه   كان قلبي قرع بشدة في أذني ، فزعاً أن يكون رآني   أردت اخباره أن يبتعد عني ، أن يعنى بشؤونه الخاصة ويتركني أمضغ اللبان وحيداً ، ولكني لم أحبّذ كشف مقدرتي على السمع   لبثت جامداً لأرى ان كان قد ضبطني وأنا أنحني لاختلاس النظر اليه تحت السرير ، لكنه لم يبد علامة على ذلك ـ كل ما سمعته كان صوت ززززت ـ ززززت الصادر عن مقصّه ، وذكرتني القطع التي تسقط في الكيس بالبَرَدْ الذي كان يخشخش فوق اسطحنا المصنوعة من ورق الغار   انبعث الصليل من لسانه وابتسم قائلاً

« ام م م   أيها الرب العظيم   هيييبي. اتساءل كم مرة مضغ فمه هذه المادة ؟ على قساوتها »

سمع ماكمورفي الفتى الاسود يدمدم بينه وبين نفسه فاستيقظ وانقلب على مرفق واحد لينظر الى ما يفعله في هذه الساعة، مرتكزاً على ركبتيه تحت سريري   راقب الفتى الاسود قليلاَ ، فرك عينيه ليتأكد مما يراه ، كما يفرك الأطفال أعينهم في الغرف الدراسية ، ثم اعتدل في جلسته على السرير

« سأكون ابن عاهرة اذا لم يكن هنا في الحادية عشرة والنصف ليلاً ، يجوس في الظلام بمقصّه وكيسه الورقي » قفز الفتى الاسود وسلط مصباحه على عيني ماكموروفي « أخبرني يا سام ماذا تجمع بحق الشيطان حتى تختفي تحت جنح الظلام ؟ »

« عد إلى النوم يا ماكموروفي الأمر لا يخص أحداً سواه »

ترك ماكموروفي شفتيه تنفرجان عن تكشيرة بطيئة ، لكنه لم يبعد نظره عن الضوء شعر الفتى بالضيق بعد نصف دقيقة من تسليط الضوء على ماكموروفي الجالس هناك ، على الندبة اللامعة التي كادت تندمل وتلك الاسنان والنمر الموشوم على كتفه ، ثم أبعد الضوء انكب ثانية على عمله ، لاهثاً ومتوتراً كأن ازالة اللبان الجاف كانت عملية شاقة

« من واجبات المساعد الليلي » ، شرح من بين صرير أسنانه محاولاً اتخاذ مظهر ودي ، « المحافظة على نظافة السرير »

« في سبات الليل ؟ »

« ماكموروفي ، لدينا شيء ملصق يدعى لائحة الأعمال ، يعتبر النظافة عمل الساعات الأربع والعشرين »

« كان بإمكانك انجاز نصيبك من الساعات الأربع والعشرين قبل اخلادك الى النوم ، بدلاً من مشاهدة التلفزيون حتى العاشرة والنصف هل تعلم السيدة العجوز راتشدت أنكم أيها الفتيان تصرفون معظم مناوبتكم في مشاهدة التلفزيون ؟ ماذا تحسب أنها ستفعل لو اكتشفت ذلك ؟ »

نهض الصبي الأسود وجلس على حافة سريري وجه المصباح إلى أسنانه وكشّر عن ابتسامته أضاء المصباح وجهه كقنديل زيتي أسود

« حسناً ، دعني أخبرك عن هذا اللبان » قال ودنا من ماكموروفي كأنه صديق حميم قديم « كما ترى ، كنت أتساءل طوال سنوات من أين يحصل الزعيم برومدن على لبان المضغ وهو الذي لا يملك نقوداً لشرائه من المتجر ، لم ألمح أحداً يعطيه قطعة ولم يطلب من سيدة الصليب الأحمر ـ لهذا راقبت وانتظرت وها أنت ترى »

هبط على ركبتيه ورفع طرف لوحة السرير وسلط الضوء عليها من الاسفل « ما رأيك ؟ أراهن أن قطع اللبان هذه قد استعملت آلاف المرات ! »

دغدغ ماكمورفي. واصل التكشير أمام ما يراه، رفع الكيس وهزّه، ضحكا لبعض الوقت. ألقى الفتى الاسود تحية المساء وعقد فم الكيس ِكأنه طعام غدائه ومضى إلى مكان ما ليخفيه حتى وقت لاحق

« يا زعيم ؟ » هم ماكمورفي « أريدك أن تخبرني بشيء » ، وشرع في ترديد أغنية صغيرة خلاعية كانت شائعة جداً في زمن سابق « آه ، هل يفقد النعناع نكهته على الفراش في ليلة واحدة ؟ »

في البداية اعتراني غضب جارف ظننت أنه كان يسخر مني كما يفعل الآخرون

« حين تمضغه في الصباح » ، واصل غناءه بالهمسات « هل سيكون عسيراً على العض ؟ »

ولكن كلما فكرت بالأغنية أصبحت مضحكة في نظري حاولت ضبط اعصابي لكني شعرت أنني أكاد أضحك ، ليس على غناء ماكمورفي ، ولكن على نفسي أنا

« هذا السؤال يقلقني ، ألن يريّحني أحد ، هل يفقد النعناع نكهته على الفراش في ليلة واحدة ؟ »

مطّ النغمة الأخيرة ودغدغني بها كالريشة لم أملك سوى الضحك بصوت خافت وفزعت أن انخرط في ضحك دون توقف وعندها فقط ، قفز ماكمورفي عن سريره وأخذ يعبث بدرج خزانته الصغيرة ، فكتمت أنفاسي أحكمت اغلاق اسناني ، متساءلاً عما سأفعله الآن مضى زمن طويل منذ أن سمحت لأحد بسماعي أنبس بشيءٍ سوى الخوار والشخير سمعته يغلق الدرج فيتردد صداه كباب المرجل سمعته يقول ، « خذ » واستضاء على سريري شيء صغير بحجم السحلية أو الأفعى

« صنف الفواكه المتنوعة هو أفضل ما يمكنني فعله في هذه اللحظة يا زعيم هذه العلبة ربحتها من سكانلون في التنس » ، وعاد إلى سريره

وقبل أن أدرك ما كنت أفعله قلت له شكراً لك

لم يرد على الفور ارتفع على مرفقه ، يراقبني كما راقب الفتى الاسود ، ينتظر أن

أضيف شيئاً   التقطت علبة اللبان من السرير وأمسكت بها بين يدي وقلت له شكراً لك

العبارة ليست كالصوت المعتاد ، كانت حنجرتي صدئة ولساني لا ينطق الا بالصرير   اخبرني أنني بحاجة إلى تدريب ، وضحك على ذلك   حاولت مشاركته الضحك ، لكن ضحكتي بدت كصراخ الاحتجاج ، كفرخة تقلد صياح الديك بدت أقرب إلى البكاء منها إلى الضحك

طلب مني ألا أتعجل ، فلديه وقت حتى السادسة والنصف ليسمعني إذا أردت التمرين   قال أن رجلاً مثلي ظل أبكماً طوال الوقت لديه الكثير ليقوله ، واضطجع على وسادته وانتظر   فكرت دقيقة في شيء أقوله ، لكن الشيء الوحيد الذي راودني كان من النوع الذي يعجز المرء عن البوح به لغيره بسبب افتقاره إلى الكلمات الكافية   حين رأى أنني لا أستطيع النطق بشيء صالب يديه وراء رأسه وبدأ هو في الكلام

« هل تعرف يا زعيم ، كنت أتذكر لتوي زمناً مضى في ويلاميت فالي كنت أجمع الفول من حقول يوجين واعتبر نفسي محظوظاً لعيناً لفوزي بالعمل   كان ذلك في الثلاثينات ولم يكن للكثير من الصغار حظ في الحصول على عمل   حصلت عليه حين برهنت لصاحب الفول أنني أستطيع الجني بسرعة ونظافة أي من الراشدين   على أي حال كنت الصبي الوحيد في الصفوف ، لا يوجد من حولي سوى الكبار ، وبعد أن حاولت محادثتهم مرة أو مرتين رأيت أنهم غير مستعدين لسماعي ـ وأنا لست أكثر من صبي أحمر الشعر طري العود وعجفاً   لهذا اخلدت إلى الصمت   سادني كثيراً انهم لا يصغون الي   التزمت الصمت طوال الاسابيع التي قضيتها في جني محصول الحقل ، أعمل قريباً منهم ، أصغي اليهم يثرثرون عن ابن العم هذا أو ابن الخال ذاك ، أما اذا غاب أحدهم عن العمل فهم ينسجون الأقاويل عنه . أربعة أسابيع ولم أنبس ببنت شفة . حتى شعرت بحق أنهم قد دخل في روعهم نهائياً أنني لا أسمع ، أولئك الأوغاد قذرو المؤخرات   كنت أتحيّن دوري   وحلّ اليوم الأخير ورفعت عقيرتي وأخبرتهم أنهم زمرة أنذال بائسة ، أخبرت كل واحد منهم عما قالوه عنه في غيابه   هوووووي   هل أصغوا عندها ! لجأوا أخيراً إلى مجادلة بعضهم وخلقوا زوبعة من البراز وفقدت علاوتي الاضافية التي

كنت سأنالها بسبب مواظبتي على العمل وذلك لتدهور سمعتي في البلدة وادعاء صاحب الحقل انني سبب الاضطراب رغم عجزه عن اثبات الاتهام ، شتمته هو أيضاً وكانت السباب المقذعة التي أطلقتها قد كلفتني عشرين دولاراً أو نحوه لكن الأمر كان جديراً بالخسارة »

ضحك بصوت خافت وهو يتذكر، ثم حوّل رأسه عن الوسادة ونظر الي.

« كنت أتساءل يا زعيم هل تتحين اليوم الذي تقرر فيه فضحهم جميعا ؟ »

« كلا » قلت له « لا أستطيع »

« لا تستطيع فضحهم ؟ الأمر أسهل مما تظن »

« أنت أضخم قليلاً أقوى مني » قلت متمتماً

« كيف ذلك ؟ لم أفهم ما تقصده يا زعيم ؟ »

حاولت تنظيف حنجرتي « أنت أضخم وأقوى مني وتستطيع النيل منهم »

« يا إلهي ! هل تمزح ؟ يا رب السموات ـ. أنت تعلو رأس أي رجل في الجناح لا يوجد من لا تستطيع فك عظامه ، وهذه حقيقة ! »

« كلا ، أنا صغير في الحقيقة كنت كبيراً من قبل ، لكني لم أعد كذلك أنت في ضعف حجمي »

« هوو يا فتى ، أنت مجنون ، ألست كذلك ؟ أول شيء رأيته حين جئت إلى هذه المكان كان أنت وجلوسك في ذلك الكرسي ، ضخماً كجبل لعين أقول لك ، لقد جبت الآفاق في كلامات وتيكساس وأوكلاهوما وفي غالوب كلها ، وأقسم أنك أضخم هندي وقعت عيناي عليه »

« أنا من ضعاف كولومبيا » قلت ، وانتظر هو أن أواصل حديثي « بابا كان الزعيم الأوحد وكان اسمه « **تي آه ميلا تونا** » ، أي شجرة الصنوبر الاكثر شموخاً على الجبل ، ولم يكن يعيش في الجبال كان ضخماً حقاً حين كنت طفلاً كانت أمي تفوق حجمه مرتين »

« لا بد أنها كانت سيدة عتيقة حقيقية كحيوان الموز كم يبلغ حجمها ؟ »

« أوه ، ضخمة ضخمة »

« أقصد بالأقدام والإنشات »

« أقدام وإنشات ؟ نظر إليها رجل في الكرنفال وقال أنها خمسة أقدام وتسعة انشات ووزنها مائة وثلاثين باونداً ، ولكنه إنما قدرها هكذا لأنه رآها لتوه بعد أن ازدادت ضخامة مع الأيام »

« هكذا ؟ كم بلغت ضخامتها ؟ »

« أضخم من بابا ومني مجتمعين »

« أخذت في النمو خلال يوم واحد هه ؟ هذا جديد علي لم أسمع بامرأة هندية تفعل شيئاً كهذا »

« لم تكن هندية كانت ابنة مدينة من دالاس »

« وماذا كان اسمها ؟ برومدن ؟ نعم ، أعرف الآن انتظر قليلاً » يفكر برهة قصيرة ثم يقول « وحين تتزوج امرأة من المدينة هندياً فهي تتزوج شخصاً أدنى منها ؟ نعم ، أظن أنني أفهم »

كلا ، ليست هي الوحيدة التي جعلته صغيراً تآمر عليه الجميع لأنه كان ضخماً ولا يستسلم ، يفعل ما يحلو له تآمر عليه الجميع كما يفعلون بك الآن »

« من هم هؤلاء يا زعيم ؟ » قال بصوت ناعم اكتسى فجأة بمسحة جادة

« انه الائتلاف » تآمر عليه طوال سنوات كان ضخماً بما يكفي ليقارع فترة طويلة ارادوا منا أن نعيش في منازل مسبقة الصنع ومراقبة ارادوا أخذ الشلالات حتى القبيلة ولقد تآمروا عليه كانوا يلاحقونه في أزقة المدينة ويضربونه ، كما قصّوا شعره ذات مرة أوه **الائتلاف** » هائل ، هائل قاومهم زمناً طويلاً حتى جعلته أمي أصغر من أن يواصل القتال فاستسلم »

ماذا أرادوه أن يعطي الحكومة ؟ »

« كل شيء القبيلة ، القرية ، الشلالات »

« أتذكر الآن أنت تتحدث عن الشلالات التي اعتاد الهنود صيد سمك السلمون منها منذ زمن بعيد نعم لكني أتذكر أن القبيلة استلمت مبلغاً مجزياً »

« هكذا قالوا له سألهم ماذا يدفعون لقاء طريقة المرء في الحياة ؟ قال ، ماذا تقدرون أن تدفعوا لقاء ماهية الانسان ؟ لم يفهموا حتى القبيلة لم تفهم وقفوا أمام بابنا يحملون تلك الشيكات طلبوا منه أن يخبرهم بما سيفعلونه الآن ألحّوا عليه كي يستثمر أموالهم ، كي يخبرهم أين يتوجهون ، أو يشتري لهم مزرعة ، لكنه الآن أصغر من أن يجيب ، وأشدّ سكراً أيضاً لقد جلده « الائتلاف » بالسوط ضربوا الجميع .سيضربونك أيضاً لا يسمحون لرجل ضخم مثل بابا أن يسير طليقاً إلا إذا كان واحداً منهم لا بد أنك تفهم »

« نعم أظن أنني أفهم »

« لهذا كان عليك ألا تحطم تلك النافذة يعرفون الآن أنك ضخم ، يجب أن يروضوك الآن »

« كترويض فرس الموستانغ ، هه ؟ »

« كلا كلا أسمع ، لا يروضونك بهذه الطريقة يتآمرون عليك حتى لا يعود بمقدورك محاربتهم ! يحشونك ببعض الأشياء ، يركبّون الأشياء ، يتداركون أنفسهم بسرعة حالما يرون أنك ستصبح كبيراً ويبدأون العمل لتركيب آلاتهم القذرة وأنت صغير ، يواصلون ذلك ويواصلونه حتى يتمّ تجهيزك ! »

«هوّن عليك يا صاحبي هشش »

« اذا حاربت أغلقوا عليك في مكان ما وأوقفوك ـ »

« اهدأ ، اهدأ يا زعيم اخلد إلى الهدوء قليلاً لقد سمعوك »

استلقى وسكنت حركته كان فراشي دافئاً ، لاحظت ذلك كنت أسمع حفيف النعل المطاطي حين دخل الفتى الاسود بمصباحه يستطلع سبب الجلبة . مكثنا هادئين حتى غادر

« أفرط في الشراب أخيراً » ، همست له لا أبدو قادراً على التوقف عن الكلام حتى أروي له كل التفاصيل « رأيته لآخر مرة وقد فقد بصره بين أشجار الأرز من فرط السكر ، وكلما رأيته يضع الزجاجة في فمه كنت ألاحظ أنه لا يمتصّها بل تمتصّه حتى هزل وضمر جسده فلم تعد تعرفه حتى الكلاب كان علينا سحبه من أشجار الأرز ونقله في شاحنة إلى مكان ما في بورتلاند ، ليموت لا أقول أنهم يقتلون لم يقتلوه فعلوا شيئاً آخر »

كنت أشعر بنعاس رهيب لم أعد راغباً في قول المزيد حاولت العودة بتفكيري إلى ما كنت أقوله ، لكني أدركت أنه ليس ما أردت قوله

« كنت أتحدث بجنون ، أليس كذلك ؟ »

« نعم يا زعيم » ـ انقلب في فراشه « كنت تتحدث بجنون »

« لم يكن هو الذي أريد قوله لا أستطيع البوح به أبداً لن يكون له أي معنى »

« لم أقل أنه بلا معنى يا زعيم » قلت فقط انك كنت تتحدث بجنون »

لزم الصمت حتى خيل إلي أنه نام تمنيت لو أنني ألقيت عليه تحية المساء نظرت اليه ، كان مشيحاً بوجهه عني كانت ذراعه بارزة فوق الأغطية ، وكنت أستطيع رؤ ية وشم الآسات والثمانية عليها ، فكرت كم هي ضخمة ، كذراعي حين كنت ألعب كرة القدم أردت الاقتراب منه ولمس مكان الوشم لأرى ان كان لا يزال حيّاً كان مضطجعاً بهدوء الأموات ، قلت لنفسي ، ويجب أن أعرف أنه لا يزال حياً

هذه أكذوبة أعرف أنه لا يزال حياً هذا ليس سبب رغبتي في لمسه.

أريد لمسه لأنه رجل

هذه أكذوبة أيضاً هناك رجال آخرون من حولي استطيع لمسهم

أريد لمسه لأنني أحد أولئك الشاذين

ولكن هذه أكذوبة أيضاً هذا خوف يختفي وراء الآخر لو كنت أحد أولئك الشاذين لرغبت في ممارسة شيء آخر معه أريد لمسه لمجرد أنه كما هو عليه

لكنه بادرني ، حالما أوشكت على ملامسة ذراعه ، بالقول « قل لي يا زعيم » وانقلب في فراشه ملتفاً بأغطيته ، « قل لي يا زعيم ، لماذا لا ترافقنا في رحلة الصيد هذه غداً ؟ »

لم أجب

« هيا ، ماذا تقول ؟ سأسعى لتصبح هذه الرحلة يوماً مشهوداً من الجحيم هل تعرف العمتين اللتين سأصطحبهما غداً ؟ اسمع ، انهما ليستا عمتين يا رجل كلا انهما راقصتان كادحتان من بورتلاند ما رأيك في ذلك ؟ »

أجبت أخيراً بأني أحد « المعوزين »

« أنت ماذا ؟ »

« أنا مفلس »

« آه ، نعم لم أفكر بذلك »

عاد من جديد إلى الهدوء حكّ الندبة على أنفه باصبعه توقف الاصبع نهض على مرفقه ونظر إلي

« يا زعيم » ، قال ببطء وهو يمعن فيّ النظر « حين كنت موفور الصحة والقوة ـ حين اعتدت أن تكون ، ستة ، سبعة أو ثمانية وتزن مائة وستين أو نحوها ـ هل كنت قوياً بما يكفي ، مثلاً ، لرفع شيء بحجم لوح التحكم ذاك في غرفة الحوض ؟ »

فكرت باللوح لم يكن على الأرجح يزن أكثر من اسطوانة الزيت التي رفعتها في الجيش قلت له انني قد استطيع يوماً ما

« اذا عدت ضخماً كما كنت ، هل تستطيع رفعه ؟ »

قلت له انني أظن ذلك

« الى الجحيم بما تظنه أريد أن أعرف هل تعد برفعه اذا جعلتك كبيراً كما اعتدت أن تكون ؟ هل تعدني ، وتحصل ليس على منهاجي الخاص باللياقة البدنية دون مقابل بل على خمسة دولارات لرحلة صيد مجانية ؟ » لعق شفتيه واضطجع على الفراش « أراهن أن لي في الأمر مآرب أخرى »

اضطجع هناك يضحك على فكرة راودته ، حين سألته كيف سيجعلني ضخماً اسكتني بوضع اصبعه على شفتيه

« يا رجل ! لا نستطيع البوح بسر كهذا لم أقل انني سأطلعك على طريقتي هووو يا فتى اعادة نفخ الرجل إلى ضعف حجمه سرّ لا نستطيع تقاسمه مع الجميع ، من الخطر أن يقع في أيدي العدو ، حتى أنت لن تدرك حدوثه طوال الوقت لكني أعطيك كلمتي المقدسة ، اتبع برنامجي التدريبي ، سيحدث التالي »

دفع قدمه عن السرير وجلس على حافته واضعاً يديه على ركبتيه الضوء الكابي المتسلل من مركز الممرضات يعلو كتفه ويلتقي بلمعان أسنانه واتقاد عينه ، يعبر أنفه

باتجاهي خيّم صوت دلّال المزاد على الجناح

« هكذا ستصبح الزعيم الكبير برومدن ، يقطع الشـارع العريض الرجال والنساء والأطفال يقفون على أطراف أصابعهم ليختلسوا النظر اليه حسناً ، حسناً ، حسناً ، أي مارد هذا ، يقطع عشرة أقدام بخطوة واحدة ويكاد يلامس أسلاك الهاتف ؟ تعبر البلدة مختالاً ، تتوقف برهة لإشباع العذارى ، أما العاهرات فلا ينبغي أن يتزاحمن هنا إلا إذا امتلكن أثداءاً بحجم البطيخ ، وأفخاذاً بيضاء ، مثيرة وطويلة تكفي للالتفاف حول ظهره العملاق والانغلاق عليه ، وفروجاً دافئة عطرة الرائحة وحلوة كالزبدة والعسل »

ومضى ، يواصل في قلب الظلام حكايته عما سيكون عليه حالي الرجال فزعون والفتيان الجميلات يهرعن ورائي ويلهثن ثم قال أنه سيذهب على الفور لتسجيل اسمي في طاقم الصيد نهض واقفاً ، حمل المنشفة وربطها حول ردفيه ووضع قبعته ووقف قرب سريري

« آه يا رجل ، أقول لك. أقول لك ، سترى النساء يوقعنك في أحابيلهن ويتدلهن في حبك ويشبعنك عضاً وأنت ملقى على الأرض »

وعلى حين غرة ، امتدت يده بسرعة وفكت غطائي ، رفعت أغطية السرير وكشفتني عارياً تحتها

« انظر يا زعيم هوووه ! ماذا قلت لك لقد كبرت نصف قدم حتى هذه اللحظة »

وانخرط في الضحك وهو يخطو بين صفوف الاسرّة الى القاعة »

عاهرتان من بورتلاند في طريقهما الينا ليصطحبانا في قارب إلى رحلة صيد بعرض البحر ! هذه الفكرة جلعت البقاء في السرير أصعب من أن يحتمل حتى تسطع اضواء الجناح في السادسة والنصف

كنت أول من غادر الجناح لانظر إلى القائمة المثبتة على اللوحة قرب مركز الممرضات ، لأتفحص إن كان اسمي مسجلاً حقاً في رأس القائمة كتبت عبارة « سجلوا في صيد السمك بعرض البحر » بأحرف كبيرة ، ثم اسم ماكمورفي أولاً ، ثم بيللي بيبيت بعده مباشرة هاردنغ كان الثالث وفريدريكسون الرابع وهكذا حتى الرقم العاشر الذي بقي شاغراً كان اسمي مدوناً حذاء الرقم التاسع سأغادر المستشفى فعلاً ، برفقة عاهرتين وفي قارب صيد ؛ كان علي أن أواصل ترديد العبارة بيني وبين نفسي لأصدق

انزلق الفتيان الثلاثة بالقرب مني وقرأوا القائمة بأصابع رمادية ، وجدوا اسمي فيها فالتفتوا وكشروا عن ابتساماتهم

« ماذا ، من تظن أنه سجل اسم الزعيم برومدن في هذه الحماقة الهنود غير قادرين على الكتابة »

« ما الذي يجعلك تظنهم قادرين على القراءة ؟ »

النشاء على ثيابهم كان جديداً وجافاً هذا الصباح فخشخشت الأذرع في الملابس البيضاء كلما تحركوا ، كالأجنحة الورقية تظاهرت بالصمم ازاء هزئهم بي ، كأنني أجهل كل شيء ، ولكن حين غرزوا مكنسة أمامي لأنجز عملهم في القاعة ، استدرت وعدت إلى الجناح محدثاً نفسي ليذهبوا الى الجحيم الرجل الذاهب في رحلة صيد مع عاهرتين من بورتلاند لا يليق به الامساك بتلك القذارة

أفزعني الأمر قليلاً ، أن أبتعد عنهم هكذا ، لم يسبق لي من قبل أن عصيت أوامر الفتيان السود تطلعت ورائي ورأيتهم يتبعوني بالمكنسة . كانوا سيدخلون

الجناح ويقتادونني فوراً لولا أن ماكمورفي كان هناك يثير ضجة عظمى ، يزمجر جيئة وذهاباً بين الاسرّة ويضرب بمنشفته الرجال المسجلين في رحلة هذا الصباح ، فقرر الفتيان السود أن الجناح ليس منطقة آمنة تقتحم لمجرد إجبار شخص على تكنيس القاعة

سحب ماكمورفي قبعة سائق الدراجة على شعره الأحمر ليبدو كقبطان السفينة ، الذي طبعت الرسوم الموشومة على صدره في سنغافورة كان يتمايل على ارض الجناح كأنه على ظهر سفينة ، يقلّد بيديه صافرة الباخرة

« اضربوا مجاديف المركب يا شباب ، اضربوا مجاديف المركب وإلا ذبحتكم جميعاً من الوريد إلى الوريد ! »

هزّ سرير هاردنغ بسلامياته

«ست ضربات ويصبح كل شيء على ما يرام إنها تسقيم في سيرها اضربوا مجاديف المركب ، اسقطوا اعضاءكم وارفعوا جواربكم ! »

رآني أقف قرب المدخل فاندنفع نحوي ليقرع ظهري كالطبل

« انظروا إلى الزعيم العظيم ، ها هو نموذج البحار والصياد الجيد يستيقظ قبل الصباح وينبش الأرض باحثاً عن دود أحمر للطعم لتقتدِ به زمرتكم الخاملة العفنة وليكن قائدكم اضربوا مجاديف المركب اليوم يومكم ! خارج الكيس ونحو البحر ! »

تذمّر « المبرحون » واشتكوا منه ومن منشفته ، واستيقظ « المزمنون » ليتبينوا جلية الأمر برؤ وسهم المزرقّة من نقص الدم الذي حبسته الأغطية المشدودة بإحكام على صدورهم ، يتطلعون من حولهم في أرجاء الجناح ، حتى تستقر أبصارهم عليّ ، النظرات الضعيفة المغبشة بالماء ، الوجوه الراعشة الفضولية ، استلقوا لمراقبتي اخرج ثياباً دافئة للرحلة ، فجعلوني أشعر بالاضطراب والاحساس بالذنب كانوا يشعرون أنني الوحيد من «المزمنين» الذاهب في الرحلة. كهول التحموا بكراسيهم ذات الدواليب سنين طويلة ، القسطرات في أسفل أقدامهم كالأوردة التي تخدّرهم في مكان جلوسهم طوال أعمارهم راقبوني وعرفوا بالغريزة انني سأذهب كانوا يشعرون بالغيرة لأنهم لا يستطيعون مجاراتي كانوا يعرفون أن البقية الباقية من معنى الانسان في نفوسهم قد خبت وذبلت وحلت محلها غرائز حيوانية متأصلة ، (يستيقظ

« المزمنون » الكهول فجأة في عتمة الليل ، قبل أن يعرف غيرهم أن شخصاً في الجناح قد مات ، ثم يدفنون رؤوسهم وينخرطون في العواء) ، وكانوا يغارون لأن بقية من الانسان لا زالت تدفعهم للذكرى

مضى ماكمورفي ليتفقد القائمة وعاد بحثاً عن « مبرح » آخر يسجل اسمه ، تجوّل بين الاسرّة يحثّ الرجال الخامدين فيها والأغطية مسحوبة فوق رؤوسهم ، يحدثهم عن عظمة الخروج في لجّة أسنان العاصفة ومع بحار شرس يزمجر ويمطرهم باللعنات والطعام وزجاجة الروم « هيا ايها العاطلون الكسالى ، احتاج الى زميل آخر لتطبيق الطاقم ، أريد متطوعاً لعيناً آخر »

لكنه لم يفلح في اقناع أحد أفزعت الممرضة الباقين بقصصها عن سوء البحر وغرق العديد من السفن ، ولم يتضح أننا سنتدبر آخر اعضاء الطاقم قبل مضي نصف ساعة حين اقترب جورج سورينسون من ماكمورفي في صف الافطار المحتشد بانتظار فتح قاعة الطعام لتناول الافطار

سويدي عجوز ضخم متساقط الاسنان يطلق عليه الفتيان السود لقب « جورج الفركة » بسبب هوسه بالنظافة ، جاء متثاقلاً ، وقف في نهاية الصف وقدمه بعيدة عن جسده ، (يتراجع إلى الوراء كي يتفادى اقتراب وجهه من وجه من يخاطبه) ، اقترب من ماكمورفي ودمدم بكلمات غير مفهومة بين يديه جورج خجول للغاية لا ترى عينيه لانهما غائرتان عميقاً وراء جفنيه ، وكان يغطي معظم ما يتبقى من مساحة وجهه بيده تأرجح رأسه ، الاشبه بعش الغراب ، في أعلى جذعه الاشبه بالسارية ظل يدمدم بين يديه حتى دنا منه ماكمورفي أخيراً وسحب يده لكي تجد الكلمات منفذاً لخروجها

« ماذا تقول الآن يا جورج ؟ »

« الديدان الحمراء » كان يقول ، « لا أعتقد أنها ستفيدكم ـ ليس لنوع الشينوك »

« حقاً ؟ » قال ماكمورفي « الديدان الحمراء ؟ قد أوافقك يا جورج ، اذا اخبرتني ماذا عن هذه الديدان الحمراء التي تتحدث عنها »

« أفكر فقط اني منذ برهة أسمع السيد برومدن يقول كان ينبش باحثاً عن الديدان الحمراء للطعم »

« هذا صحيح يا جاحظ العينين ، أتذكر ذلك »

« ولهذا أقول فقط لا تملكون حظاً معها هذه الديدان هذا الشهر هنا تتدفق انواع الشينوك الضخمة ـ أكيد ، أكيد تحتاجون إلى سمك الرنكة أكيد أكيد احصلوا على بعض الرنكة واستعملوا هؤلاء الأصحاب للطعم ، عندها سيكون أمامكم حظ أوفر »

كان صوته يرتفع في نهاية كل جملة كأنه يطرح سؤالاً ذقنه الطويلة التي أحسن فركها هذا الصباح حتى كاد يسلخ الجلد عنها ، كانت تومىء لماكموري صاعدة هابطة ، ثم استدارت لتقوده راجعاً الى نهاية الصف ناداه ماكموري ثانية

« انتظر لحظة يا جورج ؛ تتحدث وكأنك تعرف شيئاً عن أعمال الصيد هذه »

التفت جورج وعاد يجر خطاه إلى ماكموري ، متراجعاً إلى الخلف كثيراً حتى يخال أن قدمه قد انخلعت بعيداً عن جسمه

« راهن على ذلك أكيد أكيد عملت خمساً وعشرين سنة في صنارات الشينوك ، من خليج هاف موون الى بوجيت ساوند اصطدت خمساً وعشرين سنة قبل أن تزداد قذارتي » ، ورفع يديه ليظهر لنا مدى قذارتها دنا الجميع ونظروا لم أشاهد القذارة لكني رأيت ندوباً عميقة في راحتين بيضاوين من جراء سحب خطوط الصيد من البحر بطول آلاف الاميال سمح لنا بالنظر قليلاً ، ثم أغلق يديه وسحبها وأخفاهما في قميص منامته كأننا سنلطخهما بأنظارنا ، ووقف مبتسماً لماكموري واللبان في فمه يشبه لحم الخنزير المملّح

« لدي قارب صيد ممتاز ، طوله أربعون قدماً ، لكنه يسحب اثني عشر قدماً من الماء وهو مصنوع من خشب الساج الصلب وخشب البلوط الصلب » تأرجح إلى الأمام والخلف بطريقة تجعلك تشكّ في ثبات الأرض واستوائها

« أقسم بالله ، كانت سفينة صيد رائعة ! »

استدار ليعود ، لكن ماكموري أوقفه ثانية

« يا للجحيم يا جورج ، لماذا لم تقل أنك كنت صياداً ؟ كنت أتحدث عن هذه الرحلة البحرية وكأني شيخ البحر ، ولكن بيني وبينك والجدار هناك ، القارب الوحيد الذي صعدت على متنه كان سفينة حربية في ميسوري والشيء الوحيد الذي

أعرفه عن السمك هو أنني احب أكله أكثر من تنظيفه »

« التنظيف سهل ، يستطيع بعضهم تعليمك »

« بحق الله ، ستكون قبطاننا يا جورج ، سنكون بحارتك »

تملّص جورج وهزّ رأسه بالنفي « هذه القوارب فظيعة القذارة ، كل شيء فيها قذر متسخ »

« إلى الجحيم لدينا قارب خصوصي ، معقم قبل العملية وبعدها ، يمسحونه حتى يصبح نظيفاً كأسنان كلب الصيد لن تتسخ يا جورج لأنك ستكون القبطان لن يفرض عليك تطعيم سنارة واحدة ، كن قبطاننا فقط واصدر ما تشاء من الأوامر للمغفلين السذج من أمثالنا ما تقول في ذلك ؟ »

كنت أرى أن جورج يتنازعه اغراء الذهاب من طريقة اهتزاز يديه تحت قميصه ، لكنه قال انه لا يستطيع المخاطرة وتعريض نفسه للاتساخ ، بذل ماكمورفي ما بوسعه لاقناعه ، لكن جورج واصل الرفض حتى ضرب مفتاح الممرضة الكبيرة قفل قاعة الطعام ودخلت بحقيبتها المجدولة الطافحة بالمفاجآت استعرضت بالابتسامة الأوتوماتيكية وتحية الصباح كافة الرجال حتى عبرت ، اقترب ماكمورفي من جورج ونظر إليه بعين واحدة برّاقة

« جورج ، هذه الأقاويل التي تذيعها الممرضة عن سوء البحر وخطورة هذه الرحلة ، ما رأيك بها ؟ »

« قد يكون ذلك المحيط سيئاً ، قد يكون صعباً وخطراً »

نظر ماكمورفي الى الممرضة وهي تختفي في المركز ، ثم إلى جورج زاد جورج من تحريك يديه تحت قميصه ، ناظراً من حوله إلى الوجوه الصامتة التي تراقبه

« بحق الله » قال فجأة « هل تظنون انها جعلتني أفزع من ذلك المحيط ؟ هل تظنون ؟ »

« آه ، لا أعتقد يا جورج لكني مع ذلك كنت أفكر اذا لما تأت معنا ، وطرأ طقس عاصف مخيف ، فسنكون جميعنا عرضة للضياع في البحر هل تعرف ؟ قلت لك انني لا أفقه في الملاحة شيئاً ، وسأقول لك شيئاً غيره قلت للطبيب « هاتان المرأتان القادمتان معنا هما عمتاي ، أرملتا صيادين » حسناً ، الإبحار

الوحيد لكل منهما جرى على الاسمنت الصلب ، ولن يقدما من العون أكثر مما أقدم أنا نحن بحاجة اليك يا جورج » سحب نفساً عميقاً من سيجارته وسأل « هل تملك عشرة دولارات بالمناسبة ؟ »

هزّ جورج رأسه بالنفي

« كلا لا أظن حسناً ، يا للشيطان لقد أطلقت الفكرة قبل أيام من الرحيل ، خذ » تناول قلماً من جيب سترته الخضراء ومسحه على كم قميصه وأعطاه لجورج « كن قبطاننا وسنأخذك لقاء خمسة دولارات

نظر جورج من حوله ، رمش جفناه ازاء الورطة المقبلة ظهر لبانه أخيراً كاشفاً عن ضحكة لامعة وامتدت يده إلى القلم « بحق الله ! » هتف ومضى حاملاً القلم ليسجل اسمه في آخر فراغ على القائمة بعد الإفطار هرع ماكمورفي إلى القاعة وكتب أمام اسم جورج القبطان

العاهرتان تأخرتا ساور الجميع الشك في انهما قادمتان حين لوح ماكمورفي بيده عبر النافذة وهرعنا جميعاً لننظر قال انهما قادمتان ، لكننا لم نشاهد سوى سيارة واحدة بدلاً من اثنتين وامرأة واحدة ناداها ماكمورفي من الستارة المعدنية حين توقفت أمام سياج الحديقة ، فأسرعت مباشرة نحو الجناح عابرة الأرض المعشّبة

كانت أصغر وأجمل مما توقع أحدنا اكتشف الجميع أن الفتاة عاهرة حقاً وليست عمة ، وكانوا ينتظرون كل أنواع الأشياء بعض الرجال المتديّنين لم يكونوا سعداء تماماً ولكن حين أوها خفيفة الخطى ، تسرع فوق العشب الأخضر بعينيها الخضراوين وشعرها المقصوص في دائرة طويلة وراء رأسها ، تتقافز في كل خطوة كالنوابض النحاسية في الشمس ، بارح أذهانهم كل شيء عدا انها فتاة ، انثى لا ترتدي الثياب البيضاء من رأسها حتى أخمص قدميها كأنها غمست في الجليد ، أما كيف تكسب عيشها فلم يعد يشكل فارقاً

ركضت مباشرة إلى المكان الذي يقف فيه ماكمورفي وراء السياج وعلقت أصابعها بالفتحات وشدّت جسدها إلى الستارة كانت تلهث من الركض وتكاد تندفع من خلال الفربول كانت تبكي قليلاً

« ماكموري ، أوه ، أيها اللعين ماكموري »

« لا بأس أين ساندرا ؟ »

« انها مرتبطة ، لا تستطيع المجيء ولكن هل أنت بخير أيها اللعين ؟ »

« مرتبطة ؟ »

« لكي أقول الحقيقة ، مسحت الفتاة أنفها وأردفت « ساندي العجوز تزوجت أتتذكر آرتي غلفليان من بيغرتون ؟ الذي اعتاد الظهور في الحفلات حاملاً شيئاً غريباً ، أفعى أو فأراً أبيض أو ما شابه في جيبه ؟ مهووس حقيقي - »

« يا يسوع المسيح ! » زمجر ماكموري « كيف أستطيع نقل عشرة رجال في سيارة متداعية كاندي يا حبيبتي ؟ كيف تخيلت ساندرا وثعبانها من بيغرتون أنني سأدبر ذلك ؟ »

أطرقت الفتاة وكأنها تحاول التفكير في الاجابة على سؤاله حين لعلع مكبر الصوت وطلب صوت الممرضة الكبيرة من ماكموري أن تسجل صديقته اسمها عند المدخل الرئيسي أصولاً اذا أراد محادثتها بدلاً من ازعاج كامل المستشفى غادرت الفتاة السياج واتجهت نحو المدخل الرئيسي ، كما ترك ماكموري مكانه وتعثر بكرسي في الزاوية تمتم بغضب « يا لأجراس الجحيم ! »

« أدخل الفتى الاسود الضئيل الفتاة إلى الجناح ونسي أن يغلق الباب وراءها (وأراهن أن حمم الجحيم انصبت عليه بعد ذلك) ، وأطلت الفتاة لتعبر القاعة وثباً وتمرّ بمركز الممرضات اللواتي حاولن جميعهن أن يجمدن حضورها بالقاء نظرة جليدية موحدة ، ثم دلفت إلى الغرفة النهارية لتقف على مبعدة خطوات قليلة من الطبيب كان يتجه صوب مركز الممرضات حاملاً بعض الأوراق ، نظر اليها ثم الى الأوراق ، ثم عاد بنظره إليها ، لتعمل أصابعه بعد ذلك في العبث بنظارته

توقفت في منتصف الغرفة النهارية ورأت أنها محاطة بأربعين رجلاً محدّقاً يرتدون الثياب الخضراء ، وساد هدوء عميق حتى لتكاد تسمع قرقرة البطون وتلاطم القسطرات من صف « المزمنين »

كان عليها أن تقف هناك برهة حتى تعثر على ماكمورفي ، وهكذا اتيح للجميع أن يلقوا عليها نظرة فاحصة حلقت فوق رأسها على السقف كتلة من الدخان الأزرق ، وأحسب أن الأجهزة الموزعة في كل انحاء الجناح استُنفرت وارتجفت وارتجت كارتجاج الفتاة حاولت الأجهزة تعديلها ووضعها تحت السيطرة ، أخذت عنها قراءات اليكترونية ، استنتجت انها عاجزة عن معالجة الفتاة ، فاحترقت ببساطة ، كالآلات التي تنتحر

كانت ترتدي قميصاً قصير الأكمام مثل ماكمورفي لكنه أصغر بكثير من قميصه ، حذاء رياضياً أبيض وسروالاً من طراز ليفي مزموماً فوق ركبتيها ليعطي قدميها حرية الحركة ، ولم تكن تلك المساحة القماشية كافية للإلتفاف حولها ، اذا تأملنا في ما يجب أن تغطيه لا بد أنها شوهدت مع العديد من الرجال وخبرت الكثير منهم ، لكنها في ظلّ هذه الظروف تتململ بعصبية تلميذة المدرسة أمام المنصة كانوا يتطلعون دون أن يتكلم أحدهم همس مارتيني أن المرء يستطيع رؤ ية تواريخ القطع النقدية في جيوب الليفي الذي ترتديه ، فهو ضيق جداً ، لكنه كان قريباً ويستطيع الرؤ ية أفضل من غيره

كان بيللي بيبيت أول من نطق شيئاً بصوت مسموع - ليس كلمة بالمعنى الحقيقي ، مجرد صفير خافت موجع يصف كيف أنها أفضل مما كان يتخيله أحد ضحكت وشكرته كثيراً فاحمّر وجهه خجلاً مما جعل وجهها يتورد بدوره وضحكت ثانية تحول الركود الى حركة توافد اليها « المبرحون » ليحاولوا محادثتها على الفور كان الطبيب يشدّ معطف هاردنغ يسأله من تكون هذه نهض ماكمورفي عن كرسيه واخترق الحشد متجهاً نحوها ، وحين لمحته ألقت ذراعيها حوله وقالت ، « ماكمورفي ، أيها اللعين » ، ثم تعانقا وتورد وجهها للمرة الثالثة بدت حينئذ وكأنها لا تتجاوز السادسة عشرة من عمرها ، أقسم انها كذلك

قدمها ماكمورفي للجميع وكانت تصافح كل الأيدي حين بلغت بيللي شكرته ثانية على صفيره جاءت الممرضة الكبيرة منزلقة خارج المركز ، مبتسمة ، وسألت ماكمورفي كيف ينوي حشر الأشخاص العشرة في سيارة واحدة ، فسأل إن كان باستطاعته استعارة سيارة رسمية ويقود الشحنة بنفسه ، واستشهدت الممرضة بقاعدة تمنع هذا الاجراء - كما كان الجميع يعرفون انها ستفعل - ثم اردفت أن الأمر

ممكن اذا وقّع سائق آخر على اشعار بالمسؤولية ينص على ترك نصف الطاقم اخبرها ماكمورفي أن هذا سيكلفه خمسين دولاراً لعيناً لتعويض الفرق ، اذ عليه أن يعيد نقود الرجال المتخلفين

« يمكن والحال هذا » قالت الممرضة ، « أن تُلغي الرحلة وتُسترد النقود »

« لقد استأجرت المركب ، قبض الرجل سبعين دولاراً ودسها في جيبه »

« سبعون دولاراً ؟ إذن ؟ ظننت أنك اخبرت المرضى بحاجتك لجمع مائة دولار فضلاً عن العشرة التي ستدفعها أنت ، لتمويل الرحلة يا سيد ماكمورفي »

« كنت سأدفع ثمن الوقود ذهاباً واياباً »

« الوقود لا يكلف ثلاثين دولاراً مع ذلك ، صحيح ؟ »

ابتسمت بلطف وعذوبة تنتظر طوح بيديه في الهواء ونظر إلى السقف

« هووو يا فتى ، أنت لا تفوتين فرصة واحدة ، أليس كذلك يا حضرة النائب العام في المنطقة ؟ بكل تأكيد ، ساحتفظ بالباقي لا أظن أحداً من الرجال اعتقد العكس ، تصورت انني سأربح القليل لقاء جهدي ـ »

« لكن جهودك باءت بالفشل هذه المرة » ، لا تزال تبتسم له ، طافحة بالحنو « لا يمكن لكل مضارباتك المالية الصغيرة أن تنجح على الدوام يا راندل ، حين أفكر بها الآن أشعر حقاً أنك فزت بأكثر من حصتك من الانتصارات » أطرقت تفكر في أمر أعرف اننا سنسمع عنه المزيد لاحقاً « نعم كل « مبّرح » في هذا الجناح كتب لك ايصال اعتماد لقاء صفقة ما بين الحين والآخر ، ألا تظن أنك قادر على احتمال هذه الخسارة الطفيفة ؟ »

ثم توقفت رأت أن ماكمورفي لم يعد يصغي اليها انه يراقب الطبيب كان الطبيب يحملق في قميص الفتاة الشقراء كأنما لا وجود لسواها في القاعة امتدت ابتسامة ماكمورفي الطليقة الى كامل وجهه وهو يراقب نشوة الطبيب ، دفع قبعته حتى نهاية رأسه وسار متمهلاً إلى زاوية الطبيب أفزعه بلطمة على الكتف

بالله عليك يا دكتور سبايفي ، هل سبقت لك رؤية سمك الشينوك يعلق بالخيط ؟ واحد من أفظع المشاهد في البحار السبعة هيا يا كاندي يا حبيبتي الحلوة ،

لماذا لا تطلعين الطبيب على مباهج الصيد في عرض البحر وما يتخلّله ؟ »

وتضافرت جهود ماكمورفي والفتاة فما انقضت دقيقتان حتى كان الطبيب الصغير يغلق مكتبه ويعود إلى القاعة ، مكوماً أوراقه في محفظته الجلدية

« أستطيع انجاز الكثير من الأعمال الكتابية على سطح المركب » شرح للمرضة ومرّ بها بسرعة فلم تجد فرصة لمبادرته بشيء ، ثم تبعه بقية الطاقم ولكن بصورة أبطأ ، يبتسمون لها في وقوفها أمام باب مركز الممرضات

تجمع « المبرحون » الذين لم يسجلوا أسماءهم في باب الغرفة النهارية ، أخبرونا أن لا نحضر الصيد قبل تنظيفه ، وسحب إيلليس يديه عن مسامير الجدار وضغط يد بيللي بيبيت وطالبه أن يكون صياد رجال

وبيللي ، الذي راقب المكابس النحاسية على سروال المرأة غمز له بعينه حين خرجت من الغرفة ، أخبر إيلليس أن يذهب صيد الرجال الى الجحيم لحق بنا عند الباب ، تركنا الفتى الاسود الضئيل نمرّ منه وأغلقه وراءنا ، ثم أصبحنا في الخارج ، في الخارج

كانت الشمس ترفع السحب وتضيء الواجهة القرميدية من المستشفى لتتّشح باللون الأحمر تحرك نسيم ناعم حين لاحت له الأوراق المتساقطة عن أشجار البلوط ، مكدّسة بعناية عند سياج سلك الزوابع حطّت بضعة طيور بنيّة على السياج ، وكلما ارتطمت عصفة من الأوراق بالسياج طارت مع الريح بدا للوهلة الأولى أن الأوراق كانت تضرب السياج وتتحول إلى طيور ثم تحلّق في الفضاء

نهار خريفي ندي عابق بروائح الغابات ، بصياح الصغار اللاهين بكرات القدم والطائرات الورقية الصغيرة ، كان الجميع سعداء لمجرد انهم في الخارج لكننا وقفنا جميعاً في حشد صامت وأيدينا في جيوبنا بينما ذهب الطبيب لإحضار سيارته حشد صامت ، نراقب سكان المدن يقودون سياراتهم ذاهبين إلى أعمالهم ويسترقون نظرة خرقاء الى المجانين ذوي البزّات الخضراء لاحظ ماكموفي مدى قلقنا فحاول الترويح عنا بالمزاح ومداعبة الفتاة ، لكنه بمعنى ما جعلنا نشعر بما هو أسوأ كان الجميع يفكّرون بسهولة العودة إلى الجناح ، الذهاب إلى المرضة واعلامها انها كانت على حق ؛ سيكون البحر عالياً للغاية في رياح كهذه

وصل الطبيب وصعدنا الى السيارة وانطلقنا ، أنا وجورج وهاردنغ وبيللي بيبيت في السيارة مع ماكمورفي والفتاة كاندي ؛ فريدريكسون وسكانلون ومارتيني وتاديم وغريغوري تبعونا في سيارة الطبيب الجميع كانوا هادئين كالموتى ، توقفنا في محطة وقود على مبعدة ميل من المستشفى ، تبعنا الطبيب نزل هو أولاً ، وجاء عامل المحطة يتلكأ في مشيته ويمسح يديه بخرقة قماشية ثم توقف مبتسماً واتجه نحو الطبيب ليتبينّ هؤلاء القابعين في السيارتين تراجع الى الخلف ، مسح يديه بالخرقة المبلّلة بالزيت ، قطب حاجبيه أمسك الطبيب بذراع الرجل بعصبية وأخرج ورقة بعشرة دولارات وغرزها في يد الرجل مثلما تزرع نبتة البندورة

« آه هلا ملأت الخزانين بوقود عادي ؟ » سأل الطبيب كان يتصرف بعصبية وقلق لأنه خارج المستشفى مثلنا جميعاً « هل تسمح ؟ »

« هذه البزّات الموحدة » قال عامل محطة الوقود ، « انهم من المستشفى الواقع في أول الدرب ، أليس كذلك ؟ » كان يتلفت من حوله باحثاً عن مفتاح تصليح ضخم أو شيء يمسكه بيديه انتقل أخيراً ليقف قرب كومة من زجاجات الشراب الفارغة « أنتم من المصح العقلي »

عبث الطبيب بنظارته ونظر الينا ، كأنه لاحظ بزّاتنا لتوه « نعم ، أقصد كلا نحن ، هم من المصح العقلي ، لكنهم فريق عمل وليسوا نزلاء داخليين ليسوا نزلاء بالطبع فريق عمل »

نظر الرجل شزراً إلى الطبيب والينا ثم مضى ليتهامس مع شريكه الذي كان يعمل بين الآلات تحدثا لبعض الوقت ثم هرع الثاني وسأل الطبيب من نكون وكرّر الطبيب اننا فريق عمل فضحك الرجلان معاً استطيع القول من ضحكتهما أنهما قررا بيعنا الوقود ، لكنه سيكون وقوداً قديماً وقذراً ومخلوطاً بالماء ويكلف ضعف الثمن المعتاد ـ إلا أن هذا الاحساس لم يزدني سعادة بمقدوري رؤ ية عدم ارتياح الجميع كذبة الطبيب جعلتنا نشعر بمزيد من السوء ـ ليس بسبب الكذبة ذاتها ، بل بسبب الحقيقة

تقدم الرجل الثاني إلى الطبيب مبتسماً « قلت أنك تريد وقوداً ممتازاً يا سيدي ؟ وما رأيك في فحص مصافي الزيت وماسحات الزجاج ؟ » كان أضخم من زميله انحنى على الطبيب كأنه سيبوح له بسّر « هل تصدق .ثمانية وثمانون بالمائة من

السيارات التي تشير الأرقام الى مرورها اليوم احتاجت إلى مصاف جديدة وماسحات زجاج ؟ »

كانت ضحكته مغلفة بالفحم من طول انتزاعه لشموع الاحتراق بأسنانه واصل انحناءه على الطبيب ، لطّخه بتلك التكشيرة منتظراً اقراره بالتنازل والهزيمة « أيضاً ، ما رأي فريقك في النظارات الشمسية ؟ لدينا أصنافاً جيـدة من البولارويد » عرف الطبيب أنه هزم وحين أوشك على فتح فمه ، حين أوشك على الاذعان لأي شيء ، ارتفع ضجيج حاد وانطوى سقف سيارتنا. كان ماكمورفي يصارع السقف الأكوورديوني ويحاول دفعه الى الوراء بأسرع مما يستغرقه الطيّ الآلي كان الجميع يرون كم يتميّز غيظاً من طريقة ضغطه ودفعه لذاك السقف البطيء الارتفاع ، وحين طواه وأنزله ليستقر في مكانه صعد فوق الفتاة وفوق السيارة وسار ليتوسط الطبيب ورجل المحطة ونظر إلى الفتى الاسود بعين واحدة

« حسناً والآن أيها اللفيفة ، سنأخذ العادي كما طلب الطبيب سنأخذ خزانين من العادي هذا كل شيء لتذهب قذارتك الأخرى إلى الجحيم وسنأخذه بحسم الثلاث سنتات لأننا بعثة لعينة تحت اشراف الدولة »

لم يتزحزح الرجل « هكذا؟ عتقدت أن البروفيسور هنا قال انكم لست مرضى ؟ »

« أيها اللفيفة ، ألا ترى أن قوله كان لفتة وقائية لطيفة تبعد الفزع عنكم أيها الاناس الطيبون حين تعرفون الحقيقة ؟ لن يكذب الطبيب هكذا عن أي مرضى ، مهما كانوا لكننا لسنا مجانيـن عاديين ، نحن أصحاب الدماء الحارة من جناح « الجنون الجنائي » ، في طريقنا إلى سان كونتين حيث هيأوا لنا تسهيلات أفضل لمعالجتنا هل ترى ذلك الفتى ذا الوجه المنمش هناك ؟ قد يبدو أنه خارج من غلاف مجلة ساترداي ايفنينغ بوست ، لكنهِ مهووس بالخناجر وفنان في استخدامها وقد قتل ثلاثة رجال الرجل الذي الى جانبه يدعى كبير الحمقى ، قذر وأفاك وشره كالخنزير هل ترى ذلك الضخم ؟ انه هندي ، وقد ضرب ستة رجال بذراع معول حين حاولوا ممارسة الغش في بيعه فخاخ فأر السمك. قف حيث يرونك يا زعيم ! »

نكشني هاردنغ بابهامه ، ووقفت على أرضية السيارة صوب الرجل عينيه الى وتفحصني ولم يقل شيئاً

«اعترف انها مجموعة سيئة » قال ماكمورفي « لكنه مشوار مخطط له ، مصرح به ،تشرف عليه الدولة ، ولنا الحق في التخفيض مثلنا مثل مكتب التحقيق الفيدرالي »

عاد الرجل بنظره إلى ماكمورفي ، الذي علق ابهاميه في جيوبه وتأرجح الى الوراء والأمام ونظر اليه من خلال ارنبة انفه استدار الرجل ليتأكد ان زميله لا يزال متمركزاً قرب صندوق الزجاجات الفارغة ، ثم كشّر عن ابتسامته

« زبائن خشنون حقاً ، أهذا ما تقصده أيها الأحمر ؟ الأفضل لنا أن نلفلف الموضوع ونفعل ما تأمرنا به ؟ حسناً ، اخبرني أيها الأحمر ، لماذا أنت معهم ؟ لمحاولة اغتيال الرئيس ؟ »

« لا يستطيع أحد اثبات ذلك أيها اللفيفة لقد اعتقلوني بتهمة العربدة قتلت رجلاً في حلبة كما ترى ، ولعلي أثقلت عليه بلكماتي »

« ذلك النوع من القتلة الذين يرتدون قفاز الملاكم ، أهذا ما تريد قوله أيها الأحمر ؟ »

« لم أقل ذلك بالضبط لم أستطع أبداً اعتياد هذه الوسائد التي يرتدونها ليس الأمر شبيهاً بحدث كبير منقول تلفزيونياً من كاربلاس ؛ أنا بالأحرى ما تستطيع تسميته ملاكم ظهير أو خلفي »

علق الرجل ابهاميه في جيوبه للسخرية من ماكمورفي « أنت أقرب إلى ما أسميه ظهير مصارع ثيران »

« لم أقل أن مصارعة الثيران ليست جزءاً من امكانياتي ، أليس كذلك ؟ لكني أريدك أن تتأمل هذه ». رفع يديه في وجه الرجل ، قريباً من وجهه تماماً نظر الرجل الى اليدين والي ، ثم إلى اليدين وحين اتضح أنه لم يعد لديه شيء حقيقي يستخدمه في الضغط ، تركه ماكمورفي الى الرجل الآخر المستند الى زجاجات الشراب وانتزع ورقة الدولارات العشرة من قبضته واتجه إلى مخزن البقالة القريب من المحطة

« سجلوا أيها الفتيان قيمة الفاتورة وأرسلوها إلى المستشفى » صاح بهم ، « انوي استخدام العملة في شراء بعض المرطبات للرجال أظن أننا سننالها عوضاً عن ماسحات الزجاج ومصافي الزيت المعطلة بنسبة ثمانية وثمانون بالمائة »

وحين عاد كان الجميع يشعرون بالزهو كالديكة المتصارعة ، يصدرون الأوامر لعاملي المحطة ليفحصا الضغط في الآلات ويمسحا الزجاج ويزيلا القذارة التي خلّفها طائر ما ، كأننا نملك المكان وحين لم ينجح الرجل الضخم في مسح الزجاج بما يرضي بيللي ، ناداه بيللي على الفور

« لم تمسح هذه البقـ البقعة هنا حيث ارتطمت البقـ البقّة »

« هذه ليست بقّة » قال الرجل بتكاسل وهو يزيل البقّة بأظافره « هذا طائر »

صاح مارتيني من مكانه في السيارة الأخرى أنه لا يمكن أن يكون طائرا « والا لرأينا الريش والعظام لو كان طائراً »

توقف راكب دراجة ليسأل عن سبب وجود هذه البزات الخضراء هل هم اعضاء نادٍ ما ؟ نطّ هاردنغ على الفور وأجابه « كلا يا صديقي نحن مهووسون من المستشفى على قمة التلة هناك آنيات خزف سيكولوجية ، قدور البشرية المهشمة هل تريدني أن أفكّ لك شيفرة ، ورشاش ؟ كلا ؟ أنت في عجلة من أمرك ؟ آه ، لقد ذهب يا للأسف » استدار إلى ماكمورفي « لم يسبق لي أن أدركت كيف يتضمن المرض النفسي جانب السلطة ، عنصر السلطة فكّر في ذلك ربما أصبح المريض أكثر قوة كلما أصبح أشدّ جنوناً هتلر مثال على هذا الافتراض ، السوق يجعل الدماغ العجوز يترنح ويدور ، ألا يفعل ؟ الطعام هنا مقابل الفكر هناك »

فتح بيللي علبة بيرة للفتاة ، وأسكرته بابتسامتها الوضاءة وعبارة « شكراً لك يا بيللي » فتطوع الفتى لفتح علبنا جميعاً

كانت الحمائم تصفق بأجنحتها صعوداً وهبوطاً على حافة الطريق وقد طوت أيديها وراء ظهورها

جلست هناك ، أشعر بالتماسك والراحة ، احتسي البيرة على مهلي ؛ كنت أسمع سوت البيرة من حولي زززت زززت ، هكذا نسيت أنه يمكن سماع أصوات ومذاقات طيبة كصوت ومذاق انسياب البيرة جرعت جرعة كبيرة أخرى وأخذت أتطلع من حولي لأتذكر ما نسيته طوال عشرين عاماً

« يا رجل ! » قال ماكمورفي وهو يلقي الفتاة عن سطح الدولاب لتلتصق ببيللي « هلا نظرتم إلى الزعيم الكبير يتلذّذ بالشراب الكحولي ! » وحشر السيارة في الطريق والطبيب يزمجر وراءنا للحاق بنا

لقد أظهر لنا ما تستطيع الشجاعة والتظاهر بها أن تنجز ، وعرفنا أنه علمنا استخدامها تمازحنا كثيراً طوال الطريق ونحن نتكلّف الشجاعة وحين يحملق بنا وبثيابنا الخضراء بعض المتوقفين عند شارة المرور ، كنا نحتذي به وبما يفعله بالضبط ، نجلس معتدلين وأقوياء ونتظاهر بالخشونة والشراسة ونضع تكشيرة واسعة على وجوهنا ونحدجهم بنظرات خلفية ثابتة تجعلهم يطفئون محركاتهم ويغلقون نوافذهم ويظلون واقفين حتى حين تتغير الاشارة ، يشعرون بالقلق الحقيقي اذ يتذكرون أن شلّة من القرود الشرهة الجامحة تقف قريباً منهم بفاصل لا يتجاوز ثلاثة أقدام ، ولا يوجد في الجوار من يساعدهم

هكذا قاد ماكمورفي اثني عشر رجلاً منا نحو المحيط

أظن أن ماكمورفي عرف أفضل منا كيف كانت نظراتنا مجرد استعراض ، فهو لم يستطع بعد انتزاع ضحكة حقيقية من أي شخص لعله لم يستطع أن يفهم بعد كيف لا نكون قادرين على الضحك ، لكنه عرف أن المرء لا يصبح قوياً إلا إذا نظر بمرح إلى ما يدور من حوله وفي الحقيقة ، حاول بمشقة وجهد أن يشير إلى الجانب المضحك من الأشياء حتى خُيّل الي أنه لا يبصر الجانب الآخر ، أو لعله غير قادر على رؤ ية ما يدفن الضحكة عميقاً في معدتك ربما كان الرجال عاجزين بدورهم ، يكتفون بتحسّس ضغوطات مختلف الأعمدة والموجات القادمة من كل الجهات ، تلك التي تعمل لدفعك وتركيعك في جانب أو آخر ، يكتفون بشعور استمرار « الائتلاف » في العمل ـ أما أنا فقادر على رؤ يته

كما تستطيع أن تلمس التغيير الذي طرأ على شخص غاب عنك زمناً طويلاً حين لا يستطيع من يراه يومياً ، يوماً هنا ، يوماً هناك ، أن يلحظ شيئاً ؛ التغيير

تدريجي   على طول الساحل كنت أستطيع رؤ ية علامات ما أنجزه « الائتلاف » منذ آخر دور لي بهذه البلاد   إيقاف قطار في محطة وزرع شريط من الرجال البالغين المتسربلين بأردية عاكسة وقبعات آلية ، زرعهم كفقس الحشرات المتجانسة ، أشياء نصف حية تخرج فت ـ فت ـ فت من العربة الأخيرة ، ثم إطلاق الصافرة الكهربائية والتحرك على طول الأرض الفاسدة لوضع فقس آخر

أول خمسة آلاف منزل نصبتها آلة ما دفعة واحدة فترامت فوق التلال المحيطة بالمدينة ، طازجة كالسجق الحديث الصنع ، لافتات تقول « ادخار في البيوت الغربية ـ الطريق السفلي مغلق ـ صرف معاش المتقاعدين »   ملعب في أسفل الهضبة قرب البيوت ، خلف سياج من الاسلاك المربعة ، ولافتة أخرى تقول « مدرسة سانت لوك للبنين » ـ خمسة آلاف طفل يرتدون السراويل القطنية والقمصان البيضاء تحت الكنزات الخضراء يلعبون شدّ الحبل فوق فدّان من الحصباء المكسّرة   كان الخط يلتف ويتلوى ويتراقص كالأفعى ، كل حبل مفتول يقذف طفلاً عن نهاية الطرف الآخر ويلقي به ليتدحرج على السياج دائماً ، كآلة التعشيب القلابة   كل حبل   دائماً الطفل الصغير ذاته   يتقلب ويتقلب

خمسة آلاف طفل يسكنون خمسة آلاف منزل يملكها أولئك الرجال الذين يغادرون القطار   بدت المنازل متشابهة تماماً حتى بات الأطفال ، شيئاً فشيئاً ، يخطئون في العودة إلى منازل مختلفة وأسر مختلفة   لم ينتبه أحد   يتناولون طعامهم ويأوون الى الفراش   الوحيد الذي انتبهوا اليه كان الطفل الصغير في نهاية الحبل المفتول   كانوا يميّزونه أينما حلّ من مشيته الوئيدة وكدماته   لم يكن قادراً على المرح والضحك   عسير أن تضحك وأنت تحمل وقر تلك الأعمدة المنتصبة من كل سيارة عابرة ، أو أي بيت جديد تمرّ به

« نستطيع أيضاً تأسيس لوبي في واشنطن » كان هاردنغ يقول   « منظمة خاصة   مجموعات ضغط   لوحات اعلان ضخمة على الطرقات الرئيسية تظهر رجلاً مصاباً بانفصام الشخصية يدير آلة محطمة ، رجلاً من الطراز الأصلع والأحمر والأخضر   استأجروا المجنون   نؤمن لكم مستقبلاً زاهراً ، أيها السادة »

عبرنا جسراً فوق سيوسلاد   كان الجو عابقاً بالضباب حتى صار بمقدوري أن أمدّ لساني وألعق الريح وأتذوق طعم المحيط قبل أن نتمكن من رؤ يته   عرف

الجميع أننا نقترب فالتزموا الصمت حتى وصلنا إلى حوض السفن

القبطان الذي سيقودنا ذو رأس رمادية صلعاء مركبة على عنق سلحفاة سوداء كبرج مدفع فوق زورق ملتوٍ ، سيغاره البارد المنغرز في فمه يكاد يلمسنا ويجرفنا وقف قرب ماكمورفي على الرصيف الخشبي وتطلع إلى البحر خلال حديثه وراء القبطان وعلى علو بضعة درجات ، جلس ستة رجال أو ثمانية يرتدون البسة واقية من الريح أمام دكان بيع أدوات الصيد تحدث القبطان بصوت عالٍ ، نصف كلامه للمتسكعين من حوله والنصف الثاني لماكمورفي ، صوته المغلف بالنحاس ينفجر في مكان ما بينهما

« لا يهمني أعلمتكم في الرسالة بكل وضوح لا تملكون وثيقة موقعة تخولني السلطة الكافية لن أخرج » دار الرأس المستدير حول محوره في البرج ، مسدّداً سيغاره الينا « انظر اليهم شلّة مثل هؤلاء في عرض البحر قد يغطسون كالجرذان فوق سطح القارب قد يسلبني ذويهم كل ما أملك لن أخاطر »

شرح له ماكمورفي كيف أن الفتاة الأخرى كُلّفت باستحصال التصاريخ والأوراق من بورتلاند صاح أحد الرجال المستندين إلى دكان الصيد « أية فتاة أخرى ؟ ألا تستطيع هذه الفتاة الشقراء أن تلبي جميع مطالبكم ؟ » لم يعره ماكمورفي انتباهه وواصل مناقشة القبطان ، لكننا لاحظنا كم تضايقت الفتاة تابع الرجال التحرّش بها والاقتراب منها والتهامس عليها كل الطاقم ، حتى الطبيب ، راقب المشهد أحسسنا بالعار لأننا لم نفعل شيئاً لم نعد الزمرة المزهوة المختالة التي كانت في محطة الوقود

توقف ماكمورفي عن المناقشة حين رأى أنه لا يحرز تقدماً مع القبطان ، وتلفت من حوله مرتين ، مشّط شعره بيده. « أي قارب استأجرنا ؟ »

« القارب ذاك « القبّرة » ولكن لن يضع أحد قدمه عليه حتى استلم التصريح الرسمي لن يطأه رجل »

« لا أنوي استئجار قارب لكي نمضي سحابة نهارنا نراقبه يتهاوى في الحوض » ، قال ماكمورفي « ألا يوجد هاتف في كوخ الصيد هذا ؟ لنذهب ونتدبر الأمر »

قفزا الدرجات ليدخلا دكان الصيد ، تركانا نتجمع على أنفسنا ، المتسكعون يراقبوننا ويطلقون التعليقات وابتسامات السخرية والغمز في الضلوع كانت الريح تعصف بالقوارب في مراسيها ، تمرغها في الاطارات المطاطية المنتشرة على طول الرصيف فتطلق أصواتاً كأنها تضحك منا كان الماء يسخر منا تحت الواح السفن ، واللافتة المعلقة فوق كوخ الصيد التي تقول « محطة البحّار ـ القبطان بلوك ، أدوات » تئز وتقرقع حين تهدهدها الريح في خطافيها الصدئين كانت الرخويات التي التصقت بالدعائم ، على بعد أربعة أقدام من الماء مشكّلة خط المد والجزر ، تصفر وتجلجل تحت الشمس

أصبحت الريح باردة وقاسية ، وخلع بيللي معطفه وأعطاه للفتاة فألقت به فوق قميصها ذي الأكمام القصيرة صاح أحد المتسكعين « هيه ، أنت يا شقراء هل تحبين أطفال كعكة الفاكهة هؤلاء ؟ » كانت شفتاه بلون الكبد واللون الوردي يصبغ وجهه أسفل العينين حيث هرست الريح عروقه النافرة « هيه أنت ، يا شقراء » هكذا واصل نداءه بصوت يعلو ويعلو ، بصوت متعب « هيه أنت ، يا شقراء أنت يا شقراء هيه يا شقراء »

ازداد التصاقنا ببعضنا لمقاومة الرياح

« أخبريني يا شقراء ، لماذا أودعوك معهم ؟ »

« آه ، انها ليست مودعة يا بيريس ، انها جزء من العلاج »

« هل هذا صحيح يا شقراء ؟ هل استؤجرت لمعالجتهم ؟ هيه ، أنت يا شقراء ! »

رفعت رأسها ورمتنا بنظرة لوم تتساءل فيها عن المجموعة الساخنة الدماء التي رأتها ولماذا لا نقول شيئاً للدفاع عنها ؟ لم يجب أحد على نظرتها طاقتنا الساخنة صعدت لتوها على هذه الأدراج وطوقت بذراعيها ذلك القبطان الأصلع

رفعت قبعة المعطف فوق عنقها وحكّت مرفقيها وسارت مبتعدة عنا الى نهاية الحوض لم يلحق بها أحد منا ارتعش بيللي بيبيت من البرد وعض شفتيه تهامس الرجال قرب كوخ الصيد وانفجروا ضاحكين

« اسألها يا بيرس ، هيا »

« هيا يا شقراء ، هل احضروا معهم تصريحاً بالسلطة اللازمة ؟ يقولون أن ذويهم سيقاضونك اذا غرق أحدهم وهو على سطح القارب هل فكرت في ذلك ؟ ربما كان من الأفضل لك أن تمكثي معنا يا شقراء »

« نعم يا شقراء أقاربي لن يقاضونك أعدك ابقي معنا نحن الشباب ، يا شقراء ! »

تخيلت أحس ببلل قدمي حين غرق الرصيف في الماء ليواري خجله. لم نصبح بعد قادرين على مواجهة الناس في الخارج تمنيت أن يعود ماكموروفي ويؤدب هذه الحثالة ثم يعود بنا إلى حيث ننتمي

طوى الرجل ذو الشفتين الكبيرتين سكينه ونفض الشعر عن حجره بدأ يسير على الدرجات. «هيا الآن يا شقراء، لماذا تريدين التورّط مع هؤلاء التافهين ؟ ».

استدارت ونظرت اليه من نهاية الرصيف ، ثم إلينا وتستطيع القول أنها بدأت تفكر في اقتراحه حين انفتح باب دكان الصيد وخرج ماكموروفي مخترقاً زمرة الرجال ، هابطاً على الدرجات

« تجمعوا يا أفراد الطاقم ! ترتّب الأمر ! اصعدوا واستعدوا وهناك طعم للسمك وبيرة على سطح القارب »

لطم بيللي على ظهره وداعب البعض وبدأ يفك عقد الحبال

«القبطان العجوز بلوك لا يزال على الهاتف ، لكننا سنقلع بسرعة قبل أن يخرج جورج ! دعنا نرى كيف تستطيع تسخين المحرك سكانلون ، أنت وهاردنغ أرخيا ذلك الحبل كاندي ! ماذا تفعلين هناك ؟ هيا نذهب يا حبيبتي ، اننا ننتطلق »

تدافعنا نحو القارب ، سعداء بأي شيء يبعدنا عن أولئك الرجال الواقفين في صف أمام دكان الصيد قاد بيللي الفتاة من يدها وساعدها في الصعود أخذ جورج يتمتم من فوق جسر الرصيف ، يشير لماكموروفي كي يضغط هذا الزر أو يدير ذاك القرص

« نعم ، هذه الهزيلة، القوارب الهزيلة كما نسميها » قال لماكموروفي « انها سهلة القيادة كالسيارة »

تردد الطبيب قبل الصعود والتفت إلى الدكان حيث احتشد المتسكعون على الدرجات

« ألا تظن يا راندل أن الانتظار أفضل فالقبطان - »

أمسكه ماكمورفي من صدر سترته ورفعه عن الرصيف الى القارب كأنه طفل صغير. « نعم ، يا حكيم ، ماذا ننتظر من القبطان ؟ » بدأ يضحك كالمخمور ، يتحدث بطريقة عصبية ومستثارة « ننتظر حتى يخرج القبطان ويخبرنا أن رقم الهاتف الذي أعطيته له هو لدار بغاء في بورتلاند ؟ أراهن على ذلك هيا يا جورج ، فقأ الله عينيك ، تولّ هذا الشيء وأخرجنا من هنا ! سيفليت ! أطلق ذلك الحبل وتقدم تابع العمل يا جورج »

انفجر المحرك ثم خمد ، انفجر ثانية وكأنه ينظف حنجرته ، ثم جأر حتى آخر مدى له

« هوووي ! ها هي تعمل القمها الفحم يا جورج ولتتهيأ كل الأيدي لصدّ الأوغاد المتعطلين ! »

زأرت كتلة من دخان وغبار خلف القارب ، وانصفق باب دكان الصيد لِيطلّ رأس الكابتن مهرولاً نحو الدرجات كأنه لا يجرّ وراءه جسداً واحداً فقط بل أجساد سبعة أو ثمانية رجال أيضاً هرعوا يرعدون أسفل الرصيف وتوقفوا على حافة غليان الزبد وهو يغسل أقدامهم حين أطلق جورج القارب الكبير وابتعد عن الأرصفة وأصبح البحر ملكنا الآن

هزّة مفاجئة من القارب ألقت كاندي على ركبتها، كان بيللي يساعدها في النهوض ويحاول في الوقت ذاته الاعتذار عن مسلكه فوق الرصيف هبط ماكمورفي عن منصة الربان وسأل إن كانا يودان الاختلاء ببعضهما ليتحدثا عن الأزمنة السالفة ، ونظرت كاندي إلى بيللِي فما كان منه إلا أن هزّ رأسه وتلعثم ، قال ماكمورفي أنه في هذه الحالة سيأخذ كاندي إلى أسفل القارب ويفحص الرشح والثقوب ولنصرف وقتنا في أي شيء وقف أمام باب الحجرة وحيّا الجميع وغمز بعينه وعينّ جورج قبطاناً وهاردنغ نائباً له في القيادة وقال « استمروا أيها الزملاء » ، وتبع الفتاة ليختفيا عن الأنظار داخل حجرة القارب

هدأت الريح وعلت الشمس في السماء ، دهنت بلون الكروم الجانب الشرقي من الأمواج العميقة الخضراء ، قاد جورج السفينة إلى عمق البحر ، تاركاً الرصيف ودكان الصيد وراءنا في المؤخرة حين مررنا بآخر نقطة من حاجز المياه وآخر حبل أسود شعرتَ بهدوء متعاظم يزحف إلى أعماقي ، بهدوء يتزايد كلما توغلنا وتركنا اليابسة وراءنا

تحدث الرجال بحماس عن قرصنتنا لهذا القارب ، لكنهم بعد دقائق قليلة أخلدوا الى السكينة انفتح باب الحجرة مرة واحدة بمساحة تكفي لقذف صندوق من البيرة ، وفتح بيللي زجاجة لكل منّا بمفتاح عثر عليه في صندوق الحبال وقام بتوزيعها علينا شربنا وراقبنا الأرض تغرق في أعقابنا ،

بعد ميل أو نحوه أوقف جورج السرعة عند نقطة عطالة السنارة كما أسماها ، وضع أربعة رجال على الأقطاب الأربعة لمؤخرة القارب ، وتوزع العدد الباقي منا تحت الشمس فوق سطح الحجرة أو في اعلى العقدة ، ثم خلعنا قمصاننا وراقبنا الرجال يحاولون اعداد القصبات قال هاردنغ أن القاعدة تقضي بأن يحتفظ الرجل بالقطب حتى يعلق ، ثم يبدّل مع رجل لم تُتَح له تلك الفرصة وقف جورج يدير الدفة ويحدق من خلال الزجاج المكتسي بالملح ، يصرخ بالتعليمات الخاصة بتثبيت الخطوط والبكرات وربط الخطاف في لجامه ومدى وعمق الصيد

« انتبهوا الى القطب الرابع وضعوا وزنة ثقيلة فوق الحبل مع شراع منفصل ، سأريكم كيف لا تنقضي دقائق إلا ونبلغ السمكة الكبيرة في القاع بذلك القطب ، هيا بحق الله ! »

هرع مارتيني إلى الحافة وانكب على جانبها وحدّق بعيداً في الماء مع اتجاه خيطه « آه ، آه يا إلهي » ، لكنه شاهد شيئاً أشدّ عمقاً من أن نراه نحن

كانت هناك قوارب رياضية أخرى تمخر عباب الشاطىء ، لكن جورج لم يحاول اللحاق بها ، واصل الاندفاع باستقامة وعبرها متجهاً إلى عمق البحر

قال جورج ، « راهنوا أننا سنخرج مع القوارب التجارية ، حيث السمك الحقيقي »

كانت الأمواج تنزلق ، تنشقّ عن زمرد عميق في جانب ، وعن معدن الكروم في الجانب الآخر ، زئير المحرّك هو المصدر الوحيد للضجيج الأمواج تنغمس في لجة

الماء المرتفع والمنخفض ، تضيع الصرخة المضحكة للطيور السوداء الصغيرة الشعثاء التي تسبح من حولنا مستهدية عن الجهات كل الأشياء الأخرى كانت ساكنة نام بعض الرجال وراقب بعضهم الماء كنا قد أمضينا ساعة من الابحار حين انحنى قطب سيفليت ولامس الماء ثم غطس فيه « جورج ! يا يسوع ، جورج. ساعدنا ! »

لم تكن لجورج علاقة بالصيد ؛ ابتسم وطلب من سيفليت أن يرخي العنان للخيط ويحافظ على ارتفاع الرأس ، الى الأعلى ، ويحاول اخراج السمكة !

صرخ سيفليت ، « وماذا لو جاءتني نوبة ؟ »

« حسناً ، سنقوم بكل بساطة بتعليقك في الخيط بدل الطعم » قال هاردنغ « عالج تلك السمكة الآن ، كما أمرك القبطان ، ودع مخاوفك عن النوبة »

على بعد ثلاثين ياردة من القارب اندفعت السمكة نحو الشمس في رشاش من الحراشف الفضية ، وجحظت عينا سيفليت واستولت عليه الاستثارة وهو يراقب السمكة فأرخى طرف قصبته ، وانزلق الخيط على القارب كالرباط المطاطي

« قلت لك إلى الأعلى ! تركتها تسحب نفسها ، ألا ترى ؟ ارفع ذلك الرأس إلى الأعلى الأعلى ! لقد اصطدت فضية جميلة بحق الله ! »

ابيّض فك سيفليت واصطك حين أعطى القطب لفريدريكسون « حسناً ، ولكن لو حصلت على سمكة في فمها خطاف ، فهي سمكتي المباركة ! ».

كنت مستثاراً كالآخرين لم أخطط للصيد ، لكني بعد رؤيتي للقوة الفولاذية التي يملكها السلمون في نهاية الخيط نهضت عن سطح الحجرة وارتديت قميصي ووقفت انتظر دوري عند قطب ما

أعدّ سكانلون بحيرة للسمكة الأضخم وأخرى لأول سمكة تهبط ، نصف دولار لكل من يشارك ولم يكد يضع نقوده في جيبه حتى سحب بيللي شيئاً مخيفاً بدا كعلجوم وزنه عشرة باوندات مغطى بأشواك تشبه أشواك النيص

« هذه ليست سمكة » ، قال سكانلون « لا تستطيع الفوز بشيء كهذا »

« لكنها ليست طا طائراً ! »

« إنها سمكة أطلسية » أخبرنا جورج « انها من أشهى الأسماك حين تزيل أشواكها »

أعطاني بيللي قصبته وأخذ نقوده ومضى ليجلس قرب الحجرة حيث كان ماكموري والفتاة ، ناظراً إلى الباب بكآبة « أتـ أتـ أتمنى لو توفرت عندنا أقطاب تجعلنا نواصل الصيد » ، ثم استند على جانب الحجرة

جلست وأمسكت بالقصبة وراقبت الخيط يسبح في المياه تشمّمت وأحسست بعلب البيرة الأربع التي شربتها ، كانت تختصر دزينات من رصاصات السيطرة القابعة عميقاً في داخلي ، في كل الأرجاء ، تألقت الجوانب الكرومية من الأمواج وتلاعبت تحت الشمس

لعلع جورج طالباً منا أن ننظر أمامنا ، ها هنا ما كنا نتطلع اليه انحنيت لأنظر ، ولكن كل ما رأيته كان جذعاً خشبياً عائماً وتلك الطيور البحرية السوداء تحلق وتغطس ، كالأوراق السوداء التي أسرتها دوامة غبار زاد جورج من السرعة بعض الشيء ، متجهاً إلى المكان الذي تتحلق حوله الطيور ، وجرّت سرعة القارب خيطي حتى لم أعد أميّز ان كان الطعم قد علق

« هذه الأسماك ، وهذه الفاقات تتبع مدرسة من الأسماك الشمعية » قال جورج وهو يقود القارب « إنها اسماك صغيرة بيضاء بحجم الاصبع ، تنفضها فتشتعل كالشمعة انها طعام الاسماك أسماك صديقة وراهن دائماً كلما عثرت على مدرسة كبيرة من الاسماك الشمعية أنك ستجد السلمون الفضي الكبير يتغذى »

قاد القارب وسط الطيور ، متفادياً الجذع العائم وفجأة ، تهشمت من حولي المنحدرات الناعمة من الكروم حين غطست الطيور وخضت الأسماك الصغيرة وانسابت وسطها ظهور السلمون الفضي الأزرق رأيت احدى الظهور تبحث عن اتجاه ثم تستدير لتجثم في بقعة تبعد ثلاثين ياردة عن نهاية قصبتي حيث تكمن سنارتي استخدمت الملفاف ، وكان قلبي يضرب بشدة ، ثم احسست برجّة في أعلى ذراعي كأن احدهم ضرب القصبة بمضرب كرة ، وأخذ خيطي يكرّ من البكرة تحت إبهامي ، احمر كالدماء « استخدم الساحب صاح بي جورج ، ولكن ما أعرفه عن الساحب النجمي تستطيع وضعه في عينيك ، ولذا اكتفيت بتشديد

الضغط من إبهامي حتى عاد لون الخيط إلى الاصفر ، ثم تباطأ وتوقف تطلعت من حولي ، كانت الخيوط الثلاثة الأخرى تنشدّ وتلتف كما حدث معي ، وبقية الرجال يصرخون من أعلى الحجرة ويعصف بهم الهياج ويبذلون ما بوسعهم للنزول

« الى الأعلى ، الأعلى ! ارفع الرأس إلى الأعلى » كان جورج يصرخ
« اخرج يا ماكمورفي ! تعال وانظر ما يجري »

« بارك الله بك يا فريدريكسون ، لقد اصطدت سمكتي المباركة »
« ماكمورفي ! نحن بحاجة إلى بعض المساعدة »

سمعت ماكمورفي يضحك ورأيته من زاوية عيني ، يكتفي بالوقوف في باب الحجرة ، لا يبدي حراكاً أمام ما يراه ، وكنت منشغلاً في معالجة سمكتي فلم أطلب مساعدته كان الجميع يصرخون به ليفعل شيئاً ، لكنه لم يتحرك حتى الطبيب ، الذي أمسك بالقطب الأعمق ، كان يطلب مساعدة ماكمورفي وماكمورفي يضحك فقط رأى هاردنغ أخيراً أن ماكمورفي لن يفعل شيئاً ، فأحضر خطاف السمك ورفع سمكتي الى القارب بحركة رشيقة ناعمة كأنما مارس الصيد طوال حياته انها ضخمة كقدمي ، ظننت ذلك ، انها ضخمة كعمود السياج ! قلت لنفسي ، انها أضخم من أية سمكة اصطدناها في الشلالات ، انها تقفز في جوانب قاع القارب كقوس القزح الممسوس بالجنون تنزف الدماء وتنفض الحراشف الشبيهة بالقطع النقدية الفضية ، وكنت أخشى أن تنطّ من فوق القارب لم يبد ماكمورفي حراكاً لمساعدتنا تمسّك سكانلون بالسمكة ويحاول اخماد حركتها لمنعها من القفز فوق حافة القارب ، تجيء الفتاة راكضة من الأسفل ، تصرخ أن دورها قد حان ، تمسك بقصبتي ، تشبك الخطاف ثلاثة أضعاف حجمها وأنا أحاول وضع السنارة

« يا زعيم ، سأكون ملعونة لو رأيت أبطأ من حركتك ! أوه ، ابهامك ينزف هل عضتك هذه الوحوش ؟ ليعتن أحدكم بابهام الزعيم ، اسرعوا ! »

« ها نحن نخترقهم ثانية » يصيح جورج ، وأسقط أنا الخيط بعيداً عن ظهر القارب وأرى لمعة السنارة تضمحل في هجمة زرقاء غامقة من سمك السلمون ثم تختفي عميقا في الماء تلفّ الفتاة ذراعيها حول القصبة وتعض على أسنانها

« أوه كلا ! لن تفعلي ، عليك اللعنة ! أوه ، كلا »

انها تقف على قدميها ، وضعت عقب القصبة بين ساقيها وطوت ذراعيها أسفل البكرة فانضغطت عليها بينما كان الخيط يكرّ « أوه ، كلا ! لا تفلتي » كانت لا تزال ترتدي سترة بيللي الخضراء ، لكن البكرة فكّت أزرارها فأصبح باستطاعة الجميع رؤية غياب قميصها ذي الأكمام القصيرة الجميع يحدقون ببلاهة ، يحاولون ملاعبة أسماكهم ، يخمدون سمكتي التي تتخبط في قاع القارب ، وقرص البكرة يحتك بثديها بسرعة فائقة حتى احمرت حلمتها !

قفز بيللي ليساعدها كل ما يفكر في فعله أن يحيط بها من الخلف ويساعدها في حشر القصبة بين ثدييها حتى تتوقف البكرة بضغط من لحمها فقط خلال ذلك انثنت بشدة وتصلب ثدياها حتى خُيّل الي أنها تستطيع افلات يديها ويدي بيللي وتظل القصبة ثابتة بين ثدييها

تدوم هذه الفوضى قليلاً ، مجرد بارقة زمنية هناك على البحر الرجال يصارعون ويلهثون ويشتمون ويحاولون الالتفات إلى قصباتهم بينما يختلسون النظر إلى الفتاة المعركة الدامية الطاحنة بين سكانلون وسمكتي تدور بين أقدام الجميع ؛ الخيوط تختلط وتتلاقى في كل جهة ونظارة الطبيب المربوطة بسلك تتدلى من خيط يبعد عشرة أقدام عن ظهر القارب والسمك ينقر لمعة العدسة ، والفتاة تشتم بكل ما تعرفه من مفردات وتنظر الآن إلى ثدييها العاريين ، الأول أبيض والثاني متورم أحمر ، ويشيح جورج بعينيه إلى اتجاهه فيصدم القارب بالجذع الخشبي ويخمد المحرك

كل هذا وماكمورفي يضحك يهتز كثيراً إلى الوراء والأمام على سطح الحجرة ، ينشر ضحكاته عبر المياه يضحك على الفتاة ، على الرجال ، على جورج ، عليّ وأنا أمتصّ ابهامي النازف ، على القبطان عند الرصيف الخشبي وسائق الدراجة وعاملي محطة الوقود والخمسة آلاف بيت والممرضة الكبيرة وكل شيء لأنه يعرف أن على المرء مواجهة الأشياء الضارّة والمؤذية بالضحك كي لا يفقد توازنه ، كي لا يدع العالم يطحنه في دوران مجنون يعرف بوجود جانب مؤلم ، يعرف أن ابهامي ينزف وصديقته كدمت ثديها والطبيب يفقد نظارته ، لكنه لن يدع الألم يطغى على المزاح والمرح بل سيجعل المرح يطغى على الألم ويكتسحه تماماً

لاحظت أن هاردنغ تداعى قرب ماكموروفي وانخرط في الضحك أيضاً كذلك سكانلون من قاع القارب على انفسهم وعلى الآخرين منّا والفتاة ، وهي تنقل عينيها من ثديها الأبيض إلى الأحمر ، أخذت تضحك وسيفليت ، والطبيب ، والجميع

بدأ الأمر بطيئاً ، ثم انتفخ وتمدد غمر الرجال شيئاً فشيئاً راقبت بعضهم ، ضحكت مع البعض ـ لكني لم أضحك معهم في واقع الأمر كنت بعيداً عن القارب ، طافياً فوق الماء أتماوج مع الريح والطيور السوداء ، أعلو فوق ذاتي ، وكنت أستطيع النظر إلى الاسفل فأرى نفسي وبقية الرجال أرى القارب يتراقص هناك وسط الطيور الغاطسة ، أرى ماكموروفي محاطاً برجاله الاثني عشر ، أراقبهم ، أراقبنا ، نطلق ضحكة تقرع صفحة الماء في حلقات دائمة الاتساع ، بعيداً بعيداً ، حتى تتحطم وتتكسر على الشواطىء المتناثرة في الساحل ، على الشواطىء المتناثرة في كل السواحل ، موجة إثر موجة

سحب الطبيب بالخطاف شيئاً ما من أسفل القطب العميق ، وكان جميع من على ظهر المركب باستثناء جورج قد اصطادوا سمكة حين رفع هو سمكته إلى حيث يراها الجميع بما فيهم هو ذاته ـ مجرد شكل أبيض كما بدت للوهلة الأولى ، ثم غطست إلى الأعماق رغم كل ما بذله الطبيب للإمساك بها وكلما رفعها الى السطح ثانية ، حاول انتشالها بلفّ البكرة ، رافضاً بعناد أية مساعدة يعرضها الرجال ، كانت تبصر النور فتتوغل في الأعماق ثانية

لم يكترث جورج بتشغيل القارب من جديد ، لكنه هبط ليشرح لنا كيفية تنظيف السمك والتخلص من الاحشاء والحراشف كي يصبح لحمها لذيذ المذاق علّق ماكموروفي شريحة لحم على طرفي حبل بطول أربعة أقدام ، هزّه في الريح ، وطرد طائرين ناعقين بعيداً « حتى يفرقهما الموت »

اتّشح ظهر القارب والناس الذين على ظهره باللون الأحمر والفضي خلع بعضنا القمصان وحاولنا غمسها في الماء وتنظيفها قضينا الوقت هكذا ، نصطاد قليلاً ، نشرب الصندوق الثاني من البيرة ، نطعم السمك للطيور الى ما بعد الظهيرة ، بينما كان القارب يترنح بكسل من حول الامواج والطبيب يبذل جهده مع الوحش الكامن في الأعماق هبّت ريح وأحالت البحر الى كتل غليظة فضية

وخضراء ، كحقل من الكروم والزجاج ، وبدأ القارب يتأرجح ويرتفع تدريجياً أخبر جورج الطبيب أن عليه إما أن يسحب السمكة أو يقطع الخيط لأن السماء تلبدت بغيوم وشيكة الاقتراب لم يجب الطبيب انكب على القطب ، انحنى الى الأمام ولفّ قرص البكرة ، ثم تنفس بعمق صعد بيللي والفتاة إلى منصة الربان وأخذا يتحدثان وينظران إلى الماء ، وصاح بيللي بأنه رأى شيئاً فاندفعنا جميعاً إلى تلك الجهة ، هيئة عريضة بيضاء كانت تتصلب على بعد عشرة أو خمسة عشر قدماً في الأعماق كان نهوضاً غريباً اللون الفستقي أولاً ، ثم الشكل الأبيض كالضباب تحت الماء ، يتصلب ، ينبض بالحياة

« يا يسوع الله » ، صرخ سكانلون ، « إنها سمكة الطبيب »

كانت في الجهة المعاكسة لجلوس الطبيب ، لكننا نرى بوضوح أن الخيط الذي يشدها تحت الماء يتجه من الأسفل إلى جهة الطبيب

« لن تنجح في رفعها إلى القارب » ، قال سفليت ، « الريح تزداد قوة »

« انها شبوط ضخم » قال جورج « يزن الواحد منها أحياناً مائتين أو ثلاثة ، علينا أن نرفعها بالونش »

«علينا أن نطلق سراحها يا حكيم»، قال سيفليت ووضع ذراعه على كتف الطبيب لم يقل الطبيب شيئاً ؛ تصبب منه العرق وسال بين كتفيه ، احمرت عيناه بسبب ما قضاه من وقت دون نظّارة واصل السحب واللهاث حتى ظهرت السمكة في جانبه من القارب راقبناها تمسّ حافة الماء طوال دقائق ، ثم بدأنا نعدّ الحبل والخطاف

حتى باستعمال الخطاف استغرق رفع السمكة ساعة أخرى كان علينا أن نعلّقها بالأقطاب الثلاثة وانحنى ماكمورفي ومدّ يده إلى غلاصيمها ثم حشر يده فيها ، بياض شفاف مسطح ، ثم ارتمى الى الوراء على أرضية القارب

« كانت جديرة بالعناء » لهث الطبيب وهو على الأرض لم يعد يقوى على دفع السمكة بعيداً عنه « كانت حقاً جديرة بالعناء »

زمجر القارب في طريق العودة إلى الشاطىء ، ماكمورفي يروي الحكايات السوداء عن تحطم السفن وأسماك القرش ازداد ارتفاع الموج واقتربنا من

الشاطىء ، وارتفعت من شرائح الماء كُتَل متخثّرة من الريح لتتمايل مع الرياح وتلحق بالنوارس   كانت الأمواج عند حاجز المياه ترتفع أعلى من القارب ، وطلب منا جورج أن نرتدي أطواق النجاة   رأيت القوارب الشراعية تعود إلى الشاطىء

احتجنا لثلاثة أطواق ، وثار جدل حول من سيتطوع للبقاء دون طوق   استقر الأمر أخيراً على بيللي بيبيت وهاردنغ وجورج ، وهم الذين رفضوا ارتداءها أصلاً خشية التلوث   دهش الجميع أن بيللي تطوع ، خلع طوق النجاة على الفور حين علم بحاجتنا اليه ، وساعد الفتاة في ارتدائه ، كما دهش الجميع أيضاً حين لم يصرّ ماكمورفي على أن يكون أحد الأبطال   وقف خلال الجدل وظهره الى الحجرة ، يوازن نفسه أمام تمايل القارب ، يراقب الرجال دون النطق بكلمة يبتسم ويراقب فقط

اصطدمنا بالحاجز ودخلنا في وادٍ ضيق من المياه   برج القارب يروّس شرائح الأمواج فيعلو هسيسها أمامنا ، وزئير الحوض الجاثم في ظلمة الأمواج يتصاعد وراءنا   وقف الجميع على السكّة ينقلون أنظارهم بين الجبل الذي يطاردنا والصخور السوداء المتلاطمة على الحاجز المائي على بعد أربعين قدماً الى يسارنا ، وبين جورج الذي يدير الدفة   وقف هناك كالسارية   واصل ذبذبة رأسه من الأمام إلى الوراء ، يضغط على الدّواسة ، ثم يخفف قليلاً ، ليضغط من جديد ، يقودنا بثبات فوق كثبان الأمواج الحارة المواجهة   اخبرنا قبل أن نبدأ التسابق أننا لو تجاوزنا الكثيب المائي الذي أمامنا فسنخترق الأمواج العالية دون سيطرة إذا شقت الدفة والدعامة كتلة الماء ، ولو هدّأنا من السرعة ولحقت بنا تلك الموجة الخلفية فستتجاوز مؤخرة القارب وتغرقه بعشرة أطنان من الماء   يمزح أحد أو يسخر من طريقته في تدوير رأسه الى الأمام والوراء كأنه مثبّت فوق محور دوّار

كانت المياه هادئة في المرسى وصفحتها ملساء من جديد   كنا نرى القبطان وشرطيين على رصيفنا قرب دكان الصيد على حافة الماء   تجمع المتسكعون خلفهم اتجه جورج نحوهم بسرعة قصوى والقارب يهدر حتى أخذ القبطان يلوّح بيديه ويصرخ ولجأ الشرطيان الى الدرجات مع المتسكعين ، أدار جورج عجلة القيادة قبل أن تهشّم مقدمة القارب ذلك الرصيف ، ثم عكس الدعامة ، علا زئير حاد حين ارتطم القارب بالعجلات المطاطية كأن جورج القاه في فراشه   كنا قد خرجنا خلال

ذلك ، ورفع قاربنا كل القوارب المجاورة له وانزلق على طول الرصيف فأزبد على كل الأرصفة الأخرى كأننا أحضرنا البحر معنا

هرع القبطان والشرطيان والمتسكعون ليهبطوا الدرجات باتجاهنا قاد الطبيب المعركة حين شرح للشرطيين انهما لا يملكان أي ادعاء قضائي ضدنا ، فنحن بعثة قانونية تشرف عليها الدولة ، ولا يمكن إلا لوكالة فيدرالية أن تتولى الأمر فضلاً عن ذلك ، يجب فتح تحقيق حول عدد أطواق النجاة المتوفرة في القارب لو أراد القبطان إثارة المتاعب ألا يجب أن يتوفر طوق نجاة لكل راكب على القارب طبقاً للقانون ؟ حين التزم القبطان الصمت اكتفى الشرطيان بتسجيل بعض الاسماء وغادرا الرصيف الخشبي يدمدمان باضطراب ، فاشتبك ماكمورفي والقبطان في نقاش حاد وتماسكا بالأيدي كان ماكمورفي لا يزال مخموراً ، يحاول التوازن مع ارتعاش القارب فانزلق على الخشب الرطب وسقط في المحيط مرتين قبل أن يثبت أقدامه على الأرض ويضرب القبطان في رأسه الاصلع ويحلّ النزاع أحس الجميع بالارتياح لفضّ النزاع ، ومضى القبطان وماكمورفي الى الدكان لشراء المزيد من البيرة بينما انهمكنا نحن في تفريغ السمك عن المشابك .وقف المتسكعون على الرصيف يراقبون ويدخنون الغلايين التي حضّروها بأنفسهم كنا ننتظر أن يبادروا الفتاة بشيء ، كنا نأمل ذلك إذا اردت الحقيقة ، ولكن حين تحدث أحدهم أخيراً ذكر شيئاً لا علاقة له بالفتاة بل بسمكتنا التي لم ير مثلها في ساحل أوريغون بطوله أومأ الجميع مؤكدين أنها الحقيقة جاؤوا لالقاء نظرة عليها سألوا جورج أين تعلّم الملاحة بهذه الطريقة ، واكتشفنا أن جورج لم يقد قوارب صيد فقط بل كان أيضاً قبطاناً لزورق طوربيد وحاز على ميدالية صليب البحرية « كان عليك أن تعمل في مكتب خاص » قال جورج « المكاتب قذرة للغاية »

كانوا يحسون بالتغيير الذي طرأ على معظمنا هؤلاء ليسوا المجموعة الخائفة التي تصطك ركبها ، القادمة من مستشفى مجانين ، ليست التي رأوها تتلقى الاهانات هذا الصباح لم يعتذروا من الفتاة بما في الكلمة من معنى ، عما اقترفوه بحقها ، لكنهم حين استفسروا عن السمكة التي اصطادتها كانوا في غاية التهذيب وحين عاد القبطان مع ماكمورفي شربنا البيرة معاً قبل أن نغادر نهائياً

عدنا إلى المستشفى في وقت متأخر

كانت الفتاة نائمة على صدر بيللي ، وحين استيقظت أدرك أن يده خدرت نتيجة احتضانها بهذه الوضعية المربكة ، فدلكتها له أخبرها أنه سيطلب منها موعداً حين تسنح له عطلة قريبة ، وقالت انها تستطيع زيارته خلال اسبوعين من الآن إذا حدد لها الوقت ، فتطلع بيللي إلى ماكموروفي بحثاً عن اجابة أحاطهما ماكموروفي بذراعيه وقال « ليكن الموعد في الساعة الثانية »

« بعد ظهر السبت ؟ » سألت

غمز بيللي وعصر رأس الفتاة براحتي يديه. «كلا. الثانية من ليل السبت. تسلّلي واقرعي النافذة التي كنت عندها هذا الصباح سأقنع المساعد الليلي أن يدخلك »

ضحكت وأومأت برأسها « أيها اللعين ماكموروفي »

بعض « المبرحين » لا يزالون مستيقظين في الجناح ، يتجمهرون قرب المغاسل ليتبينوا ان كنا قد غرقنا أم لا راقبونا ونحن نخطو الى القاعة ، ملطخين بالدماء ، وجوهنا محروقة بالشمس ، تفوح منا راحئة البيرة والسمك ، نجرّ أسماك السلمون كأننا أبطال فاتحون سأل الطبيب إن كانوا يودون الخروج لالقاء نظرة على سمكة الهلبوت في صندوق سيارته ، فخرجنا جميعاً باستثناء ماكموروفي قال أنه مرهق ويكاد يسقط اعياء حين غاب سأل أحد « المبرحين » الذين لم يشاركوا في الرحلة كيف حدث أن ماكموروفي عاد مرهقاً بينما لاحت الاثارة والحيوية على وجوهنا جميعاً اكتفى هاردنغ بالقول أنه لم يفقد سوى اسمرار وجهه

« تتذكرون ماكموروفي حين جاء معافى ، إثر حياة شاقة في عراء مزرعة العمل ، متورد الوجه يزهو بالصحة الجسدية لقد كنا ببساطة شهوداً على أفول سمرته المجنونة الرائعة هذا كل ما في الأمر قضى اليوم ساعات عصيبة ـ في عتمة حجرة القارب بالمناسبة ـ بينما كنا في الخارج مع الطبيعة ، نتنشق فيتامين د بالطبع لعل هذا ، والحق يقال ، قد أرهقه قليلاً ، من أجزائه السفلية الى حد ما ، ولكن فكروا بالأمر أيها الاصحاب أما بالنسبة لي ، كنت أفضّل ذلك النوع من الإرهاق على استنشاق فيتامين د خصوصاً مع الصغيرة كاندي باعتبارها صاحبة جدول الأعمال هل أنا مخطيء ؟ »

لم أقل هكذا ، لكني كنت أتساءل فيما اذا كان مخطئاً حقاً لقد لاحظت تعب ماكموركي في وقت سابق ، في طريق العودة ، بعد أن ألّح على المرور من المكان الذي عاش فيه ذات مرة كنا قد تقاسمنا آخر علبة بيرة ورفعنا الصفيحة الفارغة من النافذة كإشارة وقوف وكنا على وشك الاتكاء إلى الخلف ومعايشة احساس النهار ، السباحة في خدر النعاس اللذيذ الذي يستولي عليك بعد نهار تمضيه في عمل شاق لكنك تحبه وترغب في استمراره ، نصف مخمورين ونصف محروقين بالشمس نواصل اليقظة لمجرد اننا نريد ابتلاع ما نقدر عليه من نكهة النهار لاحظت بغموض انني بدأت أرى ما هو جميل في الحياة من حولي كان ماكموركي يعلمني ، كنت أحس بالارتياح أكثر من أي وقت سابق أتذكره منذ أن كنت صبيّاً ، حين كان كل شيء جميلاً وكانت الأرض تغني أشعار الأطفال

قدنا السيارة في طريق الداخل بدلاً من الساحل ، كي نعبر هذه البلدة التي عاش فيها ماكموركي فترة أطول من أي مكان آخر وعند سفح هضبة كاسكيد داخلنا الشعور بأننا ضللنا الطريق حتى بلغنا بلدة تغطي مساحة لا تزيد عن ضعفي فناء المستشفى هبت ريح رملية فأخفت الشمس عنف الطريق الذي وقفت فيه أوقف السيارة ثم أشار عبر الطريق

« هناك هذا هو المكان كأنه قفز من وسط الطحالب ـ المستقرّ المتواضع لأيام شبابي الضائع »

وعلى طول الشارع المعتم في الساعة السادسة ، رأيت أشجاراً عارية شاخصة ، تضيء أركان المكان كالرعد الخشبي ، تشطر الاسمنت حيث تطاله ، تتقارب جميعها في ما يشبه السياج

خط فولاذي من الأوتاد ينبجس من الأرض على طول باقة الطحالب المتشابكة ، جثم خلفه منزل ضخم مسيّج ذو شرفة ، يدفع بكتف ناتيء إلى الريح حتى لا يتعثر ويتهاوى ككيس بقالة ورقي فارغ كانت الريح تسفّ الرذاذ ، ورأيت أن المنزل يغلق عينيه بشدّة وينغلق على الباب الموصد بسلسلة حديدية

على الشرفة ، تدلى واحد من الأشياء التي يصنعها اليابانيون من الزجاج ويعلقونها على الاسلاك ، يقرقع ويتلاطم عند أضعف هبة ريح ، لم يبق فيه سوى

قطع أربع مـن الزجاج كانت تهفّ وتتراقص وترتطم بأرضية الشرفة الخشبية فتحتطب قطعاً صغيرة منها

أدار ماكموروفي السيارة من جديد

« كنت هنا ذات مرة ـ منذ سنين طواها الجحيم حين عدنا إلى الوطن من لهيب كوريا جئت في زيارة كان والدي ووالدتي لا يزالان على قيد الحياة ، كان بيتاً جميلاً »

دفع أداة التعشيق ، شرع في قيادة السيارة ، ثم توقف وهتف « يا إلهي ! انظروا هناك ، هل ترون ثوباً ؟ » اشار بيده إلى الوراء « على أغصان تلك الشجرة ؟ خرقة من القماش ؟ صفراء وسوداء ؟ »

كنت أرى شيئاً أشبه بالعلم ، يرفرف عالياً بين الأغصان ، فوق سقيفة

« الفتاة الأولى التي قادتني إلى الفراش ارتدت ذلك الثوب ذاته كنت في العاشرة وكانت أصغر مني ، ربما ، وكانت الاضطجاعة صفقة كبيرة في ذلك الوقت فسألتها إن كانت تتصور ، تحسّ أن علينا اعلان الأمر بطريقة ما ؟ كأن نخبر أهلنا مثلاً يا أماه ، سأخطب جودي اليوم وكنت أعني ما أقول اذ كنت أحمقاً كبيراً ، خطر ببالي أنني لو فعلتها لاصبحت زوجاً شرعياً ، هناك في تلك البقعة ذاتها ، سواء أردت الشيء أم لم ترده ، ولم تكن هناك طريقة لخرق القاعدة ، تلك العاهرة الصغيرة ـ في الثامنة أو التاسعة ـ رفعت ثوبها عن الأرض وقالت انه أصبح ملكاً لي ، قالت انها ستذهب إلى البيت بثيابها الداخلية وتعلن الأمر هكذا ، سيفهمون الفكرة يا يسوع ، في التاسعة من عمرها ! » قال مداعبا أنف كاندي ، « وتعرف أكثر مما تعرفه عاهرات عديدات »

عضت يده ضاحكة ، وتأمّل آثار اسنانها

« وهكذا ، بعد أن ذهبت إلى البيت بثيابها الداخلية انتظرت حتى حلول الظلام لتتاح لي فرصة قذف الثوب اللعين في حلكة الليل ولكن هل ترون هذه الريح ؟ اصطادت الثوب كالحدأة وعلت به فوق المنزل فاختفى عن أنظاري وفي الصباح التالي ، يا الله ، كان معلقاً فوق تلك الشجرة لتراه البلدة بأسرها ، ليلتفت الجميع ويرونه بأعينهم »

امتصّ يده ، كانت تؤلمه بعض الشيء فضحكت كاندي وقبلتها

« وهكذا طارت الواني ، ومنذ ذلك اليوم أحس انه سيعيش باسمي ، العاشق المخلص ، وهو حقيقة الله ! الطفلة الصغيرة ذات الأعوام التسعة هي التي تستحق اللوم في شبابي كله »

غاب عنا المنزل تثاءب وغمز ، « علمتني كيف أحب ، بارك الله قفاها الجميل » ثم ، وهو يتحدث ، أضاء وجهه نور ساطع مقابل ، لمحت فوق غبش الزجاج تعبيراً لم يكن ماكمورفي يسمح له بالظهور لولا احساسه أن الظلام دامس ولا يستطيع أحد رؤ يته في السيارة ، كان مرهقاً ومتوتراً يسكنه رعب قاتل مرير ، كأنه لم يعد يملك وقتاً كافياً لأداء شيء يريد انجازه

وبينما كان صوته الهادىء الطيب يتصدّق علينا بحياته لنعيش عليها ، كان ماضيه الحافل بلهو الطفولة وجلساء الخمر والنساء العاشقات ومعارك الحانات الدائرة دفاعاً عن شرف تافه وسمعة مضحكة ـ ينكشف أمامنا جميعاً كي نحلم به

الجـزء الرابــع

أعدّت الممرضة الكبيرة المناورة التالية بعد يوم من رحلة الصيد جاءتها الفكرة حين تحدثت مع ماكمورفي في اليوم السابق عن النقود التي سيربحها من رحلة الصيد ومشاريع أخرى صغيرة تسير في المنوال ذاته درست الفكرة تلك الليلة ، نظرت اليها من كل الجوانب هذه المرة حتى اقتنعت كل الاقتناع أنها لن تفشل ، فأخذت تطلق التلميحات في اليوم التالي لتثير الشائعة وتنشرها قبل التفوه بكلمة واحدة حول الموضوع

كانت تعرف أن البشر ، وهم على ما هم عليه ، سوف يعدلون عاجلاً أم آجلاً عن شخص يلوح أنه يعطي أكثر من اللازم ، أكثر من سانتا كلوز والبعثات التبشيرية ، والرجال الذين يهبون ميزانيات محترمة لقضايا كبيرة وسيفكرون ما الذي يدفعه إلى ذلك ؟ يبتسمون من أطراف أفواههم حين يحضر المحامي الشاب ، على سبيل المثال ، كيساً من الجوز للصغار الدارسين في مدرسة منطقته ـ قبل موعد الترشيحات لمجلس المحافظة ـ الشيطان المحنك ، يخاطبون بعضهم البعض ، انه لا يخدع أحداً

عرفت أن زمناً طويلاً لن يمرّ حتى يبدأ الرجال في التساؤ ل عن الهدف الذي جعل ماكمورفي يصرف كل هذا الوقت في تنظيم رحلات الصيد إلى الساحل وترتيب الفرق الرياضية وتدريب فريق كرة السلة ما الذي يدفعه الى هذا الحماس وجميع من في الجناح قانعون بلعب البينيكل وقراءة المجلات التي مرّ عليها عام كامل ؟ كيف حدث أن هذا الرجل ، الايرلندي المشاكس الذي جاء من مزرعة العمل وقضى وقته في المقامرة والمشاحنات ، يلف خماراً حول رأسه ، يسجع كالحدث الفتي ، ويمضي ساعتين كاملتين في لعب دور الفتاة ليعلّم بيللي بيبيت كيف يرقص و

« المبرحون » يصرخون من حوله ويصفقون ؟ أو كيف حدث أن هذا الحرون المشاكس الشرس ، المقامر المتمرس والمراوغ ، فنان الكرنفال ، المحترف القديم ، يخاطر بتمديد إقامته في مستشفى مجانين بالمضي بعيداً في استعداء المرأة التي تملك القول الفصل في الابقاء عليه أو اطلاق سراحه ؟

أثارت الممرضة التساؤلات باذاعة اعلان عن لائحة الانفاق المالي لكل مريض خلال الأشهر القليلة المنصرمة ؛ لا بد أن القائمة كلفتها ساعات طويلة من العمل ونبش السجلات والتنقيب فيها كشفت هبوطاً ثابتاً في ودائع كافة « المبرّحين » باستثناء واحد منهم ارتفعت ودائعه منذ اليوم الأول لوصوله

أخذ « المبرحون » يمازحون ماكموري بالقول أنه يحاول التفوق عليهم ، ولم ينكر ذلك لم ينكره قط في الحقيقة ، كان يتباهى أنه لو مكث في هذه المستشفى عاماً أو نحوه فسيخرج باستقلال مالي ، سيتقاعد في فلوريدا للبقية الباقية من حياته كانوا يضحكون من الفكرة حين يكون حاضراً ، لكنه حين يغيب عن الجناح في العلاج الخاص أو الجماعي ، أو حين يعلو صياحه في مركز الممرضات احتجاجاً على أمر ما ، يواجه ابتسامتها البلاستيكية المركبة بتكشيرة المشاكس ، فهم لا يضحكون بمعنى دقيق

بدأوا يسألون بعضهم لماذا تحول إلى نحلة نشطة في الآونة الأخيرة ، فينتزع المطالب للمرضى ، مثل رفع القاعدة القائلة باجتماع الرجال في مجموعات علاجية ، من ثمانية أشخاص أينما حلّوا (« بيللي يتحدث عن قطع رسغه ثانية » قال في احدى اجتماعات المجموعة حين كان يحاجج ضد قاعدة المجموعات الثمانية « ألا ينضم سبعة آخرون منكم إليه لتشكلوا مجموعة ثانية ؟ ») ، أو طريقة مناورته مع الطبيب ، الذي ازداد اقتراباً من المرضى بعد رحلة الصيد ، كي يسمح للمرضى بالاشتراك في مجلات «بلاي بوي» و «نغيت » و «مان» والتخلص من مجلات « ماكـرل » القديمة الذي كان رجل العلاقات العامة ذو الوجه المفلطح يكدسها في الجناح ، ويؤشر بالقلم الأخضر على المقالات التي يتوسّم فيها أهمية في حالات اخصاء الدماغ والصدمة الكهربائية التي لا تزال قائمة في المستشفيات الحكومية أتساءل فقط ، والرجال بدأوا يسألون ، ما الذي يهدف إليه هذا العتيق ماك ؟

بعد تداول الفكرة في الجناح أسبوعاً أو يزيد ، حاولت الممرضة أن تلعب دورها في اجتماع المجموعة ؛ كان ماكمورفي حاضراً حين بذلت المحاولة الأولى فهزمها قبل أن تبدأ (بدأت باخبار المجموعة أنها صُدمت وصُعقت من حالة التدهور التي بلغها الجناح مؤخراً   انظروا من حولكم بحق السماء   صور داعرة مقصوصة من تلك الكتب القذرة تلصق على الجدران   وكانت تنوي بالمناسبة أن يتولى المبنى الرئيسي التحقيق في القذارة التي جلبت إلى هذه المستشفى   اعتدلت في كرسيها ،

مستعدة لمواصلة الكلام والاشارة إلى من يقع عليه اللوم ، متسلحة بثانيتين من صمت أعقب تهديد الجالسة على العرش ، حين حطم ماكمورفي تعويذتها بسلسلة من الضحكات وبالطلب منها أن تتأكد ، وتذكر المبنى الأول على الفور ، أن يصطحبوا مراياهم اليدوية الصغيرة حين يحضرون للتفتيش) ـ ولهذا حرصت حين قررت لعب دورها من جديد ألا يكون حاضراً في الاجتماع

كان يرد على مخابرة خارجية من بورتلاند في غرفة الهاتف مع واحد من الفتيان السود ، ينتظر عودة الخط من جديد حين أزفت الساعة الواحدة وبدأنا ننقل الاشياء ، نحضّر الغرفة النهارية ، سأل الفتى الاسود الضئيل اذا كانت تريده أن ينزل وينادي ماكمورفي وواشنطن لحضور الاجتماع ، لكنها أجابت بالنفي ، لا بأس ، دعه هناك ـ فضلاً عن أن البعض من المرضى قد يرغب في مناقشة قضية صاحبنا راندل باتريك ماكمورفي بمعزل عن حضوره الطاغي

بدأوا الاجتماع برواية الاقاصيص الطريفة عنه وعما يفعله ، وتحدثوا بعض الشيء عن شخصيته العظيمة ، ولزمت هي الهدوء ، تنتظر حتى يفرغوا جميعهم ما يعتمل في صدورهم ثم أطلت الاسئلة الأخرى برؤوسها ماذا عن ماكمورفي ؟ ما الذي جعله يصبح هكذا ، ما الذي دفعه للقيام بتلك الأعمال ؟ تكهن بعض الرجال أن حكاية الشجار التي افتعلها في مزرعة العمل ليرسلوه إلى المصح كانت من نسج خياله وأنه أشدّ جنوناً مما يظن البعض ابتسمت الممرضة لهذه الفكرة ورفعت يدها

« مجنون كالثعلب » قالت « أظن أن هذا ما تحاولون وصف السيد ماكمورفي به »

« ماذا تقـ تقـ تقصدين ؟ » قال بيللي كان ماكمورفي صديقه المقرّب وبطله ، ولم يكن واثقاً أنه سيقبل طريقة اقتران امتداحه بأشياء لم تفصح عنها

علانية « ماذا تقـ تقـ تقصدين بعبارة كالثعلب ؟ »

« انها ملاحظة بسيطة يا بيللي » أجابت الممرضة بلطف « سنرى ان كان باستطاعة الآخرين شرح العبارة لك ماذا عنك يا سيد سكانلون ؟

« تقصد يا بيللي أن ماك ليس معتوهاً »

«لم يقل أحد أنه كـ كـ كذلك ! » ضرب بيللي ذراع الكرسي بقبضته لإخراج الكلمة الأخيرة « لكن الآنسة راتشدت كانت تلمّح - »

« كلا يا بيللي لم أكن ألمّح الى شيء كنت ببساطة ألاحظ أن ماكمورفي ليس من النوع الذي يخاطر دون سبب ستوافق على هذا ، أليس كذلك ؟ ألا توافقون جميعكم ؟ »

لم يقل أحد شيئاً

« ومع ذلك » واصلت الكلام ، « يبدو أنه يقدم على كل شيء دون مراعاة لنفسه على الاطلاق ، كأنه شهيد أو قديس هل يقرّ أي منكم أن ماكمورفي قديس ؟ »

علمت أنها في أمان اذا وزعت الابتسامات من حولها ، منتظرة جواباً

«كلا ، ليس قديساً أو شهيداً. اذن ، هل نفحص قطاعاً منتقى من حب هذا الرجل للانسانية ؟ » تناولت صفحة صفراء من سلّتها « انظروا الى بعض هذه الهبات ، كما يسميها بعض أنصاره وهواته أولاً ، هناك هبة غرفة الحوض هل كانت هبته حقاً ؟ هل فقد شيئاً بتحويله الغرفة الى كازينو قمار ؟ من جهة أخرى ، كم تتصورون أنه ربح خلال الفترة القصيرة التي أشرف فيها على هذه المونتي كارلو الصغيرة في الجناح ؟ كم خسرت يا بروس ؟ سيد سيفليت ؟ سيد سكانلون ؟ أظن أن لديكم جميعاً فكرة واضحة عن مقدار خسائركم ، ولكن هل تعرفون أرباحه الاجمالية ، وفقاً للودائع التي وضعها في الصندوق ؟ حوالي ثلاثمائة دولار »

أطلق سكانلون صفرة خافتة ، ولم يعقّب أحد غيره بشيء

« لدي رهانات أخرى مختلفة مسجلة عندي ، اذا اكترث أحدكم برؤ يتها ، بما فيها رهانات حول احباط الادارة والتعريض بعملها ، وكل هذه المقامرة كانت ، ولا

تزال ، ضد سياسة الجناح ، وكل من تعامل معه منكم يعرف ذلك »

نظرت إلى الورقة ثانية ، ثم أعادتها إلى السلة

« ورحلة الصيد القريبة هذه كم تقدرون أرباح السيد ماكمورفي من هذه المغامرة ؟ كما أعرف ، زُوِّد بسيارة الطبيب الذي أعطاه النقود اللازمة للوقود أيضاً ، وقد علمت بفوائد أخرى متفرقة دون أن يدفع فلساً واحداً تماماً كالثعلب ، هذا ما سأقوله »

رفعت يدها لتمنع بيللي من مقاطعتها

« أرجوك يا بيللي ، افهمني أنا لا أنتقد هذا الشكل من النشاط بحد ذاته ، فكّرت فقط أن من الأفضل نبذ الأوهام المحيطة بدوافع أمريء ما ولكن ، في كل حال ، ربما كان مجحفاً أن نوجه هذه الاتهامات في غياب الشخص المعني لنعد إلى المشكلة التي كنا نناقشها البارحة ـ ماذا كانت ؟ » مضت تعبث بأوراقها ، « ماذا كانت ؟ هل تتذكر يا دكتور سبايفي ؟ »

ارتجف رأس الطبيب « كلا ، انتظري ، اعتقد »

سحبت ورقة من الملف « ها هي السيد سكانلون . أحاسيسه تجاه المتفجرات رائع سندخل في هذه المسألة الآن ، وفي وقت آخر حين يكون السيد ماكمورفي حاضراً سنعود إليه أظن ، مع ذلك ، انكم ستمعنون التفكير فيما قلناه اليوم والآن يا سيد سكانلون »

وفي وقت لاحق من ذلك النهار تجمهر ثمانية أو عشرة منا أمام باب المتجر ، ننتظر أن يفرغ الفتى الأسود من صفّ زيت الشعر على الرفوف ، فأثار بعض الرجال الموضوع ذاته ثانية قالوا انهم لا يتفقون مع الممرضة في ما قالته ، لكن العجوز معها بعض الحق يا للجحيم عليها اللعنة رغم ذلك ، لا يزال ماك رجلاً طيباً حقاً

أخيراً فتح هاردنغ المناقشة بصراحة

« يا أصدقائي ، انتم تحتجون كثيراً لتصدّقوا الاحتجاج تؤمنون في أعماق قلوبكم الصغيرة الشحيحة أن ملاك رحمتنا الآنسة راتشدت محقة في كل افتراض ذكرته اليوم عن ماكمورفي تعرفون هذا ، وأعرفه أنا ولكن لِمَ الإنكار ؟ لنكن

شرفاء ونعطي هذا الرجل حقه بدلاً من انتقاد موهبته الرأسمالية سرّاً ما الضير في أن يحقق بعض الربح ؟ نحن نأخذ دائماً لقاء نقودنا التي يبتزها منا ، أليس كذلك ؟ انه شخصيــة مجرّبة مفتوحة العين على الدولار لا يخفي دوافعه على الاطلاق ، هل يخفيها ؟ لماذا نخفيها نحن اذن ؟ يتخذ موقفاً سلبياً وشريفاً من حيله وألاعيبه ، وأنا معه كلية ؛ تماماً كما أقف مع النظام الرأسمالي العزيز العجوز الذي يبيح الاستثمار الفردي ، أيها الرفاق ، معه ومع قحّته العارية المكشوفة والعلم الأمريكي باركه الله ، والنصب التذكاري لابراهام لينكولن والتركيبة بأكملها أشعر أنني مضطر للدفاع عن شرف صديقي باعتباره نموذج المشاكس الأمريكي العجوز الطيب ، الأحمر والأبيض والأزرق الذي يشكل نسبة المائة في المائة رجل طيب بحق يا ابنائي سيشعر ماكمورفي بحرج يدفعه إلى ذرف الدموع حين يعلم أن البعض يفترض النوايا الطاهرة الأصيلة وراء بعض صفقاته سيعتبرها تشنيعاً صريحاً مباشراً ضد مهنته »

بحث في جيبه عن سيجارة ، حين لم يجدها اقترض واحدة من فريدريكسون ، أشعلها بحركة تمثيلية وواصل كلامه

« سأعترف أن أفعاله حيرتني في البداية . تحطيم النافذة ـ يا الله . قلت في نفسي ، ها هو الرجل الذي يعرب صراحة عن رغبته في البقاء أسير المستشفى ، يلتصق بأصحابه ويخلص لهم وغير ذلك من الأشياء المشابهة ، حتى أدركت أن ماكمورفي فعلها حتى لا يخسر شيئاً ثميناً انه يستثمر معظم وقته هنا لا تسيئوا فهم طرائقه في التخفي والتوغل انه جراح دقيق ، دماغ مليئة حين يحتاج الأمر راقبوه هنـاك سبب محدد وراء كل صغيرة وكبيرة أقدم عليها »

لم يكن بيللي مستعداً للاستسلام بسهولة « حسناً ، وماذا عن قيامه بتعليمي الرقـ الرقص ؟ » كان يغلق قبضته عند خاصرته ، ورأيت أن حروق السجائر على كفه تكاد تشفى لتحل محلّها وشوم سببها قلم رصاص يصعب محوه « ماذا عن هذا الأمر يا هاردنغ ؟ كيف يربح النقـ النقـ النقود من تعليمي الرقص ؟ »

« لا تتضايق يا ويليام » قال هاردنغ ، « ولكن لا ينفذ صبرك أيضاً دعنا نكتفي بالجلوس هادئين ، ونرى كيف يستفيد »

بدا أنني وبيللي الوحيدان اللذان لا نزال نؤمن بماكمورفي غمز بيللي بيبيت من طريقة هاردنغ في رؤية الأشياء حين عاد ماكمورفي من مكالمة هاتفية أخرى وأعلم بيللي أن الموعد مع كاندي قد تحدد نهائياً وأضاف ، بعد أن كتب له عنواناً ، أنه يفضل تزويدها ببعض الخبز لتغطي رحلتها

« خبز ؟ نقـ نقود ؟ كم تر تر تريد ؟ » ونظر إلى حيث كان هاردنغ يبتسم ساخراً

« أوه ، أنت تعلم يا صاحبي ربما عشرة دولارات لها وعشرة ـ »

« عشرون دولاراً ! لا يحتاج الباص إلى هذا المبـ المبـ المبلغ ليوصلها إلى هنا »

نظر ماكمورفي من أسفل واقية القبعة ، ابتسم لبيللي ، ثم حكّ حنجرته بيده ، مادّاً لسانه المغبر « يا فتى هيا يا فتى ، لكنني أشعر بظمأ حقيقي سأكون أكثر ظمأ حتى يحلّ السبت القادم ، لن تضنّ عليها بسنـونوة صغيرة تحضرها لي ، هل تضن علي يا بيللي الفتى ؟ »

ورمى بيللي بنظرةبـريئـةجعلته يضحك ويهز رأسه بالنفي ، ثم مضى إلى زاوية ليفاوض حول خطط السبت مع الرجل الذي اعتبره بمثابة القواد

لا أزال احمل أفكاري الخاصة ـ كيف كان ماكمورفي مارداً انشقت عنه السماء لينقذنا من « الائتلاف » الذي يطوق عنق الأرض بأسلاك من النحاس والكريستال ، كيف أنه أضخم من أن ينشغل بأمور تافهة كالنقود ـ لكني كدت أبلغ نصف ما يفكر به الآخرون حدث التالي كان يساعد في نقل المناضد إلى غرفة الحوض قبل احدى الاجتماعات حين رآني أقف قرب لوح التحكم

« بحق الله يا زعيم » هتف ، « يبدو لي أنك كبرت عشرة إنشات منذ رحلة الصيد يا الله الرحيم ، انظر إلى حجم قدمك ، ضخمة كالشاحنة المكشوفة ! »

تطلعت إلى الاسفل لأرى قدمي أضخم من أية لحظة أتذكر أنني رأيتها فيها ، كما قال ماكمورفي قبل قليل ، انتفخت لتتجاوز ضعفي حجمها

«تلك الذراع ! هذه ذراع لاعب كرة قدم هندي متقاعد ، هل تعلم بم أفكر ؟

عليك أن تروز لوح التحكم هذا ، لكي نختبر فقط مدى تقدمك »

هززت رأسي بالنفي ، لكنه قال أننا قد نعقد صفقة واضطررت للمحاولة كي أرى كيف يعمل نظام النمو الذي يتحدث عنه ، لم أجد مخرجاً سوى المحاولة ، توجهت إلى لوح التحكم لمجرد البرهنة على انني لا أستطيع رفعه انحنيت وأمسكت به من الرافعتين

« هكذا الرجال يا زعيم استقم الآن ضع هذين القدمين أسفل جسمك ، هناك هيا ، هيا استرخ الآن استقم عد الآن إلى مكانك »

ظننت أنني سأصيبه بخيبة أمل حقيقية ، ولكنه حين خطوت إلى الخلف كان يبتسم ويشير إلى مكان ابتعاد اللوح عن مستقرّه بنصف قدم « الأفضل أن تعيده إلى مكانه يا صاحبي ، حتى لا يعرف أحد يجب ألا يعرف أحد »

ثم ، بعد الاجتماع ، تسكع من حول مجموعات البينيكل ، استفاض في الحديث عن القوة والبسالة ولوح التحكم في غرفة الحوض خُيل الي أنه سيخبرهم كيف ساعدني في استعادة حجمي ، وهذا يثبت أنه لا يقوم بكل شيء مقابل المال

لكنه لم يشر اليّ بكلمة ظل يتحدث حتى سأله هاردنغ ان كان مستعداً لبذل محاولة أخرى في رفعه فقال كلا ، غير أن فشله ليس دلالة على استحالة زحزحة اللوح قال سكانلون قد يفلح الكراكي في ذلك ، لكن ابن امرأة لا يستطيع رفعه بذاته ، وأومأ ماكمورفي وقال ربما ، ربما ، لكنك لا تستطيع الجزم أبداً

راقبت طريقة مخاتلته لهم ، التفافهم من حوله وقولهم كلا بحق المسيح ، لا يستطيع رجل رفع هذا الشيء ، حتى توصلوا أخيراً إلى اقتراح المراهنة بأنفسهم راقبت احجامه عن المراهنة جعل مبالغهم تتراكم واستنزفهم شيئاً فشيئاً حتى حصل على خمسة مقابل واحد من كل منهم ، ويبلغ الأمر ببعضهم ان راهنوا بعشرين دولاراً لم يذكر شيئاً عن رؤ يته لي وأنا أرفعه قبل قليل

قضيت الليل وأنا أتمنى ألا يعقد الرهان وخلال اجتماع اليوم التالي حين طلبت الممرضة أن يخضع جميع المشاركين في رحلة الصيد لحمّام خاص يقيهم من أية طفيليات علقت بهم ، ظللت أتمنى أن تتدبر هي الأمر فتجبرنا على الاستحمام بطريقة تعفيني من رفع اللوح

ولكن   حين انتهى الاجتماع قادني مع بقية الرجال إلى غرفة الحوض قبل اغلاقها من قبل الفتيان السود ، دفعني إلى إمساك اللوح من الرافعتين ورفعه

لم أكن راغباً في فعل ما فعلت ، لكني لم أستطع منع نفسي   شعرت أنني أساعد في خداعهم وسلب نقودهم   كانوا جميعهم وديين معه ودفعوا مراهناتهم ، لكني أعرف ما يدور في خلدهم وما يشعرون به في دخيلتهم ، كيف سحب البساط من تحت أقدامهم   وحالما أرسيت اللوح على قاعدته هرولت خارج غرفة الحوض دون النظر إلى ماكموري ودخلت المغاسل   أردت البقاء وحيداً   تطلعت إلى نفسي في المرآة   لقد فعل ما وعد به   ساعداي عادا ضخمين ، ضخمين كما كانا في المدرسة ، الثانوية ، في القرية ، وأصبح صدري عريضاً وصلباً مثل كتفاي   كنت أنظر في المرآة حين دخل   قدم لي ورقة بخمسة دولارات

« خذ يا زعيم   هذه لشراء اللبان »

أومأت له بالرفض وشرعت في الخروج من المغاسل   استوقفني وأمسك ذراعي

« يا زعيم ، هذا مجرد عربون على تقديري لقوتك   اذا أردت المزيد ـ »

« كلا ! احتفظ بنقودك ، لن آخذها »

تراجع إلى الخلف وعلّق إبهاميه في جيوبه ورفع رأسه نحوي   حدجني بنظرات طويلة ثاقبة

« حسناً   ما هذه القصة ؟ لماذا يرمقني جميع من في هذا المكان بنظرات غريبة ؟ »

لم أجب على سؤاله

« ألم أفعل ما قلت أنني سأفعله ؟ ان أجعلك تستعيد هيئة الرجل من جديد ؟ لماذا تعرضون عني فجأة ؟ تتصرفون أيها التعساء وكأنني خائن لبلادي ؟ »

« انت   تربح الأشياء دائماً ! »

« أربح الأشياء ! أيها الأيل الضخم اللعين ، بماذا تتهمني ؟ كل ما أفعله هو القيام بدوري في أية صفقة   ما الذي يدفعكم للتجهّم ؟ »

« اعتقدنا أن الأمر لا صلة له بربح الأشياء »

كنت أشعر بارتعاش ذقني كما يحدث حين أوشك على البكاء لكنني لم أبكِ وقفت أمامه وذقني ترتجف فتح فمه ليقول شيئاً ، ثم أمسك نزع ابهاميه من جيوبه وأمسك أرنبة انفه بابهامه واصبعه ، كما يفعل الذين يضغطوا اطار النظارة على أنوفهم ، ثم أغلق عينيه

« الربح ، يا للمسيح » قال مواصلاً اغلاق عينيه « هووو يا فتى ، الربح »

لذا ، أتصور أن ما حدث في غرفة الحمام كان خطأي أكثر من أي شخص آخر هذا هو السبب في أن الطريقة الوحيدة لتعديل موقفي كانت أن أفعل ما فعلته دون التفكير بعواقبه ومخاطره أو بما سيحدث لي ـ دون القلق على أي شيء آخر سوى ذاك الذي يتحتّم القيام به ، والقيام به

بعد أن غادرنا المغاسل لحق بنا الفتيان الثلاثة ، جمعونا استعداداً للحمام الخاص الفتى الاسود الضئيل ، الذي كان يشق طريقه إلى المنصّة بيده السوداء المعروقة الباردة كالعتلة يحث الرجال المتكاسلين ، قال ان الحمام تطهير وقائي على حدّ تعبير الممرضة الكبيرة بالنظر إلى من اختلطنا بهم في الرحلة ينبغي أن ننظف أنفسنا قبل أن ننشر شيئاً في بقية المستشفى

وقفنا في صفّ على طول الأرضية ، وهنا جاء فتى أسود يحمل في يده أنبوباً أسود بلاستيكياً ينبجس منه مرهم كريه الرائحة ، كثيف ولزج كبياض البيضة في الشعر أولاً ، ثم تستدير وتنحني وتفتح ردفيك

اشتكى الرجال وتمازحوا وتهكموا على العملية ، حاولوا اجتناب النظر إلى بعضهم أو إلى الكمامات الاردوازية الطافية في الحوض وراءهم ، كالوجوه الكابوسية ، كسبطانات مدفعية كابوسية ، معصورة ، ناعمة ، دانية تهكموا على الفتيان السود قائلين ، « هيه يا واشنطون ، كيف سيمرح أصحابك خلال الساعات القادمة ؟ » ، « هيه يا ويليامز ، هل تعرف ما سأتناوله على الإفطار ؟ »

ضحك الجميع عض الفتيان السود على أسنانهم ولم يجيبوا ، لم تكن الأمور تسير على هذا النحو قبل مجيء أحمر الشعر اللعين ذاك

حين فتح فريدريكسون ردفيه اطلق صوتاً مدوياً حتى خلت الفتى الاسود الضئيل سيسقط على قدميه

« أصيخوا السمع ! » قال هاردنغ وهو يطوق أذنه بيده « « الصوت العذب الفاتن للملاك »

انفجر الجميع ضاحكين وتعالت أصواتهم ونكاتهم، حتى تحرك الفتى الاسود وواجه الرجل الأول في الصف، وساد الغرفة صمت مطبق. جورج هو الأول. خلال تلك الثانية من الزمن ، يتوقف الضحك والمزاح والهرج ، ينتصب فريدريسكون المثالي لجورج ويستدير ، الفتى الاسود الضخم يطلب من جورج احناء رأسه ليرشّه بالمرهم النتن في تلك اللحظة بالذات عرفنا جميعاً ما سيحدث بعد قليل ، ولماذا يجب أن يحدث ، ولماذا اخطأنا جميعاً في فهم ماكمورفي

لم يكن جورج يستخدم الصابـون عند استحمامه لم يكن يسمح حتى بمناولته منشفة يجفف نفسه بها تعلم الفتيان السود الذين يناوبون مساء ويشرفون على حمام الثلاثاء والخميس أن يتركوه على هواه ، ولم يجبروه على أي شيء مختلف هكذا سارت الأمور منذ زمن طويل جميع الفتيان السود يعرفون ذلك لكن الجميع عرفوا الآن ـ بما فيهم جورج المتراجع الى الخلف ، الذي يهز رأسه ، يغطي نفسه بيدين كأوراق شجرة البلوط ، أن هذا الفتى الاسود ، الذي تورمت أحشاؤه وانفتحت خياشيمه واحتشد زميلاه إلى جانبه بانتظار ما سيفعله ، لن يفوّت الفرصة

« آهه أريد رأسك محنياً هنا ، يا جورج »

كان الرجال قد تطلعوا إلى حيث يقف ماكمورفي بعد رجلين في الصف

« آهه هيا يا جورج »

مارتيني وسيفليت كانا يقفان تحت الدوش دون حراك البالوعة تحتهما تحشرج وتغص بجرعات صغيرة من الهواء والماء المختلط بالصابون نظر جورج إلى البالوعة كأنها كانت تحادثه راقبها تحشرج وتختنق عاد بنظره إلى الانبوب الجاثم في اليد السوداء ، السائل المخاطي البطيء يندفع من الثقب الصغير في رأس الحوض ليسيل على مصل الحديد الخام قرّب الفتى الاسود الانبوب من جورج فهز رأسه متراجعاً إلى الوراء ، يهز رأسه

« كلا ، هذه مادة قذرة »

« يجب أن تفعلها يا أحمق الفرك » قال الفتى الاسود متصنعاً الأسف « يجب أن تفعل لا نستطيع حشو المكان بالبق ، هل نستطيع ؟ أعرف انك مليء بالبق حتى ما وراء جلدك »

« كلا ! » قال جورج

«اَ ه ه يا جورج ، أنت لا تعرف هذا البقّ دقيق للغاية ـ لا يزيد حجمه على رأس الدبوس انها يا رجل تختبيء في الشعر القصير ثم تحفر وتخترق جلدك ، الى داخلك يا جورج »

« لا يوجد بقّ ! » قال جورج

« آههه ، دعني أخبرك يا جورج رأيت حالات يدخل فيها هذا البق اللعين الى ـ »

« حسناً ، يا واشنطون » قال ماكمورفي

ندبة الأنف المحطم للفتى الاسود أصبحت لولباً من النيون عرف الفتى الاسود من خاطبه ، لكنه لم يستدر ؛ العلامة الوحيدة التي جعلتنا ندرك أنه سمع كانت طريقة توقفه عن الكلام ولمسه بإصبع طويل رمادي تلك الندبة التي لازمته بعد مباراة كرة السلة حكّ أنفه قليلاً ، ثم رفع يده في مواجهة جورج خربش باصابعه « السلطعون ، هل ترى يا جورج ؟ هل ترى هناك ؟ تعرف كيف يبدو السلطعون ، ألا تعرف ؟ لقد ثبت أنكم اصطدتم السلطعون في القارب لا نستطيع السماح للسلطعون بثقبك واختراقك ، أليس كذلك ؟ »

« لا يوجد سلطعون ! » صرخ جورج ، « كلا ! » استقام في وقفته ورفع حاجبيه حتى رأينا عينيه تراجع الفتى الاسود إلى الخلف ضحك منه الآخران « في الأمر شيء يا صاحبي واشنطون » قال الضخم ، « ما الذي يعيق تنفيذ الاجراء يا صاحبي ؟ »

تراجع إلى الخلف دون أن يبتعد « جورج ، أقول لك انحن ! إما أن تنحني وتأخذ هذه المادة ـ أو أضع يدي عليك ! » رفع يده من جديد كانت ضخمة وسوداء كالمستنقع الراكد « أضع هذه اليد السوداء ! القذرة ! النتنة ! على كل اجزاء جسمك ! »

« لا تضع يدك ! » صرخ جورج ورفع قبضته فوق رأسه كأنه سيمزق جمجمته الى اشلاء ، يقذف المسنّنات والفرقات ومسامير الارتاج لتغطي الأرض لكن الفتى الاسود دفع الانبوب في سرّة جورج وضغطه فتلوى جورج محشرجاً عصر الفتى الاسود كتلة فوق شعره الأبيض ثم فركه بيده ، ملطخاً رأس جورج باللون الاسود طوق جورج بطنه بذارعيه وصرخ

« كلا كلا ! »

« قلت لك كفى ! » - رنّة صوته هذه المرة جعلت الفتى الاسود يستدير ويواجهه رأيت الفتى الاسود يبتسم ، ينظر إلى عري ماكمورفي - لا قبعة أو حذاء أو جيوب يعلق فيها إبهاميه كشر الفتى الاسود وهو يقلب النظر فيه

هزّ رأسه وقال « ماكمورفي ، أنت تعرف بدأت أفكر أننا لن نسوّي الأمر »

« لعنة الله عليك أيها الزنجي » قال ماكمورفي وصدى التعب يتردد في كلماته أكثر من رنين الغضب والجنون لم يقل الفتى الاسود شيئاً رفع ماكمورفي صوته « أيها الزنجي اللعين ، ابن العاهرة ! »

هزّ الفتى الاسود رأسه وابتسم لزميليه « ماذا يقصد ماكمورفي من استخدامه لتلك الكلمات في رأيكم ؟ هل يظنني سأبادر قبله؟ هييهي ألا يعرف أننا تدربنا على سماع هذه الشتائم البذيئة من هؤلاء المجانين ؟ »

« يا بالع الأعضاء التناسلية ! من أنت يا واشطنون سوى - »

أدار واشنطون ظهره لماكمورفي كي يواجه جورج من جديد كان جورج لا يزال منحنياً إلى الامام ، يشهق بتأثير الضربة التي تلقاها على معدته قبض الفتى الاسود على ذراعه وفتله ليواجه الجدار

« هكذا يا جورج ، افتح الآن ردفيك »

« كلا كـ - لـ - لـ - لا ! »

« واشنطون ! » قال ماكمورفي أخذ نفساً عميقاً وخطا صوب الفتى الاسود ، أبعده عن جورج « واشنطون ، حسناً ، حسناً »

كان بمقدور الجميع سماع اليأس ، العاجز ، المحاصر ، الذي يتردد في صوت ماكمورفي

« ماكمورفي ، أنت تجبرني على حماية نفسي ، ألا يجبرني أيها الرجال ؟ » أومأ الآخران بالايجاب وضع الانبوب بأناة على المنصة قرب جورج ، عاد يلوح بقبضته ليلكم ماكمورفي في وجنته على حين غرة كاد ماكمورفي أن يسقط ترنح إلى الوراء ليصطدم بالصف العادي من الرجال التقطه الرجال ودفعوه ثانية نحو الوجه الاردوازي المبتسم. تعرض لضربة أخرى في العنق، قبل رضوخه لحقيقة مريرة: لقد بدأ الأمر أخيراً ، ولا سبيل الآن لايقافه سوى الانخراط فيه أمسك بالثعبان الأسود المتراقص أمامه ، قبض على رسغه وهو يتمايل برأسه

تعاركا لثانية من الزمن ، يلهثان مع البالوعة اللاهثة ؛ ثم دفع ماكمورفي الفتى الاسود بعيداً وجثم عليه ، أدار كتفيه ليقي ذقنه ، وضع قبضته على جانبي رأسه وأخذ يفتله أمامه

وتحول ذلك الصف النظيف ، الصامت من الرجال العراة إلى حلقة صراخ ، الاجساد والأعضاء تنعقد في دائرة من اللحم

انغرز الساعدان الاسودان في الرأس الأحمر المنخفض والعنق المنتفخ وأسالا الدم من الحاجب والخد انفلت الفتى الأسود مبتعداً

كان اطول ، ذراعاه أطول من ذراعي ماكمورفي الحمراوين السميكين ، ولذا أخذ يناور بصورة أسرع وأكثر حدة ، كان قادراً على اصابة الكتفين والرأس دون الاقتراب واصل ماكمورفي التقدم منه ـ بخطى ثقيلة وثابتة على الأرض ، وجهه مدفون بين قبضتيه الموشومتين ، حتى جعل الفتى الاسود يصطدم بحلقة الرجال العراة فوجه له قبضة قوية في الصدر الأبيض المنشّى انقلب الوجه الاردوازي الى كتلة قرمزية ، اندفع لسان مصطبغ بلون الفريز المثلج خارج الشفتين حاول التملص من هجوم ماكمورفي الضاغط ولعق شفتيه مرتين قبل أن يتلقى قبضة ثانية محكمة انفتح شدقه حتى نهايته هذه المرة ، أصبح لطخة من اللون السقيم

تلطخ رأس ماكمورفي وكتفاه بكدمات حمراء ، لكنه لم يتعرض للأذى كما يبدو واصل التقدم ، يتعرض لعشر ضربات مقابل واحدة استمر عراكهما هكذا ، تقدم وتراجع في غرفة الحمام ، حتى أخذ الفتى الاسود يلهث ويترنّح ويجهد فقط لتفادي هذين الذراعين السمراوين الكاسحين كان الرجال يستحثون ماكمورفي كي يلقيه أرضاً لم يتصرف ماكمورفي بعجالة

انفلت الفتى الاسود متراجعاً بعد تعرّضه لضربة في الكتف واختطف نظرة إلى حيث يقف الآخران « ويليامز ووررين ، عليكما اللعنة ! » شق الضخم الثاني الزحام وطوق ذراعي ماكمورفي من الخلف نفضه ماكمورفي كما ينفض الثور قرداً ، لكنه أحكم الطوق عليه

لهذا أمسكت به وألقيته في الحمام وكان محشواً بالأنابيب لن يزن أكثر من عشرة أو خمسة عشر باونداً

تلفت الضئيل برأسه يمنة ويسرة ، استدار ، فرّ نحو الباب بينما كنت أراقبه يهرع خارجاً ، نهض الآخر من الحمام وأحاطني من الخلف كما يفعل المصارعون ، ذراعاه فوق ذراعيّ من الخلف ويديه تضغطان على عنقي من الخلف كان عليّ أن أتراجع إلى الوراء وأهشّمه على الأرضية الخشبية وبينما كنت استلقي هناك محاولاً رؤ ية ماكمورفي يحطم المزيد من ضلوع واشنطون أخذ الآخر يعض عنقي فأطلقت سراحه سكنت حركاته ، سال نشاء ردائه ليصب في البالوعة المختنقة

وحين عاد الفتى الاسود الضئيل مهرولاً يحمل الأربطة والأكمام والأغطية يرافقه أربعة من مساعدي جناح « المضطربين » ، كان الجميع يرتدون ثيابهم ويصافحون يدي ويد ماكمورفي ويقولون أن الساعة أزفت والمعركة كانت حامية ، كانت نصراً كبيراً هائلاً واصلوا الحديث هكذا للتخفيف عنا وشدّ عزائمنا ـ كيف كانت المعركة ، كيف كان النصر كل هذا والممرضة الكبيرة تشارك في مساعدة الآخرين على ربط الأحزمة الجلدية المناسبة لسواعدنا

في « المضطربين » هناك قرقعة أبدية عالية الايقاع والرنين تصدر عن غرفة الآلة ، هي معمل يقوم بصكّ لوحات السجن المعدنية الزمن يقاس بصوت دي - دك ، دي - دك لطاولة بينغ بونغ رجال يمارسون محاولات الهروب بالصاق اكتافهم في جدار ، ثم الخطو إلى جدار آخر ، يلصقون كتفاً ثم يخبّون ، خطوات قصيرة سريعة ، يعمقون الأخاديد المتصالبة في الأرضية ، تلوح عليهم نظرة العطش الأسير رائحة احتراق سطحي تفوح من رجالا منفلتين خارج السيطرة ، في الزوايا وتحت طاولة البينغ بونغ تجثم أشياء فاغرة الاشداق لا يراها الأطباء ، والممرضات ولا يستطيع المساعدون قتلها بالمبيدات والمطهرات حين انفتح باب الجناح شممت رائحة الاحتراق تلك وسمعت صرير الأسنان

رجل طويل خشن البنية - يتدلى من سلك مغروز بين عظمي كتفيه ، قابلني مع ماكمورفي عند الباب حين أحضرنا المساعدون أمعن فينا النظر بعين صفراء غائرة وهزّ رأسه « انني انفض يدي من الصفقة بأكملها » قال لأحد المساعدين الملونين ، وسحب السلك إلى داخل القاعة

توقف اثنان من المتسابقين بين الجدارين لينظرا إلينا ، ثم عاد الرجل الخشن البنية مجروراً من جديد ، ينفض يديه من الصفقة بأكملها لم يكترث بنا أحد في البداية مضى المساعدون إلى مركز الممرضات وتركونا نقف في باب الغرفة النهارية تورمت عين ماكمورفي فأضفت الثبات على غمزته ، وأكاد أقول أن الابتسامة كانت تؤذي شفتيه رفع يديه الموثقتين ووقف يصغي إلى قرقعة الحركة وسحب نفساً عميقاً

« ماكمورفي هو اسمي أيها الشركاء » قال بلهجة ممثل رعاة البقر الوقحة الجلفة ، « وأريد أن أعرف من هو الديك النقّار الذي يدير لعبة البوكر في هذه المؤسسة ؟ »

خمدت ساعة البنيغ - بونغ في تكتكة متسارعة على الأرض

« لا أتعامل بهذه الألعاب ، لكني أدعي أنني آكل النار في لعبة جياد السباق »

تثاءب ، هرش كتفه ، انحنى وتنحنح ، بصق شيئاً في سلة مهملات على مبعدة خمسة أقدام ، خشخش صوت بصقته ثم استقام ثانية ، ابتسم ، لعق لسانه في الفراغ الفاصل بين أسنانه

« كان لدينا سباق في الطابق الأسفل   أنا والزعيم هذا علقنا قروناً لزوج من القرود النتنة »

توقف لغط معمل السكّ في هذا الوقت ، وكان الجميع ينظرون إلينا في وقوفنا عند الباب   لفت ماكمورفي الأنظار   وجدت أنني عرضة لأنظارهم أيضاً إذ أقف قربه   الناس يحملقون بي وشعرت أن من واجبي الوقوف بكامل طولي   سببت لي الحركة بعض الألم في ظهري حيث ألقيت بنفسي مع الفتى الاسود في الحمام ، لكنني حافظت على استقامتي   متفرج جائع ذو شعر أسود أشعث اقترب مني ، كوّر يده منتظراً أن أعطيه شيئاً   حاولت تجاهله ، لكنه واصل الركض في كل اتجاه كنت أقصده ، كطفل صغير ، مكوراً تلك اليد الفارغة أمامي

تحدث ماكمورفي عن المعركة بعض الوقت ، ازداد الألم في ظهري شيئاً فشيئاً لقد قبعت في زاويتي على المقعد زمناً طويلاً حتى شقّ علي أن أقف مستقيماً لوقت طويل   كنت سعيداً حين جاءت الممرضة اليابانية لتأخذنا إلى مركز الممرضات فتتاح لي فرصة الجلوس والراحة

سألت إذا كنا هادئين بما يكفي لازالة الأربطة فأومأ لها ماكمورفي   كان ماكمورفي قد أغفى وسقط رأسه ودفن مرفقيه بين ركبتيه وبدا مرهقاً تماماً   لم يخطر لي أنه أيضاً يصعب عليه النهوض والاستقامة كما حدث معي   الممرضة ـ الصغيرة والناعمة كرأس شيء مبري حتى أنعم نقطة كما عبر ماكمورفي فيما بعد ـ حلت أربطتنا واعطت ماكمورفي سيجارة وأعطتني قطعة لبان   قالت أنها تتذكر ولعي باللبان   لم أتذكرها على الاطلاق   شرع ماكمورفي يدخن حين غمست هي يدها الصغيرة الطافحة بشموع عيد الميلاد الوردية في وعاء من المرهم وأخذت تعنى بجروحه ، تنتفض كلما انتفض وتعتذر   أمسكت احدى يديه وقلبتها ودهنت مفاصله بالمرهم   « من فعل هذا ؟ » سألت ناظرة إلى المفاصل

« هل كان واشنطون أم وورين ؟ »

نظر إليها ماكمورفي « واشنطون » قال مبتسماً « اعتنى الزعيم هنا بوورين »

أنزلت يده والتفتت الي كنت أرى العظام الصغيرة في وجهها « هل تعرضت للأذى في أي مكان ؟ » ، هززت رأسي

« ماذا عن وورين وواشنطون ؟ »

أخبرها ماكمورفي أنه يظنهما سيلهوان ببعض الضمادات حين تراهما في المرات القادمة

أومأت برأسها ونظرت إلى قدميها « لا تجري الأمور دائماً كما في جناحها » قالت « هناك البعض منها ولكن ليس كل شيء جيش ممرضات عسكريات يدرن مستشفى عسكرياً اؤ من احياناً بضرورة صرف بعض الممرضات من الخدمة حين يتجاوزن الخامسة والثلاثين »

« الممرضات العسكريات على الاقل » أضاف ماكمورفي ، سأل كم سنمضي من الوقت في كرم ضيافتها

« ليس وقتاً طويلاً كما أخشى »

« ليس وقتاً طويلاً كما تخشين ؟ » سألها ماكمورفي

« نعم أود ابقاء الرجال هنا لبعض الوقت بدلاً من اعادتهم . لكنها أقدم مني ولها الأمر كلا لا أظن أنكما ستمكثان طويلاً أقصد ـ كما أنتما الآن »

الاسرّة في «المضطربين» ليست بحالة جيدة، فهي اما مشدودة للغاية أو محلولة للغاية عُيِّن لنا سريران متلاصقان لم يربطوني بغطاء ، رغم أنهم تركوا ضوءاً خافتاً قرب السرير عند منتصف الليل تقريباً ، صرخ أحدهم « لقد بدأت أدور يا هندي ! انظر إلي ! انظر الي ! » فتحت عيني ورأيت مجموعة أسنان صفراء طويلة تلمع أمام وجهي إنه الرجل الجائع النظرات « بدأت أدور أرجوك انظر إلي ! »

امسك به المساعدون من الخلف ، اثنان منهم جرّاه إلى الخارج وهو يضحك ويصخب « بدأت أدور أيها الهندي » ـ ثم يكتفي بالضحك واصل ترديد العبارة

والضحك وهو يهبط مبتعداً في ظلمة القاعة ثم غرق المهجع في الصمت من جديد
كنت أسمع صوتاً آخر يقول « حسناً أنا أنفض يدي من الصفقة كلها »

« ها قد قابلت صاحباً لبعض الوقت يا زعيم » قال ماكمورفي وانقلب معاوداً النوم لم استطع النوم كثيراً بقية الليل وظلت الأسنان الصفراء والرجل ذو الوجه الجائع يسألني أن أنظر اليه ! انظر إليه ! ثم حين كنت أغفو كان الوجه يغيب ليظل السؤال ذلك الوجه ، المتقع الأصفر ، الجائع حتى الموت ، يجوس خلال الظلام في مواجهتي ، يسألني شيئاً ينتظر مني شيئاً عجبت كيف نام ماكمورفي والجو موبوء بمائة وجه متشابه ، مائتين ربما ، ربما ألف وجه

لديهم منبّه في « المضطربين » لايقاظ المرضى ـ لا يكتفون بالاضواء كما يحدث في الطابق السفلي هذا المنبه كمبراة أقلام رصاص عملاقة وضخمة تسحق شيئاً مفزعاً استفقنا على الفور ـ ماكمورفي وأنا ـ حين سمعناه ، وكنا على وشك الاستلقاء من جديد حين نادى مكبر الصوت على كلينا للحضور الى مركز الممرضات نهضت عن الفراش تصلب ظهري طوال الليل بشكل أجبرني على احناء قامتي ؛ كنت ايضاً ادرك من تقوس ماكمورفي أن ظهره قد تصلب مثلي

« ماذا يخفون لنا في برنامجهم الآن يا زعيم ؟ » سألني « الأغلال ؟ مخلعة التعذيب ؟ آمل ألا يكون شيئاً مرهقاً ، لأنني يا رجل أشعر بتعب قاتل »

أخبرته أن ما ينتظرنا ليس مرهقاً ، لكني لم أزد على ذلك شيئاً ، لأنني نفسي لم أكن واثقاً حتى بلغت مركز الممرضات وقالت الممرضة ، ممرضة أخرى ، « السيد ماكمورفي والسيد برومدن » ثم سلمتنا كوباً ورقياً صغيراً

نظرت في كوبي ورأيت الكبسولات الحمراء الثلاثة

هذا الطنين الذي يعربد في رأسي لا أستطيع إيقافه

« انتظري » ، يقول ماكمورفي « هذه من الحبوب المدوخة ـ أليست كذلك ؟ »

تومىء الممرضة ، تلتفت لتفحص ما وراءها ؛ هناك رجلان ينتظران بلسانين جليديين يحدودبان الى الأمام وتتشابك مرافقهما

يعيد ماكمورفي الكوب قائلاً « كلا يا سيدي السيدة ، سأتحمّل عُصابة العين أستطيع استخدام سيجارة مع ذلك »

أعيد كوبي أنا أيضاً ، وتقول أنها مضطرة للاتصال بالهاتف فتنزلق من بيننا إلى الباب ، تصبح عند الهاتف قبل أن ينبس أحدنا بشيء اضافي

« أنا آسف لأنني ورطتك في هذا الشيء يا زعيم » ، يقول ماكمورفي أستطيع سماعه بكل وضوح رغم ضجيج أسلاك الهاتف التي تصفّر في الجدران أستطيع الإحساس باندفاعة فزعة من الأفكار تتدحرج هابطة في رأسي

نحن جالسان في الغرفة النهارية والوجوه متحلقة من حولنا حين تدلف الممرضة الكبيرة ذاتها من الباب ، يرافقها الصبيان الأسودان من كل جانب ، يتأخران عنها بخطوة أحاول الانكماش في مقعدي بعيداً عنها ، لكن الوقت قد فات العديدون يتطلعون إليّ ، العيون اللزجة تسمّرني حيث أجلس

« صباح الخير » تقول ، استعادت ضحكتها القديمة الآن ، يقول ماكمورفي صباح الخير وأظل صامتاً رغم أنها توجه لي أيضاً تحية بصوت عال أراقب الاسودين ، أحدهما وضع ضمادة على أنفه وعلق ذراعه في حمالة ، يده الرمادية تطل من القماش كالعنكبوت الفارق ، والآخر يتحرك وكأنه وضع جبيرة عظام حول أضلاعه يكشّران كلاهما عن ابتسامة باهتة ربما كان بإمكانهما نيل استراحة منزلية بسبب جروحهما ، لكنهما لن يفوّتا هذه الفرصة أبادلهما الابتسام لإغاظتهما

تتحدث الممرضة الكبيرة إلى ماكمورفي بحنوّ وصبر ، عن الشيء اللامسؤول الذي اقترفه ، الشيء الطائش ، استشاطة الغضب المعروفة عن الصبيان الصغار ـ ألا تخجل من نفسك ؟ يقول أنه لا يظن ذلك ، ويطلب منها أن تتمّ ما بدأته

تخبره كيف أنهم ـ المرضى في جناحنا في اجتماع المجموعة المنعقد بعد ظهر البارحة ـ اتفقوا مع الادارة على أنِ تعريضه لعلاج بالصدمة قد يكون مفيداً ، الا اذا أدرك أخطاءه مطلوب منه الإقرار بغلطته ، أن يظهر ، أن يعرب عن علاقة جديدة متعقلة ، وسيلغى علاجه هذه المرّة

حلقة الوجوه تنتظر وتراقب تقول الممرضة أن الأمر يعود إليه

« هكذا ؟ » يقول « هل لديك ورقة أوقع عليها ؟ »

« كلا في الواقع ، ولكن إذا شعرت بضرور ـ »

« ولماذا لا تضيفين أشياء أخرى لازاحتها عن طريقك ، انني مثلاً ضالع في مؤامرة لاسقاط الحكومة وكيف أنني أعتبر الحياة في جناحك أحلى وأجمل حياة لعينة في هذا الجانب من جزر هاواي تعرفين هذا النوع من القذارة »

« لا أظن أن ذلك سيكون ـ »

« ثم ، بعد أن أوقع ، تحضرين لي بطانية وعلبة دخان الصليب الأحمر هوووه ، كان لزاماً على أولئك الشيوعيين الصينيين أن يتعلموا منك الكثير ، يا سيدتي »

« راندل ، نحن نحاول مساعدتك »

لكنه يقف على قدميه ، يهرش بطنه ، يسير ماراً بالقرب منها ومن الصبيين الأسودين المتراجعين نحو طاولات اللعب

« حسناً ، حسناً حسناً حسناً ، أين طاولة البوكر أيها الأصحاب ؟ »

تحدق به الممرضة برهة ، ثم تخطو عائدة إلى مركز الممرضات لتستخدم الهاتف

يقودنا مساعدان ملونان ومساعد أبيض ذو شعر أشقر إلى « المبنى الرئيسي » يتحدث ماكمورفي خلال السير مع المساعد الابيض ، كأنه غير قلق على شيء

الصقيع الكثيف يغطي العشب ، والمساعدان الملونان السائران في المقدمة ينفثان ذيلاً من الضباب كالقاطرات تفرّق الشمس بعض الغمام وتضيء الصقيع حتى تتبعثر القيعان بالشرارات تنتفض عصافير الدوري وتنفض ريشها ، تنكش الشرارات بحثاً عن البذور نشق طريقنا فوق العشب المتقصف ، عبر جحور السنجاب المفورة حيث رأيت الكلب شرارات باردة الصقيع ينسكب في الجحور تختفي عن الأنظار

أشعر بصقيع في معدتي

صعدنا الى ذلك الباب يطنّ وراءه صوت كهياج النحل رجلان أمامنا يتكوران تحت الكبسولات الحمراء ـ ينتحب أحدهما كالطفل ، يقول « إنه صليبي ، أشكرك أيها الرب السيد ، انه كل ما أملك أشكرك أيها الرب السيد »

الرجل الآخر المنتظر يقول « كرة الشجاعة » ، انه منقذ حمام السباحة إنه يبكي قليلاً بدوره

لن أبكي ولن أصرخ ليس مع ماكمورفي هنا

يطلب منا الفني أن نخلع أحذيتنا ، ويسأله ماكمورفي ان كان علينا أن نكوي سراويلنا ونحلق ذقوننا أيضاً يقول الفنّي أننا لن نحظى بهذه النعمة

يطلّ الباب المعدني بعيون مساميره المبرشمة

ينفتح الباب ، يمتص الرجل الأول إلى الداخل لن يتزحزح المنقذ تخرج عارضة كدخان النيون من اللوح الأسود في الغرفة ، تحكم الوثاق على جبهته المربوطة وتسحبه الى الداخل ككلب مقيد بطوق تديره العارضة ثلاث مرات قبل أن ينغلق الباب ، ويتجعد وجهه فزعاً « الهدف الأول » يزمجر من بين أسنانه « الهدف الثاني ، الهدف الثالث »

أسمعهم في الداخل يرفعون جبهته كما يرفعون غطاء فتحة المجرور قعقعت جبهته وتلاطمت داخلها المسننات

يرتطم الدخان بالباب فينفتح ، وتخرج نقالة تحمل الرجل الأول يميل ذلك الوجه نحوي بعينيه تعود النقالة إلى الداخل وتخرج المنقذ أستطيع سماع المنادي يتهجى أسمه يقول الفني « المجموعة التالية »

الأرض باردة ، صقيعية ، متشظية يعوي الضوء في الأعلى ، أنبوباً طويلاً جليدياً أبيض أشمّ المرهم الكربوني، مثل رائحة المرآب. أشمّ حامض الخوف. هناك نافذة واحدة ، عالية ، صغيرة ، وأرى في الخارج عصافير الدوري المنتوفة الريش جاثمة فوق سلك كالخرز البنّي تغوص رؤوسها في الريش إتقاءً للبرد شيء ما يلفح الريح فوق عظامي المجوّفة ، تعصف بي صاعداً من علوّ إلى علو غارة جوية ! غارة جوية !

« لا تصرخ يا زعيم »

غارة جوية !

« هديء من روعك سأذهب أنا أولاً جمجمتي سميكة عليهم ولن يؤذوني واذا فشلوا في ايذائي فلن ينجحوا في ايذائك »

يصعد على المنضدة دون مساعدة ويبسط ذراعيه ليبعد الظل تسلّ إبرة ابزيمات رسغه ، كاحليه ، تحشره في الظل تمتد يد لتنزع ساعة يده ـ ربحها من سكانلون ـ تسقطها قرب اللوح ، تنفتح في انتفاضة حادة ، المسننات والدواليب والمحور الطويل ينطّ متقافزاً على جوانب اللوح ويستقر بسرعة

لا تلوح عليه أقلّ علامات الفزع يطفح وجهه بالبشاشة وهو ينظر الي

يضعون المرهم الكربوني على صدغيه « ما هذا ؟ » يقول « ناقل كهربائي » يردد عليه الفنّي « تدهنون رأسي بالناقل هل تقلدونني تاجاً من الشوك ؟ » يلطخونه بالمرهم يغني لهم ، يجعل ايديهم ترتجف
« أحضر زيت الوايلد رووت يا شوكي »

يضعون تلك الأشياء كالسماعات ، تيجاناً من الأشواك الفضية فوق صدغيه الملوثين بالكربون يحاولون اخماد غنائه بقطعة من الخرطوم المطاطي ليعض عليها

يديرون بعض الأقراص المدرّجة ، وتهدر الآلة ، يلتقط ذراعان آليان مكواتين بلون الحديد المصهور ويحدودبان فوقه يغمز لي ويحادثني بصوت مكتوم ، يخبرني بشيء ما ، يفضي إلي بشيء ما من خلال الخرطوم المطاطي المكواتان تقتربان من الفضة المطلية على صدغيه ، يقوّسه الضوء ، يشنجه ، يمطّه بعيداً عن الطاولة حتى لا يبقى منه سوى الرسغين والكاحلين ، ويتسلل صوته عبر خرطوم المطاط المتغضن هـوووويـه ! ويغرزه صقيع الشرارات

خارج النافذة ، تتهاوى طيور الدوري عن السلك والدخان يتصاعد منها يلقونه على نقالة ، لا يزال يرتعش ، الصقيع غمر وجهه بالبياض الاكسدة حامض البطاريات يلتفت الفنّي نحوي

راقب الأيل الآخر أعرفه أمسك به
لم يعد الأمر مقتصراً على قوة الارادة
أمسك به ! اللعنة لا تحضروا هؤلاء الصغار دون تخدير

تضغط الملزمة على رسغي وكاحلي
المرهم الكربوني يحتوي على برادة الحديد حكّة في الصدغين
قال شيئاً حين غمز أخبرني بشيء

الرجل يدنو ، يقرّب مكواتين من الحلقة المحيطة برأسي
تنقض الآلة عليّ
غارة جوية
ضربة للمختال ، الذي يركض الآن أسفل المنحدر   لا تستطيع التقدم ، لا تستطيع التراجع ،   انظر في قاع البرميل وسترى أنك   ميت ميت ميت
نصعد إلى طريق القصب المحاذي لطريق السكة الحديدية   أضع أذني على السكة فتحرق خدّي
أقول « لا شيء على الطريقين   على بعد مائة ميل »
يقول بابا « همم   »
« ألم نكن نقتفي أثر الجاموس بغرز خنجر في الأرض ، نمسك المقبض بأسناننا ونسمع وقع أقدام القطيع عن بعد ؟ »
« همم » يقول ثانية ، لكن شيئاً ما يدغدغه   هناك سياج من سنابل القمح المتكدسة من الشتاء الماضي على طول الجانب الآخر من الطريق   الفئران تعشش تحتها ، يقول الكلب
« هل نصعد أعلى الطريق أم أسفلها يا ولدي ؟ »
« نعبرها ، هكذا يقول الكلب العجوز »
« الكلب لا يقتفي الأثر »
« سوف يفعل   هناك طيور في الأعلى ، هكذا يقول الكلب العجوز »
« والدك يقول ان الصيد في أعلى ضفة الطريق أفضل »
« عبر أكداس القمح مباشرة ، هكذا يخبرني الكلب »

ونعبر   الشيء التالي الذي أفقت عليه كان تقاطر الناس حول الطريق لمطاردة طيور الحجل الوفيرة   يبدو أن كلبنا توغل عميقاً وفرّت الطيور من بين اكداس القمح إلى الطريق
اصطاد الكلب ثلاثة فئران »
يا رجل ، يا رجل ، يا رجل ، يا رجل   عريض وضخم ذو طرفة عين كالنجمة
النمل ثانية يا يسوع   انه يتكاثر هذه المرة   الانذال ذوي الأقدام الشائكة تتذكر مرّة حين اكتشفنا أن مذاق هذا النمل شبيه بمذاق المخلّلات المتبّلة ؟ هيء ،

ماذا ؟ قلت أنها ليست مخللات متبلة وقلت انها كذلك ، هيء   وتعرضت لتأنيب ساخن من أمك حين سمعت   تُعلّم الولد أكل البقّ !

بغضب ! على الولد الهندي الباسل أن يتعلم اقتيات كل شيء يستطيع ابتلاعه قبل أن يتمكن ذلك الشيء من ابتلاعه أولاً

نحن لسنا هنوداً   نحن متحضرون   تذكّر هذا

قلت لي يا بابا أن أعلّقك في مواجهة السماء حين تموت

اسم ماما كان برومدن   لا يزال اسمها برومدن   قال بابا أنه ولد باسم واحد ، ولد متلفعاً به كما يسقط العجل فوق بطانية مفروشة حين تصرّ البقرة على الوقوف   تي ـ آه ـ ميلاتونا ، **شجرة الصنوبر الأعلى شموخاً فوق الجبال** ، وأنا بعون الله أكبر هندي في ولاية أوريغون ، وربما كاليفورنيا وإيداهو   لقد ولدت ملتصقاً بالاسم

أنت بعون الله أكبر الحمقى   اذا دار في خلدك أن امرأة مسيحية قوية تتزوج اسماً مثل تي ـ آه ـ ميلاتونا   ولدت ملتصقاً باسم ، حسناً   لقد ولدت وأنا أحمل اسماً غيره   برومدن   ماري لويز برومـدن

وحين ننتقل الى المدينة ، يقول بابا ، يسهل ذاك الإسم كثيراً من عملية الحصول على بطاقة الضمان الاجتماعي

رجل يطارد شخصاً ما بمطرقة مسامير ، يكاد يبلغه لو حثّ الخطى هكذا   أرى تلك البروق تلمع ثانية ، الألوان تتطاير وتتضارب

رنين ، دغدغة ، دغدغة ، أنامل أطراف مرتجفة ، انها صيادة ماهرة ، تلتقط الدجاج ، تضعه في القن   فخاخ سلكية ، عربة مدفع ، ثلاث أوزات في سرب   طيران الى الشرق ، طيران إلى الغرب ، طيران فوق عش الوقواق   اندفعوا الى الخارج   الأوز ينقّض ، يختطفكم بعيداً

كانت جدّتي تغني هذه الأغنية ، لعبة كنا نلعبها ساعات وساعات ونحن نجلس قرب رفوف السمك نطرد عنها الذباب   لعبة تسمى « دغدغة ، تشابك بالأنامل »   تعدّ كل اصبع في يدي المفروشة ، اصبع لكل مقطع وهي تغني

دغدغ ، دغدغ   ، أشبك الأنامل (سبعة اصابع) وهي صياد ماهر ، تصطاد

الدجاج (ستة عشر اصبعاً ، تلمس إصبعاً عند كل ضربة من يدها المعروقة ، تبدو اظافري أمامها كوجه صغيـر يريد أن يكون الولد الذي ينقض الأوز لاختطافه)

أحب اللعبة واحب جدتي لا أحب « السيدة دغدغ ـ اشبك الاصابع » التي تصطاد الدجاج لا أحبها ، احب تلك الأوزة المحلقة فوق عش الوقواق احبها واحب جدتي احب الغبار العالق في غضونها

حين رأيتها للمرة التالية كانت ميتة وباردة كالحجارة تضمها في منتصف دالاس على جانب الطريق القمصان الملّونة تقف إلى الجوار ، بعض الهنود ، بعض الرعاة ، بعض الحصادين نقلوها بالعربة إلى مقبرة المدينة ، أغلقوا عينيها بطين أحمر

أتذكر الظهيرات الساخنة العابقة بالعواصف الكهربائية حين تتراقص الأرانب تحت عجلات شاحنة الديزل

جوي صياد البرميل أصبح يملك عشرين ألف دولار وثلاث سيارات كاديلاك منذ توقيع العقد لكنه لا يستطيع قيادة أية سيارة منها

أرى زهر الطاولة

أراه من الداخل ، أنا في القاع أنا المكعب أهزّ الزهر لأرى الرقم واحد فوقي يهزون الزهر ويرمون عين الأفعى ـ وأنا المكعب ، ست كتل من حولي كالوسائد البيضاء في الجانب الآخر من الزهر، الرقم ستة الذي سيظل الى الأسفل حين يرمى الزهر لماذا ينقشون الزهر الآخر ؟ أراهن أن السبب هو رمي الرقم واحد أعين الأفعى يرمونه بالخطاطيف المعقوفة وأنا المكعب

أقفز خارج المكعب

الماء أنا استلقي في بركة موحلة

أعين الأفعى التقطوه ثانية أرى الرقم واحد من فوقي لا يستطيع رمي الزهر الجليدي وراء مخزن الطعام في زقاق ما ـ في بورتلاند

الزقاق نفق وهو بارد لأن الشمس تأخرت بعد الظهر دعيني أريد رؤ ية جدتي أرجوك يا ماما

ماذا قال حين غمزني بعينه ؟

طيران إلى الشرق ، طيران إلى الغرب

لا تقفي في طريقي
لعنة الله عليك أيتها الممرضة ، لا تقفي في طريقي طريقي طريقي !

دَوْري خاو اللعنة ، انقلب ثانية أعين الأفعى
يخبرني معلم المدرسة أن دماغك جيد يا فتى وستكون ذا شأن
ماذا سأكون يا بابا ؟ نسّاجاً مثل العم « آر وجي الذئب » ؟ حائك سلال ؟ أم هندياً مخموراً آخر
أقول أيها المرافق أنك هندي ، أليس كذلك ؟
نعم ، هذا صحيح
حسناً ، لا بد أنك تتقن اللغة جيداً
نعم
حسناً ثلاثة دولارات للجندي النظامي
لن يتبجحوا هكذا لو عرفوا ما يدور بيني وبين القمر لا أريد هندياً نظامياً لعيناً
من تقصد ـ ماذا في الأمر ؟ ـ يخرج عن المسير ، يسمع طبلاً آخر
أعين الأفعى من جديد هووو يا فتى ، هذا الزهر بارد
بعد جنازة الجدة ذهبنا أنا وبابا والعم « الذئب المتقافز والراكض » لنعلّق قبرها رفضت ماما الذهاب معنا ؛ لم يسبق لها أن سمعت بشيء من هذا القبيل تعليق جثة في أعلى شجرة ! هذا يكفي لإصابة المرء بالغثيان

العم « آر وجي الذئب » وبابا قضيا عشرين يوماً في زنزانة السكارى في سجن دالاس يلعبان الرومي لأنهما خرقا حرمة الأموات

لكنها أمّنا الشرعية !

هذا لا يغير شيئاً في الموضوع أيها الفتيان كان عليكما أن تبقياها مدفونة لا أعرف متى ستتعلمون أيها الهنود الجهلة والآن ، أين هي ؟ خير لكما أن تعترفا

اذهب وضاجع نفسك ، قال العم « آر وجي » وهو يلطف سيجارة لن أخبرك

في أعالي أعالي التلال ، في سرير عالٍ من شجر الصنوبر ، إنها تقيس الرياح بيدها العجوز ، تحصي الغمام بأغنيتها العجوز ثلاث أوزات في سرب

ماذا قلت لي حين غمزت ؟

موسيقى جماعية انظر ، السماء ، انه الرابع من تموز

الزهر يستريح

اصطادوني بالآلة مرة ثانية أتساءل

ماذا قال ؟

أتساءل كيف جعلني ماكموري ضخماً من جديد

قال كرة الشجاعة

ها هم هناك في الخارج فتيان سود ببزات بيضاء يختلسون النظر من أسفل الباب ، يأتون فيما بعد لاتهامي بالتسبب في بلل الوسائد الست التي اضطجع عليها ! رقم ستة خُيّل الي أن الغرفة زهر الرقم واحد ، عين الأفعى هناك في الأعلى، الدائرة، الضوء الأبيض المعلق بالسقف. هذا ما كنت أشاهده. في هذه الغرفة الصغيرة المربعة وهذا يعني حلول الظلام كم غبت ؟ الضباب يتكاثف بعض الشيء ، لكني لن أنزلق للإختباء فيه كلا لن أفعلها بعد الآن

أقف ، وقفت ببطء ، أشعر بوخزة بين منكبي الوسائد البيضاء على أرضية غرفة « العزل » تبللت ، تبولت عليها طوال غيابي لم أستطع استرجاع كل شيء حتى الآن لكني أفرك عينيّ براحة يدي وأحاول تنقية رأسي حاولت جهدي لم أحاول الخروج من هذه الحالة قبل الآن

ترنحت نحو النافذة الصغيرة المغلقة بأسلاك مضلعة في باب الغرفة وطرقتها بأصابعي رأيت مساعداً يعبر القاعة حاملاً صينية لي وعرفت انني هزمتهم هذه المرة

حدث في بعض المرات اني بقيت أسير التجوال التائه لمدة تزيد على اسبوعين بعد العلاج بالصدمة ، أعيش في الزيغ الضبابي العاتم الذي يمسّ حافة النوم والاغماء ، يقترب من تلك المنطقة الرمادية الفاصلة بين الظلمة والنور ، بين اليقظة والسبات والحياة والموت ، حيث تعرف أنك أفقت من اغماءة طويلة لكنك لا تعرف أبداً أي يوم أنت فيه أو الاسم الذي تحمله أو فائدة العودة ـ طوال اسبوعين كاملين واذا لم تجد سبباً لليقظة فبامكانك الالتفاف على نفسك في تلك المنطقة لزمن طويل ، غائم ، أو إذا رغبت من أعماقك في الخروج تستطيع اختراق الحاجز ومصارعته والخروج منه هذه المرّة صارعت للخروج في أقل من يوم ، أقلّ زمن استغرقته من قبل

حين انقشع الضباب أخيراً عن رأسي شعرت أنني أخرج من غوص عميق طويل ، منبثقاً من أسفل السطح بعد بقائي مائة عام تحت الماء كان هذا آخر علاج تلقيته

تعرّض ماكمورفي لثلاث جلسات علاج خلال الاسبوع ذاته حالما يخرج من علاج يستعيد آلية غمزته ، تصل الآنسة راتشدت بصحبة الطبيب وتسأله اذا كان يشعر بـالاستعداد لمعالجة وضعه ومواجهة مشكلته ويعود إلى الجناح للشفاء ويتمطى ، يعرف أن ابصار جميع من في « المضطربين » متجهة نحوه تنتظر ردّه ، فيخبر الممرضة بأسفه لأنه لا يملك سوى حياة واحدة يعطيها لبلاده ويمكنها أن تلعق مؤخرته الوردية قبل أن يقدم التضحية المناسبة ، ماذا تقولين !

ثم يقف وينحني مرتين للرجال الباسمين بينما تقود الممرضة الطبيب الى مركز الممرضات بالمبنى الرئيسي والتصريح بعلاج جديد

مرّة ، وهي تستدير للذهاب ، أمسك بها من ظهر ردائها ، قرصها وجعل وجهها يحمّر كشعره ولولا وجود الطبيب الذي أخفى ابتسامته ، لكانت

صفعت ماكمورفي على وجهه كما أظن

حاولت اقناعه بمناورتها لكي توقف علاجاته الكهربائية ، لكنه ضحك وقال إلى الجحيم ، انها لا تقوم بشي سوى شحن بطارياتي « حين أخرج من هنا ، فالمرأة الأولى التي تتلقى العجوز الأحمر ماكمورفي ، المريض النفسي ذا العشرة آلاف واط ، ستضيء كآلة كرات البولنغ وتقذف الدولارات الفضية ! كلا لست خائفاً من شاحنات البطارية هذه »

أصرّ على أنها لا تؤذيه رفض حتى تناول الكبسولات ولكن كلما نودي عليه في مكبر الصوت لقطع افطاره والاستعداد للذهاب الى المبنى الرئيسي ، تتقلص عضلات فكه وينسحب اللون من وجهه ، يبدو نحيلاً وفزعاً ، الوجه الذي رأيته منعكساً على زجاج السيارة في طريق العودة من رحلة الصيد

غادرت « المضطربين » في نهاية الاسبوع وعدت إلى الجناح لدي أشياء عديدة سأقولها له قبل المغادرة ، لكنه عاد لتوه من العلاج وكان يتابع كرة الطاولة بعينيه كأنه مسمّر اليها قادني المساعد الملّون والآخر الأشقر إلى الطابق السفلي وتركاني في جناحنا وأغلقا الباب ورائي قبع الجناح في هدوء الموتى قياساً على « المضطربين » سرت إلى الغرفة النهارية وتوقفت عند الباب لسبب ما ، التفتت كل الوجوه إليّ بنظرة تختلف تماماً عن نظرتهم السابقة استضاءت وجوههم كأنهم كانوا يتطلعون في منصة عرض ضوئي . « ها هنا أمام عيونكم » يهزج هاردنغ ، « يقف الرجل الضاري الذي كسر ذراع الفتى الأسود ! هي ـ ها ، انظروا ، انظروا » بادلتهم الابتسام مدركاً شعور ماكمورفي ازاء هذه الوجوه المستصرخة

تجمع الرجال حولي وطلبوا أن أحدثهم عن كل ما حدث ؛ كيف كان يتصرف هناك ؟ ماذا كان يفعل ؟ هل صحيح ، كما راجت الشائعات في قاعة الرياضة ، انهم كانوا يعرضونه لجلسة علاج كهربائي يومياً ، وانه كان ينفضها كالماء ، يخرج الفنيّين عن طورهم حين يتبجح بقدرته على فتح عينيه فترة طويلة من تلامس القطبين

اخبرتهم بكل شيء ، ولم ينتبه أحد منهم إلى انني صرت فجأة اتحدث الى الناس ـ الرجل الذي اعتبر أصماً أبكماً طوال منذ أن عرفوه ، يتكلم ويسمع مثله مثل الآخرين قلت لهم أن كل ما سمعوه كان صحيحاً ، وأضفت بعض الأقاصيص

من مخيّلتي   ضحكوامن الأعماق للعبارات التي وجهها للمرضة حتى أن « البليدين » تحت أغطيتهما المبللة في زاوية « المزمنين » ابتسموا وشخروا من الضحك ، كأنهم فهموا كل شيء

وحين طرحت الممرضة بنفسها مشكلة المريض ماكمورفي أمام اجتماع المجموعة في اليوم التالي ، قالت أنه سبب غير عادي لا يستجيب نهائياً للعلاج بالصدمة الكهربائية وقد يقتضي الأمر وسيلة أكثر فعالية لاحداث الاتصال   قال هاردنغ « هذا ممكن يا آنسة راتشدت ، نعم   ولكن   يبدو من الاقاصيص التي سمعتها عن مداولاتك مع ماكمورفي في الطابق الأعلى انه لم يجد صعوبة في الاتصال بك »

مادت الأرض من تحتها وشعرت بالارتباك الشامل وهي تراقب الرجال الساخرين منها ، حتى انها لم تطرح الموضوع مرة أخرى

أدركت أن ماكمورفي يكبر في عيونهم كلما مكث طويلاً في الطابق الأعلى ، حيث لا يستطيع الرجال رؤ ية الثغر الذي تحدث فيه ، يكبر ليصبح أسطورة   الرجل البعيد عن الأنظار لا ينكشف ضعفه وسقوطه ، هكذا قررت ، وبدأت تخطط لاعادته إلى الجناح   تصورت أن الرجال سيرونه بأنفسهم فيصبح عندها عرضة للضعف والزلل مثل غيره   لا يمكن أن يواصل لعب دور البطل اذا ظل جالساً في الغرفة النهارية طوال اليوم ، بلاهة الصدمة

تكهن الرجال بنواياها ، وأنه طالما بقي في الجناح تحت أبصارهم فستعرّضه للصدمة كلّما خرج عن الخطر   لهذا تداولنا أنا وهاردنغ وسكانلون وفريدريكسون في طريقة اقناعه بأن الحل الأفضل للجميع هو تدبير فراره من الجناح   وحين عاد يوم السبت إلى الجناح ، رافعاً قبضته كما يفعل الملاكم في الحلبة ، مطوقاً رأسه بيديه ليعلن معاودة المباراة   كنا قد فرغنا من رسم الخطة   سننتظر حتى المساء ، نرمي حشية في النار ، يجيء رجال المطافيء فنتمكن من تهريبه عبر الباب   بدت خطة محكمة حتى أننا لم نتخيل أنه سيرفضها

لكننا لم نفكر أن اليوم يصادف الوعد الذي ضربه للفتاة كاندي ، التي ستتسلّل إلى الجناح من أجل بيللي

أعادوه الى الجناح في العاشرة صباحاً   « ممتليء بالبول والخلّ يا أصحاب   لقد

فحصوا شموع احتراقي ونظفوا أطرافي فأصبحت ألمع كشرارة الوشيعة .هل استخدمت هذه الوشائع منذ عهد هالويين ؟ زام ! لعبة نظافة مرحة » طاف في الجناح أضخم مما سبق ، قلب دلواً من ماء المسح تحت باب مركز الممرضات ، وضع قطعة مربعة من الزبدة تحت الحذاء الأبيض للفتى الاسود الضئيل دون أن يشعر الأخير ، وانتزع الضحكات خلال طعام الغداء والزبدة تذوب لتنقلب إلى لون وصفه هاردنغ بأنه « أصفر شديد الايحاء » أصبح اكبر مما سبق ، وكلما اقترب من طالبة تمريض قفزت فجأة وجحظت عيناها وهرعت خارج القاعة ، تحك خاصرتها

أخبرناه بخطتنا لتدبير فراره ، فردّ علينا بأنه ليس في عجلة من أمره وذكّرنا بموعد بيللي « لا يمكن أن نخيب أمل بيللي الفتى ، هل نستطيع يا رجال ؟ ليس حين يوشك على قطف الكرزة يجب أن تكون الحفلة مرتبة ورائعة هذه الليلة لنقل أنها حفلة توديعي »

هذا اليوم يصادف عطلة الممرضة الكبيرة الاسبوعية لم تري أن تفوتها عودته ـ وقررت وجوب عقد اجتماع لنا لتسوية أمرٍ ما في الاجتماع ، حاولت مرة أخرى أن تطرح اقتراحها باجراء أشد فعالية ، وألحّت أن يدرس الطبيب هذا الأمر « قبل أن يفوت الأوان على مساعدة المريض » ، لكن ماكمورفي كان شعلة من الغمز واللمز والتثاؤب خلال حديثها ، صمتت أخيراً ، ثم فاجأ الجميع ، الطبيب وكل المرضى ، بأنه موافق على ما قالته

« قد تكون على حق يا حكيم ، انظر إلى الخير الذي أسبغته عليّ فولتات قليلة بائسة ربما اذا ضاعفنا الشحنة أستطيع التقاط القناة الثامنة ، مثل مارتيني لقد ضجرت من الاستلقاء في الفراش والهلوسة بشيء واحد هو القناة الرابعة بنشراتها الاخبارية وحالة الجو »

تنحنحت الممرضة ، حاولت استعادة السيطرة على الاجتماع « لم اقترح النظر في صدمات اضافية يا سيد ماكمورفي ـ »

« عفواً سيدتي ؟ »

« كنت اقترح أن ندرس اجراء جراحة ما جراحة بسيطة حقاً لدينا تاريخ

من النجاحات السابقة في استئصال النزوعات العدوانية الكامنة في حالات عدائية معينة ـ » .

« عدائية ؟ يا سيدتي ، أنا وديع كالجرو لم أقشر القار عن جلد مساعد منذ أسبوعين تقريباً لا يوجد سبب لقطع أي شيء الآن ، أليس كذلك ؟ »

علّقت ابتسامتها ، تستجديه الشعور بتعاطفها العميق معه

« راندل ، العملية لا تتضمن قطع ـ »

« بالإضافة إلى ذلك » واصل كلامه « لا فائدة من استئصالها ؛ لدي زوج آخر منها في خزانتي الصغيرة »

« زوج ؟ آخر ؟ »

« وهي ضخمة ككرة البيسبول يا حكيم »

« سيد ماكمورفي ! » تهشمت ابتسامتها كالزجاج حين أدركت أنه جعلها عرضة للسخرية

« لكن حجم الأخرى يمكن اعتباره طبيعياً »

سار على هذا المنوال حتى كنا نستعد للنوم سرى عندها شعور بهيج في الجناح حين تهامس الرجال باحتمال اقامة الحفلة إذا حضرت الفتاة ومعها المشروبات كان الرجال يحاولون اقتناص نظرات بيللي فيبتسمون له ويغمزون كلما تطلع صوبهم وحين وقفنا في صف العلاج اقترب ماكمورفي وسأل الممرضة ذات الصليب والوحمة اذا كانت تسمح له بحبتي فيتامين نظرت إليه متعجبة وقالت انها لا ترى سبباً يمنعه وأعطته حبوباً بحجم بيضة العصفور وضعها في جيبه

« ألن تتناولها الآن ؟ » سألت

« أنا ؟ يا إلهي كلا ، لا أحتاج الى الفيتامينات لقد أخذتها لبيللي الفتى هذا يبدو لي أنه في ذروة التعب ، وربما فقر الدم »

« لماذا لا تعطيها لبيللي اذن ؟ »

« سأفعل يا حبيبتي ، سأفعل ، لكنني فكرت أن أنتظر حتى منتصف الليل حين يصبح في أمس الحاجة اليها » ، وسار إلى الجناح عاقداً ذراعيه حول كتف بيللي المتورد الوجه ، بعد أن غمزني وهاردنغ في الخاصرة بإبهامه الضخم حين مرّ بنا ، وخلّف تلك الممرضة في مركز الممرضات وقد قفزت عيناها من محجريها تسكب الماء على قدميها

يجب أن تعرفوا شيئاً عن بيللي بيبيت   رغم الغضون في وجهه والخصلات الرمادية في شعره فهو لا يزال يبدو فتياً - كفتى معقوف الأذنين ، منمش الوجه ، ناتيء الاسنان يصفّر عاري القدمين في احدى التقاويم ويجري خلفه شريط من الرؤوس الضخمة التي تجرّ أقدامها وراءه وسط الغبار - لكنه لا يشبه شيئاً كهذا تشعر بالدهشة دائماً حين يقف قرب رجل آخر وتجد أنه لا يقل عنه طولاً ، وأنه ليس معقوف الأذنين أو منمش الوجه أو ناتيء الاسنان عندما تتفحصه عن قرب ، إذ يبدو عندها في الثلاثين من عمره

سمعته يبوح بعمره مرة واحدة ، تسقطّت كلماته في الحقيقة حين كان يحادث أمّه في الرواق   كانت تعمل في الاستعلامات ، امرأة صلبة ضخمة البنية ذات شعر يتدرج لونه من الشقار إلى الزرقة فالسواد ثم الشقار كل عدة شهور ، جارة الممرضة الكبيرة ، هكذا فهمت ، وصديقة حميمة لها   وكلما خرجنا للرياضة يتحتم على بيللي المرور عليها وإحناء خدّه الوردي أمام تلك الطاولة ليتلقى قبلة عليه   كانت القبلة تسبب إحراجاً لبيللي وللجميع ، ولهذا لم يتهكم عليه أحد بعد ذلك ، حتى ماكمورفي

ذات يوم ، لا أذكر كم مضى عليه ، توقفنا في طريقنا لممارسة الرياضة وجلسنا قرب الرواق على ديوانة بلاستيكية ضخمة أو خرجنا الى شمس الساعة الثانية حيث اعتاد أحد الفتيان السود اجراء اتصال هاتفي روتيني ، فاغتنمت والدة بيللي الفرصة لتجلس معه على العشب غير بعيدة عني ، مشدودة كالقوس وقد تكومت ساقاها القصيرتان المستديرتان أمامها ، فتذكرني بالجلود الاصطناعية ، واستلقى بيللي قربها ورأسه في حجرها وترك لها أن تعبث بأذنيه وزغب شعره الناعم   كان بيللي يحدثها عن الزواج والتسجيل في الجامعة يوماً ما   دغدغته أمه من شعره وضحكت لهذه الحماقة

« يا حبيبي ، أمامك وقت طويل للتفكير بهذه الأشياء   أمامك الحياة بأكملها »

« أنا في الثـ   الثـ   الثلاثين من عمري يا أماه »

ضحكت وداعبت شحمة أذنه   « يا حبيبي ، » هل أبدو أمّاً لرجل في الثلاثين من عمره ؟ »

لوت أنفها وفتحت شفتيها لتطلق بلسانها صوت قبلة في الهواء ، وكان لا بد لي من الاعتراف بأنها لا تبدو أمّاً من أي نوع لم أصدق أنه في الثلاثين حتى دنوت منه وألقيت نظرة على تاريخ ميلاده المسجل فوق معصمه

عند منتصف الليل ، حين غادر غيبفر والفتى الاسود الآخر والممرضة جاء الرجل الملّون ، السيد تركل ، للمناوبة كان ماكمورفي وبيللي يستعدان ، يتناولان الفتيامينات كما خُيّل إلي نهضت من الفراش وارتديت ثوباً وخرجت إلى الغرفة النهارية حيث كانا يفاوضان السيد تركل خرج هاردنغ وسكانلون وسيفليت وبعض الرجال الآخرين كان ماكمورفي يخبر السيد تركل عما سيفعله اذا جاءت الفتاة ـ ليذكّره بالأحرى ، إذ أنهما بحثا جوانب الحفلة قبل أسبوعين من الآن قال ماكمورفي أن الحل الأفضل هو ادخال الفتاة من النافذة بدلاً من المخاطرة بادخالها من الرواق الرئيسي ، حيث يحتمل وجود المراقبة الليلية ثم يجري إغلاق غرفة « العزل » نعم ، ستكون أفضل كوخ شهر عسل للعاشقين سينفردان كلية (آه ه ه ، ماكموروفي هكذا كان بيللي يردد على الدوام) ، ويجب اطفاء الأضواء لكي لا ترى المراقبة شيئاً يجب إغلاق ابواب الجناح وعدم ايقاظ أي « مبرح » سيال اللعاب يجب التزام الهدوء ؛ يجب عدم ازعاجهم

« آه ، هيا يا ماك ماك ماكمورفي » قال بيللي

واصل السيد تركل الايماء برأسه والموافقة وهو يكاد يسقط من النعاس حين قال ماكمورفي « أظن أن هذه الاجراءات تشمل كافة الأشياء » قال السيد تركل « كلا ، لا تشملها كلها » وجلس يبتسم بردائه الأبيض ورأسه الاصلع التي تطوف فوق عنقه كالبالون فوق عصا

« هيا يا تركل ، سيكون الأمر جديراً بغبائك سوف تحضر معها زجاجتين »

« ها أنت تقترب من الموضوع » قال تركل تأرجح رأسه وتراقص ، تظاهر بالقدرة على البقاء مستفيقاً سمعت أنه يواظب على عمل آخر في النهار ، في حلبة سباق استدار ماكمورفي إلى بيللي « تركل يبغى صفقة أكبر يا بيللي الفتى كم يساوي عندك فقدان كرزتك الحبيبة ؟ »

قبل أن يتوقف بيللي عن التأتأة ليجيب هزّ السيد تركل رأسه وقال « كلا لا أريد نقوداً ستحضر معها شيئاً غير الزجاجة ، ألن تحضر شيئاً حلواً معها ؟

ستشتركون في شيء آخر غير الزجاجة ، أليس كذلك ؟ » ابتسم للوجوه المحدقة به

كاد بيللي أن ينفجر ، حاول التأتأة بشيء يفيد أن أحداً لن يشاركه بكاندي ، بفتاته ! اختلى به ماكمورفي جانباً وطلب منه ألا يقلق على عفاف فتاته ـ سيكون تركل مخموراً ونائماً حين ينتهي بيللي ولن يتمكن الزنجي من ادخال جزرة في حوض ماء

تأخرت الفتاة هذه المرة أيضاً جلسنا في الغرفة النهارية بثيابنا نصغي إلى ماكمورفي والسيد تركل يرويان قصص الجيش وهما يتبادلان سيجارة السيد تركل ويدخنانها بطريقة مضحكة غريبة ، يحتفظان بالدخان حين يمتصانه حتى تكاد عيونهما تنفجر سأل هاردنغ أي نوع من السجائر يدخنانه حتى يتهيّجا هكذا ، فقال السيد تركل بصوت عال منقطع الانفاس « مجرد سيجارة خفيفة ماكرة ، هي هي هي ، نعم ، تريد نَفَساً ؟ »

ازداد بيللي عصبية ، خشي ألا تظهر الفتاة ، خشي أن تظهر كان يواصل سؤ النا لم لا نأوي إلى الفراش بدلاً من الجلوس هنا في الظلام ككلاب الصيد التي تقبع في المطبخ بانتظار فضلات الطعام ، فابتسمنا له لم يشعر أحدنا برغبة في النوم ؛ لم يكن الجو بارداً على الاطلاق ، وكان من الممتع الاسترخاء في الضوء الخافت والاصغاء إلى ماكمورفي والسيد تركل يرويان الحكايات لم يتصرف أحد بما يوحي بالنعاس ، أو القلق الشديد لأن الساعة جاوزت الثانية ولم تظهر الفتاة بعد خطر للسيد تركل انها ربما تأخرت بسبب الظلام الذي يلف الجناح فلم تعرف من أية جهة ستدخل ، وقال ماكمورفي انه الحقّ بعينه ، فهرعا كلاهما في طول وعرض القاعة لإنارة أضواء المكان ، حتى أوشكا على انارة أضواء المهجع الساطعة التي توقظنا من النوم حين أخبرهما هاردنغ أنها ستوقظ كل الرجال فيتقاطرون لأخذ دورهم في الحفلة وافقاه واستقرّ أمرهما على إنارة الأضواء في مكتب الطبيب عوضاً عنها

وما كادت أضواء الجناح تحيل الليل نهاراً حتى ترامى قرع خفيف على النافذة أسرع ماكمورفي الى النافذة وألصق وجهه بها ، ضمّ يديه من كل جانب لتسهل عليه الرؤ ية ، تراجع الى الخلف وابتسم

« انتظر يا ماك ماك ماكمورفي ، انتظر » كان بيللي يعترضه كالبغل

« لا تمكمكمكني يا بيللي الفتى فات وقت التراجع الآن سوف تخضع للامتحان سألقنك التفاصيل أراهن بخمسة دولارات أنك ستحرق تلك المرأة ، موافق ؟ افتح النافذة يا تركل »

ظهرت فتاتان من قلب الظلام ، كاندي والأخرى التي لم تحضر للمشاركة في رحلة الصيد « طعام شهي وافر » قال تركل وهو يساعدهما في الدخول ، « يكفي الجميع »

ذهبنا جميعاً لنساعدهما كان عليهما رفع ثيابهما إلى الفخذين للمرور من النافذة قالت كاندي « لعنك الله يا ماكمورفي » ـ وحاولت فتح ذراعيها لتحتضنه حتى كادت تحطم الزجاجتين اللتين أحضرتهما كانت تتمايل دلالاً وينفلت شعرها من التسريحة التي كومتها فوق رأسها أظن أنه سيكون أجمل لو أطلقته على ظهرها مما فعلت في رحلة الصيد أومأت إلى الفتاة الأخرى بالزجاجة وهي تعبر النافذة

« جاءت ساندي معي لقد استفاقت وتركت مهووس بيغرتون الذي تزوجته ، أليست رهيبة ؟ »

عبرت الفتاة النافذة وقبّلت ماكمورفي وقالت « مرحباً يا ماك ، أنا آسفة لأني لم أحضر ، لكن الماضي انتهى تصور أنك تجد حشرات كالفئران البيضاء في غطاء وسادتك وديداناً في قهوتك الباردة وضفدعاً في مشدّ الصدر » هزّت رأسها ومسحت يدها أمامها كأنها تمسح ذكرى زوجها المغرم بالحيوانات ، « يا يسوع ، كم هو مهووس »

كانت كل منهما ترتدي تنورة وكنزة صوفية دون حذاء ، خدودهما متوردة وابتسامتهما طافحة واسعة « كان علينا أن نسأل عن الاتجاهات » قالت كاندي ، « في كل مشرب مررنا به »

تطلعت ساندي من حولها بعينين مبهورتين « هوووي يا كاندي ، أين نحن الآن يا فتاة؟ هل هذا حقيقي؟ هل نحن في مصح عقلي؟ يا رجل!» كانت أكبر من كاندي بخمس سنوات ربما ، حاولت عقص شعرها في حزمة واحدة وراء رأسها وبدت كراعية بقر تحاول الظهور بمظهر سيدة مجتمع كتفاها عريضان مثل ثدييها وردفيها ، ابتسامتها عريضة حتى يصعب القول أنها جميلة ، لكنها كان مرتبة

ومعافاة يطوق اصبعها خاتم على شكل صفيحة نبيذ   كان الخاتم يتراقص قرب خاصرتها كالمحفظة

« كيف يا كاندي ، كيف ، كيف ، كيف حدثت هذه الأشياء الضارية ؟ » تطلعت من حولها ثانية وتوقفت ، باعدت ما بين قدميها العاريتين وابتسمت

« هذه الأشياء لا تحدث » خاطب هاردنغ الفتاة برصانة   « هذه الأشياء أوهام تمرّ بك في أحلام يقظتك الليلية وتخشين الافصاح عنها لطبيبك النفسي لست موجودة هنا في الواقع   هذا النبيذ غير حقيقي ؛ لا شيء من هذه الأشياء يوجد أو يحدث   والآن ، لنذهب من هنا »

« مرحباً يا بيللي » قالت كاندي

« انظروا إلى هذه القنبلة » قال تركل

مدّت كاندي يدها لتقدم احدى الزجاجتين الى بيللي   « أحضرت لك هدية »

« هذه احلام يقظة ثورن سميث » قال هاردنغ

«يا فتى ! » هتفت الفتاة التي تدعى ساندي « أين قذفنا بأنفسنا ؟ »

« هشش » قال هاردنغ وتلفت من حوله ، « سوف توقظين الأوغاد الآخرين اذا تكلمت بصوت عالٍ »

« ما الأمر أيها الهزيل ؟ » ضحكت ساندي وواصلت الدوران في مكانها « هل تخشى ألا يكفي المكان للتجوّل ؟ »

« ساندي ، كان يجب أن أخمن أنك ستحضرين هذه الخمر الرخيصة »

« يا فتى ! » توقفت عن الدوران لتنظر إلي   « انظري الى هذا يا كاندي ، انه جوليات في ، في ، فو ، فوم »

قال السيد تركل « طعام شهي » وأغلق الستارة ، وكررت ساندي « يا فتى ! » من جديد

كنا نحتشد بشكل سخيف وسط الغرفة النهارية ، نتبادل المواقع ، نثرثر بأشياء لا معنى لها لأننا لا نعرف ما سنفعله بعد ـ لم يسبق لنا المرور بموقف كهذا ـ لم أكن أعلم متى سيتوقف هذا الهياج العارم المتوتر من الثرثرة والابتسام والتنقل من

مكان إلى آخر في الغرفة النهارية حتى انفتح باب القاعة ـ تنافر الجميع كأنهم سمعوا جرس الانذار ضد السرقة

« أوه ، أيها الرب الرحيم » قال السيد تركل ضارباً يده بأعلى رأسه الصلعاء « إنها المراقبة الليلية فلتحترق يا قفاي الأسود »

تراكضنا جميعاً الى المغاسل وأطفأنا الأنوار ووقفنا في الظلام ، نصغي إلى أنفاسنا سمعنا المراقبة تتجول في الجناح ، تدعو السيد تركل بهمس عالٍ نصف خائف كان صوتها ناعماً خافتاً وفزعاً ، يرتفع في النهاية وهي تنادي « سيد تر ـ كل ؟ سيد تر ـ كل ؟ »

« أين ذهب بحق الجحيم ؟ » همس ماكمورفي « لماذا لا يجيبها ؟ »

« لا تقلق » قال سكانلون « لن تنظر في المرحاض »

« ولكن لماذا لا يجيبها ؟ هل انسطل كثيراً ؟ »

« يا رجل ، عم تتحدث ؟ لم أنسطل أبداً ، لا تسطلني حشيشة صغيرة مثل تلك » ، كان صوت السيد تركل ينبعث من مكان ما في الظلام

« يا يسوع ، ماذا تفعل هنا يا تركل ؟» كان ماكمورفي يحاول كتم ضحكته « اخرج من هنا وانظر ما تريده ماذا ستظن حين لا تعثر عليك ؟ »

« تحلّ بنا كارثة » قال هاردنغ وجلس « الله هو الرحيم »

فتح تركل الباب وانزلق منه ليقابلها في القاعة جاءت تتبيّن سبب انارة كل هذه الأضواء ما الذي دفعه لاضاءتها جميعاً ؟ قال تركل ان بعض الأضواء لا تزال مطفأة كأضواء المهجع وأضواء المغاسل قالت أن هذا ليس عذراً ، أي سبب محتمل دفعه لاضاءتها ؟ لم يستطع تركل اختلاق جواب على سؤالها ، وخلال إطراقته الطويلة سمعت الزجاجة تمرّ على الجميع في الظلام كررت سؤالها له في القاعة ، وأخبرها تركل أنه كان ينظف ويتفقد الغرف أرادت أن تعرف لماذا ظلت أضواء المغالسل مطفأة ، وهي المكان الذي سيحتاجه أولاً في عمله ؟ درات تلك الزجاجة ونحن ننتظر جوابه أجبت أنا بتناول جرعة شعرت بحاجتي إليها ، سمعت تركل يتصبب عرقاً ويبتلع ريقه في القاعة ،يبحث عن شيء يقوله.

« انه مسطول » همس ماكمورفي « يجب أن يخرج أحدنا ليساعده »

سمعت مرحاضاً يضيء ورائي ، وفتح الباب ليخرج هاردنغ إلى ضوء

القاعة ، يرفع منامته سمعت المشرفة تشهق لرؤيته فسألها ان تعذره لأنه لم يرها ، لأن الظلام دامس

« القاعة ليست مظلمة »

« اقصد في المغاسل أطفيء الأضواء دائماً لكي اتحرك بحرية على حوض المرحاض ، تعرفين تلك المرايا ؛ حين ينعكس الضوء على المرايا أبدو وكأنني جالس في يوم الحساب أتلقى عقابي »

« لكن المساعد تركل قال انه كان ينظف هناك »

« وقد قام بعمل ممتاز حقاً ، أستطيع القول ، بالنظر إلى العوائق التي يفرضها عليه الظلام هل تودّين رؤ يتها ؟ »

أخلى هاردنغ الباب قليلاً ، وتسلل موشور الضوء الى أرضية المغاسل لمحت المشرفة تدير ظهرها قائلة انها كانت ستقبل عرضه لولا جولاتها العديدة التي ينبغي القيام بها سمعت باب الجناح ينفتح ثانية في نهاية القاعة لتخرج منه مغادرة الجناح نادى عليها هاردنغ للقيام بزيارة أخرى ، واندفع الجميع وصافحوه وربتوا على كتفه مهنئين بطريقة معالجته الأمر

وقفنا في القاعة ، دار النبيذ على الجميع قال سيفليت انه كان سيشرب الفودكا لو وجد مزيجاً مناسباً لها سأل السيد تركل إن كان في الجناح ما يحقق رغبته فأجابه لا شيء سوى الماء قال فريدريسكون ماذا عن شراب السعال ؟ « كانوا يعطوني منه بين الحين والآخر ، وعاء ضخم في غرفة العقاقير مذاقه ليس سيئاً هل لديك مفتاح الغرفة يا تركل ؟ »

قال تركل ان المشرفة هي الوحيدة خلال الليل التي تحمل مفتاح غرفة العقاقير لكن ماكموري أقنعه كي يسمح لهم بمعالجة القفل ابتسم تركل وهزّ رأسه بكسل وبينما عمل هو وماكموري لفتح القفل بمشابك الورق ، أخذنا نتجول مع الفتاتين في مركز الممرضات لفتح الملفات وقراءة السجلات

« انظروا هنا » قال سكانلون ملّوحاً باحدى الملفات « كل شيء متوفر حتى بطاقة درجاتي في المدرسة ، آه ، درجات بائسة ، بائسة بحق »

نبش بيللي ملفه برفقة فتاته، تراجعت الى الخلف لتنظر اليه. « كل هذه الأشياء يا بيللي ؟ جنون هنا ومرض هناك ؟ لا يبدو أنك تحمل كل هذا »

الفتاة الأخرى فتحت درج المعدّات والإمداد واستغربت أن تحتاج الممرضات لكل أنابيب المياه الساخنة هذه ، الملايين منها ، وجلس هاردنغ على طاولة الممرضة الكبيرة يهز رأسه إزاء المشهد بأسره

نجح ماكمورفي وتركل في فتح باب غرفة العقاقير وأحضرا زجاجة السائل ذي اللون الكرزي من الثلاجة الصق ماكمورفي الزجاجة بالضوء وقرأ الملصق بصوت عالٍ

« نكهة اصطناعية ، مواد ملونة ، حامض ليموني مواد داخلية بنسبة سبعين في المائة ـ لا بد أنه الماء ـ وعشرين في المائة كحول ـ هذا رائع ـ وعشرة بالمائة كودائين مخدر تحذير المادة المخدرة قد تسبب الاعتياد » فتح غطاء الزجاجة وتذوقها مغلقاً عينيه لحس أسنانه بلسانه وابتلع جرعة أخرى وقرأ الملصق ثانية « حسناً » قال وطقطق بأسنانه كأنه شحذها لتوه « أظن أنها تصبح طيبة اذا كسرنا بقليل من الفودكا كيف نحصل على مكعبات الثلج يا تركل ، أيها الصاحب العجوز ؟ »

حين امتزج النبيذ الرخيص بالشراب في كأس العلاج الورقية أصبح مذاقه شبيهاً بشراب الأطفال لكنه لاذع كنبيذ تفاح الصبّار الذي كنا نستخرجه في دالاس بارد في الحلق ، حارق ساخن حين يهبط إلى الداخل أشعلنا الاضواء في الغرفة النهارية وجلسنا نشربه رمينا بأول كأسين كأننا نتناول العلاج ، نشربه بجرعات هادئة وصامتة ، نتطلع في بعضنا البعض لنرى إن كان سيقتل أحدنا تجاذب ماكمورفي وتركل الشـراب وسيجارة تركل وانخرطا في الضحك من جديد وهما يناقشان ما سيحدث إذا ضاجعا الممرضة الصغيرة ذات الوحمة التي غادرت في منتصف الليل

« أخشى » قال تركل « ان تضربني بذلك الصليب العتيق ذي السلسلة ألا تصدق انها قد تفعل ؟ »

« أما أنا فأخشى » قال ماكمورفي « ان أوشك على بلوغ ذروة نشوتي حين تفلت ورائي لتقيس درجة حرارتي بميزان حرارة ! »

ينفجر الجميع ضاحكين توقف هاردنغ عن الضحك مراراً ليشارك في المزاح

« أو أسوأ ربما » قال هاردنغ « تستلقي تحت جسدك ونظرة اهتمام شديد على وجهها ، ثم تقول لك ، آه يا يسوع ، إسمع ـ وتخبرك بحالة نبضك ! »
« أوه كلا أوه يا إلهي »
« أو الاشدّ سوءاً ـ تستلقي تحتك وتكون قادرة على قياس نبضك وحرارتك معاً ـ دون أدوات ! »
« أوه يا إلهي كلا لن تفعل »

ضحكنا حتى انقلبنا على المقاعد والأرائك واغرورقت أعيننا بالدموع وغصت حلوقنا تعبت الفتاتان من الضحك وحاولتا مرتين أو ثلاثة أن تنهضا على أقدامهما « عليّ أن أرنَ شيئاً » قالت الكبيرة ومضت تتمايل وتضحك نحو المغاسل وأخطأت الباب فدخلت المهجع بينما أسكت واحدنا الآخر بوضع الاصبع على الفم ، ننتظر ، حتى أطلقت شهقة حين سمعت الكولونيل ماتيرسون يزمجر «الوسادة هي الحصان ! » وجاء مسرعاً وراءها فوق كرسيه ذي الدواليب

قاد سيفليت كرسي الكولونيل ليعيده إلى الجناح ودلّ الفتاة على المغاسل وأخبرها انها تستخدم عادة للذكور ، لكنه سيقف أمام الباب خلال بقائها في الداخل ليحرسها من الدخلاء الذين قد يقطعون خلوتها ، يدافع عنها ضد كل القادمين ، بعون الله شكرته بحركة مسرحية وصافحته وحيا كل منهما الآخر وبينما كانت في الداخل خرج الكولونيل من المهجع يدفع كرسيه فرفع سيفليت يده لمنعه من الدخول الى المغاسل حين خرجت الفتاة من الباب كان يحاول مقاومة اندفاع الكرسي بقدميه بينما تجمعنا حول الشجار نشجع هذا أو ذاك ساعدت الفتاة سيفليت في اعادة الكولونيل إلى فراشه ، ثم توغلا في القاعة ورقصا الفالس على أنغام موسيقى لا يستطيع سواهما سماعها

شرب هاردنغ وراقب وهزّ رأسه « هذه الأشياء لا تحدث انها خليط تضافر على صنعه كافكا ومارك توين ومارتيني »
استبدّ القلق بماكمورفي وتركل من أن تكون الأضواء أكثر مما ينبغي فتجولا في القاعة ليطفئا كل ما يتوهج ، حتى أضواء النواسات الخافتة ، وغرق المكان في ظلام حالك أحضر تركل مصابيح ضوء ولعبنا لعبة المطاردة واللمس بكراسي

ذات دواليب جلبناها من المستودع ، استمتعنا طويلاً باللعبة حتى سمعنا سيفليت يطلق صرخات متقطعة ، حين هرعنا اليه وجدناه مكوماً يرتعش قرب الفتاة الكبيرة ساندي كانت تفترش الأرض وتمسح تنورتها ، تنظر إلى سيفليت « لم أجرّب شيئاً كهذا من قبل » قالت بفزع مكتوم

ركع فريدريكسون قرب صديقه ووضع محفظة بين أسنانه لمنعه من مضغ لسانه ، وساعده في تزرير سرواله « هل أنت على ما يرام سييف ؟ سييف ؟ »

لم يفتح سيفليت عينيه ، لكنه رفع يداً مشلولة ونزع المحفظة من بين أسنانه ابتسم من خلال بصاقه « أنا بخير عالجوني وأعيدوا جسمي الى طبيعته »

« هل أنت حقاً بحاجة للعلاج يا سيف ؟ »

« العلاج ! »

« العلاج ! » قال فريدريكسون من فوق كتفه وهو لا يزال راكعاً

« العلاج » كرر هاردنغ وانفلت بمصباحه إلى غرفة العقاقير راقبته ساندي يذهب بعينين غائمتين كانت تجلس قرب سيفليت تداعب رأسه بحيرة

«لعلّي بحاجة إلى شيء أنا أيضاً » هتفت بهاردنغ « لم أجرّب شيئاً يشبه ما يحدث على الإطلاق »

سمعنا تهشم زجاج في نهاية القاعة وعاد هاردنغ بحفنة مضاعفة من الحبوب ونثرها فوق سيفليت والمرأة كأنه يهيل التراب على قبر رفع رأسه إلى السقف

« أيها الرب الرحيم ، اقبل هذين الخاطئين بين ذراعيك دع الباب مواربا لنلحق بهما ، لأنك تشهد النهاية ، النهاية الخيالية ، المطلقة ، التي لا رادّ لها لقد أدركت أخيراً ما يدور إنها اندفاعتنا الأخيرة نحن محكومون بالقدر فيما سيجيء من أزمنة سنتغوط على آخر نقاط شجاعتنا ونواصل مصيرنا المحتوم سنتلقى طلقة الإعدام جميعنا صباح اليوم سنتمزق أشلاءً متناثرة ستصفّنا الآنسة راتشدت على الجدار ، حيث سنواجه الشدق الفاغر لمدفع رشاش حشته بالمليتاون ! التورازين ! الليبريوم ! السيتاليزين ! وبتلويحة من سيفها ، بلوووي ! تهدّئنا جميعاً فننذثر خارج الوجود »

التصق بالجدار وخرّ على الأرض ، الحبوب تتساقط من يديه في كل اتجاه كالبقّ الأحمر والأخضر والبرتقالي « آمين » قال وأغمض عينيه

أنزلت الفتاة تنورتها على ساقيها المجهدين ونظرت إلى سيفليت المبتسم والمتكور تحت الأضواء بالقرب منها ، وقالت « لم أجرّب في حياتي شيئاً يشبه نصف ما أراه ! »

اذا كانت خطبة هاردنغ لم تفرض الصحو على البعض ، فهي على الأقل جعلتهم يدركون خطورة ما نفعله الليل يوشك على الرحيل ، ويجب التفكير بمجيء الاداريين عند الصباح ذكر بيللي بيبيت وفتاته أن الساعة تجاوزت الرابعة ، واذا كان كل شيء على ما يرام ، واذا سمحوا ، فهما يريدان من السيد تركل أن يفتح لهما غرفة « العزل » ذهبا تحت قوس من عوارض الضوء وذهبنا إلى الغرفة النهارية لنقرر ما سنفعله لتنظيف المكان كان تركل غائباً تماماً عن الوعي حين عاد من « العزل » وكان علينا دفعه الى الغرفة النهارية بالكرسي ذي الدواليب

وبينما كنت أتبعهم دار في خاطري على حين غرة أنني مخمور، مخمور بالفعل، أتـألق وأضحـك وأترنح للمرة الأولى منذ الجيش مخمور مع نصف دزينة من الرجال وزوج من الفتيات في جناح الممرضة الكبيرة بالذات ! أسكر وأجري وأضحك وأمرح وجهاً لوجه مع النساء في أعتى حصون « **الائتلاف** » ! عدت بتفكيري الى هذه الليلة، الى ما فعلنا من أشياء تكاد تستحيل على التصديق. تحتّم عليّ مواصلة تذكير نفسي بأن الأمر حدث حقاً ، أننا جعلناه يحدث لقد فتحنا نافذة وأدخلناه كما يدخل الهواء النقي ربما لم يكن « **الائتلاف** » شديد السطوة ما الذي سيوقفنا عن ممارسة الشيء ثانية ؟ الآن وقد رأينا قدرتنا ؟ أو يمنعنا من القيام بأشياء أخرى نريدها ؟ شعرت بارتياح عارم وأنا أفكر هكذا فأطلقت صرخة ووثبت على ماكمورفي والفتاة ساندي السائرين أمامي ، أحطتهما بذراعيّ وركضت بهما إلى الغرفة النهارية وهما يصيحان ويرفسان كالأطفال شعرت بسعادة عظيمة

استيقظ الكولونيل ماتيرسون من جديد ، صافي العينين ومشبعاً بالدروس ، أعاده سكانلون الى الفراش سيفليت ومارتيني وفريدريكسون قالوا أنهم

سيخلدون إلى النوم ماكموري وهاردنغ وأنا والفتاة والسيد تركل بقينا للقضاء على البقية الباقية من شراب السعال وتقرير ما ينبغي عمله للفوضى التي تعمّ الجناح أنا وهاردنغ تصرفنا وكأننا الوحيدان القلقان على ما جرى ؛ اكتفى ماكموري والفتاة الكبيرة بالجلوس واحتساء الشراب وتبادل الابتسام وممارسة ألعاب ظلال الأيدي المنعكسة على الجدار ، والسيد تركل واصل نعاسه بذل هاردنغ جهده لشدّ انتباههم

قال ، « كلكم تفشلون في فهم تعقيدات الموقف »

« براز » قال ماكموري

خبط هاردنغ على الطاولة « ماكموري ، تركل أنتما لا تدركان ما جرى هنا هذه الليلة في جناح الأمراض العقلية جناح الآنسة راتشدت ! العواقب ستكون وخيمة ! »

عض ماكموري اذن الفتاة أومأ تركل وفتح عيناً واحدة وقال « هذا صحيح سوف تحضر هي أيضاً في الصباح »

« لدي مع ذلك مخطط » قال هاردنغ نهض على قدميه قال ان ماكموري أبعد ما يكون عن معالجة الموقف بنفسه وعلى غيره أن يتصدى له وبينما كان يتحدث استقام في وقفته وأصبح أشد رصانة تكلم بصوت فيه اللهفة والتوسل ، وجسّدت يداه الكلمات ، كنت سعيداً لأنه يتصدى للموقف بنفسه

تلخصت خطته في تقييد تركل بشكل يوحي أن ماكموري هاجمه ، قيّده بأشرطة غطاء ممزّق ، انتزع مفاتيحه ، وبعد الحصول على المفاتيح كسر غرفة العقاقير ، بعثر الأدوية ، بعدها اشعل الجحيم في الملفات نكاية بالممرضة ـ وستصدق هذا الجزء ـ ثم فتح ستارة النافذة وهرب

قال ماكموري انها تبدو كحبكة مسلسلات التلفزيون وهي مضحكة لدرجة انها ستنجح وجهّ التحية لهاردنغ على ذكائه الخارق قال هاردنغ أن للخطة مزاياها ، فهي تجنّب الآخرين مواجهة المتاعب مع الممرضة ، تبقي تركل في عمله ، وتخرج ماكموري من الجناح قال ان احدى الفتاتين تستطيع تهريب ماكموري الى كندا أو تيجوانا أو حتى موفادا اذا أراد ، وسيكون في مأمن تام ؛ لن تلّح الشرطة كثيراً في تعقب هارب من مستشفى لأن تسعين في المائة منهم يعودون

بعد بضعة أيام ، مفلسين وسكارى يبحثون عن ذلك المأوى والفراش المجاني

تحدثنا عن الخطة بعض الوقت وأنهينا شراب السعال ثم أخلدنا الى الصمت

استرخى هاردنغ في جلسته

أبعد ماكمورفي ذراعه عن كتف الفتاة ونظر إليّ والى هاردنغ ، استغرقه التفكير ولاح على وجهه ذلك التعبير المتعب ، الغريب والغامض سأل ماذا عنا نحن ، لماذا لا نحضر ثيابنا ونقفز معه ؟

« لست مستعداً تماماً يا ماك » قال هاردنغ

« ما الذي يجعلك تظنني ، مستعداً إذن ؟ »

نظر اليه هاردنغ صامتاً لبعض الوقت ، ابتسم ، ثم قال « كلا ، أنت لا تفهم سأكون مستعداً في غضون أسابيع قليلة لكنني سأفعلها بطريقتي الخاصة ، لوحدي ، من ذلك الباب ، بكل التعقيدات التقليدية والأشرطة الحمراء أريد أن تحضر زوجتي في سيارة ما أريدهم أن يحسوا بقدرتي على الخروج هكذا »

أومأ ماكمورفي « وماذا عنك يا زعيم ؟ »

« أشعر أنني بخير . لكني لا أعرف حتى الآن إلى أين سأذهب يجب أن يبقى أحدنا هنا لبضعة أسابيع بعد ذهابك ليتأكد من عدم تراجع الأمور وتدهورها »

« وماذا عن بيبلي وسيفليت وفريدريكسون والبقية ؟ »

« لا أستطيع التحدث نيابة عنهم » قال هاردنغ ، « لديهم مشاكلهم هم أيضاً ، مثلنا جميعاً انهم لا يزالون مرضى بطرق متنوعة ، لكن الواضح هو التالي انهم الآن مرضى ليسوا أرانب يا ماك لعلهم سيصبحون رجالاً سويين يوماً ما لا أستطيع الجزم »

لا يزال ماكمورفي حبيس تفكير عميق ، يقلّب النظر في ظاهر يديه تطلع إلى هاردنغ

« هاردنغ ما الأمر ؟ ماذا يحدث ؟ »

« تقصد كل هذا ؟ »

أومأ ماكمورفي بالايجاب

هزّ هاردنغ رأسه «لا أظن أنني أستطيع اعطاءك الجواب أوه، قد أعطيك أسباباً فرويدية بعبارات خيالية، وستكون غامضة كالأشياء التي حدثت لكنك تريد الاسباب من اجل الاسباب، ولست قادراً على اعطائها ليس بالنيابة عن الآخرين في كل الأحوال بالنسبة لي؟ الذنب العار الرعب الاستصغار الذاتي اكتشفت في مرحلة مبكرة من عمري أنني - هل سأكون عادلاً اذا قلت - كنت مختلفاً هي كلمة أفضل لأنها أشد تعمياً من غيرها انغمست في بعض الممارسات التي يعتبرها المجتمع مخزية مرضت - ليس بسبب الممارسات لا أعتقد، بل بسبب الشعور بأن اصبع اتهام المجتمع المميت الطاغي كانت توجه إلي، والصوت المتعاظم للملايين التي تغنّي عار عار عار إنها طريقة المجتمع في معالجة من هو مختلف»

«أنا مختلف» قال ماكمورفي «لماذا لم يحدث لي ما حدث لك؟ لقد عرفت أناساً يتهمونني بهذا الشيء أو ذاك - لكنهم لم يدفعوني إلى الجنون»

«كلا أنت على حق ليس هذا ما دفعك إلى الجنون لم أكن أعطي سببي على أنه السبب الوحيد رغم أنني كنت أعتقد في وقت ما، منذ بعض السنوات، سنوات عنق السلحفاة، ان طهارة المجتمع هي القوة الوحيدة التي دفعتني على طريق الجنون، لكنك جعلتني أعيد تدقيق نظريتي هناك شيء آخر يدفع الناس، الناس الأقوياء مثلك، يا صديقي، على تلك الطريق»

«هكذا؟ لا أعترف أنني أسير على تلك الطريق، مع ذلك ما هو الشيء الآخر؟»

«انه نحن» مسح يده على نفسه في دائرة ناعمة بيضاء وكرّر «نحن» -

قال ماكمورفي بنصف استجابة «براز!» وابتسم ووقف سحب الفتاة لتقف على قدميها حملق في الساعة المعتمة «انها تقارب الخامسة» احتاج الى اغماضة عين قبل مشواري الطويل لن تحلّ مناوبة النهار قبل ساعتين، لندع بيللي وكاندي فترة أطول هناك سأستيقظ في السادسة ساندي يا حلوتي، قد تنشطنا ساعة نوم في المهجع ما قولك؟ أمامنا مشوار طويل غداً، سواء اتجهنا إلى كندا أو مكسيكو أو غيرها»

وقفنا أنا وهاردنغ وتركل أيضاً لا نزال نترنح كثيراً ، لا نزال تحت وخمة السكر لكن شعوراً حزيناً حانياً طغى على السكر قال تركل انه سيوقظ ماكمورفي والفتاة بعد ساعة

«أيقـظني أنا أيضاً » قال هاردنغ « أرغب في الوقوف عند النافذة فترة وبيدي رصاصة فضية وأسأل من عصب عين الانسان للمرة الأولى ؟ وأنت تغادر - »

« إلى الجحيم ! أذهب الى الفراش ، لا أريد رؤيتكم أمامي ثانية هل تفهمان ؟ »

ضحك هاردنغ وأومأ لكنه لم يقل شيئاً مدّ ماكمورفي يده فالتقطها هاردنغ وصافحها تراجع ماكمورفي كما ينسحب راعي البقر من الحانة وغمز

« تستطيع أن تصبح كبير الحمقى من جديد يا صاحبي ، ها هو ماك العجوز يفسح لك الطريق »

استدار نحوي وقطب حاجبيه « لا أدري ما ستكون يا زعيم يلوح عليك أنك ستصبح شيئاً كبيراً قد تفوز بدور الرجل الشرير في مسلسـلات التلفزيون على كل حال ، اعتن بنفسك »

صافحته وذهبنا جميعاً الى الجناح طلب ماكمورفي من تركل أن يمزّق بعض الأغطية ويعقدها بالعقد التي يفضلها قال تركل انه سيفعل دخلت فراشي في ضوء الجناح المعتم وسمعت ماكمورفي والفتاة يأويان الى الفراش كنت أشعر بالدفء والخدر سمعت تركل يفتح باب غرفة البياضات في القاعة ، يطلق تنهيدة طويلة ممضة ويغلق الباب وراءه اعتادت عيناي على الظلام ، وكان باستطاعتي رؤية ماكمورفي والفتاة يلتصقان ببعضهما بحثاً عن الدفء ، تتشابك اكتافهما ، كانا أقرب إلى طفلين صغيرين متعبين منهما إلى رجل بالغ وامرأة بالغة يلجأان إلى فراش واحد ليمارسا الحب

هكذا وجدهما الفتيان السود حين جاؤوا لإنارة اضواء الجناح في السادسة والنصف

لقد فكرت طويلاً ، طويلاً فيما حدث بعد ذلك ، وتوصلت الى الاقتناع بأن حدوثه كان محتماً وسيحدث عاجلاً أم آجلاً ، بهذه الطريقة أو تلك ، حتى لو أيقظ السيد تركل ماكمورفي والفتاتين وعادروا الجناح كما اقتضت الخطة . كانت الممرضة الكبيرة ستكتشف ما جرى ، ربما بمجرد النظر في وجه بيللي ، وكانت ستفعل ما فعلته سواء حضر ماكمورفي أم غاب وكان بيللي سيفعل ما فعله ، وسيسمع ماكمورفي بالخبر ويعود

كان لا بدّ له من العودة ، فهو لم يعد يحتمل التسكع خارج المستشفى يلعب البوكر في كارسون سيتي أو رينو أو أي مكان آخر ، ويدع الممرضة الكبيرة تحرّك نقلتها الأخيرة وتفوز بالدور ، تماماً كما يرفض انتصارها بحضوره ورغم أنفه ، كأنه وقّع عقداً بالمضي في اللعبة حتى النهاية وما من وسيلة لفسخ العقد

فور نهوضنا من الفراش وانتشارنا في الجناح ، انتشرت حكاية ليلة الأمس كانتشار النار في الهشيم وفي صورة الهمس المكتوم « ماذا أحضروا ؟ » سأل الغائبون « عاهرة ؟ في الجناح ؟ يا يسوع ! » ليس عاهرة فقط ، أجابهم الآخرون ، بل عاصفة سكر وعربدة أيضاً كان ماكمورفي يخطط لتهريبها قبل حضور فريق النهار لكنه لم يستيقظ « ما هذه الأسطورة التي تحدثوننا عنها ؟ » ليست أسطورة انها حقيقة بكل حرف فيها كنت أشهدها بنفسي

الذين شهدوا الليلة أخذوا يتحدثون عنها بمزيج من الفخر والغرابة ، كما يتحدث الناس عن مشاهدتهم فندقاً كبيراً يحترق أو سدّاً ضخماً ينهار ـ بجلال وهيبة لأن الخسائر لم تحسب بعد ولكن ، كلما تواترت الأقاويل كلما انخفض إجلال الرجال ، في كل مرّة تعثر فيها الممرضة الكبيرة وفتيانها السود المسعورون على شيء جديد ،زجاجة شراب السعال الفارغة أو أسطول الكراسي ذات الدواليب المركونة في نهاية القاعة كالمقاعد الفارغة في مدينة ملاهي ، يستعاد جزء اضافي

مفاجىء وواضح من مجريات الليلة يرويه الرجال المشاركون لغير المشاركين فتلوكه ألسنتهم ويزدردونه حتى آخر قطرة ساق الفتيان السود الجميع الى الغرفة النهارية « المزمنين » و « المبرحين » على حد سواء ، يتزاحمون ويتدافعون بالمناكب في فوضى هائجة غرق « البليدان » العجوزان في أغطيتهما ، يتخاطفان النظرات ويمضغان اللبان الجميع كانوا في ثياب النوم والشبشب باستثناء ماكمورفي والفتاة كانت بكامل ثيابها ما عدا حذاءها وجوربها المعلقين فوق كتفها أما هو فكان في سرواله القصير الأسود ذي الحيتان البيضاء كانا يجلسان متلاصقين على الأريكة ، أيديهما متشابكة ، أغفت الفتاة واتّكأ ماكمورفي عليها بابتسامة ناعسة راضية

قلق الهيبة كان يتراجع ، رغماً عنا ، أمام المرح والبهجة حين عثرت الممرضة على كومة الحبوب التي نثرها هاردنغ فوق سيفليت والفتاة أخمدنا انفاسنا وكتمنا ضحكاتنا ، وحين عثروا على السيد تركل في غرفة البياضات وجرّوه الى الخارج يرمش بعينيه ويجأر متعثراً بمئات الياردات من الأغطية الممزقة كالمومياء المخمور ، شقّت ضحكاتنا السماء اعتبرت الممرضة روح المرح التي تسيطر علينا مقياساً لابتسامتها الصغيرة الكامدة ؛ كل ضحكة تغص في حلقها حتى بدا أنها ستنفجر في أية لحظة كالكيس الفارغ

مدّد ماكمورفي ساقاً عارية على حافة الأريكة وسحب قبعته إلى الأسفل ليقي عينيه المحمرتين من أذى الضوء ، واصل لعق شفتيه بلسانه الذي لاح انه منقوع في شراب السعال ذاك بدا مريضاً ومرهقاً حتى الموت ، واصل التثاؤب وضغط راحتيه على صدغيه ، لكنه ظل محتفظاً بابتسامته رغم سوء حالته كما ضحك مرة أو مرتين على الاشياء التي تنبشها الممرضة

حين ذهبت الممرضة لتتصل بالمبنى الرئيسي وتنقل استقالة السيد تركل ، اغتنم تركل والفتاة ساندي الفرصة وفتحا ستارة النافذة من جديد ولوّحا بأيديهما للجميع وقفزا الى الأرض ، تعثّرا وانزلقا على العشب الندي المتألق بشمس الصباح

« النافذة لا تزال مفتوحة » خاطب هاردنغ ماكمورفي « هيا ، الحق بهما ! »

زمجر ماكمورفي وفتح عيناً دامية كالبيضة المفقوسة

« هل تسخر مني ؟ لا أستطيع حتى اخراج رأسي من النافذة ، فكيف بجسدي كله »

« يا صديقي ، لا أعتقد أنك تقدّر بصورة شاملة ـ »

« هاردنغ ، عليك وعلى كلماتك الكبيرة لعنة الله كل ما أقدره هذا الصباح أنني لا أزال نصف مخمور لا أزال مريضاً انها الحقيقة ، أظنك مثلي مخموراً أيضاً ماذا عنك يا زعيم ، لا تزال مخموراً ؟ » قلت أنني لا أحس بشيء في الأنف والخدين ، اذا اعتبر هذا دليلاً على شيء ما

أومأ ماكمورفي وأغلق عينيه ثانية ؛ عقد يديه على صدره وانزلق في كرسيه ، استقرّ ذقنه على قبة قميصه ، تلمظ بشفتيه « يا رجل الجميع لا يزالون مخمورين »

لم يفقد هاردنغ صبره أصرّ على أن أفضل ما يفعله ماكمورفي هو ارتداء ثيابه بسرعة ، بينما تنشغل ملاك الرحمة العجوز في الاتصال بالطبيب كي يرفع تقريراً بالشناعة التي رفعت النقاب عنها لكن ماكمورفي اعتبر أنه لا مبرر للتوتّر والهياج ، انه ليس في وضع أشد سوءاً من قبل ، أليس كذلك؟«لقد شربت أغلظ شرابهم » هكذا قال طوّح هاردنغ بيديه ومضى ، يتنبأ بالشؤم

لمح أحد الفتيان السود الستارة مفتوحة فأغلقها وذهب إلى مركز الممرضات بحثاً عن الدفتر الضخم ، عاد مهرولاً ليمرر اصبعه على الاسماء التي يقرأها بصوت عال ثم يتفقد الأشخاص ببصره الأسماء مسجلة حسب الترتيب الابجدي العكسي فلم يبلغ حرف الباء حتى النهاية تطلع من حوله في الغرفة النهارية ، دون رفع اصبعه عن الاسم الأخير في الدفتر

« بيبيت أين بيللي بيبيت ؟ » جحظت عيناه أظنّ أن بيللي غافله وفرّ من المهجع ولن يتمكن من استعادته أبداً « من رأى بيللي بيبيت يخرج ، أيها الأوغاد الملعونون ؟ »

تذكّر الناس مكان بيللي ، تعالت الهمسات والضحكات من جديد

عاد الفتى الاسود إلى المركز ، رأيناه يخبر الممرضة حطمت السماعة فوق جهاز الهاتف وخرجت من الباب والفتى الاسود يلهث وراءها ؛ انفلتت خصلة من شعرها أسفل قبعتها البيضاء وتدلت فوق وجهها كالرماد الرطب كان العرق يتجمع فوق حاجبيها وتحت أنفها طلبت منا أن نخبرها أين ذهب العاصي أجيبت بعاصفة من الضحكات ، نقلت نظراتها بين الرجال

« إذن ؟ انه لم يذهب ، أليس كذلك ؟ هاردنغ ، انه لا يزال هنا ، في الجناح ، أليس كذلك ؟ أخبرني سيفليت ، أخبرني ! »

عيناها كانتا تقذفان الكلمات ، تطعنان الرجال في وجوههم ، لكن الرجال أصبحوا محصّنين ضد سمومها واجهتها عيونهم ؛ سخرت تكشيراتهم من ابتساماتها الواثقة العتيقة التي فقدتها الآن

« واشنطون ! وورين ! تعالا معي لنفتش الغرف »

نهضنا وتبعناهم ، يفتحون المخبر ، غرفة الحوض ، مكتب الطبيب أخفى سكانلون ضحكته بيده المقعرة وهمس « هيه ، الن تكون نكتة مفاجئة لبيللي الماكر ؟ » وافقناه جميعاً « ولن يكون بيللي الوحيد الذي سيفاجأ بالنكتة حين أفكر بالأمر ، وتذكروا من معه »

وصلت الممرضة الى باب غرفة « العزل » في نهاية القاعة تدافعنا مقتربين لنرى كل شيء ، احتشدنا ورفعنا أنفسنا لنختلس نظرة من فوق الممرضة الكبيرة والصبيين الأسودين حين فتحت الباب ودفعته الظلام يلّف الغرفة التي لا نوافذ لها تعالى صرير وخشخشة من قلب الظلام دخلت الممرضة وسلطت الضوء على بيللي والفتاة وهما يرمشان فوق الحشية الملقاة على الأرض كبومتين في عش تجاهلت الممرضة عاصفة الضحك وراءها

« ويليام بيبيت ! » بذلت جهدها لتبدو هادئة وصارمة « ويليام بيبيت ! »

« صباح الخير يا آنسة راتشدت » قال بيللي دون الاكتراث حتى بتزرير منامته احتضن يد الفتاة بيده وابتسم « هذه كاندي »

انعقد لسان الممرضة في حنجرتها العجفاء « أوه يا بيللي ، بيللي ، بيللي أنا خجلة حقاً مما أرى »

لم يكن بيللي قد استفاق بشكل يدفعه للاستجابة إلى خجلها وتوبيخها كانت الفتاة تتملص تحت الأغطية بحثاً عن ثيابها الداخلية تتحرك ببطء ونشاط دافيء خدر بعد النوم كانت تتوقف بين الحين والآخر عن عبثها الحالم فتتطلع مبتسمة للشخصية الجليدية التي تواجهها معقودة الذراعين ، ثم تتحسس أزرار قميصها وتدّس يدها بحثاً عن ثيابها العالقة بين الحشية والأرض تحركا كقطّتين بدينتين مفعمتين بالحليب ، كسولتين تحت الشمس أظن انهما لا يزالان مخمورين أيضاً

« أوه يا بيللي » قالت الممرضة ، كأنها أصيبت بخيبة أمل عميقة وتكاد توشك على الانهيار والبكاء « امرأة كهذه رخيصة ! منحطة ! ملطخة ـ »
« مومس ؟ » اقترح هاردنغ « فاسقة ؟ » استدارت الممرضة وحاولت أن تسمّره بعينيها ، لكنه واصل الكلام « ليست فاسقة ؟ كلا ؟ » نكش رأسه مفكراً « ما رأيك في سالومي ؟ انها شريرة منحرفة علك تريدين كلمة « سيدة» حسناً ، احاول المساعدة فقط »

تأرجح رأسها نحو بيللي كان يجهد للوقوف على قدميه انقلب على ركبتيه رفع قفاه في الفضاء كبقرة تحاول النهوض ، ثم دفع جسمه معتمداً على يديه ، نهض على قدم واحدة ، القدم الأخرى ، استقام أخيراً بدا سعيداً بنجاحه ، كأنه لا يشعر بوجودنا واحتشادنا على الباب نتهكم عليه ونمازحه

أحاط اللغظ والضحك بالممرضة نقلت نظراتها من بيللي والفتاة إلى الشلّة وراءها الوجه البلاتسيكي المطلي بالمينا كان يتجعد أغلقت عينيها وتصلبت لتهدئة ثورتها وارتعاشها ، لتركز تفكيرها عرفت انها بلغت النهاية ، ها هي تحشر في زاوية الجدار حين انفتحت عيناها ثانية بدتا صغيرتين ساكنتين

« يقلقني يا بيللي » قالت ، وأحسست أنا بتغير صوتها ـ « كيف ستتلقى أمك المسكينة هذا النبأ »

حصلت على الاستجابة التي تريدها جفل بيللي ووضع يده فوق خده كأنه احترق بالأسيد

« كانت السيدة بيبيت فخورة دائماً بسلوكك أعرف ذلك سيصيبها النبأ

بخيبة فظيعة تعرف ما يحلّ بها حين تنزعج يا بيللي ، تعرف كم ستمرض هذه المخلوقة البائسة انها شديدة الحساسية خصوصاً فيما يتعلق بولدها كانت دائماً تذكِرك بفخر كانت دا ـ »

« كلا ! كلا ! » أخذ فمه يرتجف ارتعش رأسه متوسّلاً إليها « لا حا حا حاجة لاخبا اخبا اخبارها ! »

« بيللي بيللي بيللي » ردّدت بلوعة « أمك صديقة قديمة وعزيزية علي »

« كلا ! » صرخ خدش صوته المجروح الجدران البيضاء في غرفة « العزل » رفع ذقنه كأنه يضرع إلى قمر الضوء الملتصق بالسقف « كـ كـ كلا ! »

توقفنا عن الضحك راقبنا بيللي يتلوى على الأرض ، رأسه يتراجع ، ركبتاه تتقدمان حكّ يده أعلى وأسفل سرواله الأخضر كان رأسه يرتعش رعباً كطفل ينتظر الجلد حالما يقطع غصن من شجرة الصفصاف لمست الممرضة كتفه لتواسيه هزّته اللمسة كأنه تلقى لطمة

« بيللي ، لا أريدها أن تصدق شيئاً كهذا عنك ـ ولكن ماذا سأفكر أنا ؟ »

« لا لا لا تخـ تخـ تخبريها يا آنـ آنـ آنسة راتشدت لا تفـ تفـ تفعلي »

« بيللي ، أنا مضطرة لإخبارها اكره الاقتناع بأنك تصرفت بهذا الشكل ، ولكن ماذا سأقول حقاً ؟ أجدك منعزلاً فوق حشية ، مع هذا الصنف من النساء »

« كلا ! لم أفـ أفـ أفعل كنت ـ » ارتفعت يده إلى خده ثانية « هي التي دفعتني »

« بيللي ، لا يمكن لهذه الفتاة أن تكون قد سحبتك بالقوة إلى الغرفة » هزت رأسها « افهمـني أريد تصديق شيء آخر ، من اجل أمك المسنة »

هبطت يده عن خده بعد أن أعملت فيه شقوقاً حمراء « هي التي فـ فـ فعلتها » تطلع من حوله « وماكـ ماكـ ماكمورفي ! هو الذي

فعل ! وهاردنغ ! وبقية الرجـ الرجـ الرجال سخـ سخـ سخروا مني وأطلقوا عليّ التسميات ! »

أصبح وجهه مشدوداً إليها لم يتحول بنظره يمنة أو يسرة ، ظل نظره مستقيماً باتجاهها ، كأن ملامح وجهها كانت ضوءاً محورياً دائرياً ، دوامة مغناطيسية من الكريم الأبيض والأزرق والبرتقالي ابتلع ريقه وانتظر أن تقول شيئاً ، لكنها ظلّت صامتة ؛ مهارتها ، طاقتها الميكانيكية المذهلة سرت في عروقها كالطوفان تحلل الموقف وتعلمها أنها يجب أن تظل صامتة

« أجـ أجـ اجبروني ! أرجوك يا آنـ آنسة راتشدت أجـ أجـ أجـ »

تفقدت أجهزتها ، وخرّ وجه بيللي ساجداً ، يجد الراحة في النحيب وضعت يدها على عنقه وسحبت خده الى صدرها ، داعبت كتفه وهي تحدج شلّتنا بنظرة ازدراء بطيئة

« لا بأس يا بيللي ـ لا بأس لن يؤذيك أحد بعد الآن لا بأس سأشرح الأمر لأمّك »

واصلت التحديق بنا وهي تتكلم كان غريباً أن ينبثق ذلك الصوت الناعم ، الحنون والدافىء كالوسادة ، من وجه قاسٍ كالبورسلين

« حسناً يا بيللي تعال معي تستطيع الانتظار في مكتب الطبيب لا سبب يدعوك للجلوس في الغرفة النهارية مع أولئك الـ الأصدقاء »

قادته إلى المكتب ، داعبت رأسه المطرق وقالت « يا للفتى المسكين ، يا للفتى الصغير المسكين » ، بينما تفرقنا في القاعة بصمت لنعود ونجلس في الغرفة النهارية ونتحاشى النظر أو الكلام فيما بيننا كان ماكمورفي آخر من جلس

توقف «المزمنون» عن سياحتهم واستقروا في شقوقهم نظرت إلى ماكمورفي بزاوية عيني ، حاولت ألا أكون مكشوفاً وواضحاً أمامه كان يحتل كرسيه في الزاوية ، يستريح برهة في انتظار الجولة القادمة ـ في سلسلة طويلة من الجولات القادمة الشيء الذي يحاربه لا يمكن انزال هزيمة ماحقة به ينبغي كيل الضربات بصورة متواصلة حتى يبلغ المرء قمة الوهن فيحلّ آخر محله

جرى المزيد من الاتصالات الهاتفية في مركز الممرضات ، ظهر عدد من المسؤولين للاطلاع على الوقائع حين وصل الطبيب أخيراً نظر إليه هؤلاء كمن يتهمونه بالتخطيط لكل ما جرى ، أو الإيحاء به ، والتصريح بحدوثه امتقع وارتجف تحت سياط نظراتهم يلاحظ الناظر إليه أنه أخذ علماً بكل التفاصيل ، بكل ما جرى في جناحه ، لكن الممرضة الكبيرة أوجزت الأحداث من جديد ، بتفاصيل بطيئة مسموعة موجهة الينا أيضاً نسمعها بالطريقة الصحيحة هذه المرة ، بتهيّب ووجل ، دون همس أو ضحك يقطع حديثها أومأ الطبيب برأسه وعبث بنظارته ورمش بعينيه الدامعتين حتى ظننت أنه سيقذف بهما أنهت كلامها باخباره عن بيللي والتجربة المأساوية التي دفعنا الفتى المسكين إلى أتونها

« تركته في مكتبك بالنظر إلى حالته الراهنة ، اقترح أن تراه على الفور لقد مرّ بمحنة رهيبة ، ارتعد كلما فكرت بالدمار الذي لحق بالفتى البائس »

انتظرت حتى ارتعد الطبيب بدوره

« ينبغي أن تحاول حمله على الكلام كما أظن يحتاج الكثير من العطف انه في حالة مثيرة للشفقة »

أومأ الطبيب من جديد وحثّ خطاه إلى مكتبه راقبناه وهو يمضي

« اسمع يا ماك » قال سكانلون « لا تعتقد أننا خدعنا بهذه القذارة ، أليس كذلك ؟ الأمر سيىء ، لكننا نعرف من يقع عليه اللوم ـ نحن لا نلومك »

« كلا » قلت أنا « لا يلومك أحد منا » وتمنيت لو اقتلعت لساني حين لمحت نظرته إلي

أغلق عينيه واسترخى ، ينتظر كما يبدو نهض هاردنغ وسار نحوه وفتح فمه ليقول شيئاً حين ارتفع صراخ الطبيب من نهاية القاعة ليشقّ الرعب والفجيعة في الوجوه

« أيتها الممرضة ! » كان يعوي « أيها الرب الرحيم ، أيتها الممرضة! »

ركضت وركض الفتيان السود الثلاثة إلى أقصى القاعة حيث كان الطبيب يواصل عويله لكن أحداً من المرضى لم ينهض عرفنا أنه لن يكون بمقدورنا

القيام بأي شيء الآن سوى الجلوس والترقب وانتظار عودتها إلى الغرفة النهارية لتنبئنا بما كنا نعرف مسبقاً انه سيحدث لا محالة

اتجهت مباشرة نحو ماكمورفي

«قطع حلقومه» قالت له انتظرت أملت في شيء يقوله لم يتطلع اليها «فتح طاولة الطبيب ووجد بعض الأدوات وقطع حلقومه الفتى البائس الذي أسيء فهمه قد قتل نفسه إنه هناك الآن، في كرسي الطبيب، يسبح في دماء حلقومه المقطوع»

انتظرت ثانية لكنه لم يتطلع اليها

«شارلز شيزويك في البداية ثم بيللي بيبيت الآن! أرجو أن تكون قد شبعت شبعت من اللهو بالنفوس البشرية - المقامرة بالنفوس البشرية - كأنك حسبت نفسك الله!»

استدارت ودخلت مركز الممرضات وأغلقت الباب وراءها خلّفت صوتاً بارداً، قاتلاً، ثاقباً تردد صداه في أنابيب الضوء فوق رؤوسنا

راودتني في البداية فكرة محاولة ايقافه، إقناعه بالاكتفاء بما ربحه وترك الجولة الأخيرة لها، لكن فكرة أخرى أكبر طمست الأولى وأبعدتها نهائياً أدركت فجأة وبثقة كنقاء الكريستال أنني لن أقدر على ايقافه، كما لن نقدر جميعاً جدل هاردنغ، امساكي به من الخلف، دروس الكولونيل ماتيرسون أو نوبات سكانلون جميعنا لم نستطع النهوض لايقافه

لم نستطع ايقافه لأننا نحن الذين دفعناه ليفعل ما فعله لم تكن الممرضة هي التي تجبره، حاجتنا هي التي جعلته يرفع نفسه ببطء عن مقعده، يداه تغوصان في ذراعي الكرسي الجلدي، تدفعانه إلى الأعلى، ينهض ويقف كوحوش الزومبي في الأفلام المتحركة، يطيع الأوامر الصادرة اليه من أربعين سيّد نحن الذين دفعناه للاستمرار طوال أسابيع، أبقيناه واقفاً بعد فترة طويلة من كلل قدميه وساقيه، بعد أسابيع، من دفعه إلى الغمز والضحك والابتسام والقيام بدوره، بعد فترة طويلة من احتراق مرحه وفكاهته بين قطبين كهربائيين

جعلناه ينهض وينخس سرواله القصير كأنه صهوة جواد، ويدفع قبعته

السوداء الى الوراء باصبعه ، وحين خطا فوق الأرض كنا نسمع الحديد في نعليه العاريين يقدح الشرر عن الأرض

في النهاية فقط ـ بعد أن هشّم الباب الزجاجي ودخل ، يتأرجح رأسها الى الوراء ، الفزع يفسد أية نظرة أخرى تحاول استخدامها ، حين يمسك بها ويمزق رداءها من الأعلى إلى الاسفل ، تصرخ ثانية حين تقفز حلمتا ثدييها من صدرها وتندلقان الى الخارج ، الى الفضاء ، أشدّ ضخامة مما كان أحد يتخيلها ، دافئتين ، ورديتين في الضوء ـ في النهاية فقط ، بعد أن أدرك المسؤولون أن الفتيان الثلاثة لن يفعلوا شيئاً سوى الوقوف والتفرج وأنهم لن يهزموه دون مساعدة الاطباء والمشرفون والممرضات ينتزعون تلك الأصابع الحمراء التي أطبقت على لحم عنقها الأحمر وكأنها أصبحت جزءاً من عظام رقبتها ، يسحبونه الى الوراء بعيداً عنها بأنفاس ثقيلة مرتفعة ، عندها فقط لم يظهر أية علامة على أنه قد يكون شيئاً آخر سوى الرجل السليم العقل ، الصلب ، المتكالب ، الذي يؤدي واجباً ثقيلاً لا بد من أدائه أخيراً ، أراد أم كره

أطلق صرخة تداعى الى الوراء في النهاية ، وجهه يبدو لنا مقلوباً لثانية من الزمن ، قبل أن تخنقه وترميه أرضاً كومة من الأردية البيضاء ، سمح لنفسه بالصراخ

صوت الفزع الحيواني المحاصر والكراهية والاستسلام والتحدي ، صوت أشبه بآخر صوت يطلقه الزنجي أو الليث أو الوشق مطارداً وجريحاً وصريعاً حين تقترب منه الكلاب لتغرز فيه براثنها ، حين لا يكترث بشيء آخر عدا نفسه وموته

انتظرت اسبوعين آخرين لأرى ما سيحدث تغير كل شيء سيفليت وفريدريكسون وقّعا معاً بطاقة « رفض المشورة العلاجية » ، ولحق بهما ثلاثة « مبرحين » بعد يومين ، ونقل ستة آخرون الى جناح آخر جرى تحقيق مطول عن ملابسات الحفلة في الجناح وعن موت بيللي ، وأعلم الطبيب أن استقالته ستقبل ، وأعلمهم أنهم سيتعقبونه إلى آخر العالم حين يحتاجون اليه

غابت الممرضة الكبيرة أسبوعاً للعلاج ، فعينوا لنا الممرضة اليابانية الصغيرة من « المضطربين » لتدير الأمور في الجناح ؛ أعطى هذا فرصة للرجال كي يغيروا

الكثير من سياسة الجناح وحين عادت الممرضة الكبيرة كان هاردنغ قد استرد الحق في فتح غرفة الحوض وممارسة لعب الورق فيها ، محاولاً تقليد صوت ماكمورفي الرفيع الصاخب الشبيه بصوت دلّال المزاد كان يلعب حين سمعها تضرب القفل بمفتاحها

غادرنا غرفة الحوض وخرجنا الى القاعة لملاقاتها، لسؤالها عن ماكمورفي. تراجعت خطوتين عند اقترابنا منها ، وخطر لي أنها ستهرب كان وجهها مشوّهاً ومتورّماً وطافحاً باللون الأزرق احدى عينيها مغلقة تماماً ، ضماد ثقيل يلتف حول عنقها. رداء أبيض جميل. ابتسم بعض الرجال لمرآه، فبصرف النظر عن كونه أصغر وأضيق وأقلّ نشاء من ردائها القديم ، فهو لم يعد يخفي حقيقتها كامرأة

ابتسم هاردنغ وازداد اقتراباً منها ليسألها عن مصير ماك

تناولت مفكرة وقلم رصاص من جيب ردائها وكتبت « سوف يعود » ومررت المفكرة للجميع ارتعشت المفكرة في يدها « هل أنت واثقة ؟ » ، أراد هاردنغ أن يعرف بعد قراءته للعبارة سمعنا روايات مختلفة ، انه صرع مساعدين في « المضطربين » واستولى على مفاتيحهما وهرب، وانه أعيد الى مزرعة العمل ـ وأن الممرضة ، المسؤولة الآن حتى حضور طبيب جديد ، كانت تخضعه لعلاج خاص

« هل أنت واثقة كل الثقة ؟ » كرر هاردنغ

التقطت الممرضة مفكرتها من جديد كانت مفاصلها متصلبة ، ويداها الأشدّ بياضاً من قبل تخربش على الضمادة كما يفعل الغجر الذين يقرأون الكف « نعم ، يا سيد هاردنغ ما كنت لأقول ذلك لو لم أكن واثقة سوف يعود »

قرأ هاردنغ المفكرة ثم مزّقها ورمى نثارها على وجهها جفلت ورفعت يدها لحماية كدمات وجهها من الورق « أيتها السيدة ، أظن أنك محشوة بالكثير من براز الثور » قال هاردنغ حدقت به ، دنت يدها من المفكرة ثم استدارت ودخلت مركز الممرضات بعد أن دسّت المفكرة وقلم الرصاص في جيبها

« همم » قال هاردنغ « كان حوارنا مقطوعاً كما يبدو . ولكن ، حين يخبرك

أحدهم أنك محشو ببراز الثور أي نوع من الكتابة ستقابله به ؟ »

حاولت اعادة جناحها إلى سابق عهده ، ولكن صعب عليها أن تفلح في ذلك وحضور ماكمورفي يخيم على القاعات ويضحك بصخب في الاجتماعات ويغني في المغاسل لم تعد تستطيع الحكم بسلطتها القديمة بعد الآن ، ليس بكتابة الأشياء على قصاصات الورق كانت تفقد مرضاها واحداً بعد الآخر بعد أن طلب هاردنغ الخروج وجاءت زوجته لتأخذه ، وانتقل جورج إلى جناح آخر ، بقي ثلاثة من فريق رحلة الصيد أنا ومارتيني وسكانلون

لم أكن راغباً في المغادرة الآن ، فهي تبدو واثقة تماماً ، تنتظر جولة أخرى ، وأردت حضور تلك الجولة اذا حدثت وذات صباح ، بعد غياب ماكمورفي طيلة ثلاثة أسابيع ، نفّذت لعبتها الأخيرة

انفتح باب الجناح ، دفع الفتيان السود نقالة ذات لوحة سفلية كتب عليها بحروق سوداء « ماكمورفي ، راندل ب بعد العملية » وكتب تحتها بالحبر « استئصال في الدماغ »

دفعوا النقالة الى الغرفة النهارية وتركوها مركونة إلى الجدار ، قرب « البلداء » ، وقفنا عند أقدام النقالة ، نقرأ اللوحة ، ثم نظرنا إلى الرأس المسجى على الوسادة ، دوامة من الشعر الأحمر فوق وجه ببياض الحليب ما عدا الهالات الزرقاء العميقة الغور حول عينيه

بعد دقيقة من الصمت استدار سكانلون وبصق على الأرض « آه ه ه ، ماذا تقصد العاهرة العجوز من إبقائه بيننا ؟ بحق قذارة الأرض إنه ليس ماكمورفي »

« لا يشبهه في شيء » قال مارتيني

« كم تظننا أغبياء »

« لكنهم قاموا بعمل متقن مع ذلك»، قال مارتيني متفحصاً الرأس ومشيراً اليه خلال حديثه « الأنف المكسور ذاته والندبة المجنونة ـ حتى الحروق »

« بالتأكيد » زمجر سكانلون « ولكن يا للجحيم ! »

حشرت نفسي بين المرضى الآخرين قرب مارتيني « نعم ، يستطيعون صنع

الأنف المكسور والندوب » قلت للمرضى « لكنهم لا يستطيعون جعلها تنطق بالحياة لا شيء في الوجه مثله مثل واحد من تلك التماثيل المعروضة في المخازن صحيح يا سكانلون ؟ »

بصق سكانلون مرة أخرى « صحيح تماماً الشيء كله فارغ ، يراه كل من يبصر »

« أنظروا هنا ! » هتف أحد المرضى رافعاً الغطاء ، « الوشم »

« بالطبع يستطيعون صنع الوشم ولكن ماذا عن الذراع هه ؟ الذراعين ؟ لم يستطيعوا تقليدهما ذراعاه ضخمان ! »

وطوال فترة ما بعد الظهر تهكمنا أنا ومارتيني على ما أسماه سكانلون النموذج المزيف الهزيل المسجى على النقالة ، ولكن كلما مرّت الساعات وخفّ الورم حول العينين رأيت الرجال يتكاثرون ليلقوا نظرة على الجسد راقبتهم يذهبون متظاهرين باحضار مجلة أو شرب الماء ، يختلسون نظرة إلى الوجه راقبتهم وحاولت أن أتخيل ما كان سيفعله كنت متأكداً من شيء واحد لن يدع شيئاً كهذا يجثم في الغرفة النهارية يحمل اسمه طوال عشرين أو ثلاثين سنة لكي تستخدمه الممرضة الكبيرة نموذجاً لما يمكن أن يكون عليه مصيرك اذا سخرت من النظام كنت متأكداً من ذلك

في تلك الليلة ، انتظرت حتى أفادتني الأصوات في الجناح أن الجميع نائمون ، وحتى انتهى الفتيان السود من جولاتهم أدرت رأسي فوق الوسائد لأنظر إلى السرير المجاور لي كنت أصغي لأنفاسه خلال ساعات ، منذ أن جرّوا النقالة ووضعوا الممدّد على الفراش ، أصغي الى رئتيه تتعثران ، ثم تتوقفان ثم تبدآن من جديد ، آملاً وأنا أصغي أن تتوقفا نهائياً لكني لم التفت بعد

هناك قمر بارد على النافذة ، يسكب الضوء في الجناح كحليب القشدة جلست في فراشي وسقط ظلي على الجسد ، كأنه يشطره نصفين بين الأرداف والأكتاف ، تاركاً فراغاً أسود فقط تراجع الورم في العينين فانفتحتا ؛ حدقتا في ضوء القمر الساطع ، انفتحتا دون أحلام ، تألقتا لبقائهما مفتوحتين دون اغماض حتى أصبحتا صمامين كهربائيين محترقين في لوحات كهربائية تحركت لالتقاط

الوسادة ، انشدّت العينان إلى الحركة وتابعتاني وأنا أقف وأعبر الخطوات القليلة الفاصلة بين السريرين

كان الجسد الصلب الضخم يتمسك بالحياة حتى آخر قطرة صارع زمناً طويلاً ضد استلالها ، رفس وتملص وقاوم حتى اضطررت إلى التمدد فوقه بكامل طولي وطوقت الركبتين المتدافعتين بركبتي وأنا أدفن الوسادة في الوجه جثمت على أعلى الجسد فترة بدت أياماً طويلة حتى توقفت المقاومة حتى سكن برهة ثم انتفض مرة واحدة وعاد إلى سكونه انقلبت عنه رفعت الوسادة ، ورأيت في ضوء القمر أن التعبير لم يتغير ، بقيت النظرة الفارغة الميتة حتى النفس الأخير رغم الخنق اسبلت الجفنين وأمسكت بهما حتى ثبتا ثم عدت إلى فراشي

استلقيت بعض الوقت ، أغطي وجهي بالأغطية أحس بالهدوء من حولي ، حتى ترامى هسيس سكانلون من فراشه

« هوّن عليك يا زعيم هوّن عليك لا بأس »

« اصمت ! » همست « عد إلى النوم »

ساد الهدوء قليلاً ، ثم سمعت هسيسه يسألني « هل انتهى ؟ »

أجبت بالإيجاب

«يا للمسيح، سوف تعرف هي هل تدرك انها ستعرف ؟ حقاً ، لن يستطيع أحد اثبات أي شيء ، ليس غريباً أن يموت أحدهم بعد العملية ، يحدث هذا دائماً أما هي سوف تعرف »

لم أقل شيئاً

« لو كنت في محلك يا زعيم فسأنجو بجلدي من هنا نعم يا سيدي سأقول لك شيئاً غادر هذا المكان ، وسأقول أنني رأيته يتجول بعد ذهابك وأغطّيك بهذه الطريقة انها أفضل فكرة ألا توافق ؟ »

«أوه، نعم. هكذا ببساطة. أطلب منهم أن يفتحوا لي الباب كي أخرج »

« كلا لقد علّمك كيف تفعلها ذات مرة اذا كنت تتذكر في الأسبوع الأول هل تتذكر ؟ »

لم اجبه، ولم يضف هو شيئاً، عاد الهدوء يلّف الجناح. استلقيت دقائق قليلة ثم نهضت وشرعت في ارتداء ثيابي حين فرغت من ارتدائها فتحت خزانة ماكمورفي الصغيرة وأخذت قبعته وجرّبتها كانت صغيرة جداً، واحسست بالخجل فجأة لأنني حاولت ارتداءها تركتها فوق سرير سكانلون وخرجت من الجناح قال «هوّن عليك يا صاحبي» وأنا أخرج

كان القمر المتسلل من ستائر نوافذ غرفة الحوض يضيء الشكل الثقيل المحدودب للوح التحكم، يومض كروم دعائم التثبيت والمعايير الزجاجية حتى أكاد أسمع تكتكتها سحبت نفساً عميقاً وانحنيت وأمسكت بالرفاعتين باعدت ما بين قدمي وسمعت الاسلاك والتوصيلات تنخلع عن الأرض رفعته الى ركبتي حتى تمكنت من إحاطته بذارعي وحشر يدي تحته كان معدن الكروم بارداً فوق عنقي وجانب رأسي أدرت ظهري للستارة المعدنية ثم التفتُّ وتركت قوة الدفع تحمل اللوح ليرتطم بالستارة والنافذة، مخلّفاً صوت انهيار عات تناثر الزجاج إلى الخارج في ضوء القمر كالماء البارد البراق الذي يعمّد الأرض النائمة لهثت قليلاً وفكرت في العودة إلى الجناح لاحضار سكانلون وبعض الآخرين، لكنني عندها سمعت صرير أحذية الفتيان السود الراكضين في القاعة فوضعت يدي على الافريز ووثبت وراء اللوح، الى ضوء القمر

ركضت عبر الباحة في الاتجاه الذي أخذه الكلب، ثم في اتجاه الطريق العام. أذكر أنني كنت أركض بخطوات واسعة، أطوف وأخطو مسافات بعيدة قبل أن تلامس قدمي الأرض أحسست أنني أطير. أطير حرّاً لن يعبأ أحد بملاحقة هارب من مستشفى مجانين، أعرف هذا، ويستطيع سكانلون تدبّر أمر الاسئلة الخاصة بالرجل الميت ـ لا حاجة للركض هكذا لكنني لم أتوقف ركضت أميالاً قبل أن أتوقف وأصعد الضفة الى الطريق العام

صعدت الى شاحنة أغنام يقودها فتى مكسيكي ذاهب إلى الشمال، واختلقت حكاية متقنة مفادها انني مصارع هندي محترف حاولت النقابة حبسي في مستشفى أمراض عقلية، فتوقف فجأة وأعطاني سترة جلدية لأخفي ثيابي الخضراء وأقرضني عشرة دولارات لأتدبر طعامي خلال تسلّلي الى كندا أخذت عنوانه قبل رحيله وأخبرته أنني سأرسل له النقود حالما استقرّ في مكان ما

قد أذهب إلى كندا حقاً ، ولكني سأعرج على كولومبيا في طريقي أريد التجوال في بورتلاند ونهر هود ودالاس لأرى ان كان البعض ممن عرفتهم في الماضي لا يزالون في القرية ولم تفقدهم الخمرة انفسهم أريد معرفة ما كانوا يفعلونه منذ أن حاولت الحكومة شراء حقهم في البقاء هنوداً لقد سمعت أن عدداً من أبناء القبيلة عادوا إلى بناء أكواخهم الخشبية وسقالاتهم فوق سدّ المليون دولار ، وهم يصطادون أسماك السلمون بالرماح في أقنية تصريف المياه سأدفع الكثير لرؤ ية المشهد ولكني خصوصاً أريد رؤ ية الريف المحيط بمجرى النهر مرة أخرى ، لكي أعيد بعض اجزائه من جديد إلى ذاكرتي

لقد غبت زمناً طويلاً

ذاكرة الشعوب

المحـــرر: اليـــاس خـوري

صدر منها

(١) فرديناند أويونو (الكاميرون) « الصبي الخادم »

(٢) كين كيسي (الولايات المتحدة) :« طيران فوق عش الوقواق »

(٣) جاك رومان (هاييتي) « سادة الندى »

(٤) ب ترافن (المكسيك) « انتفاضة المشانق »

(٥) غينوا أتشيبي (نيجيريا) « الاشياء تتداعى »

رواية من أميركا

طيران فوق عش الوقواق

أمام رواية كين كيسي : « طيران فوق عش الوقواق » ، يشعر القارئ بالحيرة والخوف . الحيرة : أمام هذا التوازي المدهش بين مستشفى الأمراض العقلية والمجتمع ، والخوف : من هذا الخيالي الذي هو أكثر واقعية من الواقعي . وبين الحيرة والخوف ، يسرد الزعيم برومدن ، بلغته الشيزوفرينية التي يلفها ضباب الرؤية الممزقة ، مأساة ماكمورفي والآخرين ، مأساة المجتمع الاميركي ، من خلال عينة صغيرة ، تجتمع في مستشفى الأمراض العقلية ، ويقدم لوحة متكاملة عن مأساة الانسان المعاصر داخل كابوس القيم الرأسمالية .

رواية كيسي ـ الذي وُلد في كولورادو عام ١٩٣٥ وعاش معظم حياته في غربي الولايات المتحدة ، هي جزء من صيحة الستينات ، تلك الصيحة التي ارتفعت مع الاحتمالات الكبرى ، التي فجرها سلاح النقد في وجه السلاح المرفوع في فيتنام . وهي بهذا المعنى تقدم شهادة عن الأدب الذي يرى ويشهد .

« طيران فوق عش الوقواق » ، قد تكون احدى أكثر الروايات قدرة على التعبير في زمنها . انها رؤية فريدة ومدهشة لعالم يسيطر عليه القمع ، ولاجساد تقاوم وتتشبث بما بقي لها من الحياة .

مؤسسة الابحاث العربية ش.م.م.
ص.ب. ٥٠٥٧ ـ ١١٣ (الشوران) بيروت ـ لبنان